



الجمعية العلمية لكليات الآداب



اتحاد الجامعات العربية

مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب

مجلة علمية نصف سنوية محكمة

تصدر عن الجمعية العلمية لكليات الآداب في الجامعات الأعضاء
في اتحاد الجامعات العربية

© جميع الحقوق محفوظة للجمعية العلمية لكليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013

لا يجوز نشر أي جزء من هذه المجلة أو اقتباسه دون الحصول على
موافقة خطية مسبقة من رئيس التحرير

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة التحرير أو سياسة الجمعية العلمية لكليات الآداب

تنفيذ وإخراج: مجدي الشناق

هيئة التحرير

رئيس التحرير

محمود وردات، الأمين العام للجمعية العلمية لكليات الآداب، عميد كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

الأعضاء

- أ.د. عباطة ظاهر، عميد كلية الآداب، الجامعة الأردنية.
- أ.د. محمد ربيع، عميد كلية الآداب، جامعة جرش.
- أ.د. محمد العناني، عميد كلية الآداب، جامعة البترا.
- أ.د. عبد الباسط الزيود، عميد كلية الآداب، الجامعة الهاشمية.
- أ.د. عبد الحميد غنيم، عميد كلية الآداب، جامعة الزرقاء.
- أ.د. غسان عبد الخالق، عميد كلية الآداب، جامعة فيلادلفيا.
- أ.د. محمد الدروبي، عميد كلية الآداب، جامعة آل البيت.
- أ.د. غالب الشاويش، عميد كلية الآداب، جامعة الحسين بن طلال.

اللجنة الاستشارية

- أ.د. ميمونه خليفة الصباح، جامعة الكويت، الكويت.
- أ.د. رامي محمد الله، جامعة النجاح، فلسطين.
- أ.د. عبد الله النبهان، جامعة البعث، سوريا.
- أ.د. يوسف عبد الله، جامعة صنعاء، اليمن.
- أ.د. علي فهمي، رئيس مجمع اللغة العربية، ليبيا.
- أ.د. خليل جهجه، الجامعة اللبنانية، لبنان.
- أ.د. فؤاد شهاب، البحرين.
- أ.د. محمد الهدلق، السعودية.
- أ.د. عادل الطويس، الأردن.
- أ.د. حسنين ربيع، قطر.
- أ.د. عز الدين الأمين عبد الرحمن، السودان.
- أ.د. عبد الحميد جكون، الجزائر.
- أ.د. سامي عبد الحميد محمود، الشارقة.
- أ.د. موسى جواد الموسوي، جامعة بغداد، العراق.

- ترسل البحوث على العنوان التالي: -

الأستاذ الدكتور أمين عام الجمعية العلمية لكليات الآداب،

رئيس تحرير مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب

عميد كلية الآداب

كلية الآداب - جامعة اليرموك، اربد، الأردن

هاتف: 00962 2 7211111 فرعي 2900 أو 3555

فاكس: 00962 2 7211137

البريد الإلكتروني: e-mail: saufa@yu.edu.jo

e-mail: artsarabuni@gmail.com

الموقع الإلكتروني: http://saufa.yu.edu.jo website:

التوثيق

ترقم الإحالات في متن البحث بطريقة متسلسلة، بين قوسين صغيرين^(١).

وتكون هوامش الإحالة إلى المصادر والمراجع في نهاية البحث على النحو التالي، في حالة أن يكون المصدر أو المرجع كتاباً:

إسم المؤلف كاملاً: المصدر أو المرجع، عدد الأجزاء، مكان النشر، الناشر، السنة، الصفحة.

ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، مصر، دار المعارف، 1966، ص24.

وفي حال الرجوع إلى الدوريات أو المجلات تكون الإحالة إليها على النحو التالي:

إسم المؤلف كاملاً: عنوان البحث، إسم الدورية أو المجلة، المجلد، العدد، السنة، الصفحة.

مثال:

سعيدان، أحمد سليم: "حول تعريب العلوم"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد الأول، العدد الثاني، تموز 1978، ص101.

وتثبت في آخر البحث قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في بحثه حسب التسلسل الألف باني لاسم المؤلف العائلي، بحيث تذكر المراجع العربية أولاً ثم تليها المراجع الأجنبية.

الاشتراك في المجلة

الاشتراك السنوي للأفراد: ثلاثة دنانير داخل الأردن وسبعة دولارات أمريكية أو ما يعادلها خارج الأردن وللمؤسسات خمسة دنانير داخل الأردن وعشرة دولارات أمريكية أو ما يعادلها خارج الأردن.

مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب

مجلة علمية نصف سنوية محكمة

القواعد الناظمة للمجلة

- مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب مجلة علمية نصف سنوية محكمة معتمدة تصدر عن الجمعية العلمية لكليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية.
- يقدم البحث للنشر باللغة العربية مع ملخص له باللغة الانجليزية، ويجوز أن يقدم بإحدى اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية أو أية لغة أجنبية أخرى تتيسر طباعتها بموافقة هيئة التحرير مع تقديم ملخص له باللغة العربية.
- تنشر المجلة البحوث العلمية التي تتوافر فيها الأصالة والمنهجية العلمية والإحاطة والاستقصاء، والتي تراعى فيها الإشارات الدقيقة إلى المصادر والمراجع، ولم تقدم للنشر في أي مكان آخر، ويجوز نشر نقد متخصص أو مراجعة لأحد المؤلفات العلمية الصادرة في الوطن العربي أو خارجه بالإضافة لنشر تقارير عن الندوات والمؤتمرات التخصصية العربية والعالمية، وتعد البحوث التي تقبل للنشر بحثاً معتمدة لأغراض الترقية.
- تعنى المجلة بنشر البحوث العلمية المقدمة إليها في مجالات الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية والخدمة الاجتماعية والصحافة والإعلام.
- أن يكون البحث مرقوناً على الحاسوب وبمسافة مزدوجة بين السطور، وتقدم أربع نسخ منه مع قرص من قياس 3.5 انش، متوافق مع أنظمة (Ms Word) IBM.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث بما فيها الأشكال والرسوم والجداول والملاحق على ثلاثين صفحة.
- تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة حال قبولها مبدئياً على محكمين اثنين في الأقل من ذوي الاختصاص، يتم اختيارهما بسرية مطلقة من رئيس التحرير.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في الطلب من المؤلف أن يحذف أو يعيد صياغة بحثه أو أي جزء منه بما يتناسب وسياستها في النشر.
- تنتقل حقوق طبع البحث ونشره إلى المجلة عند إخطار صاحب البحث بقبول بحثه للنشر .
- لا تدفع المجلة مكافأة عن البحوث التي تنشر فيها.
- تهدي المجلة لمؤلف البحث بعد نشره نسخة العدد الذي نشر فيه.

محتويات العدد

البحوث باللغة العربية	
709	* انجراف التربة في حوض وادي الحسا الأوسط/ الطفيلة علي الشباطات وموسى قوقزة
745	* توقعات تجميع مياه الهطول من أسطح مساكن المراكز الحضرية في الأردن واحتمالات تبدلها سامر النوايسة و عبدالله الطرزي
781	* خطاب الاقتباس الحضاري في الحضارة العربية الإسلامية - مقارنة أولية - مضر عدنان طلفاح
805	* السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين في ضوء تغير موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة وصفي محمد عقيل وخالد مقضي الدباس
833	* مجلس الأعيان الأردني ومجلس الشورى البحريني -دراسة مقارنة- خالد عيسى العدوان ورمزي محمود هيلات
883	* اللغة والوجود في التصور العلائي، اللزوميات أنموذجاً محمود سليم هياجنة
905	* مأساة "رستم وسهراب"/ دراسة تتبعية وصفية عارف أحمد الزغول
935	* جماليات المكان الأردني في ديوان "سماة أخرى" لمحمود الشلبي تهاني عبد الفتاح شاكر
973	* لغة اليهود في شمال الجزيرة العربية محمد القرعة ومحمود العمرات وموسى الزعبي
999	* الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان في ضوء التغيرات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة وصفي محمد عقيل
1037	* دراسة وتحليل وترجمة قصة (ثلاث قطرات من الدم) للكاتب الإيراني (صادق هدايت) نور القضاة وبدر عليوه
1061	* أيديولوجيا الدور الجندري في المجتمع الأردني دراسة سوسيولوجية لقياس المسافة الجندرية بين جيلي الآباء والأبناء محمد عبد الكريم الحوراني

انجراف التربة في حوض وادي الحسا الأوسط / الطفيلة

علي الشباطات * وموسى قوقزة **

ملخص

هذه الدراسة هي محاولة لدراسة أهم العوامل المؤثرة على انجراف التربة الناجمة عن الأمطار، والجريان السطحي، في حوض وادي الحسا الأوسط (سد التنور) لعام 2008، وعام 2009، لإنجاز هذا الهدف تم إنجاز سبعة مواقع لقياس كمية انجراف التربة، وأخذ عينات من تلك المواقع للتربة من أجل تحليلها فيزيائياً، وكيميائياً، لتحديد أهم العوامل التي تؤثر في انجراف التربة، في هذه المناطق الجافة وشبه الجافة.

ووفقاً للقياسات الميدانية لكميات تناثر التربة، وكميات التربة المنقولة بواسطة الجريان السطحي، تبين أن كمية التربة المتناثرة بالتطاير بلغت 0.53 طناً / دونم/ سنة، وهي أقل من كمية التربة المنقولة بواسطة المياه السطحية والتي بلغت 0.628 طناً / دونم/ سنة، وتعزى أسباب ذلك؛ لارتفاع معدلات درجات الانحدار، وهشاشة التربة، وكثرة الانزلاقات الأرضية، كما أظهر التحليل الإحصائي (Factor Analysis) أن المتغيرات التي ارتبطت بانجراف التربة كعامل مستقل هي أربعة متغيرات: كيميائية التربة، واللدونة، والعامل المورفولوجي، وعامل نسيج التربة.

الكلمات الدالة: انجراف التربة، تناثر التربة، انجراف التربة السطحي، فنان التطاير، التحليل العاملي.

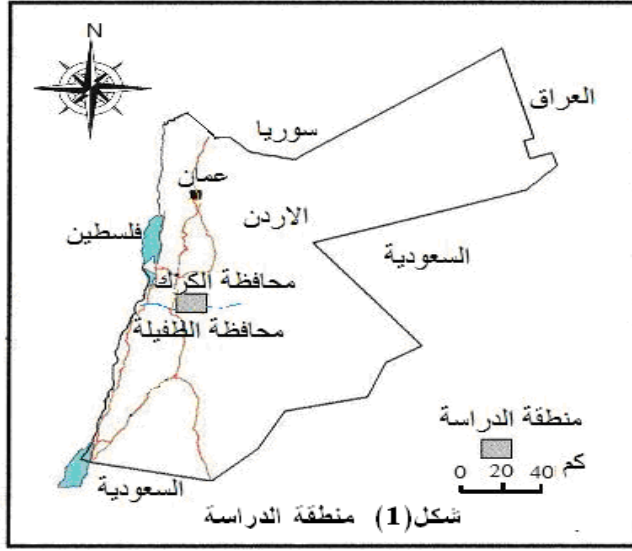
المقدمة

يقع حوض وادي الحسا الأوسط في الجهة الجنوبية الغربية للمملكة الأردنية الهاشمية، ما بين محافظتي الكرك والطفيلة شكل (1)، وهو بهذا الموقع ينحصر فلكياً ما بين درجتي عرض 30° 42' 54" و 26° 1' 31" شمالاً، وخطي طول 37° 35' 33" و 29° 53' 35" شرقاً، وهو بهذا الموقع الفلكي يقع ضمن منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط الجافة، التي لا تزيد معدلات أمطارها عن 250 ملم/ السنة، وفقاً لقياس كمية الأمطار في محطة الطفيلة، التي تقع على الطرف الجنوبي لمنطقة الدراسة، وترتفع نحو 1255 م عن مستوى سطح البحر⁽¹⁾.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الطفيلة التقنية، الطفيلة، الأردن.

** قسم هندسة الموارد الطبيعية والكيميائية، جامعة الطفيلة التقنية، الطفيلة، الأردن.



وبما أن الأردن بشكل عام، ومنطقة الدراسة بشكل خاص تقع ضمن مناطق حوض البحر المتوسط الجافة وشبه الجافة، فإنها تعاني بشكل واضح من تدهور التربة، كما أكدت جميع الدراسات التي أجريت على بقاع مختلفة من الأراضي الأردنية، وبما أن التربة تعد من أهم العناصر المؤثرة في ديمومة الحياة الزراعية والرعية، فإن تدهورها الكمي والنوعي يعد من أكثر المشكلات البيئية التي تحتاج إلى تقييم مستمر من أجل التنمية المستدامة، ليس فقط على مستوى الأردن، بل على مستوى العالم أجمع.

وقد أكد لافلن وروز (Laflen and Roose) على أن تدهور التربة بواسطة الانجراف المائي من أكثر المشكلات البيئية التي تهدد نوعية التربة، ومصادر المياه المتاحة، والأراضي الزراعية في مختلف الوحدات الجيومورفولوجية والأقاليم المناخية المختلفة، وهذه العوامل الثلاثة (التربة، والماء، والأرض) تشكل المثلث الذي تعتمد عليه الحياة البشرية في استمرارها في العيش⁽²⁾. فانجراف التربة هو العنصر الأكثر أهمية الذي يربط أضلاع مثلث الحياة بعضها ببعض، فانجراف التربة يتأثر بكميات الهطول، وتذبذبها، ومدتها، وشدتها، وتوزيعها، كما يؤثر انجراف التربة على خصائص الطبقة السطحية من التربة مثل: قوامها، ونسيجها، وسماكتها، وخصوبتها، وعلى عمليات الحصاد المائي، وسعة السدود التخزينية من خلال الناتج الرسوبي.

فانجراف التربة بواسطة المياه كما عرفت الكثير من الأدبيات "يعني انفصال جزيئات التربة عن كتلة التربة بواسطة قطرات المطر، ونقلها بواسطة الجريان السطحي والبيني من فوق المنحدرات القصيرة، وترسيبها في مكان آخر⁽³⁾، إما من خلال التعرية الغطائية (Sheet

(erosion، أو من خلال التعرية الخطية: الجدولة والمسيلات المائية (Rill And Gully erosion)، أو من كليهما معا، والانجراف الصفيحي⁽⁴⁾).

لذلك، يعد انجراف التربة من أهم العمليات الديناميكية التي تؤثر على سماكة التربة وخصوبتها، وفي هذا البحث سيتم التركيز على انجراف التربة، ونقلها، وترسيبها بواسطة الأمطار من خلال تقسيم هذا البحث الى جزئين: الجزء الأول يتناول انفصال جزيئات التربة عن كتلتها وتطايرها بواسطة قطرات المطر، والجزء الثاني سيتناول نقل جزيئات التربة التي انفصلت وتناثرت بواسطة القنوات المائية التي تنقل الى أماكن الترسيب، وتحديد أهم العوامل التي تؤثر على كميات الانجراف من خلال استخدام مجموعة من المتغيرات وتحليلها إحصائياً، ومن ثم استخلاص النتائج التي قد تنجم عن هذه العمليات، وأثرها على استعمالات الأراضي الزراعية، والمناطق الرعوية، ومقدار كمية التربة التي ترسبت في سد التنور، وهل هذه الكمية هي ضمن الكمية التي كانت متوقعة عند بناء السد أم لا؟

أهمية الدراسة ومبرراتها

إن تدهور التربة الذي تسببه عمليات الانجراف في الأردن، وما ينجم عنها من إرسابات في القنوات المائية والسدود التخزينية يكلف خزينة المملكة الأردنية الهاشمية، آلاف الدنانير⁽⁵⁾ التي تنفق على استصلاح الأراضي الزراعية وزيادة خصوبتها، وإعادة اصلاح البنية التحتية الناجمة عن عمليات إنجراف التربة من جهة، وزيادة كمية الأسمدة الكيماوية، والمبيدات الحشرية التي تستعمل في عمليات التسميد والرش ونقلها مع التربة وترسيبها في المياه المخزنة في السدود الأردنية، ومنها سد التنور.

كما أن عدم وجود دراسات ميدانية لقياس معدلات انجراف التربة في منطقة الدراسة، سواء كانت هذه الانجرافات صفائحية أو قنوية، أو حتى انجرافات بالتناثر، باستثناء الدراسة الهندسية الوحيدة التي قامت بها وزارة المياه والري وسلطة وادي الأردن بالتعاون مع شركة Howard Humphreys & Partners Ltd And Consulting Engineering Center لتصميم وإنشاء سد التنور، أعطت مبرراً آخرًا لهذه الدراسة.

لذلك، تهدف هذه الدراسة الى تقييم كمي لمعدلات انجراف التربة السنوي في حوض وادي الحسا الأوسط، وتحديد أهم العوامل التي تؤثر في كمية انجراف التربة، كما تهدف هذه الدراسة إلى تقييم قابلية التربة على الانجراف بمختلف اشكاله، سواء أكان الانجراف صفيحياً أم قنوياً،

(* لقد قدرَ (Stocking 1988 a) بان تعرض هكتار واحد من التربة للانجراف يكلف ما بين 20-50 \$ في السنة بسبب فقدان التربة السطحية للفسفور، والكربون العضوي والنيتروجين.

وتحديد درجات هذا الانجراف (شديد، متوسط، خفيف)، وبالتالي تحديد كمية الإرسابات وحجمها التي تنقل الى سد التنور وتؤثر على سعته التخزينية التي لا تزيد عن 17 مليون متر مكعب شكل (2)، كما تهدف هذه الدراسة إلى تفعيل اساليب الدراسات التطبيقية في إدارة الأحواض التصريفية للأنهار التي تغذي السدود المائية من خلال الاستخدام العقلاني للوحدات الجيومورفولوجية، وتعميم هذا النموذج على مناطق مشابهة في الأردن، وفتح الأفاق أمام الباحثين لدراسة مناطق جنوب الأردن التي تفتقر الى الدراسات التطبيقية على المشاريع الإنمائية.



شكل (2) سد التنور في حوض وادي الحسا الأوسط

الدراسات السابقة

تناولت العديد من الدراسات الأجنبية والأقليمية والمحلية انجراف التربة بمنهجيات مختلفة، سواء ما كان يتعلق منها بالموضوع أو بالمنهج، فمنها ما اعتمد على التحليل الوصفي من خلال تحديد أهم العوامل التي تؤثر على انجراف التربة، والبعض الآخر ركز على التحليل الكمي لهذه المشكلة باستخدام البرمجيات الحاسوبية، والاستشعار عن بعد remote sensing. ومن أهم الدراسات التي ظهرت في هذا الموضوع دراسة سلطة المصادر الطبيعية حول العاصفة المطرية التي اجتاحت الأردن عام 1964/1963، وتسببت بانجراف شديد للتربة والحجارة كانت كفيلة بملء قناة الملك عبدالله (قناة الغور الشرقية)، مما أدى إلى إنفاق نحو 4.5 مليون دولار امريكي لتنظيفها، واستمر الجهد في هذا العمل لمدة ثلاثة أشهر⁽⁶⁾، أما ماك دونالد McDonald، فقدّر أن كمية التربة التي تفقدها الضفة الشرقية من الأردن تقدر بنحو 1.4سم من تربتها السطحية، أي ما يعادل 1.33 مليون طن في السنة⁽⁷⁾، وأجرى صالح (1971) دراسة على منطقة الأغوار الوسطى والشمالية (ما بين نهر اليرموك شمالاً والبحر الميت جنوباً)، واستنتج من تلك الدراسة أن معدل الانجراف بفعل الجريان يقدر بنحو 4.45 طن/هكتار/السنة في الشمال، ويتناقص هذا

المقدار كلما اتجهنا الى الجنوب ليصل الى نحو 3.58 طن/هكتار/السنة⁽⁸⁾، كما أكدت الدراسة التي أجراها العنانزة (1986)، على الناتج الرسوبي لحوض وادي كفرنجة أن معدل الانجراف في حوض وادي كفرنجة يقدر بنحو 415.1 طن/كم²/السنة، وكمية الناتج الرسوبي لهذا الحوض تتراوح ما بين 5.7-5.88 طن/كم²/السنة⁽⁹⁾، كما تناولت دراسة الدباس (1994) لبعض مناطق السلط بعض التقنيات المستخدمة في تجميع التربة المتناثرة والأسلوب الكمي لتحديد أهم العوامل التي تؤثر على انجراف التربة، وقد خلصت دراسته إلى أن انجراف التربة في منطقة دراسته بلغت نحو 4.28 طن/هكتار/السنة⁽¹⁰⁾، كما أكدت الدراسة التي أجراها الحمدان (1996) على بيئة جافة تشبه بيئة الدراسة، وهي بيئة منطقة الأزرق في الشمال الشرقي من الأردن على أن كمية الانجراف بنوعية: التناثري والقنوي يقدر بنحو 4.8 طن/ هكتار/ السنة، كما اثبت في دراسته أن كمية الانجراف بفعل قطرات المطر تتفوق على مثيلتها بفعل الجريان السطحي، إذ بلغت كمية الانجراف بفعل قطرات المطر نحو 4.7 طن/ هكتار/ السنة، في حين لم تزيد هذه الكمية عن 0.14 طن/ هكتار/ السنة للجريان السطحي⁽¹¹⁾.

ومن الدراسات التي تناولت المنهجيات في دراسات انجراف التربة وأهم العوامل التي تؤثر فيها دراسة الفرخان (1985) التي تناولت استعمال التحليل الجيومورفولوجي باستخدام الصور الجوية في تحديد العوامل المؤثرة على انجراف التربة⁽¹²⁾، هذا بالإضافة إلى منهج التحليل الكمي الذي استخدمه تانسي (2001) في دراسة تدهور رطوبة التربة لأراضي البادية الشمالية، وأهمية خشونة السطح وتأثيره على كمية رطوبة التربة في الأراضي الجافة، باستخدام تقنية الاستشعار عن بعد ما بين عامي 1995-1997⁽¹³⁾، هذا بالإضافة إلى الدراسات التي قدمها لي وآخرون (1997) Lai et.al حول بعض منهجيات تقييم تدهور التربة⁽¹⁴⁾، كما أكدت دراسة الخرابشة (2004) على أن كمية الأمطار، وإدارة التربة السطحية لها تأثير مباشر على الموازنة المائية وانجراف التربة في المناطق الجافة⁽¹⁵⁾.

جميع الدراسات التي تناولت انجراف التربة في الأردن ركزت على المناطق الشمالية والوسطى من الأردن، في حين لم تحظ مناطق الجنوب بدراسات متخصصة في هذا المجال.

فمن خلال هذا المسح الشامل للدراسات السابقة نجد أنها؛ إما أن تكون ركزت على مناطق تختلف في خصائصها الجيولوجية والطبوغرافية والمناخية عن منطقة الدراسة، أو هي دراسات عامة كمشروع مسح التربة في الأردن عام 1993، أما الدراسات التي تناولت وادي الحسا فهي المسح الشامل لحوض وادي الحسا الذي قام بها وليموت Willimott et al. (1963)، وميز من خلال دراسته تسعة أنماط أرضية، معتمداً على خصائص السطح المورفولوجية وخصائص التربة

والنبات الطبيعي⁽¹⁶⁾، والدراسة التي قامت بها قطيش (2007)، التي تناولت التقييم الجيومورفولوجي في حوض وادي الحسا من خلال تقسيم حوض وادي الحسا الى وحدات جيومورفولوجية، وحددت من خلال هذه الدراسة أهم العوامل التي تؤثر على تصنيف الأراضي⁽¹⁷⁾، كما قامت وزارة المياه والري بالتعاون مع شركة هاورد هومفريز بدراسة هندسية لتصميم وإنشاء سد التنور⁽¹⁸⁾.

لذلك، جاءت هذه الدراسة لتحديد كمية معدلات انجراف التربة في الحوض الأوسط لوادي الحسا من خلال تحديد أهم العوامل الفيزيائية، والكيميائية، والمورفولوجية، والانحدار، وكمية المطر وشدته، ونسب التربة، ومعدلات اللدونة، والتركيب الجيولوجي، التي تؤثر على كمية انجراف التربة من خلال استخدام برمجية التحليل العاملي، لتحديد مدى ارتباط كل متغير من المتغيرات ضمن المجموعة التي تؤثر على انجراف التربة في حوض وادي الحسا الأوسط.

منهجية الدراسة

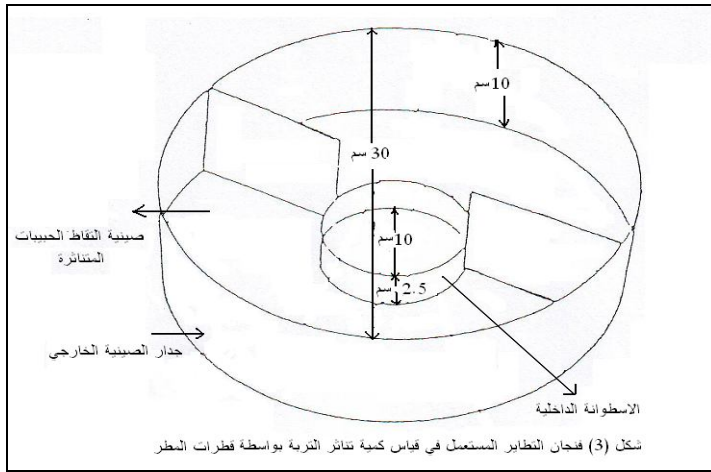
انتهج الباحثان في إعداد هذه الدراسة عدة مراحل لجمع المعلومات وتبويبها وتحليلها واستخلاص النتائج الميدانية والمخبرية من خلال: تحليل الصور الجوية الملتقطة لمنطقة الدراسة عام 2000م بمقياس 25000/1، وصور الأقمار الصناعية لعام 2009، من أجل تحديد أهم الوحدات الأرضية الكبرى التي تشكلت منها منطقة الدراسة، بالإضافة إلى تحديد الغطاء النباتي، كما تم تحليل الخرائط الطبوغرافية لحوض وادي الحسا الأوسط من مقياس 25000 / 1، وتحليل الخرائط الجيولوجية لمنطقتي العينا والطفيلة 50000/1^(*)، كما قام الباحثان بالرجوع للدراسات السابقة التي تناولت انجراف التربة، سواء تلك التي تتعلق في المنهجية، أو التي تتعلق في الموضوع.

اشتملت مرحلة العمل الميداني على عدة اجراءات عملية وتقنية منها: التأكد من نتائج تحليل الصور الجوية، ومقارنة نتائج التحليل الأولي مع الواقع الميداني، وفي المرحلة الثانية تم جمع عينات من التربة من سبعة مواقع موزعة على مختلف الوحدات الجيومورفولوجية الكبرى، لقياس كمية رطوبة التربة وخصائصها الفيزيائية والكيميائية، باستخدام حفار يدوي (2" uger)،

(*) الخرائط المستعملة في هذه الدراسة هي: (1) خريطة العينا والطفيلة الطبوغرافية مقياس 25000/1 والمنتجة في المركز الجغرافي الملكي الأردني عام 1997، وخريطة العينا الجيولوجية 5000/1 المنتجة من قبل سلطة المصادر الطبيعية عام 1994، وخريطة الطفيلة 50000/1 الجيولوجية المنتجة عام 1986.

وبعد ان أزيلت 5 سم من التربة السطحية تم أخذ العينات ووضعها ضمن عبوات بلاستيكية محكمة لتحليلها كيميائيا وفيزيائيا ♦.

واستخدم الباحثان منهجية مورغان Morgan لقياس كمية تناثر التربة بواسطة قطرات المطر Rain Splash التي تتكون من صينية مستديرة بقطر 30 سم، وارتفاع 10 سم (شكل 3) من أجل قياس التربة المتناثرة بواسطة قطرات المطر والمتجمعة في صينية التناثر⁽¹⁹⁾، حيث وزع عشر أدوات منها في بداية الموسم المطري الأول للدراسة، والذي ابتداء بتاريخ 2008/9/30 بالمواقع نفسها التي حددت سابقاً وأخذت منها عينات التربة.



المصدر: Morgan, R.P.C. 1979, p18

وبعد ذلك تم جمع عينات التربة التي تتجمع في هذه المصائد بعد كل عاصفة مطرية وتم تجفيفها على درجة حرارة 40⁵ م، ووزنت بعد التجفيف وسجل هذا الوزن على جدول خصص لهذه الغاية، ومن أجل قياس كمية انجراف التربة بواسطة القنوات المائية تم استعمال صندوق تجميع التربة المستعمل من قبل معهد الهندسة الزراعية، وبالمنهجية نفسها تم قياس معدلات انجراف التربة التي تنتج عن الانجرافات القنوية وبخاصة في المناطق التي يزيد انحدارها عن 5⁵، ومقارنة نتائج كل طريقة من هذه الطرائق من أجل تحديد كمية التربة التي تتعرض للانجراف خلال المواسم المطرية المختلفة.

وبعد أن تم تجميع قياسات التربة لمدة عامين (2008، و2009)، أدخل 25 متغيراً في الحاسب الآلي لمعرفة أكثر العوامل التي أسهمت في عمليات انجراف التربة جدول (1).

♦ تم تحليل عينات التربة ضمن مختبرات سلطة المصادر الطبيعية.

جدول (1): المتغيرات المستخدمة في تحديد العوامل المؤثرة على انجراف التربة في وادي الحسا الأوسط

المتغيرات	المواقع						
	1	2	3	4	5	6	7
معدل انجراف التربة/09/08(y)	0.36	0.5	0.36	0.47	0.54	0.66	0.86
معدل الأمطار/09/08 ملم(x1)	189.7	189.7	189.7	189.7	189.7	189.7	189.7
معدل شدة المطر ملم/س(x2)	3.57	3.57	3.57	3.57	3.57	3.57	3.57
نسبة الحصى % x3	14	7	0	9	20	11	12
نسبة الرمل % x4	7	10	15	13	30	4	80
نسبة السلت % x5	43	41	74	78	32	39	9
نسبة الطين % x6	35	42	10	30	20	47	9
لدونة التربة x7	39.7	50.1	0	34.6	27.3	50.5	41.9
السيولة x8	16	17	0	18	19	18	19
معامل اللدونة x9	20.3	38.4	0	16.6	11.4	32.9	22.2
الانحدار x10	2	2	3	3	4	4	3
الجيولوجيا x11	4	3	3	2	2	1	1
الغطاء النباتي x12	1	6	5	2	5	4	1
شكل السفح x13	1	1	2	2	1	3	1
x14 Fe ₂ O ₃	3.7	1.6	4.5	1.3	3.5	3.4	3.3
x15 MnO	0.63	0.24	0.43	0.18	0.71	0.01	0.56
x16 Ti ₂ O	0.45	0.21	0.51	0.71	0.83	0.42	0.57
x17 CaO	27.1	36	13.9	31.4	16.2	16.8	23
x18 K ₂ O	1.22	0.41	1.8	0.26	0.99	1.15	0.99
x19 P ₂ O ₅	0.24	0.29	0.17	1.07	0.29	0.8	0.68
x20 SO ₂	25.7	24.9	29.9	34.7	51.8	23	35
x21 AL ₂ O ₃	7.3	2.7	10.8	1.6	6.5	9.5	6.3
x22 MgO	3.3	1.5	3.9	2.3	1.6	0.8	3.1
x23 Na ₂ O	0.15	0.11	0.44	0.19	0.44	0.38	0.63
x24 CaCO ₃	0.56	0.1	11.5	0.24	0.8	23	0.1
رطوبة التربة x25	9.2	4.9	7.5	8.9	8.1	11.2	12.5

وأخيراً تم رسم مجموعة من الخرائط باستخدام نظام المعلومات الجغرافي (G.I.S)، لتوضح أهم الوحدات الجيومورفولوجية التي تأثرت في عملية انجراف التربة، وأكثرها قابلية لعملية الانجراف.

صعوبات الدراسة

واجهت هذه الدراسة عدة صعوبات كان من أهمها الآتي:

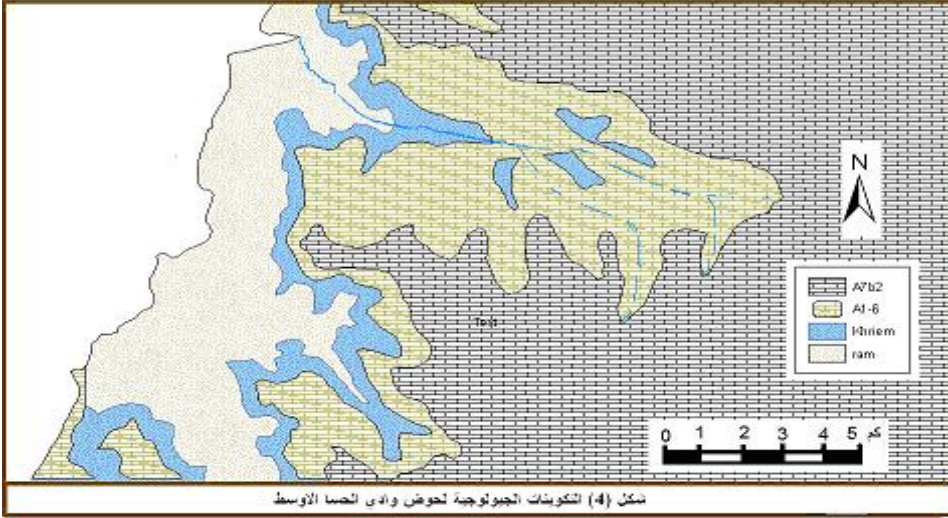
- (1) عدم شمول تربة حوض وادي الحسا الأوسط في مشروع مسح التربة الأردني الذي قامت به وزارة الزراعة الأردنية عام 1993.
- (2) العيب بأجهزة القياس وضياح بعضها.
- (3) عدم وجود محطات لقياس التصريف المائي لحوض وادي الحسا وحمولته الرسوبية.
- (4) عدم وجود محطات ارساد جوية متكاملة في منطقة الدراسة باستثناء محطة الطفيلة للارصاد الجوية.

جيولوجية و جيومورفولوجية منطقة الدراسة

يعد صدع وادي الحسا برميته الشمالية الغربية، وسلسلة الصدوع الجانبية التي تتفرع منه وتتعامد مع رميته الرئيسية المعالم الرئيسية للبنية الجيولوجية لحوض وادي الحسا الأوسط، واستطاع هذا الوادي من خلال عمليات الحث الرأسي أن يكشف عن التركيب الجيولوجي للتكوينات الصخرية التي تشكل الطبقات الستراتوغرافية للبنية الجيولوجية لمنطقة الدراسة، وبالرغم من الارسابات الحديثة التي تمثلت بسلسلة من المصاطب الإرسابية على جانبي الوادي، والطفوح البازلتية، والانزلاقات الأرضية، الا ان الانكشافات الصخرية تمثلت من خلال: صخور رمل أم عشرين التي تكشفت في الجهة الغربية لحوض وادي الغوير الأوسط شكل (4)، والتي أطلق عليها بندر - كتل الحجر الرملي البني المجوى التي تعود إلى حقبة أواسط الكامبري المتأخر؟⁽²⁰⁾، وتموضعت فوقها بعدم توافق زاوي مجموعة حجر رمل الخريم⁽²¹⁾، التي تظهر على شكل نطاق متعرج مع بعض الانكشافات لهذه المجموعة في الجزء الأوسط من منطقة الدراسة، وتموضعت على سطحها التكوينات الكريتاسية الجيرية التي يطلق عليها تكوينات

* هي مجموعة الحجر الرملي الحاملة للمياه في الأردن، التي تعود إلى الاوردوفيشي الأسفل والأوسط، وأول من أطلق عليها هذا الاسم هو لويد Lloyd,1968 (عابد، 1982، ص31). ولمزيد من المعلومات انظر Lloyd J.W. , 1969, The Hydrology of the Southern ,Desert of Jordan UNDP-FAO212.Ivestigations of the Sandstones Aquifers of East Jordan, Tech. Rep. No.1.

ناعور من عمر السنومانيان، وتكوينات الحمّر والفحيص وشعيب (A1-6)، وأخيراً تكوينات الكريتاسي الأعلى التي تتكون من تكوينات وادي السير، ووادي أم غدران، والوحدة الجيرية الفوسفاتية (تكوين عمان)* التي تغطي الجزء العلوي من الحوض الأوسط لوادي الحسا⁽²²⁾.



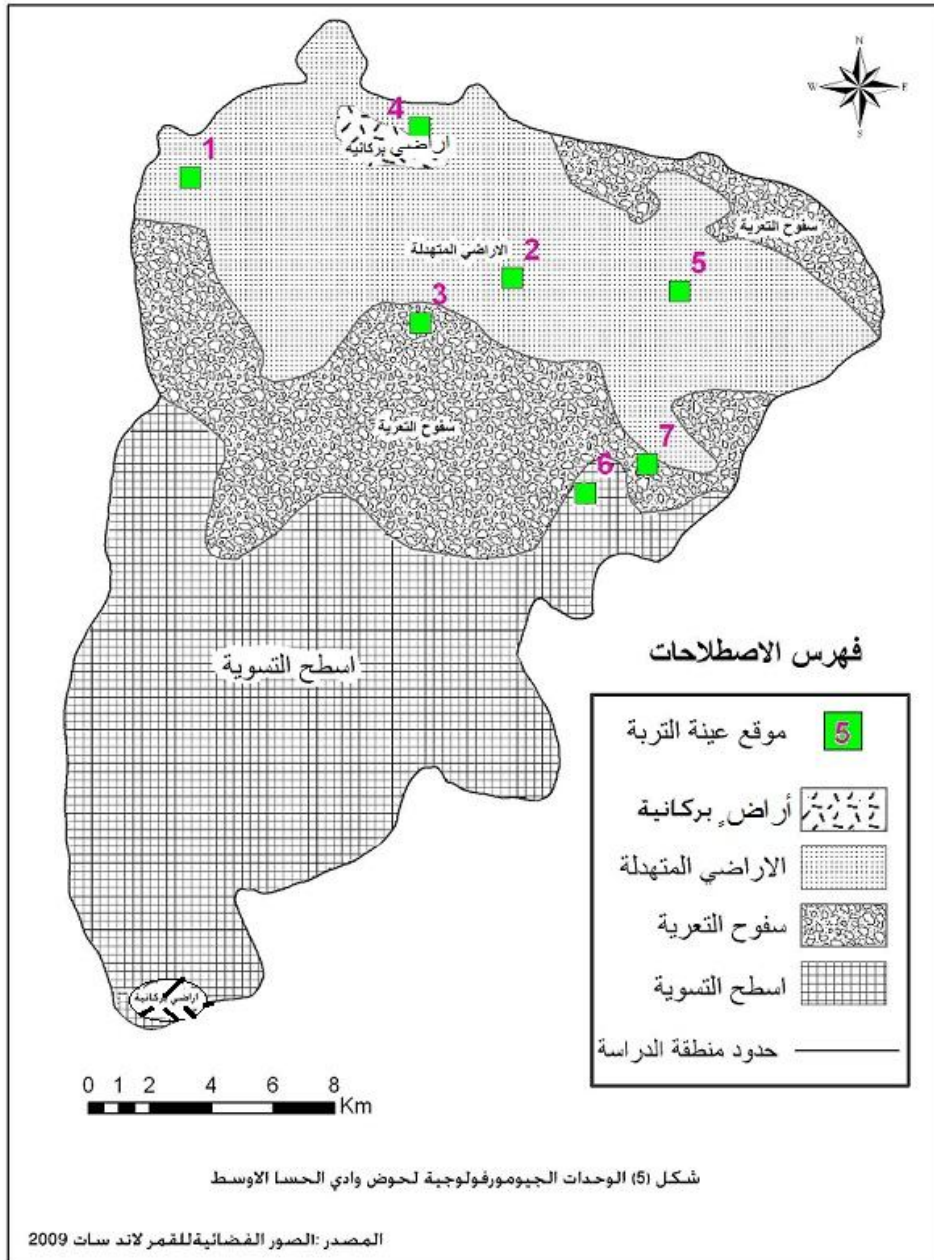
المصدر: خارطة الطفيلة، والعينا الجيولوجية 50000/ I

ومن ثم انعكست التكوينات الجيولوجية والعمليات المورفوبنيوية على التضاريس المحلية التي تراوحت ما بين 1520 م - 380 م فوق مستوى سطح البحر عند الحافة الدنيا لسد التنور، كما انعكست التكوينات الجيولوجية، والعمليات المورفوبنيوية على الوحدات الجيومورفولوجية التي تم تقسيمها إلى ثلاث وحدات رئيسية هي: بقايا أسطح الهضبة الأردنية (الميسا)، وسفوح الحت المتقطعة، والأراضي المتهدلة التي يوضحها الشكل (5)**، كما يوضح خصائصها الفيزيوجرافية الجدول (2)، في حين يوضح الشكل (6) العمليات الجيومورفولوجية التي تسود حوض وادي الحسا الأوسط.

* اعتمد التسميات الجيولوجية لنوع الصخور على التسميات المعتمدة من قبل سلطة المصادر الطبيعية في الأردن.

** هذه الخرائط صممت ورسمت باستخدام برمجيات Arc Gis.

انجراف التربة في حوض وادي الحسا الأوسط/ الطفيلة

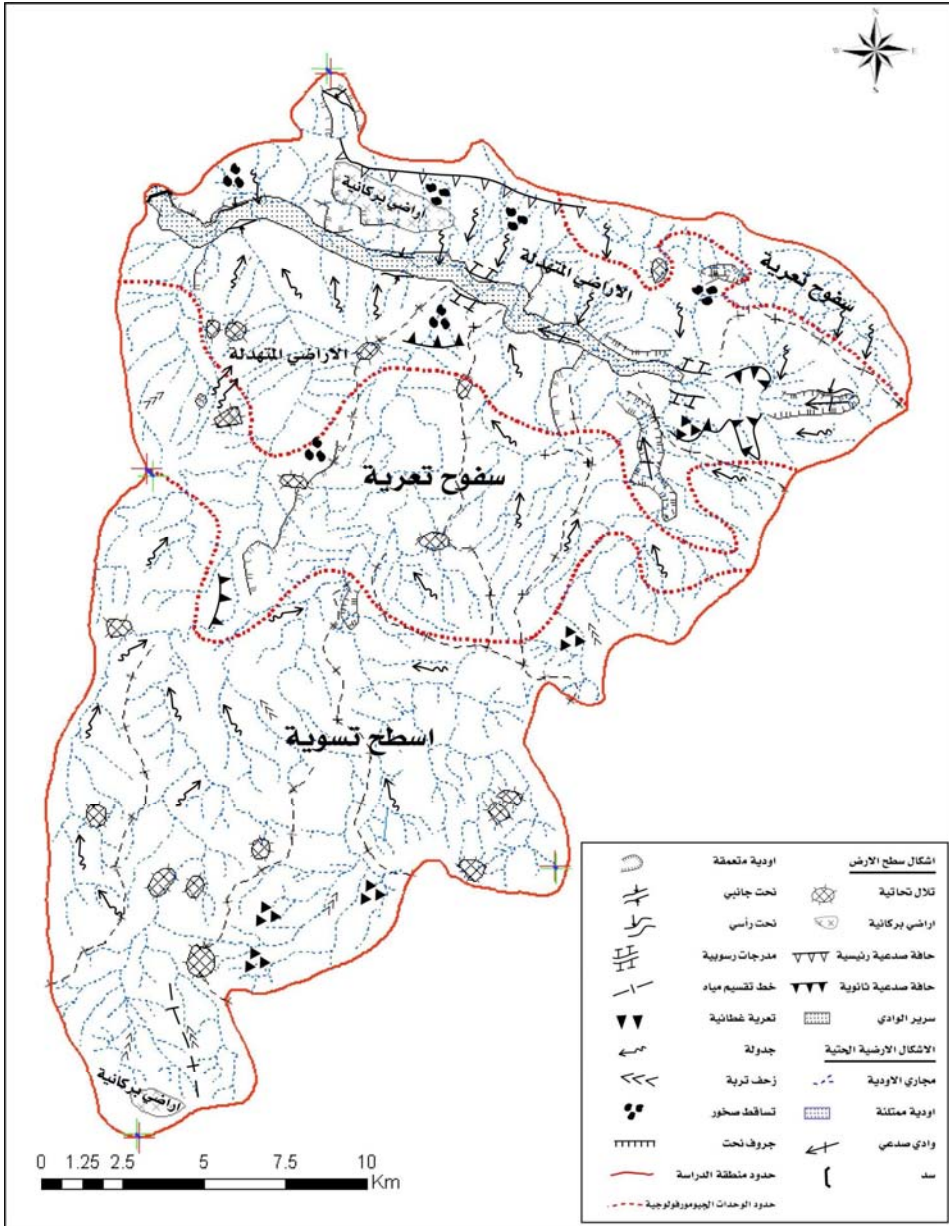


جدول (2): خصائص الوحدات الجيومورفولوجية

العمليات الجيومورفولوجية الحتية	درجات الانحدار					الارتفاع النسبي/م	الارتفاع عن سطح البحر	التربة	التركيب الصخري	الوحدة الأرضية
	< 25	-15.1 25	-10.1 15	-5.1 10	> 5					
انجراف تربة غطائي، انجراف قنوي، زحف تربة على المنحدرات التلية					- - - - - - - - - -	430 م	-1530 م 1100 م	تربة بنية متشققة، التربة الصفراء الكلسية	A7-b2 حجر جيرى سيليسي، وفوسفات، حجر طباشيري ومارل، وحجر جيرى مارلي، وبازلت	بقليا لاسطح الهضبية (A)
تعرية قنوية، تعرية غطائية، زحف تربة، انزلاقات أرضية			-- -- --			300 م	-900 م 600 م	تربة leptosol، وأترربة اللومية الرملية	A1-6 حجر جيرى رملي، وحجر جيرى مارلي، وطفل (غضار)	سفوح الحت (B)

انجراف التربة في حوض وادي الحسا الأوسط / الطفيلة

الاراضي المتهدلة (c)	حجر رملي جيرى، ومارل وغضار، وسلت، وحجر طيني	التربة السلتية الطينية، والسلتية الرملية، والتربة الجريشية	-650 450م	200م	- - - - - - - - - -				انزلاقات ارضية، انجراف قنوي
سرير الوادي (D)	ارسابات فيضية، وحصى جيرى وبازلتى، ورملي	تربة حصوية، والتربة اللومية الطينية	-664م 384م	280م	- - - - - -				حت جانبي، حت راسي، مساقط مائية، انجرافات قنوية، تهدل ارضي

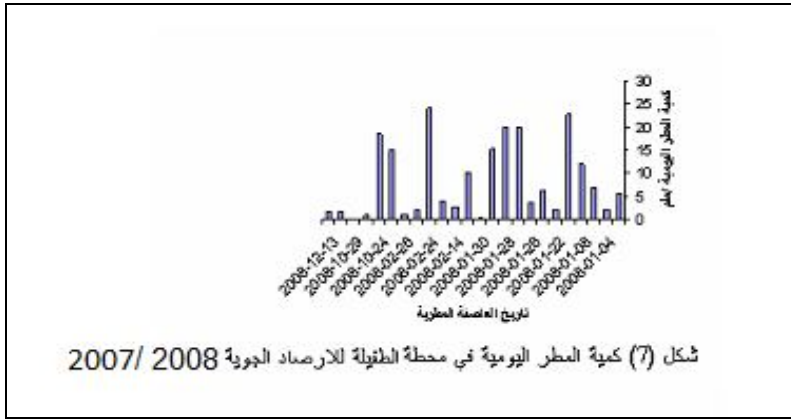


شكل (٦) الخريطة الجيومورفولوجية لحوض وادي الحسا الأوسط

المصدر: الصور الجوية ٢٥٠٠٠ / ١ لعام ٢٠٠٠

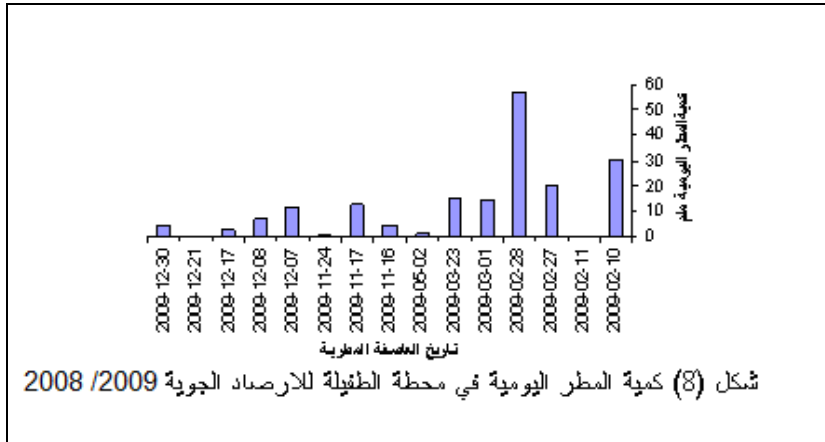
الهطول

إن معرفة كمية الهطول وخصائصه من حيث: الشدة، والتوزيع الزمني والمكاني مهم لمعرفة كميات انجراف التربة، ونقلها، وترسيبها، وبما أن منطقة الدراسة تقع ضمن مناطق البحر المتوسط شبه الجافة التي تميل إلى الجفاف أكثر من ميلها للرطوبة، فإن كميات الهطول متذبذبة من سنة لأخرى ومن شهر لآخر، ففي فترة الدراسة والتي استمرت حولين كاملين، وجد بأن كمية الأمطار التي سقطت في الموسم المطري 2007/ 2008 بلغت 199.1 ملم/ السنة، وانخفضت هذه الكمية إلى نحو 182.3 ملم للموسم المطري التالي 2008/2009. فمن خلال هذه البيانات الشهرية والسنوية للأمطار نجد أن منطقة الحوض الأوسط لوادي الحسا تقع ضمن المناطق الجافة التي تتميز بكثرة تقلبها من سنة لأخرى⁽²³⁾، إذ بلغ معدل الاختلاف لكمية الأمطار في هذين الموسمين نحو (60%)^{*}، ففي حين نجد أن كمية الهطول لم تزد عن 1 ملم في شهر آذار/2008، نجد أنها تصل إلى 117.3 ملم في شهر كانون ثاني من العام نفسه⁽²⁴⁾، كما يوضح ذلك الشكل (7)، والشكل (8).



المصدر: وزارة النقل - دائرة الأرصاد الجوية 2008-2007

(*) معامل الاختلاف هو معيار نسبي لتباين الأمطار من سنة لأخرى، وهو يساوي الانحراف المعياري مقسوماً على الوسط الحسابي (شحادة، 1990، ص120).



المصدر: وزارة النقل - دائرة الأرصاد الجوية 2009-2008

وبالرغم من أهمية كمية الأمطار وتوزيعها الزمني والمكاني، إلا أن عامل شدة المطر يعد من أكثر المتغيرات تأثيراً على انجراف التربة بجميع أشكاله الغطائية والقنوية، كما يؤثر حجم قطرات المطر وغزارتها على تطاير التربة وتناثرها، وبخاصة فوق المناطق المنحدرة والمكشوفة ذات الترب الهشة كما هو الحال في منطقة حوض وادي الحسا، ولأهمية هذا العامل في انجراف التربة، كان لا بد أن يؤخذ بالحسبان كأحد المتغيرات الأساسية في هذه الدراسة.

وبتحليل كمية الأمطار لعامين متتاليين- فترة الدراسة- (2008-2007 / 2009-2008)، تبين أن شدة المطر في الساعة تتباين ما بين أقل من 0.3 ملم/ ساعة الى أكثر من 16 ملم/ الساعة، كما يوضح ذلك الجدول (3)، فمن خلال هذا الجدول نجد أن أكثر الأشهر التي تركزت فيها كمية الأمطار كانت في شهر كانون ثاني من عام 2008، وبلغت معدلات شدة المطر في هذا الشهر نحو 4.4 ملم / الساعة، وتلاه شهر شباط في عدد الأيام الماطرة، وبشدة مطر أقل إن بلغت نحو 2.64 ملم / الساعة، أما أقل الشهور في كمية المطر فكان شهر آذار، إن لم تتجاوز هذه الكمية 1 ملم، أما كمية الأمطار وشدتها في عام 2009، فكانت أقل من حيث الكم وعدد الأيام الماطرة، بالرغم من كمية الأمطار التي هطلت في شهر شباط (107 ملم)، وبشدة تراوحت ما بين 6.4 - 16.1 ملم / الساعة، متسببة في انجراف كمية كبيرة من التربة توضحها الصورة الفوتوغرافية ملحق (1)، كما تميز الموسم المطري 2009/2008 بالأمطار العاصفية التي هطلت في شهر آذار التي بلغت نحو 30 ملم، وبشدة مطرية بلغت نحو 8.35 مم/ الساعة.

جدول (3): كمية الأمطار اليومية، وشدة المطر في الساعة

الشهر/2007- 2008	الأيام المطرة	التاريخ	شدة المطر ملم/ الساعة	مج.اليومي	مج. الشهري
ك2	12	4	1.8	5.7	117.3
		5	0.8	2.1	
		8	6.9	7	
		9	3.4	12	
		22	6.8	22.1	
		23	0.8	2.1	
		26	3.8	6.2	
		27	3.4	3.7	
		28	10	20.1	
		29	8.7	20.1	
		30	5.6	15.3	
		31	0.9	0.3	
شباط	5	14	1.8	10.2	42.8
		19	1	2.7	
		24	3.4	4	
		25	6.7	24	
		26	0.3	1.9	
آذار	1	10	0.6	1	1
ت1	4	24	8.3	15	34.4
		28	6.5	18.4	
		29	0.8	0.9	
		30	0.3	0.1	
ك1	2	13	1.2	1.8	3.6
		25	0.8	1.8	
الشهر/2008- 2009	الأيام المطرة	التاريخ	شدة المطر ملم/ الساعة	مج.اليومي	مج. الشهري
شباط	4	10	3.1	30.1	107.1
		11	0.7	0.2	
		27	1.6	19.8	
		28	16.1	57	
آذار	2	1	8.9	14.7	29.7
		23	7.8	15	
أيار	1	2	1.4	1.2	1.2

الشهر/2008- 2009	الايام المطرة	التاريخ	شدة المطر ملم/ الساعة	مج.اليومي	مج. الشهري
ت2	3	16	3.5	4.4	17.2
		17	1.8	12.5	
		24	1.8	0.3	
ك1	5	7	3.3	11.4	25.1
		8	1.2	6.6	
		17	0.8	2.8	
		21	0.6	0.2	
		30	1.8	4.1	

الغطاء الأرضي

1- التربة

تغطي حوض وادي الحسا الأوسط مجموعات مختلفة من أنواع التربة لكنها تتميز بهشاشتها، وقلة سماكتها، لما عانت منه لفترات طويلة من التعرية المائية في الأحباس الدنيا لحوض وادي الحسا الأوسط، والتعرية الريحية في الأحباس العليا لحوض وادي الحسا، فتعد مجموعات التربة التي تسود الحوض الأوسط لوادي الحسا من الترب مبتدئة التطور ذات القوام المتوسط إلى الثقيل على المنحدرات الوسطى، وتصبح تربة حصوية في مناطق الإرسابات الفيضية وبخاصة حول مجرى وادي الحسا والتي في الغالب ما تستغل في زراعة بعض الخضروات، وبعض الأشجار المثمرة مثل: الزيتون، والجوافة، وغيرها.

1-1- قوام التربة

تعد الترب الطينية السلتية، والتربة الرملية هي الغالبة على تصنيف التربة السائدة في منطقة الدراسة كنتيجة منطقية لتنوع الصخور التي اشتقت منها هذه التربة (التحليل المخبري للتربة - جدول 1)، وتعكس خصائص التربة الفيزيائية والكيميائية التداخل ما بين العمليات الديناميكية المختلفة أثناء وبعد عملية تشكيل التربة في الأزمنة الجيولوجية المختلفة، فالعمليات الجيومورفولوجية المختلفة أدت إلى زيادة سمك مقطع التربة في الجهة الجنوبية الشرقية، أو ما يطلق عليه أسطح التسوية، وفي مناطق الإرسابات الفيضية، إذ يصل عمق مقطع التربة في بعض المواقع إلى أكثر من 120 سم، في حين لا يزيد هذا العمق عن 30 سم في الأراضي المنحدرة وسفوح التعرية*، كما أظهر التحليل المخبري لتدرج نسيج التربة بأن نسبة السلت ترتفع في

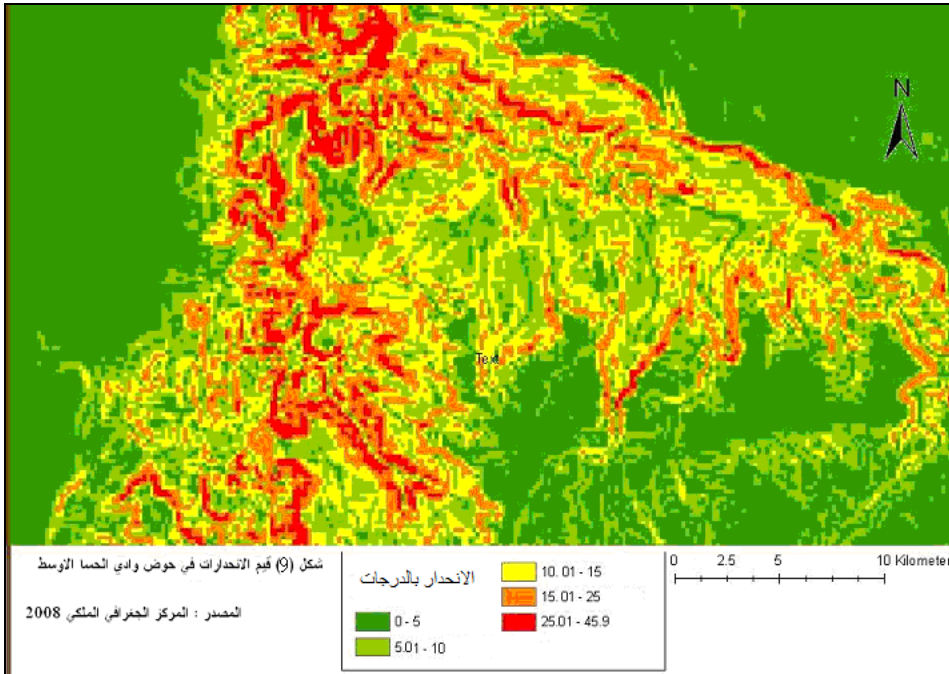
* (المسح الميداني 2009).

الموقع الثالث 74%، والرابع 78%، والأول 43%، بينما ترتفع نسبة الرمل في الموقع السابع 80%، أما نسبة الطين فإنها ترتفع في الموقعين السادس والثاني إلى 47%، 42% على التوالي (انظر توزيع مواقع عينات التربة في الشكل 5)، ومن خلال هذه النسب نجد أن نسبة السلت هي الغالبة على تكوينات التربة في الحوض الأوسط لمنطقة الدراسة، ويعود السبب في ذلك إلى عامل انجراف التربة بواسطة الأمطار كما يوضح ذلك الجدول (1).

كما أظهر التحليل المخبري لعينات التربة ارتفاع نسبة كربونات الكالسيوم التي تراوحت ما بين 23% في عينة التربة السادسة، وأقل من 0.1% في العينة الأولى، والسابعة، ويدل ارتفاع نسبة الكالسيوم في التربة على انخفاض نفاذيتها وزيادة احتمالية انجرافها بفعل الجريان السطحي.

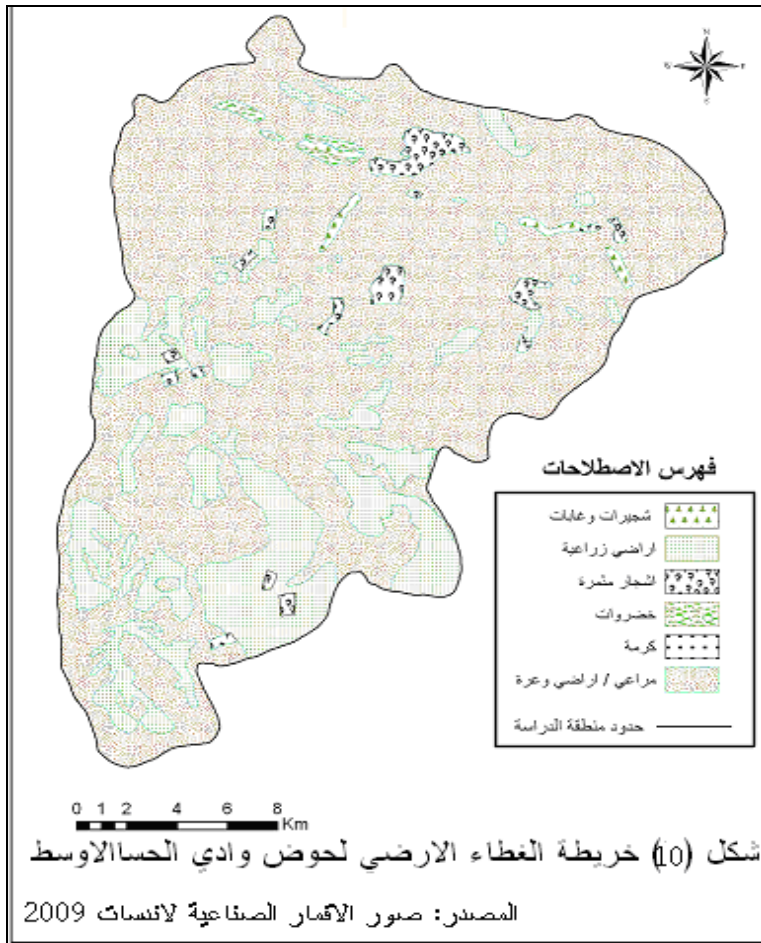
2- درجة الميل

تميزت منطقة الدراسة بتباين درجات الانحدار، إذ تراوحت معدلات انحدار منطقة الدراسة ما بين 5° - 45° والموضحة في الشكل (9)، مما زاد من التعرية القنوية وبخاصة في الأحباس العليا من المنحدرات الجبلية، التي تراوح فارق منسوبها الأرضي ما بين (1531 - 274)م عن مستوى سطح البحر وبمسافة رأسية لا تزيد عن 27.5 كم.



3- النبات

تعد أراضي منطقة الدراسة من الأراضي الفقيرة بنباتاتها البرية، ولا تزيد نسبة المساحة الأرضية التي تغطيها النباتات البرية عن 5% من مساحة الحوض الأوسط لوادي الحسا، اقتصرت على مجموعة من شجيرات الشيح *Artemisia herba alba* والسلا *Zilla spionsum*، والبلان *Potenum spionsum*، والغبيرا *Sorbus torminalis*، وبعض شجيرات الرتم *Retama raetum*، والسويد *Rahmnus palestina*، والزعرور في حين سادت النباتات المائية وبخاصة العلندا (الافيدرا) *Ephedra alte*، والدفلى *Nerium oleander*، والطرفا، والقطف الملحي *Atriplex halimus*، والقبّار (الصف) *Capparis cartilaginea* بعض مجاري وادي الحسا⁽²⁵⁾.



كما استغلت بعض مناطق الإرسابات الفيضية، مثل بعض مناطق الهضبة (الميسا) بزراعة بعض المحاصيل الحقلية البعلية من القمح، والشعير، والبقوليات وبعض الأشجار مثل: العنب والزيتون، في حين زرعت الأراضي حول مجرى وادي الحسا (المصاطب الفيضية) بالخضروات وخاصة البندورة، وبعض الأشجار المثمرة مثل: الزيتون والجوافة والرمان والتين، في حين تركت النسبة الكبرى (95%) من أراضي حوض وادي الحسا الأوسط والبالغة نحو 465 كم² كمراعي مفتوحة شكل (10).

النتائج والتحليل

1- الترب المتناثرة بفعل قطرات المطر

يعد الهطول والجريان السطحي (run off) من أهم العوامل التي تؤثر على كمية انجراف التربة، فتصادم قطرات المطر مع التربة تؤدي إلى تفككت كتلة التربة، وتجعل حبيباتها تتناثر، وبخاصة التربة ضعيفة البناء مثل: التربة الرملية السلتية الناعمة، والتربة السلتية، والتربة الطينية الناعمة، فجزئيات هذه الأنواع من الترب من السهل أن تنفصل عن كتلة التربة عندما تصطدم بها قطرات المطر؛ مما يؤدي إلى فقدان تماسكها وبخاصة عندما تتعرض إلى العواصف المطرية الشديدة، وتصبح عرضة إلى التناثر والانتقال من مكانها، ولأهمية هذا العامل في تطاير التربة وانتقالها بعد أن تنفصل عن كتلتها ومن ثم انتقالها بواسطة القنوات المائية وترسيبها في المناطق المنخفضة وبخاصة في سد التنور استخدمت منهجية مورغان (1981) في تقدير كمية التربة المتناثرة بواسطة العواصف المطرية بواسطة أداة أطلق عليها فنجان التطاير (Field splash cup) والموضحة في الشكل (3)⁽²⁶⁾، وقد وزعت عشر^(*) أدوات من أدوات فنجان التطاير في بداية كل موسم مطري الذي يبدأ في الأردن في تشرين أول (أكتوبر)، وينتهي في شهر أيار من كل عام، ومن ثم كان يتم جمع العينات التي يتم تناثرها بواسطة قطرات المطر وتنحصر داخل فنجان التطاير ومن ثم يتم تجفيفها ووزنها بعد كل عاصفة مطرية، ويوضح الجدول (4) كميات التربة المتناثرة بالغرام في كل عاصفة مطرية التي تم جمعها خلال موسمي المطر لعامي 2008/2007، و2009/2008.

(*) تعرضت ثلاث أدوات من مصائد التربة للضياع.

جدول (4): كمية انجراف التربة بالغرام في كل عاصفة مطرية عام 2008/2009

تاريخ العاصفة المطرية 2009/2008	كمية المطر ملم	الموقع 1	الموقع 2	الموقع 3	الموقع 4	الموقع 5	الموقع 6	الموقع 7	المجموع غم
2/11-10	30,3	22	28	18	26	45	71	66	276
2/28-27	76.8	72	87	63	76	66	146	163	673
3/1	14,7	12	10	10	17	22	18	24	113
3/23	15	23	21	13	23	12	22	18	132
5/2	1.2	0	0	0	0	0	0.3	0.3	0.6
11/17-16	16.9	13	13	11	15	11	13	22	98
11/24	0.3	0	0	0	0	0	0	0	0
12/8-7	18	11	9	5	9	7	8	12	61
12/17	2.8	0	0	0	0	0.3	0.2	0.2	0.7
12/21	0.2	0	0	0	0	0	0	0	0
12/30	4.1	5	11	9	9	12	17	12	75
المعدل	16.39	14.36	16.27	11.72	15.9	15.9	26.86	28.86	129.93
المجموع	180.3	158	179	129	175	175.3	295.5	317.5	1429.3
تاريخ العاصفة المطرية 2008/2007	كمية المطر ملم	الموقع 1	الموقع 2	الموقع 3	الموقع 4	الموقع 5	الموقع 6	الموقع 7	المجموع غم
1/5-4	7.8	0	9	0	0	8	0	0	17
1/9-8	19	9	11	16	12	18	8	18	92
1/23-22	24.8	18	29	24	23	36	36	38	204
1/31-26	65.7	38	72	48	27	76	75	133	469
2/14	10,2	6	11	13	9	11	0	7	57
2/19	2.7	3	3	5	0	9	11	14	45
2/26-24	29.9	19	23	13	31	19	47	66	218
3/10	1	0	0	0	0	0	0	0	0
10/24	15	18	41	28	44	35	21	56	243
10/ 30-28	19.4	17	17	12	55	43	28	31	203
12/13	1.8	0	0	0	0.3	0	0.9	0.6	1.8
12/25	1.8	0	0	0	0	0	0.5	0.3	0.8
المعدل	16.59	10.66	18	13.25	16.77	21.25	18.95	30.32	150.1
المجموع	199.1	128	216	159	201.3	255	227.4	363.9	1550.6

المصدر: القياس الميداني، دائرة الارصاد الجوية 2008/2007، 2009/ 2008

يلاحظ من خلال هذا الجدول بأن أعلى كمية للتناثر سجلت في الموقعين 7 و6، ويعزى السبب في ذلك إلى أن هذين الموقعين كانا ضمن وحدة سطح الهضبة (الميسا)، وعلى ارتفاع 908م، و987م فوق مستوى سطح البحر على التوالي التي تتميز بأماطارها التضاريسية، كما تتميز هذه المنطقة بضعف بناء تربتها التي تغلب عليها التربة الرملية اللومية، وفقرها في الغطاء النباتي، وحرارتها الآلية من أجل زراعتها في بواكير فصل الشتاء، وعندما يفشل المحصول ترعى بالأغنام قبل نضوجها مما يؤدي إلى تفكك التربة، ومن ثم تعد المنطقة الجغرافية التي أجريت القياسات عليها هي من ضمن المناطق الصحراوية شبه الجافة الفقيرة في نباتاتها التي تميل للجفاف أكثر من ميلها للرطوبة، حيث بلغ معامل جفافها (5.4) وفقاً لمقياس دي مارتون Demarttonne⁽²⁷⁾. أما أقل كمية تناثر فسجلت في الموقعين الثالث والأول مع فارق سلبي بسيط بينهما لا يتجاوز 31 غرام في السنتين، ويمكن أن يعزى تدني معدلات انجراف التربة في هذين الموقعين إلى انتشار التربة الحصوية والتربة الطينية التي تتميز بانتفاخها وتماسكها أثناء الرطوبة وشدة جفافها أثناء الجفاف، كما يتميز هذان الموقعان بتدني كمية الهطول فيهما، إذ لا تزيد معدلات الأمطار في موقع سد التنور عن 110 ملم / السنة- محطة قياس الأمطار في سد التنور 2008/2007، 2009/ 2008 - أما الموقع الثاني والرابع والخامس فكانت كميات تناثر التربة فيها متقاربة كنتيجة لتشابه الظروف الطبيعية من جهة، وتشابه ظروف الاستعمال الزراعي من جهة أخرى، وتدني كميات الهطول السنوي في فترة الدراسة حيث تراوحت كمية الهطول بين 182.3 - 199.1 ملم / السنة^{**} (علماً بأن المعدل العام للأمطار في محطة الطفيلة للأرصاد الجوية هو 250 مم/ السنة⁽²⁸⁾).

إن الفارق الواضح بين انجراف التربة في الموقع السابع والثالث في عام 2009/ 2008 بلغ نحو 188.5 غراماً، وفي عام 2007/ 2008 بلغ نحو 204.9 غراماً، مما يؤكد أن عامل التضاريس يلعب دوراً مهماً في تناثر التربة بسبب الأمطار، فالفارق النسبي بين الموقعين هو 305 م. كما أن نوع التربة يلعب في هذه الحالة دوراً واضحاً في تناثر التربة، ففي حين نجد أن التربة في الموقع السابع هي تربة رملية لومية ومفككة القوام ضعيفة البناء، نجد أن التربة في الموقع

* معادلة دي مارتون هي: $I = P/T + 10$ حيث تعني I تعني معامل الجفاف، P كمية الهطول السنوي، T معدل درجة الحرارة المئوية.

** بلغت كمية الأمطار التي هطلت في العام المطري 2007 / 2008 199.1 مم، و182.3 مم في العام المطري 2008 / 2009.

*** الفارق ما بين وزن التربة في الحوض العلوي لمصيدة التناثر والحوض السفلي هو صافي كمية التربة المنقولة (شكل 3).

الثالث هي تربة سلتية أكثر تماسكا، وبالرغم من تدني معدلات تناثر التربة إلا أنه يمكن حساب هذه الكمية ومقارنتها مع بعض الدراسات التي شملت بعض المناطق من الأردن، أو تلك التي قامت بها سلطة المصادر الطبيعية في حساب كمية الإرسابات المتوقع أن تصل إلى سد التنور، من خلال معرفة مساحة الدائرة الداخلية لمصيدة التناثر وفقاً لمعادلة مساحة الدائرة (نق² . π)

وبما أن نصف قطر مصيدة التناثر هو 5 سم، فإن مساحة الدائرة الداخلية لها تساوي 78.6 سم²، ومن ثمّ يمكن حساب كمية التربة التي جمعت في مصيدة التناثر خلال فترة الدراسة والتي يوضحها الجدول (4)، وباستخدام منهجية مورغان (1981) التي طبقت على هذه الدراسة قام الباحثان في حساب الفروق في أوزان التربة المتجمعة في مصيدة التناثر بعد أن جففت ووزنت. ومن ثمّ تم استخلاص كمية التربة المنقولة وفقاً لما يوضحه الجدول (5)، والجدول (6).

ومن خلال معدلات انجراف التربة منسوبة إلى المساحة، نجد أن هذه القياسات لكمية انجراف التربة في منطقة حوض وادي الحسا الأوسط هي بشكل عام ضمن تقديرات معدلات انجراف التربة في مختلف مناطق الأردن، التي تراوحت ما بين 0.3 - 1.7 طن/ دونم/ السنة، وأقل من تقديرات منظمة الفاو العالمية التي قدرّت بأن الانجراف المائي في الأردن ما بين (1-5) اطنان/دونم/ السنة⁽²⁹⁾، وأقل من تقدير عنانزة لكميات انجراف التربة في منطقة عجلون والتي قدرها من خلال دراسته بنحو 0.96 طن/دونم/ السنة⁽³⁰⁾، هذا بالإضافة إلى تقديرات البطيخي وعربيات حول انجرافات التربة في 331 عينة قدرت معدلات انجراف تربتها ما بين (0 - 20 طن/دونم / السنة)⁽³¹⁾.

جدول (5): معدل التناثر ط/دونم/السنة

العينة	معدل التناثر 2008 / 2009 بالطن / دونم	معدل التناثر 2007 / 2008 بالطن / دونم
1	0.2	0.16
2	0.22	0.27
3	0.16	0.2
4	0.22	0.25
5	0.22	0.32
6	0.37	0.29
7	0.4	0.46

جدول (6): المعدل السنوي لتناثر التربة بفعل قطرات المطر، ومعدل الانجراف المساحي

معدل الانجراف طنا / ر / س	المعدل السنوي	مج. التربة المتناثرة لعامين مطريين (2007/ 2008 - 2008 / 2009 بالغرام/سم ²)	العينة
0.36	1.81	3.63	1
0.5	2.51	5.02	2
0.36	1.83	3.66	3
0.47	2.39	4.78	4
0.54	2.73	5.47	5
0.66	3.32	6.65	6
0.86	4.33	8.66	7
3.75	-	37.87	المجموع
0.53	-	5.41	المعدل

وكتنتيجة لهذه الفروقات في معدلات إنجراف التربة في التناثر، طبقت منهجية Thompson and McGregor (1995) حول قابلية الأرض للانجراف، والتي تؤدي الى زيادة احتمالية الإنجراف وهي: $E = Kq^2.S^{1.66}$ (32).

وبعد أن طبقت هذه المنهجية على ثلاث وحدات جيومورفولوجية ضمن منطقة الدراسة وهي: منطقة العينا الغربية (سفوح التعرية)، ومنطقة العالية (أسطح الميسا)، ومنطقة سد التنور (الأراضي المتهدلة) التي يوضح خصائصها الطبيعية الجدول (7).

جدول (7): احتمالية إنجراف التربة في حوض وادي الحسا الأوسط

المنطقة	الانحدار بالدرجة	المساحة/كم ²	نوع الصخر المحلي	احتمالية انجراف التربة مم/سنه
العينا	11	2	وادي أم غدران	1.03
السد (سد التنور)	8	0.95	الفحيص/الحرر /شعيب	1.37
العالية	5.6	1.4	رسوبيات حديثة	1.65

المصدر: (1) الخريطة الطبوغرافية والقياس الميداني، (2) الخريطة الجيولوجية 50000/1

* حيث: E هي احتمالية انجراف التربة، K مقياس قابلية التربة المشتقة من الصخر المحلي على الانجراف وتساوي (ثابت 0.02)، S درجة الانحدار، Q هي كمية الجريان السطحي التي تشتق من المعادلة الآتية $q=(p-A)a$ ، حيث ان: p معدل الامطار في وحدة زمنية معينة. A كمية التسرب الداخلي، a مساحة المنطقة.

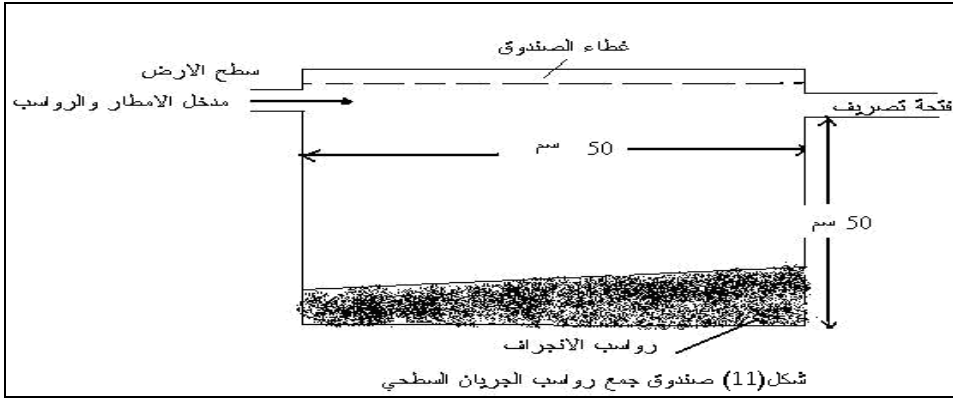
نجد أن معدل احتمالية قابلية التربة على الانجراف ضمن الوحدات الجيومورفولوجية الرئيسية الثلاث هو 1.35 م/ السنة، وهذا الرقم يكاد يتفق مع نتائج الدراسات التي أجريت على بقاع مختلفة من الأردن والتي تراوحت ما بين 1.04 - 1.33، كما تتفق مع نتائج دراسات ماكدونالد حول كمية انجراف التربة في الأحواض الشرقية للأردن والتي قدرها بنحو 1.4 م/ السنة⁽³³⁾، ولكنه لا يتفق مع كمية التربة التي تنتثر بواسطة قطرات المطر، مما يعني وجود متغيرات تؤثر على انجراف التربة، بالإضافة إلى الأمطار التي أظهرها التحليل الإحصائي مثل: خشونة السطح، والانحدار، وخصائص التربة الكيميائية والفيزيائية، والجيولوجيا وغيرها.

2- الانجراف القنوي

يحدث الجريان السطحي عندما يتحول الجريان الغطائي إلى جريان بواسطة القنوات المائية، وتصبح قدرة الماء وطاقته أكبر على حمل جزيئات التربة التي تنثرت نتيجة ارتطام قطرات المطر بها، التي أسهمت في نقلها من مكانها وأصبحت أسهل في عملية الانتقال بواسطة الجريان الغطائي، الذي لا يلبث أن يتحول إلى جريان أخدودي يتراوح ما بين القنوات قليلة العمق (rills)، وما بين المسيلات المائية العميقة والواسعة (Gullies)، التي قسمها روس 1994، إلى ثلاثة أقسام رئيسية وفقاً لعمليات تشكيلها وهي: الجداول على شكل الحرف اللاتيني (V) التي تنجرف موادها المجوأة عن قناة الوادي بناءً على قوة القص الهيدروليكي، والجداول على شكل حرف (U) والتي تنتج عن انهيارات حواض الأودية، وجداول الإذابة، وقد وجد ماير وفوستر ونيكولوف بأن أكثر من 15% من الحبيبات الموجودة على السفوح التي يزيد انحدارها عن $(3,5)^5$ تنقل بواسطة القنوات المائية⁽³⁴⁾.

وكنتيجة لأهمية معرفة كمية الانجراف بواسطة القنوات المائية في حوض وادي الحسا الأوسط ذي الطبيعة الطبوغرافية المعقدة، انتهج الباحثان في معرفة كمية انجراف التربة بفعل الجريان السطحي صناديق (مصادر)⁽³⁵⁾، لقياس رواسب الانجراف لقياس انجراف التربة بواسطة القنوات المائية شكل (11)، إذ وضعت سبعة صناديق بمواصفات خاصة لتجميع التربة أثناء العواصف المطرية التي تسبب الجريان السطحي، وبعد انتهاء العاصفة المطرية كانت تجمع عينات التربة التي جمعت في هذه الصناديق وتجفف وتوزن، وكانت النتيجة أن هذه الصناديق لم تكن عملية؛ بسبب تعرضها للعبث وحتى في المناطق المحمية؛ لأنها تحتاج إلى عمل أحواض تجميعية طولها 10م، وعرضها 3 م - وبالرغم من ذلك - تم تجميع التربة المنقولة بواسطة الجريان السطحي للأمطار من خلال أربع مصائد وضعت ضمن بعض الأراضي المحمية: الموقع الأول بالقرب من سد التنور والذي سجل 0.874 كغ/م²/ السنة، والموقع الثاني في منطقة العالية الواقعة ضمن سطح الميسا الأردنية الذي سجلت القراءات فيه 0.488 كغ/م²/ السنة، أما الموقع

الثالث فقد وضع في إحدى المزارع في قرية العينا، وسجلت القراءات فيه 0.620 كغ/م²/ السنة. أما الرابع فقد وضع في منطقة زبدة بالقرب من محطة عابور الزراعية، وسجلت القراءات فيه 0.532 كغ/م²/ السنة، ومن ثم فإن كمية التربة التي يتم نقلها بواسطة القنوات المائية تصل في معدلاتها إلى 0.628 طن / دونم/السنة. وهذه الكمية هي أكبر من تقديرات وزارة المياه والري في دراسات الأولية لإنشاء سد التنور حيث قدرت تلك الدراسات بأن معدل الإرسابات التي تصل إلى جسم السد تقدر بنحو 106000 طن/السنة، من كامل مساحة حوض وادي الحسا التي تبلغ 2160 كم²، ومهما يكن، فإن كمية الانجراف ترتبط بشكل مباشر في كثافة المطر وشدته، حيث تعرضت المنطقة على سبيل المثال لا الحصر بتاريخ 28-2-2009 إلى عاصفة مطرية بلغت كمية المطر فيها 57 مم، ووصلت شدة الأمطار فيها 16.1 مم/ الساعة، مما أدى إلى انجراف كميات هائلة من التربة توضحها الصورة الفوتوغرافية ملحق (2).



المصدر بتصريف: المصدر: Morgan, R.P.C. 1979, p18-21.

التحليل الاحصائي

استخدم الحاسوب لتحليل مصفوفة المتغيرات التي أدخلت من أجل تحديد أهم المتغيرات التي تؤثر في كمية انجراف التربة من خلال استخدام التحليل العائلي Factor Analysis، وقد استخدم في هذه الدراسة 25 متغيراً جدول (1) - مع تثبيت عامل المطر لوجود محطة واحدة تغطي منطقة الدراسة من جهة، ولاعتماد كمية التناثر والانجراف الغطائي والقنوي على القياسات الميدانية من خلال: مصاد التناثر، وصندوق الرواسب، في حين كان الهدف من هذا البحث هو تحديد أهم الخصائص الفيزيائية، والكيميائية للتربة التي تلعب دوراً مهماً في كمية انجراف التربة -الذي من خلاله- تم اشتقاق العوامل التي تكثفت حولها المتغيرات من خلال إطار التباين ما بين الوحدات الجيومورفولوجية المعرضة للتعرية، وأهم العوامل التي أثرت على كمية انجراف التربة فيها.

فمن خلال التحليل العاملي تكثفت المتغيرات حول ست مجموعات، كان أضعفها العامل السادس، الذي لم يفسر إلا 5.6% من قيمة التباين المفسر، وأكثرها ارتباطا هو العامل الأول الذي فسر ما نسبته 32.7% من قيمة التباين المفسر الذي يوضحه جدول (8).

جدول (8): التباين المفسر لمتغيرات العوامل

العامل	مربعات تشبعات العوامل	نسبة التباين المفسر (%)	نسبة التراكم (%)
الأول	7.54	32.79	32.79
الثاني	5.86	25.51	58.317
الثالث	3.78	16.44	74.76
الرابع	2.40	10.446	85.211

فمن خلال هذا الجدول، نجد أن العامل الأول قد فسر ما نسبته 32.79% من التباين، حيث تكثفت حول هذا العامل والذي أطلق عليه العامل الكيميائي للتربة، المتغيرات الآتية: أكسيد البوتاسيوم (0.986)، ورطوبة التربة (0.940)، وأكسيد الألومنيوم (0.935)، وأكسيد المغنيسيوم (-0.829)، وأكسيد المنغنيز (0.655).

أما العامل الثاني الذي أطلق عليه لدونة التربة، فقد فسر ما نسبته 25.51% من إجمالي التباين المفسر، حيث تكثفت حوله متغيرات: لدونة التربة (0.904)، ونسبة الطين في التربة (0.899)، ومعامل اللدونة (0.708)، والسيولة (0.709)، وأكسيد الكالسيوم (-0.701).

أما العامل الثالث الذي أطلق عليه العامل المورفولوجي، فقد فسر ما نسبته 16.6% وتضمن متغيرات: الجيولوجية (0.930)، وشكل السطح (0.825)، وأكسيد التيتانيوم (0.759)، والانحدار (-0.713).

بينما فسر العامل الرابع الذي تضمن ثلاثة متغيرات هي: نسبة السلت (0.857)، ونسبة الرمل (-0.788)، وثاني أكسيد الكبريت (0.700). ما نسبته 10.4%، لذلك أطلق عليه عامل نسيج التربة.

ومن خلال هذه العمليات الإحصائية التي تقيس ارتباط الحالة، والعوامل التابعة لها للكشف عن التباين بين المتغيرات التابعة في المصفوفة، وبين العامل المستقل، وهو انجراف التربة، من خلال القيم الموجبة ذات الارتباط الوثيق بين المتغير المستقل، والمتغيرات التابعة التي اشتقت منها العوامل، وبين القيم السالبة ذات الارتباط السلبي، وبين المتغير المستقل، والمتغيرات التابعة؛ ففي حين نجد على سبيل المثال: أن أكسيد البوتاسيوم (0.986)، ورطوبة التربة (0.940)،

وأكسيد الألومنيوم (0.935) ارتبطت بشكل إيجابي في التربة المتناثرة، نجد في المقابل أن أكسيد المغنيسيوم (-0.829) ارتبط بشكل سلبي في عمليات تناثر التربة؛ لأن المغنيسيوم على سبيل المثال، يقوم بربط جزيئات التربة، وتصبح أكثر التصاقاً مع كتلة التربة، ومن ثم أقل قابلية على الانجراف.

التوصيات

بناءً على نتائج الدراسة توصل البحث إلى عدة توصيات أهمها:

- 1- إعادة تأهيل المنطقة الزراعية على جانبي وادي الحسا من خلال إدخال التقنيات الهندسية الزراعية، كزيادة التربة المغطاة ببقايا المزروعات (التغطية بالقش مثلاً)، وتقليل طول السفوح المنحدرة باستخدام المصاطب الحجرية، والزراعة الكنتورية، وتقنية زراعة الأتلام.
- 2- العمل على زراعة المناطق المحيطة بسد التنور بالنباتات والأشجار الحرجية للتقليل من انجراف التربة، وبالتالي تقليل كمية الإرسابات في جسم السد.
- 3- توعية أصحاب المزارع ومراقبتهم، والعمل على فحص التربة سنوياً للتأكد من كمية المخصبات التي تضاف إلى التربة، وتنقل مع مياه البزل، أو مياه الأمطار؛ لتستقر في جسم السد.
- 4- العمل على وقف الرعي حول المناطق القريبة من السد.
- 5- وضع أجهزة لقياس كمية الفيضانات.
- 6- العمل على تشجيع الأبحاث التطبيقية على هذه المنطقة الحيوية من مختلف الاختصاصات.

Soil Erosion in the Middle Catchments Area of Wadi Al-Hisa / Tafila

Ali Al-Shabatat, *Humanities and Social Sciences Department, Tafila Technical University, Tafila, Jordan.*

Mousa Gougazeh, *Natural Resources and Chemical Engineering Department, Tafila Technical University, Tafila, Jordan..*

Abstract

This research attempts to study soil erosion caused by rain splash and by runoff in the middle catchments area of Wadi Al-Hisa (Atnur Dam) for the rainfall seasons 2007-2008 / 2008-2009. To achieve this aim, we have chosen seven sites of field measurements.

According to this investigation, it can be concluded that soil erosion by splash erosion was estimated 0.53 tons/dunm/year, and the rate of erosion by runoff in the same study site estimated at 0.628 tons/dunm/year. These figures are less than the figures estimated by many previous studies which were conducted in the East of Jordan.

Factor analysis was used to determine the variables which explain the correlation effects in the soil erosion in wadi Al-Hisa catchments area. These factors are: soil chemistry, plasticity, morphology, and soil texture.

Keywords: soil erosion, runoff erosion, splash cups, factor analysis.

قدم البحث للنشر في 2011/10/30 وقبل في 2012/4/8

الهوامش:

- (1) وزارة النقل، دائرة الارصاد الجوية، جداول غير منشورة، 2009-2008.
- (2) Laflen, J.M. and Roose, E.J., 1997, Methodologies for Assessment of Soil Degradation Due to Water Erosion: In: Lai, R., and Blum, W.H., and Stewart, B.A., Methods for Assessment of Soil Degradation, New York, CRC press, pp. 31-32.
- (3) Al-Kharabsheh, A., 2004, Effect of rainfall and soil surface management on soil water budget and erosion in arid areas, Un.Pub.thesis, university of Jordan, Amman, Jordan, pp10.
- (4) Laflen and Roose. 32، مصدر سابق، ص.

- (5) Stocking ,M..A.,1988,Quantifying the On-site impact of soil erosion in: sanarn Rimwanich (E.d) Land conservation for future generations , Department of land Development , Bangkok pp.61-137.
- (6) Farhan.Y., 1985, Aphoto Geomorphology Approach to Reconnaissance soil erosion Mapping and evaluation, A cause study from Central, Jordan Dirasat, University of Jordan, Jordan,vol.12, no.9 , pp 251-273.
- (7) Macdonald & partners Ltd. , 1965,East Bank Water Resources, summary rept. Central Water Auth, Amman, pp28.
- (8) Saleh, H. ,1971, Problems of water erosion in the East Bank of Jordan Valley, Faculty of Arts Journal, Jordan,pp.8.
- (9) العنانزه، علي،1986،الناتج الرسوبي لحوض وادي كفرنجه، رسالة ماجستير غير منشوره، الجامعة الاردنية،عمان، الاردن.
- (10) الدباس، اسماعيل،1994، قياسات انجراف التربة في مواقع مختاره من منطقة السلط، رسالة ماجستير غير منشوره، الجامعة الاردنية، عمان،ص62.
- (11) الحمدان، عدلي،1996،انجراف التربة في منطقة الازرق في الاردن،رسالة ماجستير غير منشوره، الجامعة الاردنية، عمان،ص114.
- (12) Farhan, Y.1985، مصدر سابق، ص251-273.
- (13) Tansey K.J. , 2001, Investigating the potential for soil moisture and surface roughness monitiring in drylands using E.R.S.S.A.R data. International Journal of Remote sensing vol.22, no. 11, pp 2129-2149 .
- (14) Lai, R. , Valintine, C. ,Blum, W.H. , And Stewart, B.A., 1997,. Methods for Assessmment of soil Degradation New York: CRC, Boca Raton, pp. 31-51.
- (15) Al-kharabsheh,2004..10، مصدر سابق،ص
- (16) Willimott.S.G., Gilchrist Shinlaw D.W., Smith, R.A.,Birch,B.P., 1963,The Wadi Al Hassa Survey , Jordan, Univ. of Durham , Durham, U.K,pp1-35.
- (17) قطيش، مها، 2007، تقييم جيومورفولوجي للاراضي في حوض وادي الحسا جنوب الاردن، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الاردنية، الاردن.
- (18) Humphreys & partners Ltd. and C.E.C Consulting Engineering center,1994, the study and Design of Tannur Dam, part 1, summary Report.
- (19) Morgan R.P.C. ,1986, Soil Erosion and Conservation, London:Longman.
- (20) Bender, F. ,1974, Geology of Jordan, Belin: Gebrunder Borntager
- (21) عابد،عبدالقادر،1982، جيولوجيه الأردن، ص 31
- (22) Tarrwneh. B. , 1988,The Geology of Tafila , Bull 12, Amman, Jordan, , pp 1-49
- (23) شحادة، نعمان، 1990، مناخ الاردن، عمان،دار البشر، ص120

- (24) وزارة النقل، دائرة الارصاد الجوية، مصدر سابق
- (25) Eisawi,D., 1996, Vegetation of jordan,Cairo UNESCO- Office.pp111-126
- (26) مصدر سابق،1986، Morgan R.P.C.
- (27) الحمدان،1996، مصدر سابق، ص 45.
- (28) وزارة النقل، دائرة الارصاد الجوية، تقارير غير منشورة، 2008-1973.
- (29) ، مصدر سابق، ص251-273، Farhan, Y.1985.
- (30) عنانزة، مصدر سابق، ص 65-85.
- (31) Battikhi, A.M., and Arabiat, S., 1983, Constraint to the successful Application of Modern Technology for soil conservation in Jordan Dirasat 10. (2), Part(1): Envir. Features and Event of Erosion, 5(2),pp155.
- (32) McGregor, D.F.M., and Thompson, D.A. 1995,Geomorphology & Land Management In AChanging Enviroment. In: McGregor , D.F.M., and Thompson, D. A., Geomorphology and Land Management In Changing Enviroment:. New York: John Wiley, pp.3-11.
- (33) مصدر سابق، ص 58، McDonald,1965.
- (34) مصدر سابق، 1995، lai et al. ,.
- (35) مصدر سابق، 1986، Morgan R.P.C.
- (36) Humphreys & partners Ltd. And C.E.C consulting Engineering center ، مصدر سابق ص1-19943

المصادر والمراجع العربية:

- الحمدان، عدلي، 1996، انجراف التربة في منطقة الازرق في الاردن، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، عمان.
- الدباس، اسماعيل، 1994، قياسات انجراف التربة في مواقع مختاره من منطقة السلط، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، عمان.
- شحادة، نعمان، 1990، مناخ الاردن، عمان، دار البشر، ص120.
- عابد، عبد القادر، 1982، جيولوجية الاردن. عمان: مكتبة النهضة الاسلامية، ص 31.
- العنانزة، علي، 1986، الناتج الرسوبي لحوض وادي كفرنجه، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، عمان، الاردن.

قطيش، مها، 2007، تقييم جيومورفولوجي للأراضي في حوض وادي الحسا جنوب الاردن، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الاردنية، الاردن.

وزارة النقل، دائرة الارصاد الجوية، جداول غير منشورة، 2008-1973.

وزارة النقل، دائرة الارصاد الجوية، جداول غير منشورة، 2009-2008.

المصادر والمراجع الاجنبية:

Al-Kharabsheh, A., 2004, *Effect of rainfall and soil surface management on soil water budget and erosion in arid areas*, Un.Pub.thesis, university of Jordan, Amman, Jordan, pp10.

Battikhi, A.M., and Arabiat, S., 1983, Constraint to the successful Application of Modern Technology for soil conservation in Jordan Dirasat 10. (2), Part(1): *Envir. Features and Event of Erosion*, 5(2), pp155.

Bender, F. ,1974, *Geology of Jordan*, Belin: Gebrunder Bornstager.

Eisawi,D., 1996, *Vegetation of jordan*, Cairo UNESCO- Office. pp111-126.

Farhan.Y., 1985, Aphoto Geomorphology Approach to Reconnaissance soil erosion Mapping and evaluation, A cause study from Central, *Jordan Dirasat*, University of Jordan, Jordan numb.9 , pp 251-273.

Humphreys & partners Ltd. And C.E.C consulting Engineering center, 1994, *the study and Design of Tannur Dam*, part 1, summary Report.

Laflen, J.M, and Roose,E.J, 1997, *Methodologies for assessment of soil Degradation Due to Water Erosion*:In:Lai,R.,and Blum, W.H., and Stewart , B.A.,Methods for Assessment of Soil Degradation,Newyork, CRC press,pp31-32.

Lai, R., Valintine, C., Blum, W.H. And Stewart, B.A., 1997, *Methods for Assessmment of soil Degradation New York*: CRC, Boca Raton, pp. 31-51.

Macdonald & partners Ltd. , 1965, *East Bank Water Resources*, summary rept. Central Water Auth, Amman, pp28.

McGregor, D.F.M. and Thompson, D.A., 1995, *Geomorphology & Land Management In AChanging Enviroment*. In: McGregor, D.F.M., and Thompson, D. A., *Geomorphology and Land Management In Changing Enviroment*:. New York: John Wiley, pp.3-11.

Morgan R.P.C. ,1986, *Soil Erosion and Conservation*, London:Longman.

- Saleh, H. ,1971, *Problems of water erosion in the East Bank of Jordan Valley*, Faculty of Arts Journal, Jordan.
- Stocking ,M..A.,1988, *Quantifying the On-site impact of soil erosion*, in: sanarn Rimwanich (E.d) Land conservation for future generations, Department of land Development, Bangkok pp.61-137.
- Tansey K.J. , 2001, Investigating the potential for soil moisture and surface roughness monitiring in drylands using E.R.S.S.A.R data. *International Journal of Remote sensing*, vol.22, no. 11, pp 2129-2149.
- Tarrwneh. B. , 1988, *The Geology of Tafila* , Bull 12, Amman, Jordan, , pp 1-49.
- Willimott.S.G., Gilchrist Shinlaw D.W., Smith, R.A.,Birch,B.P., 1963, *The Wadi Al Hassa Survey* , Jordan, Univ. of Durham , Durham, U.K,pp1-35.

انجراف التربة في حوض وادي الحسا الأوسط/ الطفيلة



ملحق(1) صورة فوتوغرافية لوادي الحسا تبيّن طبوغرافية المعقدة والتخلّعات الأرضية والنباتات البرية، وكميات الارسابات



ملحق (2) صورة فوتوغرافية توضح كميات انجراف التربة اثناء العاصفة المطرية في 2009/2/28.

توقعات تجميع مياه الهطول من أسطح مساكن المراكز الحضرية في الأردن واحتمالات تبديلها

سامر النوايسة و عبدالله الطرزي*

ملخص

هدفت الدراسة إلى التعرف على إمكانيات تجميع مياه الأمطار الهائلة على أسطح المساكن من صنفى الدور، والفلل في خمس وعشرين مركزاً حضرياً في الأردن، وذلك باستخدام البيانات المطرية خلال فترة السجل المطري الممتدة من 1989/ 1990 إلى 2008/2009، وبيانات التعداد العام للسكان والمساكن لعام 2004 المتعلقة بمتغير متوسط مساحة المسكن من صنف الدار لخمس وعشرين مركزاً حضرياً، بينما لم يتعد ذلك المتوسط للفلل ثمانية عشر مركزاً، وقد تم الاعتماد على المنهج التحليلي والقائم على تحليل التباين الزمني والمكاني لكميات مياه الأمطار الهائلة، المتوقع تجميعها من أسطح المساكن باستخدام الطرق الكمية، والمعتمدة على استخراج فترات الرجوع لكميات الأمطار واحتمالاتها، واعتبر سطح المسكن الذي يجمع ثلاثين متراً مكعب من المياه مناسباً اقتصادياً لإنشاء بئر تجميع، وبناءً على ذلك تبين أن ثمانية عشر مركزاً حضرياً من أصل المراكز الحضرية المستخدمة في الدراسة يناسبها إنشاء آبار لمساكنها (الدور)، بينما يناسب ذلك الفلل في جميع المراكز الحضرية باستثناء مدينة معان، نظراً لقلّة الهطول المطري فيها.

الكلمات الدالة: المركز الحضري، تجميع المياه، المسكن، الدور، الفلل.

مقدمة

أدرك الأردن ومنذ بواكر السبعينيات من القرن الماضي انه يعاني شحاً في الموارد المائية، وعجزاً مائياً فيما بين العرض والتزويد المائي، حيث وصل هذا العجز في عام 2007م إلى حوالي (565 مليون متر مكعب)⁽¹⁾، ومن المتوقع أن يصل إلى (284 مليون متر مكعب) في عام 2022م في حال تنفيذ الإستراتيجية المائية المعلنة. بالإضافة إلى انه سيكون هناك المزيد من الضغط على الموارد المائية بسبب جملة التغيرات التي حدثت، ومنها: التغيرات الديمغرافية، والتكوين الأسري، وأسلوب الحياة، إذ ستشهد المناطق التي تعاني الكثير من الضغط على الموارد المائية المزيد من الطلب على المياه.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم الجغرافيا، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

ولما كانت إحدى مسؤوليات الدولة تأمين التزويد المائي الموثوق، وتوفير الكمية، والنوعية الملانمة من المياه لأفرادها، وإيجاد مصادر مياه جديدة لزيادة كميات المياه المحمية، والتخفيف من حدة التنافس المستمر على استخدام الموارد المائية ما بين الحاجة إلى مياه الشرب، والحاجات القطاعية الأخرى والمتمثلة في الزراعة المروية، والصناعة، والخدمات؛ ولذلك كان لا بد من وضع وتبني استراتيجية، وخطط مائية تنموية طموحة، وقادرة على التخفيف من العجز المائي المستمر، ليصار بعد ذلك إلى اتخاذ القرارات المناسبة، والفاعلة للتخفيف من الأزمة المائية، وانعكاساتها على تدني حصة الفرد السنوية، والتي جعلتها من أدنى الحصص ضمن قائمة الدول العشر الأفقر مائياً في العالم، حيث قدرت (3145م سنوياً) لعام 2007م، بعدما كانت تقدر بحوالي (3400م سنوياً) عند استقلال الأردن في عام 1946م⁽²⁾.

وبهذا تبنى الأردن وضع الاستراتيجية المائية الوطنية للفترة (2008-2022م) لمعالجة جملة الاختلالات المزمعة في معادلة الموارد المائية واحتياجاتها، وفي ثانياً هذه الإستراتيجية تم التركيز على مواجهة التحديات المائية من خلال حزمة من المبادرات، والإجراءات، والمشاريع الإستراتيجية، التي تأتي في مقدمتها التقنين من استعمالات المياه، وترشيد استهلاكها، وتفعيل وسائل الحصاد المائي وعلى وجه الخصوص حصاد مياه الأمطار الهاطلة على أسطح المساكن في المدن، والمراكز الحضرية وإعادة أحيائها بعد أن كان معمول به في الأردن ومنذ زمن بعيد، هذا ما تؤكده عمليات تخزين المياه في آبار مدينة البتراء الخالدة، وما تؤكده أنظمة التخزين في المدن الرومانية، ومنها البرك الحجرية عالية التقنية الهندسية، والتي ما تزال تستخدم حتى الآن مثل: بركة القسطل جنوب عمان، والبركتين الرومانيتين قرب مدينة جرش، والآبار التخزينية في البتراء، والقصور الأموية في البادية الأردنية، وجميعها تتصف بهندسة متقنة، وقدرة تخزينية عالية. وبالعودة إلى الماضي غير البعيد اعتاد الآباء والأجداد وقبل وصول شبكات التزويد المائي لمنزلهم إلى توفير احتياجاتهم المائية عن طريق حفر الآبار، وخزانات جمع مياه الأمطار، ولكن تغير الوضع حالياً بحيث أصبحت نسبة المساكن المتصلة بالشبكة المائية العامة للمياه تقدر بحوالي (97.7%)⁽³⁾، مما أدى إلى هجر المواطنين للآبار التجميعية، وعدم الاكتراث ببناء الخزانات، أو حفرها في باحات المنازل الجديدة.

ويعد حصاد مياه الأمطار الهاطلة على أسطح المنازل من أهم الحلول التي لا بد من التركيز عليها لمعالجة مسألة شح المياه، حيث قدر (Ray et al, 2004) بأن حوالي (11.44كم³) من مياه الأمطار يمكن حصادها سنوياً من أسطح البيوت في الهند، وتوفر هذه الكمية ما نسبته 30% من متطلبات الماء للأغراض المحلية فيها. ونظراً لعدم قدرة مصادر المياه الحالية في الأردن على تلبية الاحتياجات المائية للأغراض المختلفة، وعلى وجه الخصوص التزويد المائي لغرض الشرب، وقلة الوصول الدائم للمياه إلى المنازل، مما يحتم على المواطنين ضرورة إحياء فكرة "ثقافة

المزrab المطري"⁽⁴⁾ وبناء الخزانات، والآبار لتجميع مياه الأمطار وأخذ ذلك بعين الاعتبار عند تصميم المنازل خاصة في المناطق الحضرية، من الدور والفلل ذات الحدائق كبيرة المساحة وتفعيل ذلك بإصدار التشريعات اللازمة من خلال اشتراط بناء وحفر الآبار، والخزانات عند منح رخص البناء، حيث قدرت الكمية المجمعة من مياه الأمطار في منطقة أمانة عمان وحدها بحوالي (2.4 مليون م³ سنوياً)⁽⁵⁾، ومن المتوقع زيادة هذا التقدير مع ازدياد مساحات البناء الجديدة.

مشكلة الدراسة وأهدافها

تتمثل مشكلة الدراسة في معرفة اثر التباين الزمني والمكاني لمتغيري: معدلات الهطول السنوية للفترة (1989-2009)⁽⁶⁾، ومتوسط مساحة المسكن خلال فترة التعداديين السكانيين (1994/2004)⁽⁷⁾ على احتمالات حصاد مياه الأمطار الهاطلة على أسطح المساكن (الدور والفلل) في المدن، والمراكز الحضرية الأردنية، وتحديد إمكانيات تجميعها في خزانات وآبار خاصة، ويمكن تحديد الأهداف المتوخاة من الدراسة بما يلي:

1. التعرف على إمكانيات حصاد مياه الأمطار الهاطلة على أسطح المساكن (الدور، والفلل) في المدن، والمراكز الحضرية الأردنية خلال فترة السجل المطري (1989-2009)، وبيانات التعداد العام للسكان والمساكن لعام (2004).
2. دراسة وتحليل التباين المكاني في كميات المياه الممكن تجميعها من أسطح المساكن في منطقة الدراسة.
3. معرفة اثر متغيري: معدلات الهطول السنوية للفترة (1989-2009)، ومتوسط مساحة المسكن خلال فترة التعداد العام للسكان والمساكن لعام (2004) على احتمالات تجميع مياه الأمطار وحصادها.
4. التعرف على تباين كميات المياه الممكن حصادها من أسطح المساكن (الدور، والفلل) تبعا لأثر التباين في معدلات الهطول السنوية للفترة (1989-2009)، ومتوسط مساحة المسكن خلال فترة التعداديين السكانيين (1994/2004).

أهمية الدراسة ومبرراتها

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من خلال إمكانية توفير مصدر مائي يساهم وبشكل فاعل في التخفيف من عجز المصادر المائية الحالية، والاستفادة من تخزين الفائض المائي من أسطح المساكن أثناء فصل هطول الأمطار، والإفادة منه أثناء فصل الصيف الجاف، للتخفيف من حدة الطلب على التزويد المائي في المدن، والمراكز الحضرية الأردنية. ويمكن تبيان أهمية الدراسة بما يلي:

- توفير بيانات كمية عن حجم المياه الممكن حصادها من الهطول على أسطح المساكن للاستفادة منها في تصميم الخزانات، والآبار بالأحجام المناسبة والمتوافقة مع تلك الكميات.
 - الحصول على مياه عالية الجودة وأكثر نقاءً تصلح لكافة الاستعمالات المحلية والمنزلية (Domestic purposes) والمتضمنة: ماء الشرب، الطبخ، النظافة الشخصية، الغسيل، التنظيف.
 - التقليل ما أمكن من الكميات المستعملة من شبكات التزويد المائي، وانعكاس ذلك على توفير التدفق اللازم من المياه للمباني المرتفعة، والتقليل من عدد أيام الانقطاع المائي، والوصول إلى توازن مستدام بين التزويد، والطلب في مجال المياه، مما يعني تحديد وخفض الاستهلاك المائي لشبكات التزويد.
 - المساهمة في رفع حصة الفرد الأردني من إمداد المياه اليومية خصوصاً أثناء فصل الصيف.
 - استثمار الهطول المطري أثناء فصل الشتاء من خلال تجميعها، وضبط تخزينها، واستعمالها بطرق هندسية فاعلة للتخفيف من أوجه المعاناة المائية خصوصاً أثناء ذروة الطلب في فصل الصيف الجاف.
- وتتضح مبررات الدراسة من خلال أوجه معاناة التزويد المائي أثناء فصل الصيف، التي يمكن إيجازها:
1. انقطاع المياه من أربعة إلى خمسة أيام أسبوعياً تبعاً لبرنامج الضخ الأسبوعي المتبع في مناطق التزويد المائي.
 2. عدم وصول المياه بشكل كافٍ إلى المناطق المرتفعة، والمباني العالية؛ نظراً لتدني مستوى الضخ في أنابيب التزويد، مما يستدعي أحياناً تركيب مضخات خاصة لضخ المياه للمنازل العالية، ويترتب على ذلك ضعف تدفق المياه للمباني الأخرى المجاورة.
 3. زيادة قيمة فاتورة الاستهلاك المائي، وذلك تبعاً لسعر المتر المكعب الواحد من المياه بعد حد استهلاكي معين، يترتب عليه ارتفاع السعر مع زيادة الاستهلاك بعد ذلك الحد.
 4. تدني نوعية ونقاء المياه المزودة وتلوث مياه شبكات التزويد في بعض الحواضر التي تشهد ذروة الاستهلاك المائي.

الدراسات السابقة

أجريت العديد من الدراسات تناولت موضوع الحصاد المائي من أسطح، ومستجمعات مياه الأمطار، موضحة معظم الأبعاد التاريخية، والفنية، وأساليب الحصاد المائي الفاعلة، والمتبعة في العديد من المناطق الجغرافية.

وقد تم الاطلاع على معظم تلك الدراسات وكان لها الأثر الكبير في إثراء هذه الدراسة وسنستعرض فيما يلي أهم، وأحدث الدراسات المتعلقة بموضوع الدراسة:

• دراسة محمود (1986)⁽⁸⁾: حيث قام بدراسة إمكانيات استعمال مياه الأمطار التي يتم تجميعها من على أسطح المساكن في الأردن، بالاعتماد على بيانات سجلات مطرية لمجموعة من المحطات المطرية، وقد تضمنت الدراسة نتائج تتعلق بعدد من المعايير التي تؤخذ بعين الاعتبار عند تصميم وتحديد كفاءة أنظمة تخزين المياه، وطاقاتها المثالية.

• تناولت دراسة عبدالفتاح، لطفي (1999)⁽⁹⁾: إمكانيات الحصاد المائي من المراكز الحضرية الأردنية، حيث هدفت إلى تحليل التباين المكاني لإمكانيات حصاد مياه الأمطار من مستجمعات، وأسطح مساكن عدد من المدن الأردنية، وذلك باستخدام بيانات مطرية للفترة من (1978/77 – 1997/96)، وبيانات التعداد العام للسكان والمساكن لعام 1994م والمتعلقة بمتوسط مساحة المساكن في المدن، وقد أظهرت الدراسة نتائج تتعلق بتباين كميات مياه الأمطار التي يمكن حصادها من أسطح المساكن في المدن الأردنية، فكانت كل من: عجلون، السلط، عمان الكبرى، الكرك من أكثر المدن استئثاراً بمياه الحصاد المائي وبكميات متفاوتة.

• بحث الجبارين (2003)⁽¹⁰⁾: التقييم الاقتصادي لتقنيات الحصاد المائي في المناطق الجافة في الأردن، من خلال أجراء تقييم اقتصادي للسدود الثلاثة التي أنشئت من قبل مشروع زيادة إنتاجية المناطق الجافة في الأردن، حيث يشمل التقييم آبار جمع المياه المنشأة من قبل المزارعين في المنطقة مستخدماً العديد من معايير التقييم الاقتصادي، ورسم السيناريوهات لتقييم المنافع المتوقعة من الحصاد المائي. وتبين من نتائج المعايير المستخدمة أنها تشير وبوضوح إلى وجود جدوى اقتصادية، ومالية للاستثمار في جميع تقنيات الحصاد المائي في المناطق الجافة من الأردن حتى عند اتباع السيناريوهات المتحفظة.

• دراسة الطراونة، سليمان (2004)⁽¹¹⁾: الحصاد المائي للجريان الحضري في المنطقة الغربية من مدينة الكرك، من أجل استخدامها للاحتياجات المنزلية باستخدام جملة العلاقات فيما بين معامل الجريان، ومتغيرات: شدة المطر، ومعامل التدفق، كميات الحصاد المائي، موضحاً أن معظم المناطق الحضرية في الأردن تقع ضمن المناطق الرطبة مما يضاعف معامل الجريان؛ بسبب تناقص فرص التسرب، وقد خلصت الدراسة إلى أن الحصاد المائي للجريان الحضري يقلل من أضرار الفيضان، ويزيد من كميات المياه التي يمكن الاستفادة منها.

• وكشفت دراسة (Skinner,2004)⁽¹²⁾ المتعلقة بدراسة إمدادات المياه ضمن المستجمعات الصغيرة، وتصاريقها المائية عن أهم المعطيات التي تجعل من آليات الحصاد المائي

أكثر فاعلية، وفائدة، وقد ذكر أن المناطق المطرية والتي يتراوح معدل الأمطار السنوي فيها (200-1000) ملم أكثر ملائمة للحصاد المائي خصوصا من نواحي الجمع، والتخزين طوال فترة الفصل المطير، وذلك لتلبية المطالب أثناء الفصل الجاف، وتوصلت الدراسة إلى أن من أكثر الفوائد المتأتية من حصاد مياه الأمطار من السطوح المختلفة هو الاحتمالية العالية لعدم تلوثها، بالإضافة إلى إمكانية استخدامها لملء الخزانات الأرضية المعدة والمزودة للمنازل، واستخدامها للأغراض المحلية وري الحدائق، وتحديث الدراسة عن ضرورة التخلص من كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها خلال الفترات الأولى من هطول الأمطار؛ وذلك للتقليل من كمية الرواسب المحمولة ضمن أنظمة الحصاد المائي وأنابيب التجميع، والتي تزيد من عكورة المياه وتعطيها اللون المائل إلى الحمرة (First flush)، وحددت الدراسة جملة من الاعتبارات التخطيطية لحصاد مياه الأمطار من على أسطح المنازل، والتي تدخل ضمن تقدير كمية المياه الممكن تجميعها وهي: الفقد المائي من نظام الحصاد المستخدم، وكميات المياه المطلوبة ووقت الاستفادة منها، والنمط المطري السائد، وحجم الخزانات والآبار المائية المطلوبة، وأفضل طريقة لتخزين مياه التجميع. وحددت الدراسة مجموعة من المتطلبات التي تجعل من الحصاد المائي أكثر فاعلية وترتكز هذه المعطيات على:

1. وجود نمط مطري مناسب للحصاد المائي.
2. حاجة المجتمع لاستخدام وسائل الحصاد المائي.
3. أن تكون أنظمة الحصاد رخيصة ومتاحة للاستخدام.
4. عدم توفر مصادر مائية أخرى باستمرار أو يكون توفرها موسمياً.

• أوضحت دراسة (Liaw et al, 2004)⁽¹³⁾ والمتعلقة بالحجم الأقصى لتخزين حصاد مياه الأمطار من أسطح المنازل وباستعمال أنظمة التجميع المختلفة لاستخداماتها المحلية في تايوان من خلال تبني المنهج التحليلي، والمعادلات التجريبية، والقياس الميداني لتقدير، وقياس حجم المياه المحصورة، وقد توصلت الدراسة إلى تحديد بعض معاملات الجريان المائي للسطوح المختلفة.

• أجرى (Purwanti, 2006)⁽¹⁴⁾ دراسة عن تجميع مياه الأمطار من أسطح المنازل ضمن مستجمع مائي صغير لاستعمالها في الاستخدامات المحلية في إندونيسيا، وقد توصلت الدراسة إلى نتائج تتعلق بإمكانية تجميع مياه الأمطار من الأسطح المختلفة، والاستفادة منها في مجال الزراعة المحلية، وسقاية المواشي، وكذلك التقليل ما أمكن من أخطار الفيضان، وأظهرت الدراسة اهتماماً ببعض الاعتبارات التي يجب ان تؤخذ في الحسبان عند تطبيق وسائل الحصاد المائي من

أسطح المنازل ومنها: نسبة التبخر، وأنماط التساقط المطري، وقابلية المجتمع لتفعيل وسائل وأنظمة الحصاد المائي.

• ناقش (Clara, 2010)⁽¹⁵⁾ تقييم الحصاد المائي من أسطح المنازل لاستثمارها في الأغراض المحلية في كينيا، محاولاً الوصول إلى أولويات التزويد المائي للاستعمالات المحلية المختلفة لثلاث بلدات في غرب كينيا، باستخدام التحليل الإحصائي للبيانات، والمتغيرات المدروسة، وبينت الدراسة أن حصاد مياه الأمطار من أسطح بعض المستجمعات لا تستطيع الإيفاء بالحد الأدنى من متطلبات الاستعمالات المحلية خلال كل أيام السنة، خصوصاً أثناء الفترات الجافة الطويلة.

ولعل ما يميز هذه الدراسة عن بقية الدراسات السابقة في أنها تقدر كميات مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح الدور، والفلل المراكز الحضرية الأردنية، خلال فترات حديثة: لمعدلات الأمطار السنوية (1990/89 – 2009/8)، ومتوسط مساحة المسكن ضمن التعداد العام للسكان والمساكن لعام 2004م، وأبرز أثر التغير الزمني والمكاني في معدلات الأمطار السنوية من ناحية، ومعدل مساحة سطح المسكن (الدور، والفلل) من ناحية أخرى خلال فترات التعداد السكاني لعامي (2004/1994) على توقعات تجميع مياه الهطول؛ وذلك نتيجة لما تشهده المراكز الحضرية الأردنية المدروسة من نمو ملحوظ في إنشاء المزيد من المساكن، واختلاف أنماط استخدام الأرض المتصل بها، بالإضافة إلى الحاجة الملحة لإيجاد مصادر مائية بديلة يمكن الاعتماد عليها، خصوصاً في ظل محدودية الموارد المائية والضغط عليها وتزايد معدلات العجز المائي؛ بسبب التغيرات السكانية والتنموية وأساليب الحياة المختلفة، الذي انعكس بدوره على اتخاذ بعض السياسات الواضحة في مجال قطاع المياه في الأردن من خلال تبني الاستراتيجية الوطنية لقطاع المياه (2008-2022) التي ذكرت في واحدة من مبادئها صراحة، على أن "الأردن سيطبق تعليمات ذات طبيعة محفزة، ومشجعة للحصاد المائي في المناطق المختلفة"⁽¹⁶⁾.

وبهذا فإن الدراسة تعد مكملة لنتائج الدراسات السابقة، والتي ستقدم بعض التوصيات التي تساعد متخذي القرار في تبني التدابير اللازمة من أجل تفعيل، وتطوير أنظمة، ووسائل الحصاد المائي لمياه الأمطار من المستجمعات، والأسطح المختلفة، خصوصاً أسطح المباني السكنية منها.

منهجية الدراسة

اعتمدت الدراسة لتحقيق أهدافها والوصول إلى النتائج المتوخاة على المنهج التحليلي (Analytical Approach) القائم على تحليل البيانات بالطرق الكمية، لتوضيح التباين الزمني والمكاني لكميات مياه الأمطار المتوقع حصادها من أسطح المساكن (الدور، والفلل) من المراكز الحضرية الأردنية، ومعرفة أثر وعلاقة كل من متغيري: معدلات الهطول السنوية، متوسط مساحة

المسكن خلال التعداديين السكانيين (2004/1994م)، على كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح المساكن، واعتمدت بيانات معدلات الهطول السنوية خلال الفترة (1990/89 - 2009/8م) للمحطات المطرية الواقعة ضمن خمسة وعشرين مركزاً حضرياً، (انظر شكل1) مأخوذة من سجلات وزارة المياه والري⁽¹⁷⁾، بالإضافة إلى بيانات التعداد العام للسكان والمساكن لعامي (2004/1994م) وخصوصاً البيانات المتعلقة بمتوسط مساحة السطح لنوعي المسكن: الدور، والفلل، والمعدة من قبل دائرة الإحصاءات العامة⁽¹⁸⁾ حيث اعتبرت الدار هي: المبنى التقليدي الذي يتكون من غرفة، أو أكثر وقد تكون هذه الغرف على شكل صف واحد، أو متناثرة أو قد تتكون من غرفتين وبرندا، وربما تكون داخل سور (حوش)، وقد تكون الدار مكونة أيضاً من طابقين يصل بينهما درج خارجي مكشوف على الأغلب. بينما حددت الفيلا على أنها: مبنى قائم بذاته مشيد من الحجر النظيف عادة، ويتكون من طابق واحد بجناحين، أو من طابقين أو أكثر يصل بينهما درج داخلي، كما يخصص أحد الأجنحة في حالة الطابق الواحد أو الطابق الثاني للنوم والجناح الآخر أو الطابق الأرضي يخصص للاستقبال والمطبخ والخدمات بمختلف أنواعها، كما يتوفر في الفيلا غالباً حديقة تحيط بها، بغض النظر عن مساحة تلك الحديقة، بالإضافة إلى سور يحيط بها من الخارج، وكراج للسيارة، كما يغطي السطح العلوي للفيلا بمادة القرميد على الأغلب.

تم إدخال ومعالجة البيانات باستخدام الحاسب بغرض استخلاص النتائج وفقاً للإجراءات التالية:

1. استخدم برنامج الرزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية SPSS في البداية، وذلك من أجل حساب معدلات الأمطار السنوية لكل محطة، وأجراء تقدير لفترات الرجوع (Return Periods) للأمطار من خلال حساب احتمالية الفترة الزمنية التي يتوقع أن تتكرر نفس الكمية من الأمطار فيها، ولاختبار مدى توافق البيانات المطرية السنوية مع التوزيع الطبيعي (Normal Distribution)، أو اختيار توزيع المعاينة المناسبة لأجراء التحليل وتقدير فترات الرجوع واحتمالاتها، فقد تم حساب معامل الالتواء (Skewness) لمعدلات الأمطار السنوية، ولكافة محطات الدراسة، والتي تعطي تصوراً عن تمركز قيم الأمطار السنوية، ومدى التماثل مع التوزيع الطبيعي المعتدل، وقد وجد أن التوزيع التكراري لمعدلات الأمطار السنوية في المحطات تميل عادة وبقيم موجبة، وهذا يعني أنها لا تتماثل مع التوزيع الطبيعي مما يشكل عتبة أمام استخدام الوسائل الإحصائية العادية في تحليلها واستخلاص النتائج منها، ولهذا الغرض فقد أدخلت بيانات الأمطار السنوية، ولكافة المحطات إلى البرنامج الهيدرولوجي (SMADA)⁽¹⁹⁾ من أجل بناء توزيع نسبي لبيانات الهطول المطري لمنطقة الدراسة، وتقدير فترات الرجوع، واحتمالاتها من خلال بناء متتالية سنوية جزئية عظمى للتحليل النسبي، حيث خزنت معدلات الأمطار السنوية لكافة المحطات

بعد ترتيبها ترتيباً تنازلياً في القائمة الرئيسية لبرنامج (SMADA)، ومن ثم تم استدعاؤها باختبار نافذة (Distrib 2.13) التي تخص تحليل التوزيعات الإحصائية (Statistical Distribution Analysis) لمعرفة أي من التوزيعات الاحتمالية ملائمة لتمثيل البيانات، حيث وجد أن توزيع بيرسون من النوع الثالث (Pearson type III) هو من أكثر التوزيعات تماثلاً فيما بين البيانات الحقيقية والتوزيع الاحتمالي، لذلك اخذ هذا التوزيع ممثلاً لبيانات معدلات الهطول المطري السنوي في محطات الدراسة خلال فترات رجوع تم تقديرها من قبل البرنامج وهي (سنتان، ثلاث سنوات، خمس سنوات)، وباحتمال حدوث وعلى التوالي (50.00، 68.00، 80.00%). وبذلك يمكن استخدام الوسائل الإحصائية العادية في تحليلها واستخلاص النتائج منها باستخدام برنامج الرزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية SPSS، ويوضح شكل رقم (2) مدى تماثل البيانات الحقيقية لمعدل الأمطار السنوية لبعض محطات الدراسة مع التوزيع الاحتمالي لبيرسون النوع الثالث باستخدام المعالجة الإحصائية لبرنامج (SMADA)، الممثلة للأقاليم الجغرافية في الأردن.

2. استخدمت قيم معدلات الأمطار السنوية لكل محطة من المحطات ولفترات الرجوع الثلاث: (سنتان، ثلاث سنوات، خمس سنوات) لحساب كميات مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح المساكن (الدور، الفلل)، تبعاً لمتغير متوسط مساحة المسكن حسب نتائج التعداد العام للسكان والمساكن لعام 2004م، ومعرفة التباين المكاني لكميات المياه الممكن حصادها لكل مدينة، ومركز حضري من خلال تطبيق المعادلة التالية⁽¹⁹⁾:

$$V = C * A * d$$

حيث أن:

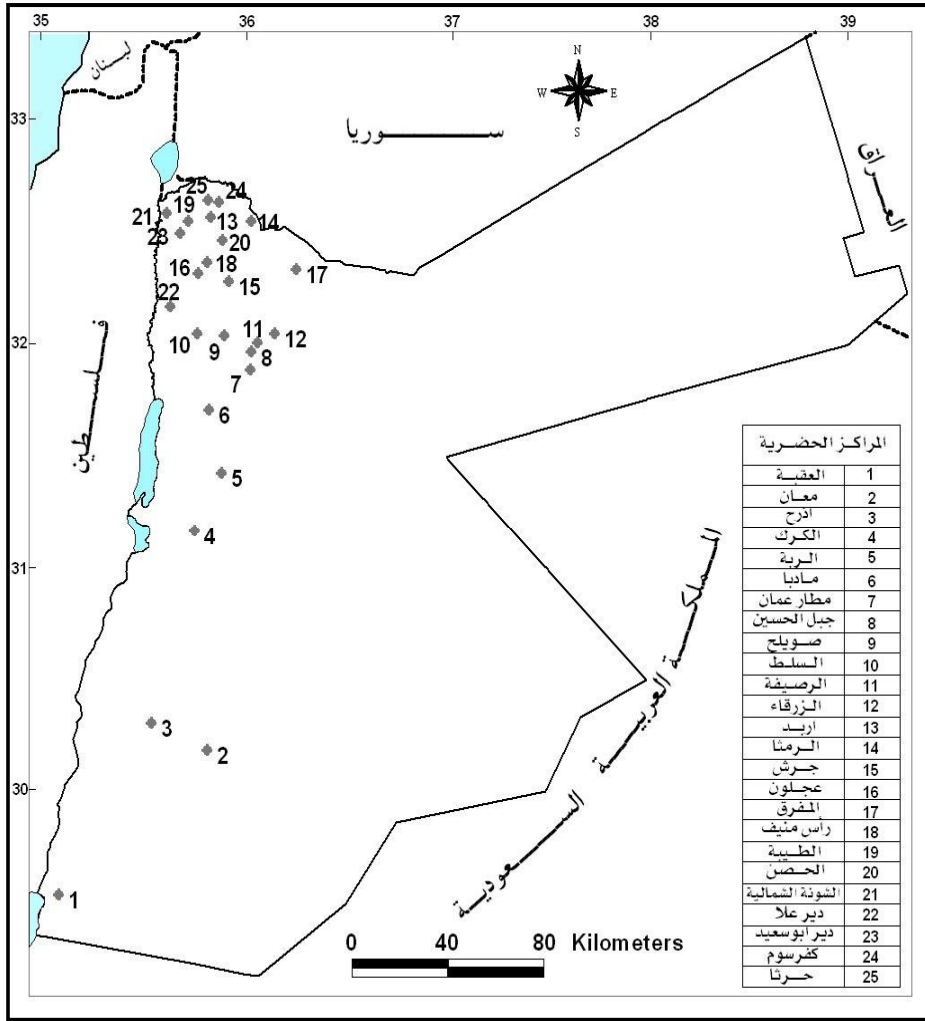
V = كمية مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح المساكن / م³.

A = متوسط مساحة المسكن / م².

d = معدل الأمطار السنوية / ملم لفترة الرجوع (سنتان، ثلاث سنوات، خمس سنوات).

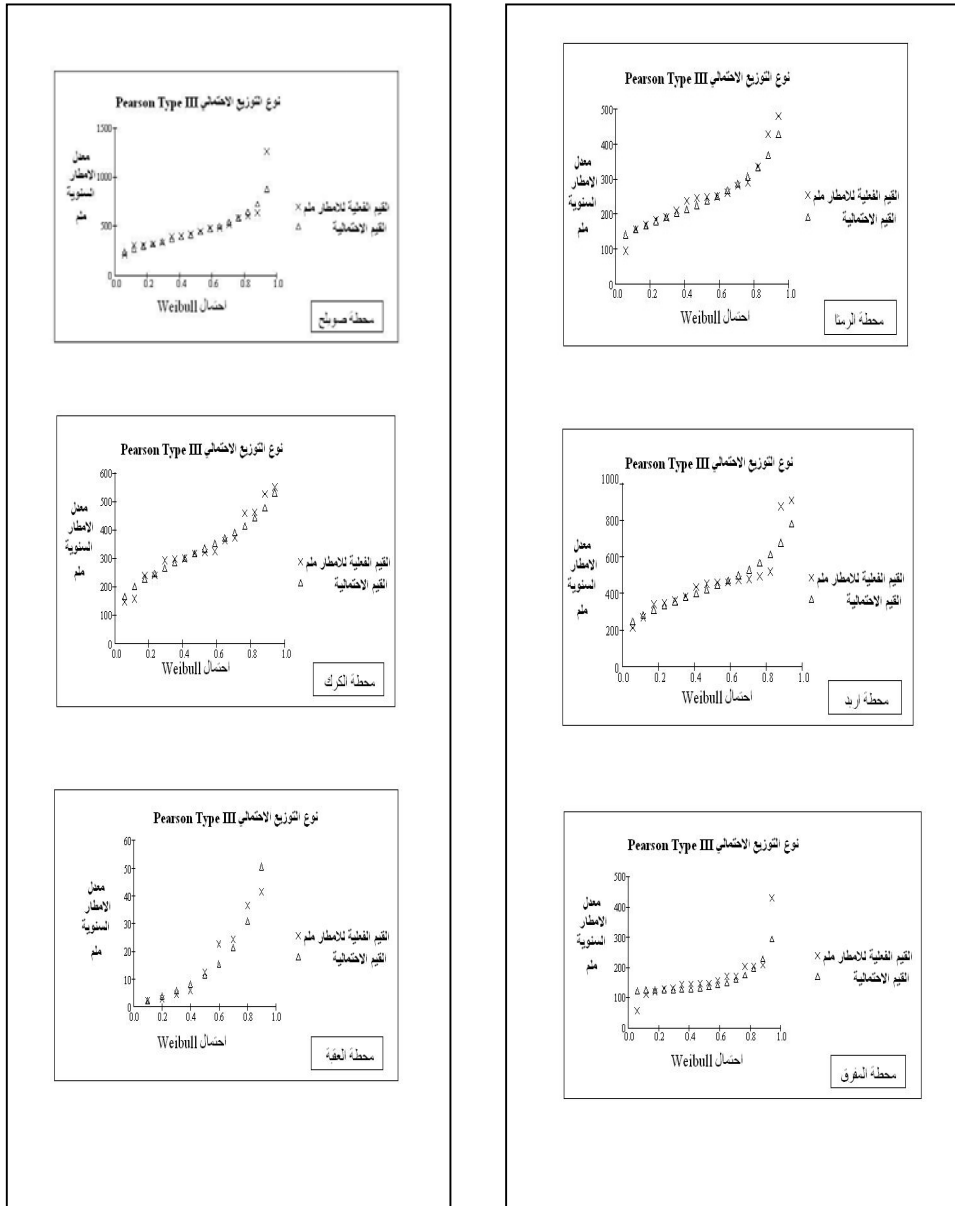
C = معامل الجريان وتتراوح قيمته للأسطح الأسمنتية (0.7-0.9).

النوايسه والطرزي



شكل (١) مواقع المراكز الحضريّة التي شملتها الدراسة. المصدر: عمل الباحث بالاعتماد على خارطة التقسيمات الاداريّة للاردن والمعدة من قبل المركز الجغرافي الملكي، ٢٠٠٩.

توقعات جميع مياه الهطول من أسطح مساكن المراكز الحضرية في الأردن واحتمالات تبديلها



شكل (2) تماثل البيانات الحقيقية لمعدل الأمطار السنوية/ ملم، مع التوزيع الاحتمالي لبيرسون النوع الثالث لبعض محطات الدراسة.

المصدر: عمل الباحث بالاعتماد على نتائج المعالجة الإحصائية لبرنامج (SMADA).

3. لتحديد العلاقات ومعرفة اثر تغير معدلات الهطول السنوية في الفترة (1990/1989 – 2009/2008م)، ومتوسط مساحة المسكن حسب نتائج التعداد العام للسكان والمساكن لعام 2004م، على احتمالات تجميع المياه في المدن والمراكز الحضرية الأردنية، فقد استخدم أسلوب معامل الارتباط الثنائي (Bivariate Correlation) نوع بيرسون (Pearson)، وذلك لمعرفة العلاقة الارتباطية بين كلا المتغيرين (معدلات الأمطار السنوية / ملم لفترات الرجوع الثلاث، متوسط مساحة المسكن / م²) وكمية مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من المدن والمراكز الحضرية قيد الدراسة، والتعرف على مستوى الدلالة الإحصائية عند مستوى الثقة المطلوب في الدراسات الإحصائية عادة (0.95).

وقد استخدم أسلوب الانحدار المتعدد (Multiple Regression) طريقة (Stepwise) لبيان مقدار التغير في كمية مياه الأمطار الممكن حصادها من أسطح المساكن، باعتباره متغيراً تابعاً عندما يحدث التغير في معدلات الأمطار السنوية خلال فترات الرجوع الثلاث، ومتوسط مساحة المسكن، كمتغيرين مستقلين، وتأخذ المعادلة الشكل الآتي:

$$Y = a + b_1 X_1 + b_2 X_2 \pm e$$

حيث ان:

Y = كمية مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح المساكن / م³ خلال فترات الرجوع الثلاث، ولكافة فترة السجل المطري (1990/89 – 2009/8م).

X_1 = معدل الأمطار السنوية / ملم خلال فترات الرجوع الثلاث، ولكافة السجل المطري.

X_2 = متوسط مساحة المسكن / م² خلال التعداد السكاني 2004م.

a = نقطة تقاطع خط الانحدار مع المحور الصادي.

b_1/b_2 = معامل الاستواء (Regression Coefficient) لكلا المتغيرين المستقلين.

e = الفرق بين القيمة الفعلية، والمتوقعة من نتائج تطبيق المعادلة.

4. لمعرفة أثر التغير الزمني، والمكاني لمعدلات الهطول السنوية في الفترة (1990/1989 – 2009/2008م)، ومتوسط مساحة المسكن لفترة العدادين السكانيين (2004/1994م) على احتمالات تجميع المياه في المدن، والمراكز الحضرية الأردنية، فقد اعتمد في البداية أسلوب الأرقام القياسية، حيث اعتبرت فترة التعداد السكاني لعام 1994م فترة قياسية بالنسبة لفترة التعداد السكاني لعام 2004م، وذلك بتقسيم معدلات الهطول السنوية لكافة المحطات إلى فترتين تتناسب مع كل واحد من العدادين السكانيين.

نتائج الدراسة ومناقشتها

لتحقيق أهداف الدراسة المتعلقة بتقدير كميات مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح المساكن في المدن، والمراكز الحضرية الأردنية، خلال السجل المطري السنوي (1990/1989 - 2009/2008)، والتعداد العام للسكان والمساكن لعام 2004م واحتمالات تبديلها، كان لابد من ملاحظة، ودراسة التباين في قيم المتغيرات الداخلة في تقدير كميات الحصاد المائي من الأسطح والمرتكزة أساساً على متغيري: معدل الهطول السنوي، ومتوسط مساحة المسكن، وقد استخدم من أجل هذه الغاية الأسلوب الإحصائي المتعلق بتقدير نسب تباين القيم عن وسطها الحسابي، حيث يبين الشكل (3) نتائج حساب النسب ولكافة المتغيرات ويلاحظ منه أن هناك تبايناً واضحاً في قيم المتغيرات عن وسطها العام، والمقدر بحوالي (330.5 ملم سنوياً) لمجمل معدلات الهطول المطري في منطقة الدراسة، وبانحراف معياري كبير وصل إلى (170.8 ملم) والذي يدل بدورة على مقدار التشتت الشديد في معدلات الهطول للمحطات المدروسة ويمكن تفسير ذلك تبعاً لاختلاف مواقع المحطات والتي تتوزع ضمن ثلاثة أقاليم جغرافية تمثل طولياً من الشمال إلى الجنوب، ليبدأ إقليم الأغوار في الجهة الغربية ممتداً من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب واقعاً في ظل الجبال بمعدلات هطول قليلة، شاملاً البحر الميت، ووادي عربة، وإليه إقليم المرتفعات الجبلية والمتاخم لإقليم الغور من الشرق، ثم البادية الأردنية، أو ما يسمى بالهضبة الشرقية والتي تقع إلى الشرق من المرتفعات الجبلية، ويتمثل في هذه الأقاليم التباين المناخي وعلى وجه الخصوص التباينات في كميات الهطول السنوية، وبالرغم من تواضع مساحاتها، ألا أنها تبقى في حدود التأثير قريباً وبعداً من البحر المتوسط مصدر المنخفضات الجوية، ومواجهتها لتأثيراته البحرية، بالإضافة إلى التفاوت الكبير في مناسيبها. وبذلك فإن المحطات المطرية الشمالية والوسطى الواقعة ضمن إقليم المرتفعات تتلقى أعلى معدلات الهطول السنوية، فاستأثرت محطتي عجلون ورأس منيف بأعلى الزيادات عن المعدل العام بما يزيد عن انحراف معياري واحد وسجلتا تباين وصل إلى (292.2ملم)، و(250.7ملم) وعلى التوالي بنسب تزايد عن المعدل العام وصلت إلى (88.4%) لمحطة عجلون، و(75.8%) لمحطة رأس منيف. تبعها في ذلك كل من محطتي السلط وكفرسوم بمقدار تزايد (170.6 ملم) بما نسبته (51.6%)، وسجلت محطات: دير أبي سعيد، وصويلح، واربد، والطيبة، وجرش، وجبل الحسين، والحصن والكرك هي الأخرى تزايداً عن المعدل خلال فترة الدراسة بنسب تزيد عن (50%). وفي الجهة المقابلة نجد أن المحطات الجنوبية والشرقية، والواقعة في نطاقات أبعد عن مسارات المنخفضات الجوية، قد سجلت انخفاضاً واضحاً، وبقيم سالبة عن الوسط العام لمعدل الهطول المطري، حيث وصلت إلى (313.6 ملم) وبنسبة تناقص (94.8%) في العقبة و(292 ملم) بنسبة تناقص (88.3%) في معان، وتلتها محطتي الزرقاء والرصيفة من المناطق الشرقية بحدود تناقص (207ملم، 190

ملم) بنسبة (62.6%، 57.5%) وعلى التوالي، واستمر التناقص بالانخفاض مقترباً من الوسط العام لمعدلات الهطول في كل من محطات: اذرح، والمفرق، والشونة، ومطار عمان، والرمثا، والربة، وديرعلا ومادبا، وعلى التوالي، إن قدر اقل انخفاض عن المعدل في محطة مادبا (27.7 ملم) بنسبة تناقص (8.3%).

وتميز متغير متوسط مساحة السطح /م² في منطقة الدراسة بالتشتت أيضاً، إذ بلغ الانحراف المعياري لمتوسط مساحة سطح الدار/م² عن وسطها العام (16.4/م²)، بمعدل عام (158.3/م²)، وازداد الانحراف لمتوسط مساحة سطح الفلل إلى (33.1/م²) عن المعدل العام له والمقدر (278.8/م²) لحوالي (18) مدينة ومركز حضري. وارتفع التباين بالزيادة عن المتوسط العام لسطح الدار في: صويلح (50.7/م²، بنسبة 32%)، والحصن (23.7/م²، بنسبة 14.9%)، واربد (14.7/م²، بنسبة 9.3%)، كفرسوم والكرك (12.7/م²، بنسبة 7.6%)، بينما انخفض التباين إلى اقل من المعدل العام في كل من: رأس منيف، واذرح (22.3/م²، بنسبة 14.1%)، دير علا (21.3/م²، بنسبة 13.4%)، والشونة الجنوبية، الرصيفة، مطار عمان، وعجلون إلى نسبة اقل من (12%)، أما فيما يخص التباين في قسم متوسط مساحة سطح الفلل فبلغت الزيادة أعلاها في منطقة الربة حيث وصلت إلى (71.2/م²)، بنسبة تزايد (25.5%)، تلتها في ذلك جبل الحسين (56.2/م²، 20.1%)، ودير أبي سعيد (46.2/م²، 16.5%)، بينما قدر التزايد عن المعدل العام في محطات: المفرق، والعقبة، والطيبة حوالي (20/م²، بنسبة تزايد 7.1%)، وتناقصت القيم عن معدلها إلى أقلها في: الزرقاء، والسلط، ومطار عمان، والكرك، واربد، وعجلون إلى أقل من (25/م²، بنسبة تناقص 9%)، بينما تراوحت نسب التناقص في باقي المناطق حول معدلها العام.

ويتضح من ذلك، أن هناك تبايناً شديداً في قيم متغيرات حساب كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح المساكن، وبتطبيق المعادلة استناداً إلى المعدلات العامة للهطول المطري السنوي، ومتوسط مساحة سطح المسكن لكافة المناطق المدروسة، وباعتبار أن معامل الجريان للأسطح الإسمنتية يساوي (0.8)⁽²¹⁾، فإنه يمكن تقدير كمية المياه الممكن حصادها، حيث بلغت لأسطح الدور (341.9/م³)، والفلل (373.71/م³)، وبتقدير آخر فإن الكمية الممكن حصادها من أسطح الدور في المراكز الحضرية الأردنية، تكفي أسرة مكونة من ثلاثة أفراد طيلة فصل الصيف (182 يوم)، بينما تكفي الكمية المتوقع حصادها من أسطح الفلل أسرة مكونة من خمسة أفراد (المتوسط العام لعدد أفراد الأسرة الأردنية)⁽²²⁾، طوال أيام فصل الصيف الجاف على أساس أن معدل استهلاك الفرد اليومي من المياه يبلغ (80 لتراً)⁽²³⁾.

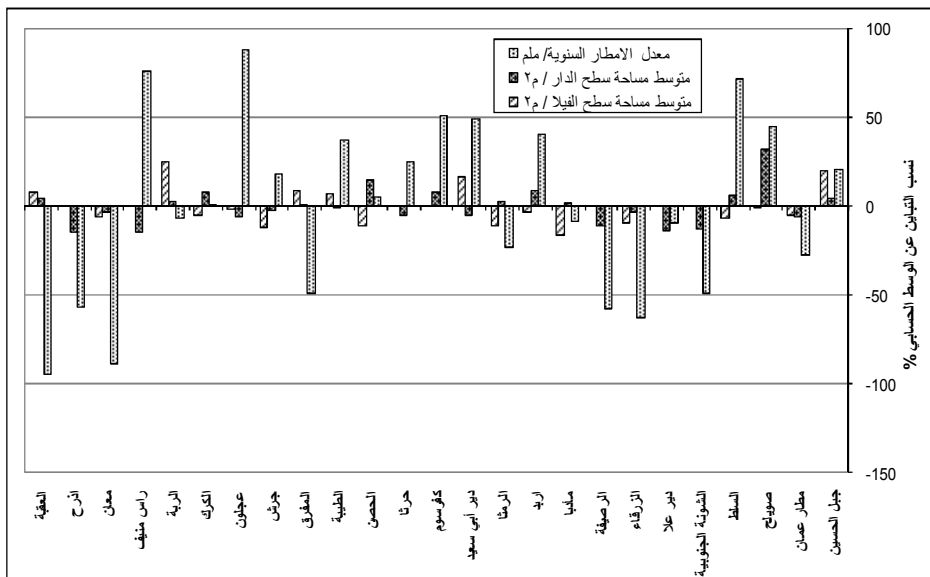
وتم التوصل إلى النتائج المتعلقة بإمكانيات تجميع مياه الأمطار من أسطح المساكن (الدور، الفلل) خلال فترات الرجوع الثلاث: سنتان، ثلاث سنوات، خمس سنوات، وباحتمالية رجوع:

توقعات تجميع مياه الهطول من أسطح مساكن المراكز الحضرية في الأردن واحتمالات تبديلها

(50%)، (68%)، (80%) وعلى التوالي. ويبين الجدول (1) كميات مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح مساكن المراكز الحضرية الأردنية لفترات الرجوع الثلاث ولكامل الفترة التي يمكن بيانها بما يلي:

1- كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها سنوياً من أسطح المساكن خلال فترة رجوع طولها سنتان واحتمالية تكرار (50%).

يتضح من جدول (1) تباين كميات مياه الأمطار الممكن حصادها من أسطح المساكن ولفترة رجوع سنتان، حيث سجلت مدينتي عجلون، وصويلح أعلى كمية مياه يمكن حصادها من أسطح الدور سنوياً بما يزيد عن (70م³)، ثم تلتها في ذلك وعلى التوالي كل من: السلط، كفرسوم، اربد، رأس منيف، دير أبي سعيد، والطيبة بمعدل تراوح بين (50م³) إلى (70م³). ويعزى ارتفاع كميات التجميع لبعض المراكز إلى ارتفاع معدلات الهطول السنوية، الذي يصل في مدينة عجلون إلى (621 ملم)، بينما يصل في محطة الطيبة إلى (398 ملم)، شكل (4).



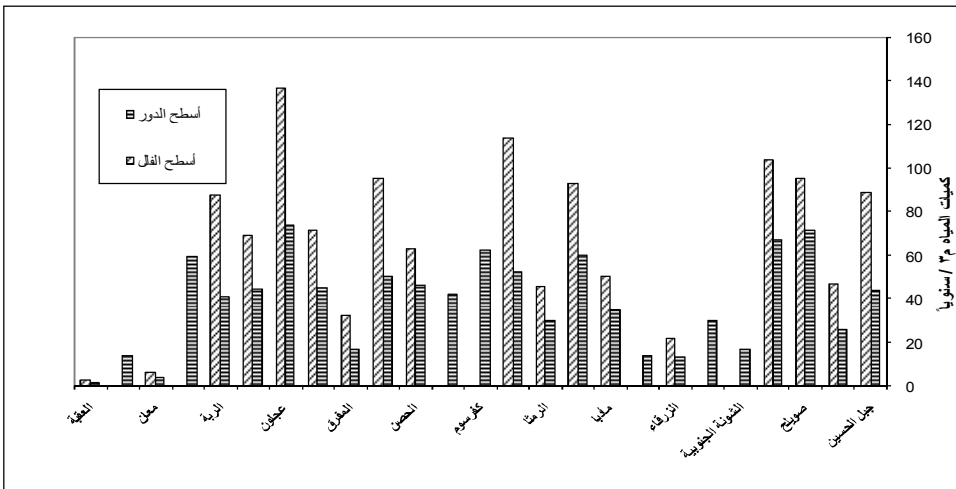
شكل (٣) نسب تبين المعدل السنوي للأمطار / ملم للفترة (١٩٩٠/٨-٢٠٠٩)، ومتوسط مساحة المساكن (الدور، الفلل) / م^٢ للعدد العام للسكان والمساكن لعام ٢٠٠٤ عن وسطهما العام في المراكز الحضرية الأردنية.

المصدر : عماد الناحث

وانخفضت كميات التجميع إلى أدنى مستوياتها في مدينة العقبة حيث وصلت إلى (1.49م³)؛ وذلك بسبب تدني معدلات الهطول السنوي إلى 11.2 ملم سنوياً، تتبعها وعلى التوالي كل من: معان، والزرقاء، والرصيفة، واذرح، والشونة، والمفرق بكميات تقل عن (20م³) سنوياً؛ ويرجع

ذلك إلى انخفاض معدلات الهطول السنوية لأقل من 150 ملم سنوياً من جهة، وقلة متوسط مساحة سطح الدار من جهة أخرى.

وبملاحظة كميات مياه الأمطار التي تجميعها من أسطح الفلل في (18) مركز حضري أردني من الجدول (1)، فيتضح وجود نمط مماثل من التباين في حصاد مياه الأمطار من أسطح الدور، بحيث يبقى المؤثر الأساس فيه إلى التباين في معدلات الأمطار السنوية، ومن ثم زيادة متوسط مساحة أسطح الفلل في إحداث إمكانات أعلى لتجميع مياه الأمطار، وعليه فقد استأثرت مدينة عجلون مرة أخرى بالمرتبة الأولى، حيث وصلت كمية المياه الممكن حصادها من أسطح فللها إلى (136.7م³)، وتبعها مدينة دير أبي سعيد (113.9م³)، والسلط (104م³)، بينما انخفضت الكميات المحصودة لتصل إلى ما دون (35م³) في كل من: العقبة (2.7م³)، ومعان (6.5م³)، والزرقاء (22.1م³)، والمفرق (32.7م³)، بسبب قلة الأمطار رغم ارتفاع مساحة السطح.



شكل (4) كميات مياه الأمطار / م³ الممكن تجميعها من أسطح المساكن (الدور، الفلل) لفترة رجوع مطرية سنتين واحتمالية تكرار ٥٠% في المراكز الحضرية الأردنية. المصدر: عمل الباحث

توقعات تجميع مياه الهطول من أسطح مساكن المراكز الحضرية في الأردن واحتمالات تبدلها

جدول (1): كميات مياه الأمطار التي يمكن تجميعها سنوياً من أسطح المساكن (الدور، والفلل) في المراكز الحضرية الأردنية، لفترات الرجوع الثلاث، ولكامل الفترة.

كمية المياه السنوي الممكن تجميعها م3		معدل التساقط السنوي /1989 – 1990 /2008 – 2009	فترة رجوع خمس سنوات واحتمالية %80			فترة رجوع ثلاث سنوات واحتمالية %67			فترة رجوع سنتين واحتمالية %50			متوسط مساحة السطح م2		المركز الحضري
			كمية المياه الممكن تجميعها م3/ سنوياً	معدل الأمطار السنوية/ ملم	كمية المياه الممكن تجميعها م3/ سنوياً	معدل الأمطار السنوية / ملم	كمية المياه الممكن تجميعها م3/ سنوياً	معدل الأمطار السنوية/ ملم						
									الفلل	الدور	الفلل	الدور	الفلل	
106	52.6	358.6	123.5	60.8	461.1	102.9	50.7	384.0	89.2	43.9	323.1	335	165	جبل الحسين
51	28.7	240.8	65.4	36.8	308.7	55.52	31.21	261.8	46.8	26.3	220.9	265	149	مطار عمان
107	80.4	481.1	138.5	103.4	618.6	115.2	85.99	514.3	95.7	71.4	427.4	280	209	صويلح
118	76.5	569.5	145.6	94.1	700.4	122.4	79.11	588.5	104.0	67.2	500.2	260	168	السلط
0	18.6	169.2	0	24.2	219.9	0	20.48	185.5	0	17.1	154.9	0	138	الشونة الجنوبية
0	32.8	300	0	42	383.3	0	35.65	325.2	0	30.0	274.3	0	137	دير علا
24	15	123.2	30.8	18.6	152.4	26.03	15.74	128.6	22.1	13.3	109.3	253	153	الزرقاء
0	15.7	139.7	0	19.6	174.5	0	16.6	147.1	0	14.0	124.6	0	141	الرصيفة
56	39.2	302.8	72.17	49.9	385.5	60.55	41.92	323.4	50.8	35.1	271.5	234	162	مأدبا

النوايسه والطرزي

100	64.6	466.8	127.6	82.1	593.1	109.5	70.44	508.9	93.4	60	434	269	173	اريد
50	33	253.5	63.8	41.9	321.7	54.29	35.68	273.6	45.9	30.2	231.7	248	163	الرمثا
128	59.2	493.6	158.0	72.9	608	133.6	61.68	514.0	113.9	52.5	438.2	325	150	دير أبي سعيد
0	68.5	501.1	0	86.6	633.1	0	73.55	537.6	0	62.7	458.6	0	171	كفرسوم
0	49.7	414.7	0	59.1	493	0	49.19	409.9	0	42.1	350.9	0	150	حرثا
69.1	50.7	348.5	88.4	64.9	445.8	75.09	55.11	378.4	63.3	46.5	319.3	248	182	الحصن
108	57.6	453.5	135.2	71.6	563.4	113.1	59.97	471.5	95.5	50.6	398	300	159	الطبية
40.7	21.5	168.2	45.3	23.9	187	37.32	19.71	153.9	32.7	17.2	135	303	160	المفرق
76.9	48.5	391.1	98.6	62.1	501.4	84.01	52.93	426.8	71.4	44.9	362.7	246	155	جرش
136	74.2	622.7	179.8	97.4	817.3	158.7	86.03	721.7	136.7	74.0	621	275	149	عجلون
71	45.8	335.1	91.1	58.8	430	80.07	51.67	377.6	69.1	44.6	326	265	171	الكرك
86.6	40.3	309.5	109.4	50.9	390.9	99.17	46.18	354.1	87.9	40.9	314	350	163	الربة
0	63.2	581.2	0	83.6	769	0	71.41	656.3	0	59.8	549.9	0	136	راس منيف
8.1	4.72	38.5	11.8	6.8	56.1	8.81	5.13	41.89	6.5	3.8	31	263	153	معان
0	15.4	141.9	0	22.1	203.4	0	18.05	165.9	0	14.2	130	0	136	اذرح
4	2.24	16.9	7.4	4	30.8	4.6	2.52	19.1	2.7	1.49	11.2	301	165	العقبة

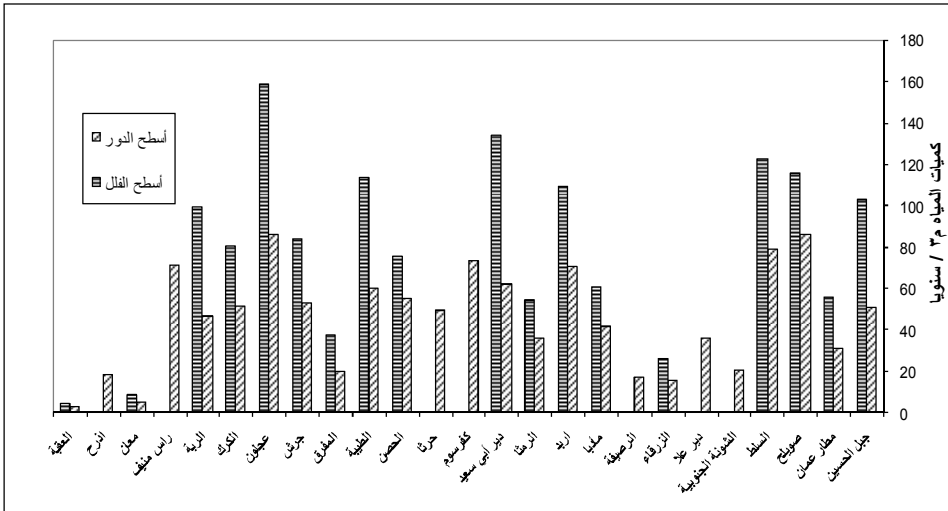
المصدر: عمل الباحث بالاعتماد على بيانات: (1) وزارة المياه والري - مصادر غير منشورة للأعوام 1990/1989 - 2009/2008. (2) دائرة الإحصاءات العامة نتائج التعداد العام للمساكن - المجلد الثاني. 2004.

وعند مقارنة كميات مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح الدور، وتلك من أسطح الفلل خلال فترة رجوع سنتان، فأنا نلاحظ ان منطقة دير أبي سعيد لم تكن تحظى إلا ب (52.5م³) من حصاد مياه الأمطار لاسطح الدور، بينما ارتفعت هذه الكمية إلى (113.9م³) من أسطح الفلل، لتضعها في المرتبة الثانية من حصاد مياه الأمطار لاسطح الفلل، ويتضح كذلك تراجع مدينة صويلح إلى المرتبة الرابعة للكميات المحصورة من أسطح الفلل بكمية (95.7م³)؛ وذلك نظراً لانخفاض متوسط مساحة سطح الفلل فيها، والتي وصلت إلى (280م²)، ومن الملاحظ أيضاً استمرار انخفاض كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح المساكن في المناطق الجنوبية، والشرقية بشكل عام؛ بسبب تدني معدلات الهطول المطري، وانخفاض متوسط مساحة أسطح المساكن فيها.

2- كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها سنوياً من أسطح المساكن خلال فترة رجوع ثلاث سنوات واحتمالية تكرار (68%).

بالرجوع إلى جدول (1) نلاحظ استمرار تباين كميات المياه الممكن تجميعها من أسطح الدور بين المراكز الحضرية (شكل 5) لفترة رجوع مدتها ثلاث سنوات، عن متوسطها العام لكافة المدن، والمراكز الحضرية المدروسة، والمقدر (45.5م³)، وبانحراف معياري وصل إلى (24.8م³)، ويلاحظ استمرار تفوق كل من: عجلون، وصويلح، والسلط، وكفرسوم، وراس منيف، واربد وعلى التوالي بكميات المياه الممكن تجميعها والتي تزيد عن (70م³) سنوياً، حيث سجلت مدينة عجلون أعلى الكميات (86م³).

بينما انخفضت تلك الكمية عن متوسطها العام في المناطق الجنوبية والشرقية، فقد بلغت في كل من: العقبة، معان، الزرقاء، اذرح، الرصيفة والمفرق اقل من (20م³) وعلى التوالي، وسجلت محطتي الأغوار قيما متدنية أيضاً وصلت إلى (35.6م³)، (20.4م³) لكل من دير علا والشونة الجنوبية وعلى التوالي؛ ويعود ذلك إلى انخفاض كميات الأمطار السنوية فيها نظراً لوقوعها في ظل المطر، وتدني متوسط المساحات لاسطح المساكن فيها، وواصلت بقية المناطق تركز كميات المياه المحصورة حول المعدل العام إما بالزيادة، أو بالنقصان، مع ملاحظة أن مدينة الرمثا، وبالرغم من موقعها في أقصى الشمال ألا أنها لم تسجل كميات تجميع عالية، حيث وصلت إلى (36م³)؛ نظراً لتواضع متوسط مساحة سطح الدار فيها.



شكل (٥) كميات مياه الأمطار / م^٣ الممكن تجميعها من أسطح المساكن (الدور، الفلل) لفترة رجوع مطرية ثلاث سنوات واحتمالية تكرار ٦٨% في المراكز الحضرية الأردنية. المصدر: عمل الباحث.

وبملاحظة كميات الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح الفلل في المراكز الحضرية (18 مركز حضري) لفترة رجوع ثلاث سنوات، يلاحظ تميز المراكز الحضرية الشمالية، والوسطى، بارتفاع واضح في كميات التجميع؛ بسبب زيادة معدلات الهطول المطري، ومتوسط مساحة الفلل، فوصلت الكمية أعلاها في عجلون (158.6 م³)، ومن ثم في دير أبي سعيد (133.6 م³) والسلط (122.4 م³) وصوبيلج (115.2 م³)، لترتفع عن المتوسط العام لكميات مياه الأمطار الممكن حصاها من أسطح الفلل والمقدرة (80 م³) سنوياً، بانحراف معياري (43.5 م³)؛ مع انخفاض الكميات في المناطق الجنوبية والشرقية منها إلى اقل من (40 م³)، كما هو الحال في: العقبة، ومغان، والزرقاء والمفرق وعلى التوالي.

3- كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها سنوياً من أسطح المساكن خلال فترة رجوع خمس سنوات واحتمالية تكرار (80%).

يلاحظ من الجدول (1) ارتفاع معدلات الأمطار لفترة رجوع خمس سنوات عنها في الفترات الأخرى، مما انعكس على كميات الأمطار الممكن حصاها خلال تلك الفترة، ويوضح شكل (6) تفوق مدينة صوبيلج على مدينة عجلون من حيث الكميات المحصورة سنوياً، حيث سجلت المدينة الأولى كميات مياه أمطار ممكن تجميعها حوالي (103.4 م³)، بزيادة عن مدينة عجلون التي سجلت (97.4 م³)، بينما انخفضت في باقي المراكز لتتراوح ما بين (80 - 100) م³ سنوياً في كل من: السلط، وكفرسوم، ورأس منيف واربد على التوالي؛ ويعود سبب ذلك بالدرجة الأولى لأثر

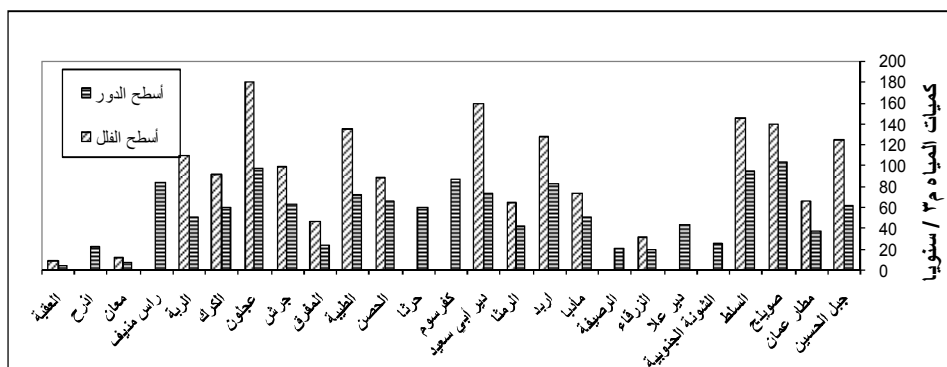
متوسط مساحة سطح الدار في مدينة صويلح عند فترة رجوع طولها خمس سنوات عنها في الفترات السابقة، مع وجود الأثر الآخر والمباشر لمعدلات الهطول المطري في كل المحطات، فقدّر متوسط مساحة سطح الدار في مدينة صويلح (209م²)، بينما انخفض المتوسط في باقي المناطق إلى ما دون (170م²). ومن الملاحظ كذلك انخفاض اثنى عشر مركزاً حضرياً عن المتوسط العام للكميات الممكن تجميعها، والبالغ (53.6م³) سنوياً، بانحراف معياري (29م³) وذلك يدل دلالة واضحة على التباين في الكميات المجمعة بين المراكز الحضرية، وسجلت مدينة العقبة اقل كمية تجميع مائي من أسطح الدور حيث بلغت (4م³) تلتها كل من: معان، والزرقاء، والرصيفة، والمفرق بكميات اقل من (25م³).

انعكس الوضع السابق على كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح الفلل، ولكن ارتفعت الكمية مرة أخرى في مدينة عجلون لتسجل أعلى الكميات (179.8م³) متقدمة على كمية المياه المجمعة من مدينة صويلح، التي سجلت كمية مقدارها (138.5م³)، وتلتها مدينة دير أبي سعيد لتحصد حوالي (158م³)، وانخفضت باقي الكميات في معظم المراكز الحضرية إلى اقل من (100م³) متماثلة مع الوسط العام لكميات مياه الأمطار المحصورة من أسطح الفلل والمقدر (94.1م³) بانحراف معياري وصل إلى (50.3م³)، وباستمرار قلة الهطول المطري في المناطق الجنوبية، والشرقية استمر كذلك تسجيلها لأقل قيم الحصاد المائي من أسطح الفلل، لتصل إلى (30.8م³) في الزرقاء، (11.8م³) في معان، (7.4م³) في العقبة في أدنى حدودها.

ويتضح مما سبق التباين المكاني الكبير بين المراكز الحضرية في تجميع مياه الأمطار من أسطح المساكن، وهذا ما تبيّنه كميات المياه الممكن تجميعها سنوياً لكافة فترة السجل المطري (1990/1989 – 2009/2008)، حيث بلغ المتوسط العام لكميات التجميع من المراكز الحضرية كافة، ولأسطح الدور حوالي (42.4م³)، وبانحراف معياري (22.9م³)، بينما ارتفع الوسط العام لأسطح الفلل ليلبغ (74.5م³) وبانحراف معياري (40م³)، فارتفعت كميات التجميع من أسطح الدور في كل من: صويلح، والسلط، وعجلون، وكفرسوم، وإربد على التوالي، لتسجل مدينة صويلح أعلى كمية (80.4م³)، وتناقصت الكميات لتصل أدناها في: العقبة، ومعان، والرصيفة، والزرقاء بكميات تقل عن (16م³) من أسطح الدور.

وحصلت مدينة عجلون مرة أخرى على المرتبة الأولى لكميات التجميع من أسطح الفلل بحدود (136م³)، تلتها كل من: دير أبي سعيد، والسلط، والطيبة، وصويلح وعلى التوالي، بينما استمر انخفاض الكميات في مدينة العقبة، معان، والزرقاء لتتدنى إلى اقل من (25م³)، أما بقية المراكز الحضرية تراوحت كميات الحصاد المائي من أسطح المساكن (الدور، والفلل)، لتقترب بارتفاع من الوسط العام تارة، مثل: جبل الحسين، ودير أبي سعيد، وحرثا، والحصن، والطيبة،

وجرش، والكرك، ورأس منيف، وتارة بانخفاض عن المعدل: دير علا، ومطار عمان، ومادبا، والربة.



شكل (٦) كميات مياه الأمطار/م³ الممكن تجميعها من أسطح المساكن (الدور والفلل) لفترة رجوع مطرية خمس سنوات واحتمالية تكرار ٨٠% في المراكز الحضرية الأردنية. المصدر: عمل الباحث

4- معرفة العلاقة وأثر متغيري معدل الهطول السنوي، ومتوسط مساحة سطح المسكن (الدار، الفلل) على كميات مياه الأمطار، الممكن تجميعها سنوياً من المراكز الحضرية الأردنية.

ولمعرفة ذلك فقد تم اختبار العلاقة الارتباطية بين المتغيرات جميعها، وباستخدام معامل الارتباط الثنائي نوع بيرسون، كما يوضحها جدول (2) فيما يخص كمية المياه الممكن تجميعها من أسطح المساكن (الدور، والفلل).

جدول (2): معامل ارتباط بيرسون لمتغيرات الدراسة فيما يخص أسطح المساكن (الدور، والفلل).

المتغيرات		كمية مياه الأمطار الممكن تجميعها/م³		معدل الهطول السنوي/ملم		متوسط مساحة المسكن/م²	
نوع المسكن		الدور	الفلل	الدور	الفلل	الدور	الفلل
كمية المياه الممكن تجميعها/م³		1		0.972	0.973	0.455	0.291
معدل الهطول السنوي/ملم				1		0.246	0.073
متوسط مساحة المسكن/م²						1	

المصدر: عمل الباحث

ويتبين من خلاله أن العلاقة فيما بين كمية المياه الممكن تجميعها من أسطح المساكن (الدور، والفلل) من المراكز الحضرية، ومعدل الهطول السنوي علاقة ارتباطيه موجبة وعالية، حيث بلغت (0.972) لمتوسط أسطح الدور، (0.973) لأسطح الفلل، وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة اقل من (0.001) ولكليهما، بينما أصبحت هذه العلاقة فيما بين كمية المياه الممكن حصادها من أسطح المساكن (الدور، والفلل)، ومتوسط مساحة المسكن علاقة موجبة وضعيفة بمقدار ارتباط (0.455)، (0.291) من أسطح الدور والفلل وعلى التوالي وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى (0.05) وبذلك يتضح ان أهم المتغيرات تأثيراً على كميات مياه الأمطار الممكن حصاده من أسطح المساكن في المراكز الحضرية، هو متغير معدل الهطول السنوي، ويقل مستوى التأثير لمتغير متوسط مساحة المسكن على الكميات المحصورة في منطقة الدراسة.

وباستخدام أسلوب تحليل الانحدار المتعدد طريقة (Stepwise)، والتي توضح الأثر المشترك لمتغيرات الدراسة المستقلة (معدل الهطول السنوي، ومتوسط مساحة المسكن) على المتغير التابع (كمية مياه الأمطار الممكن تجميعها)، وقد تبين من خلال النتائج ان نسبة ما يفسره متغير معدل الأمطار السنوية من تباين متغير كمية مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح المساكن بلغت أكثر من ($R^2 > 0.94$)، وكلا سطحي التجميع، ولجميع فترات الرجوع الثلاث ولكافة فترة السجل المطري، كما يتضح من خلال شكلي (8،7)، وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى اقل من (0.001)، بينما تم استبعاد متغير متوسط مساحة المسكن من المعادلة، وذلك لأنه لا يفسر إلا الجزء القليل من التباين في المتغير التابع (كميات مياه الأمطار الممكن حصادها) حيث قدرت بأقل من ($R^2 > 0.18$)، وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى (0.05)، هذا بالإضافة إلى العلاقة الارتباطية الضعيفة والتي أبداها اتجاه كمية مياه الأمطار الممكن تجميعها.

وبذلك اتضح انه يمكن التنبؤ بكمية المياه الممكن تجميعها من أسطح المساكن (الدور، الفلل) من خلال متغير كمية الأمطار السنوية؛ وذلك بعد استبعاد اثر المتغير متوسط مساحة المسكن من المعادلة، بحيث تصبح معادلة التنبؤ بكمية مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح الدور، والفلل بالصيغتين التاليتين، وهما ذات دلالة إحصائية عند مستوى (0.05):

$$Y = 0.31 X - 0.747 \text{ (لأسطح الدور)}$$

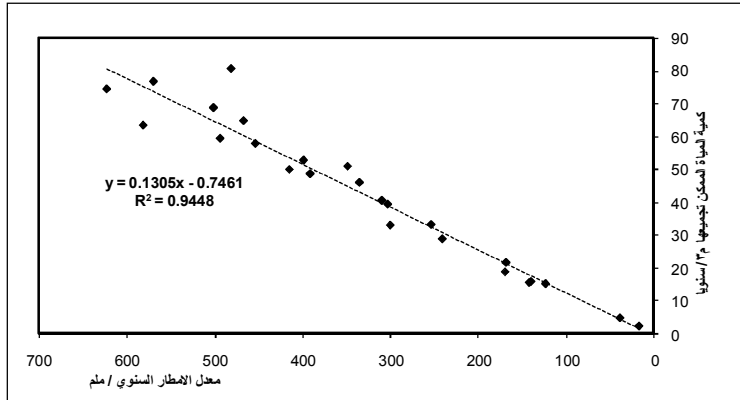
$$Y = 0.227 X - 0.993 \text{ (لأسطح الفلل)}$$

حيث أن:

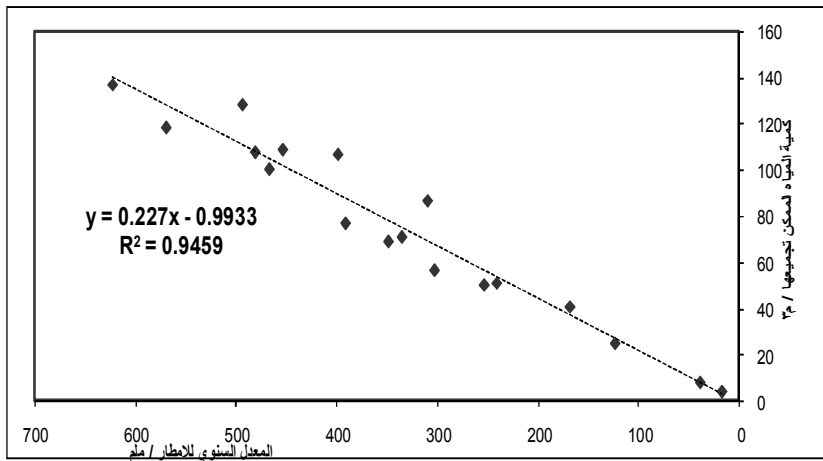
$$Y = \text{كمية مياه الأمطار الممكن حصادها من أسطح المساكن / م}^3$$

$$X = \text{معدل كمية الأمطار السنوية / ملم.}$$

النوايسه والطرزي



شكل (٧) خط الانحدار ونمط الانتشار للعلاقة بين معدل الأمطار للفترة ١٩٩٠\١٩٨٩ - ٢٠٠٩\٢٠٠٨ ملم، وكمية المياه الممكن تجميعها من أسطح الدور م³ سنويا في المراكز الحضرية الأردنية. المصدر : عمل الباحث.



شكل (٨) خط الانحدار ونمط الانتشار للعلاقة بين معدل الأمطار للفترة ١٩٩٠\١٩٨٩ - ٢٠٠٩\٢٠٠٨ ملم، وكمية المياه الممكن تجميعها من أسطح الفلل م³ سنويا في المراكز الحضرية الأردنية. المصدر : عمل الباحث.

وباعتبار أن السعة التخزينية الملائمة للخزانات والآبار المنزلية ذات الجدوى الاقتصادية، بما يحقق وفورات الاستفادة من المياه من جهة، وكلفة التصميم، والتنفيذ من جهة أخرى، والتي قدرت ما بين (30 - 50) م³ (24)، وبتطبيقها في معادلة خط الانحدار السابقة خصوصاً فيما يتعلق بمعادلة أسطح الدور الأكثر انتشاراً بين المراكز الحضرية، وذات القابلية العالية على التوسع والامتداد الكبير في المستقبل، والممثلة بشكل أكبر إحصائياً بالدراسة بحوالي (25) مركز حضري) عنها في حالة أسطح الفلل (18 مركز حضري)، فإنه يمكن التنبؤ بمعدل الهطول السنوي الملائم لإنشاء مثل تلك الخزانات، بما يحقق الوفورات والجدوى الاقتصادية المناسبة، والاستفادة المثلى من المياه المخزنة في فصل الصيف الجاف، وقد وجد أن معدل الهطول المطري السنوي الملائم يتفق مع خط المطر المتساوي (250 ملم)، ويوضح شكل (9) أهم المناطق التي يمكن الاستفادة فيها من إقامة خزانات التجميع لحصاد مياه أمطار أسطح الدور وبسعة (30 - 50) م³. حيث يلاحظ أن معظمها يتركز في نطاق المناطق الجبلية على شكل شريط ضيق يمتد من الشمال باتجاه الجنوب، ويحصر في المناطق الجنوبية ليعاود الاتساع في الجهات الشمالية؛ وبذلك فإنه يتمشى مع المناطق الأكثر هطولاً للأمطار، وذات التركيز الحضري العالي.

5- ما هو أثر تغير معدلات الهطول السنوي خلال الفترة 1996-2009 مقارنة بالفترة 1989-1995، ومتوسط مساحة أسطح الدور، والفلل خلال التعداديين السكانيين على احتمالات تجميع المياه في المراكز الحضرية الأردنية.

للتعرف على مقدار التغير الذي طرأ على احتمالات تجميع المياه من أسطح الدور والفلل في المدن والمراكز الحضرية الأردنية من خلال التغير في معدلات التساقط خلال الفترة 1996-2009 مقارنة بالفترة 1989-1995، ومتوسط مساحة السطح خلال التعداديين السكانيين 2004/1994، اعتمد أسلوب الأرقام القياسية المعروف، واعتبرت الفترة الأولى بالنسبة لمعدلات الهطول (1989-1995) قياسية بالنسبة للفترة الثانية 1996-2009، وفيما يلي بيان التغير.

• أثر تغير معدلات الهطول السنوية، ومتوسط مساحة سطح الدار على إمكانيات التجميع:

يبين لنا جدول (3) قيم معدلات الهطول السنوي في الفترتين، ومتوسط مساحة سطح الدار في المدن والمراكز الحضرية الأردنية المدروسة.

نستنتج من الجدول (3) ما يلي:

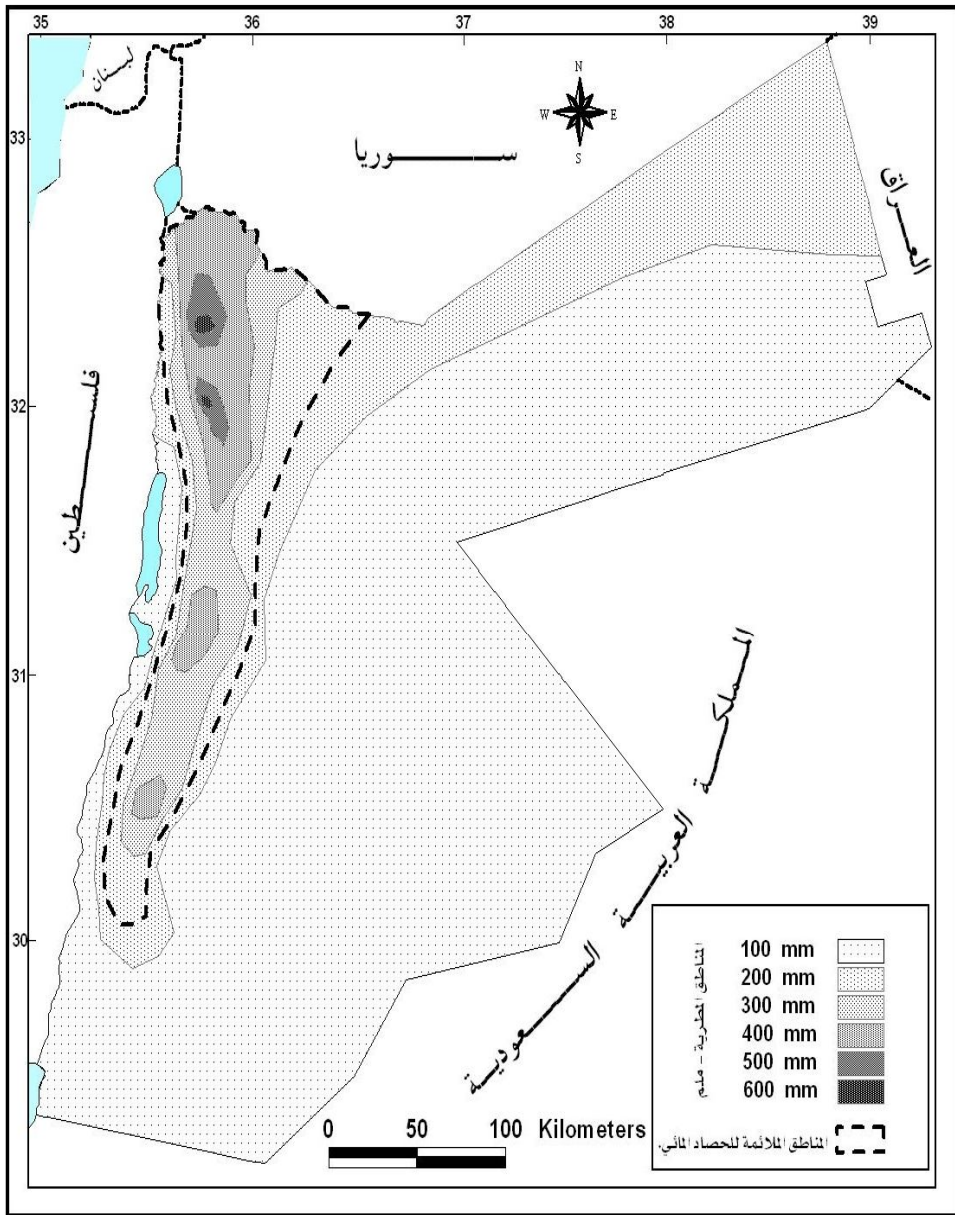
1- سجلت الأرقام القياسية لمعدلات الهطول السنوي تراجعاً في كافة المراكز الحضرية (عدا مدينتي جرش، والمفرق)، فقد بلغ الرقم القياسي في عجلون (92.8%) وبنسبة تراجع (7.2%)

وهي الأقل، وفي العقبة (54.4%)، وبنسبة تراجع (45.6%)، وهي الأعلى. ويلاحظ وجود علاقة بين ارتفاع معدلات الهطول السنوية، ونسب التراجع الأقل، فمعدلات التراجع كانت أقل في: عجلون، وصويلح، والكرك، وهي الأوفر حظاً في معدلات أمطارها، بينما كانت أكثر في العقبة، ومطار عمان، والعقبة وهي الأقل في معدلات أمطارها؛ وذلك نظراً لانخفاض معدلات الهطول المطري في الفترة الثانية عنها في الفترة الأولى، كما يتضح من شكل (9).

2- سجلت الأرقام القياسية لمتوسط مساحة سطح الدار تزايداً في المراكز الحضرية كافة، فقد بلغ الرقم القياسي لمتوسط مساحة سطح الدار في جبل الحسين (289.5%)، وبنسبة تزايد (189.5%)، وهي الأعلى، وفي المفرق (112.7%)، وبنسبة تزايد (12.7%) فقط وهي الأدنى، وكانت نسبة الزيادة أكثر من (50%) في كل من: جبل الحسين، وصويلح، والكرك، والرصيفة، وجرش ومطار عمان؛ وذلك بسبب التوسع الحضري الذي شهدته المراكز الحضرية في الفترة الأخيرة.

3- على الرغم من تراجع معدلات الهطول السنوي في المراكز الحضرية كافة (عدا جرش، والمفرق) فقد سجلت كميات المياه التي كان بالإمكان تجميعها من سطح الدار الواحدة في الفترة الثانية (1996-2009) كميات أكثر من الفترة الأولى (1989-1995) في المدن والمراكز الحضرية كافة (عدا العقبة)، فالرقم القياسي لإمكانيات تجميع المياه في جرش قد بلغ (159.9%)، وهي الأعلى، وبنسبة زيادة (59.9%)، وفي الرمثا (108%)، وبزيادة (8%) فقط، أما العقبة فقد عرفت نقصاً مقداره (25%). ومعنى هذا أن عملية تجميع المياه من أسطح الدور مفيدة، وإيجابية حتى مع تناقص معدلات الهطول؛ نتيجة لتزايد مساحة سطح الدور الذي عوض تناقص معدلات الأمطار.

توقعات تجميع مياه الهطول من أسطح مساكن المراكز الحضرية في الأردن واحتمالات تبديلها



شكل (٩) التوزيع المكاني للمناطق المطرية الملائمة لتجميع مياه الأمطار من أسطح المساكن في المراكز الحضرية الأردنية. المصدر : عمل الباحث بالاستعانة على بيانات وزارة المياه والري، ٢٠٠٩.

جدول (3): الأرقام القياسية وإمكانات تجميع المياه باستخدام متغيرات معدل الهطول السنوي خلال الفترة 1995-1989 والفترة 2009-1996 (ملم).
ومتوسط مساحة سطح الدار/م² لعامي 1994 و2004.

المدينة المركز الحضري	معدل الهطول السنوي/ ملم للفترة 1995-1989	معدل الهطول السنوي/ ملم للفترة 2009-1996	الرقم القياسي %100	متوسط مساحة سطح الدار م2 لعام1994	متوسط مساحة سطح الدار م2 لعام 2004	الرقم القياسي %100	إمكانات تجميع المياه م3 للفترة 1995-1989	إمكانات تجميع المياه م3 للفترة 2009-1996	الرقم القياسي %100
مطار عمان	265	149	56.2	93	149	160.2	22.2	20	131.1
صويلح	502	433	86.3	109	209	191.7	49.2	81.4	139.6
السلط	604.6	513	84.8	123	168	136.6	66.9	77.6	116
الزرقاء	128.7	111	86.2	104	153	147.1	12.1	15	124
الرصيفة	151	126	83.4	93	141	151.6	12.6	16	127
مأدبا	279	273	91.9	120	162	135	32.1	39.8	124
اريد	470	420	89.4	119	173	145.4	50.3	66.2	131.6
الرمثا	251.8	228	90.5	136	163	119.9	30.8	33.4	108.4
المفرق	141.3	151	106.9	142	160	112.7	18.1	21.7	119.9
جرش	325.1	352	108.3	105	155	167.6	30.7	49.1	159.9
عجلون	603.5	560	92.8	119	149	125.2	64.6	75.1	116.3
الكرك	358.7	302	84.2	100	171	171	32.3	46.5	144
معان	40.8	34.7	85.1	110	153	148.2	4.1	4.8	116.6
العقبة	28.1	15.3	54.4	117	165	141	3	2.7	75.7

المصدر: عمل الباحث بالاعتماد على بيانات وزارة المياه والري / بيانات غير منشورة، 2009. ودائرة الإحصاءات العام، نتائج التعداد للمساكن لعام: 1994 و2004، المجلد الثاني.

• أثر تغير معدلات الهطول السنوية ومتوسط أسطح الفلل على كميات التجميع:

يبين جدول (4) متوسط مساحة سطح الفلل لفترة التعداديين السكانيين 1994 و 2004 والأرقام القياسية في عام 2004 مقارنة بعام 1994، وكميات المياه الممكن تجميعها من سطح الفيلا الواحدة، والأرقام القياسية للفترة الثانية (1996-2009)، مقارنة بالأولى (1989-1995).

نستنتج من الجدول (4) الحقائق الرقمية التالية:

1- سجلت اثنتا عشرة مدينة، ومركز حضري تزايداً في متوسط مساحة سطح الفيلا، وتناقصت في أربعة مراكز أخرى.

2- سجلت مدينة عجلون أعلى رقم قياسي، فقد بلغ الرقم القياسي لمتوسط مساحة السطح عام 2004 / (165.7%) مقارنة بعام 1994، وبزيادة (65.7%)، أما أدنى رقم قياسي فقد سجل في الكرك، وبلغ (105.6%) وبزيادة (5.6%)، وهذا يعني زيادة في إمكانات تجميع المياه من أسطح هذه المدن، بينما ترتبت باقي المدن من الأكبر فالأقل: عجلون، وجرش، والسلط، والزرقاء، ومعان، وصويلح، ومأدبا، واربد، والمفرق، والرمثا، والكرك.

3- سجلت المدن التالية تناقصاً في متوسط مساحة سطح الفيلا عام 2004، بالنسبة لعام 1994 وكانت على الترتيب من الأكثر فالأقل: الرصيفة ومطار عمان، وذلك يعني تناقصاً في إمكانات تجميع المياه فيما لو بقي معدل الهطول السنوي على حاله.

وعن إمكانات تجميع المياه من سطح الفيلا في الفترة الثانية (1996-2009)، مقارنة بالفترة الأولى (1989-1995)، وكنتيجة تلقائية لزيادة متوسط مساحاتها، ازدادت كميات المياه المحتمل تجميعها، ففي مدينة عجلون ارتفعت كميات المياه التي يمكن تجميعها من سطح الفيلا الواحدة من (90.2 م³) إلى (138.7 م³)، برقم قياسي (153.8%)، وبزيادة (53.8%)، وهي الأعلى بين المدن؛ وذلك نتيجة ارتفاع معدل الهطول المطري فيها، بينما في مدينة الرصيفة ارتفعت كميات التجميع من (26.8 م³) إلى (27.9 م³)، برقم قياسي (104.1%)، وهي الأدنى بين المراكز الحضرية التي عرفت زيادة، أما باقي المدن فكانت على الترتيب من الأكثر فالأدنى: جرش، والرصيفة، والسلط، وصويلح، واربد، ومأدبا، بالمقابل سجلت المراكز الآتية، وعلى الترتيب، تراجعاً في كميات المياه الممكن تجميعها: مطار عمان، والعقبة، والرمثا؛ وذلك نتيجة انخفاض متوسط مساحة الفيلا فيها.

جدول (4): الأرقام القياسية وإمكانات تجميع المياه باستخدام متغيرات معدل الهطول السنوي خلال الفترة 1989 - 1995 والفترة 1996-2009 (ملم) ومتوسط مساحة سطح الفلل /م² لعامي 1994 و2004.

الرقم القياسي %	كمية المياه الممكن تجميعها /م ³ خلال عام 2004	كمية المياه الممكن تجميعها /م ³ خلال عام 1994	الرقم القياسي %	متوسط مساحة الفللا/م ² لعام 2004	متوسط مساحة الفللا/م ² لعام 1994	المدينة / المركز الحضري
67.3	51.7	67.3	94	265	282	مطار عمان
109.7	112.6	102.6	123.3	280	227	صويلح
114.3	120.0	105.0	134.7	260	193	السلط
111.5	25.3	22.7	129.1	253	196	الزرقاء
138.3	28.6	20.7	82.9	246	152	الرصيفه
104.1	27.9	26.8	122.9	343	279	مأدبا
107.3	101.7	94.8	120.1	269	224	اربد
98.5	50.9	51.7	108.8	248	228	الرمثا
122.9	41.3	33.6	114.8	303	264	المفرق
151.5	78.0	51.5	139.8	246	176	جرش
153.8	138.7	90.2	165.7	275	166	عجلون
88.9	72.0	81.0	105.6	265	251	الكرك
107.9	8.2	7.6	127.1	263	207	معان
82.5	3.3	4.0	152.8	243	159	العقبة

المصدر: عمل الباحثان بالاعتماد على بيانات وزارة المياه والري، بيانات غير منشورة للأعوام: 1990/89 - 2009/8. ودائرة الإحصاءات العامة: نتائج التعداد للمساكن، 1994 و2004. المجلد الثاني

النتائج

أظهرت نتائج هذه الدراسة عن وجود تباين في حجم كميات مياه الأمطار التي يمكن تجميعها من أسطح مساكن المراكز الحضرية الأردنية التي شملتها الدراسة. وذلك تبعا لتفاوت متغيري: معدلات الهطول المطري السنوي، ضمن ثلاث فترات رجوع (سنتان، ثلاث سنوات، خمس سنوات) ولكافة السجل المطري، أما المتغير الآخر، فهو التباين في متوسط مساحة المساكن (الدور، الفلل). وبينت نتائج الدراسة أنه يمكن تقسيم المدن، والمراكز الحضرية الأردنية إلى ثلاث مجموعات بناءً على مقياسين إحصائيين: المعدل العام، والانحراف المعياري لكميات مياه الأمطار

الممكن تجميعها من أسطح الدور، والفلل، ولكافة الفترات الزمنية المعالجة، طيلة مدة السجل المطري (1990/89 - 2009/8) ومن خلال بيانات متوسط مساحة المسكن لعام 2004 للمجموعات التالية:

المجموعة الأولى: المراكز الحضرية ذات كميات مياه أمطار يمكن تجميعها ارتفعت كثيراً عن المعدل العام لكميات المياه الممكن تجميعها من أسطح المساكن، وبانحراف معياري يزيد عن درجة معيارية واحدة ومنها: عجلون، وصويلح، والسلط، وكفرسوم، والطيبة، ورأس منيف، واربد، ودير أبي سعيد. ويلاحظ أن كل تلك المراكز تقع في المناطق الوسطى والشمالية من الأردن مما يعني ارتفاع معدلات الهطول السنوي مع تزايد في متوسط مساحة الأسطح نتيجة للتوسع الحضري الذي شهدته تلك المراكز.

المجموعة الثانية: المراكز الحضرية ذات كميات مياه يمكن تجميعها، وتقترب من المعدل العام لكميات التجميع من أسطح المساكن، وبانحراف قليل لا يتعدى الدرجة المعيارية ومنها: مطار عمان، ومادبا، والرمثا، وحرثا، والحصن، وجرش، والكرك، والربة. ومعظمها يقع في المناطق المتاخمة لمواقع المجموعة الأولى.

المجموعة الثالثة: المراكز الحضرية ذات كميات مياه يمكن تجميعها وتنخفض كثيراً عن المعدل العام لكميات المياه الممكن تجميعها من أسطح المساكن وبانحراف معياري يقل كثيراً عن الدرجة الواحدة وهي: العقبة، ومعان، واذرح، والزرقاء، والرصيفة، والمفرق، والشونة الجنوبية، ودير علا. وجلها يقع في المناطق الجنوبية والشرقية والغورية من المملكة ذات معدلات الأمطار المنخفضة.

وكشفت نتائج الدراسة أيضاً أن نسبة ما يفسره متغير معدل الأمطار السنوية من تباين متغير كمية مياه الأمطار الممكن تجميعها من أسطح المساكن بلغت أكثر من ($R^2 > 0.94$) ولكلا سطحي التجميع، ولجميع فترات الرجوع الثلاث ولكافة فترة السجل المطري وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى أقل من (0.001)، بينما تم استبعاد متغير متوسط مساحة المسكن من المعادلة، وذلك نظراً لأنه لا يفسر إلا الجزء القليل من التباين في كميات مياه الأمطار الممكن تجميعها، حيث قدرت بأقل من ($R^2 > 0.18$)، وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى (0.05)، وبالاعتماد على معادلة خط الانحدار تم التنبؤ بمعدل الهطول السنوي للملائم لإنشاء خزانات وأبار التجميع (30-50) م³ بما يحقق الوفورات، والجدوى الاقتصادية المناسبة، والاستفادة المثلى من المياه المخزنة في فصل الصيف الجاف، وقد وجد أن معدل الهطول المطري السنوي للملائم يتفق مع خط المطر المتساوي (250 ملم).

وفيما يخص النتائج المتعلقة بأثر تغير معدلات الهطول السنوي خلال الفترة (1996-2009) مقارنة بالفترة (1989-1995)، ومتوسط مساحة أسطح الدور والفلل خلال التعداديين السكانيين (2004/1994) على احتمالات تجميع المياه في المدن، والمراكز الحضرية الأردنية، فقد أوضحت أن الأرقام القياسية لمعدلات الهطول السنوي سجلت تراجعاً في المدن والمراكز الحضرية كافة (عدا مدينتي جرش، والمفرق)، بينما سجلت الأرقام القياسية لمتوسط مساحة سطح الدار تزايداً في المراكز الحضرية كافة، وبذلك فقد سجلت كميات المياه التي كان بالإمكان تجميعها من سطح الدار الواحدة في الفترة الثانية (1996-2009) كميات أكثر من الفترة الأولى (1989-1995) ولكافة مناطق الدراسة. وعن إمكانيات تجميع المياه من سطح الفيلا في الفترة الثانية مقارنة بالفترة الأولى، ازدادت كميات المياه المحتمل تجميعها، ففي مدينة عجلون ارتفعت كميات المياه التي يمكن تجميعها من سطح الفيلا الواحدة من (90.2 م³) إلى (138.7 م³)، برقم قياسي (153.8%)، وبزيادة (53.8%)، وهي الأعلى بين المدن، بينما سجلت المدن الآتية تراجعاً في كميات المياه الممكن حصادها: مطار عمان، والعقبة، والرمثا.

التوصيات:

تعد نتائج الدراسة الحالية بالإضافة إلى نتائج الدراسات الأخرى ذات أهمية لما يمكن الاستفادة منها في تبني حلولاً لمشكلة شح الموارد المائية وعجزها عن تلبية المتطلبات المائية لكافة القطاعات المستهلكة، على اعتبار أنها تفعل أنظمة الحصاد المائي من داخل المجتمع، وتجعلها أكثر قبولاً، وتمنحه مصدر للتزويد المائي، وبكميات كافية، وب نوعية عالية وأمنة، في ظل محدودية المتاح من مياه التزويد، وتوفر بديلاً عملياً جيداً يقلل من الارتباط العالي بالطلب على مياه شبكات التزويد المائي.

وبذلك توصي الدراسة إلى ضرورة التوجه للدراسة التفصيلية للمؤشرات التي تدخل في تقدير كميات المياه الممكن حصادها، وعلى وجه الخصوص معامل الجريان المائي للأسطح المختلفة في ظل الظروف الطبيعية للأردن، واستخدام التقنية الحديثة ذات الكفاءة العالية في مجال مد أنابيب الحصاد، وتحديد سعتها لضمان إمكانية استيعابها لحجم أكبر من الجريان، بالإضافة إلى تحديد المعطيات العامة لأنواع الخزانات، وآبار التخزين الممكن استخدامها، لتكون بذلك مجالاً أكثر تطبيقاً يرقى بحلول مناسبة، ويضع متخذ القرار والمخطط أمام نماذج حصاد مائي فاعلة توفر الكميات المناسبة، وتزيد من متوسط حصة الفرد من المياه سنوياً، وذلك بالتوازي مع إصدار مجموعة من التشريعات، والقوانين النازمة، والمحفزة لاستثمار هذا المورد المائي الهام.

Estimations of Collecting Precipitated Water from Surfaces of Houses in Urban Centers of Jordan and their Possible Changes

Samer Al Nawaiseh and Al Abdullah Tarazi, *Geography Department, Yarmouk Unversity,rbid,Jordan.*

Abstract

The study aimed to identify potential rainwater falling on the roofs of houses of the type role and villas in 25 urban centres in Jordan, using Rainfall data during the period of the record rainfall from 1989/1990 to 2008/2009, the general population and housing census of 2004, relating to the medium variant of housing space type House 25 urban center, while later medium-18 status has been relying on an analytical method based on variance analysis of temporal and spatial rainfall water quantities and expected compiled from the roofs of houses using quantitative methods and dependent on return periods of annual rainfall and prospects. A collection of 30 cubic meters was selected as the level above which well building is considered feasible. Accordingly, we found that 18 urban center out of urban centres were used in the study of their wells (role), while the villas in all urban centres except the city of Ma'an owing to the lack of precipitation.

Keywords: Urban centre, Water harvesting, House, Villas, Role.

قدم البحث للنشر في 2011/10/24 وقبل في 2012/3/11

الهوامش:

- (1) وزارة المياه والري: إستراتيجية المياه من أجل الحياة (2008-2022)، الأردن، 2007، ص17.
- (2) وزارة المياه والري، إدارة الإعلام والتوعية: التقرير السنوي لعام 2007، الأردن، 2007، ص15.
- (3) وزارة المياه والري: إستراتيجية المياه من أجل الحياة (2008-2022)، مرجع سابق، ص25.
- (4) عطية، محمد: قراءة إستراتيجية تحليلية نقدية حول أزمة الأمن المائي في الأردن والحلول المقترحة، صحيفة الرأي الاردنية، الصادرة بتاريخ 28/9/2009.
- (5) وزارة المياه والري، إدارة الإعلام والتوعية: ترشيد الاستهلاك المائي، الأردن، 2008، ص17.
- (6) وزارة المياه والري، سلطة المياه: بيانات الأمطار السنوية للفترة (1990/89 – 2009/8)، الأردن، 2009.

- (7) دائرة الإحصاءات العامة: نتائج التعداد العام للسكان والمساكن لعامي (2004/1994). الأردن، عمان، قسم الحاسب، 2007.
- 8) Mahmood, M.H., *Feasibility of Using Roof Rainwater Catchment Systems in Jordan*, MSc Thesis, Yarmouk University, Irbid, Jordan, 1986, 60 pages.
- (9) لطفي، عبدالفتاح: "إمكانيات الحصاد المائي في المراكز الحضرية الأردنية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مجلد 26، عدد 2، 1999، ص 469.
- 10) Jabarin, A, S, " The Economics of Water Harvesting Techniques in Arid Zones of Jordan", *Dirasat, Agr & Sci*, Amman, Vol 30, No3, 2003, p 364.
- 11) Tarawneh, S., " Water Harvesting of Urban Storm Runoff (West Side of Karak City as case –Study)", *Abhath AL Yarmouk, Basic sci & eng*, Irbid, Vol10, No1, 2004, p 113.
- 12) Skinner, B., *Small Scale Water Supply and Sanitation, Postgraduate Module*, WEDC, Loughborough University, United Kingdom, 2004.
- 13) Liaw, C, H & Tsai, Y, L., " Optimum Storage Volume of Rooftop Rain Water Harvesting Systems For Domestic Use", *Journal of the American Water Resources Association (JAWRA)*, No 3014, 2005, P 901.
- 14) Purwanti, S, P., "Rooftop Rain Water Collection, A Small Scale Water Supply for Domestic Water Use", Universities Muhammadiyah Surakarta, Surakarta, 2005 [http://eprints.UMS.ac.id/275/1/\(7\)_PS-pudyastuti.pdf](http://eprints.UMS.ac.id/275/1/(7)_PS-pudyastuti.pdf).
- 15) Clara, W, M., *Assessing the reliability of rooftop rainwater harvesting for domestic use in Western Kenya*, MSc Thesis, Edinboro University of Pennsylvania, 2010, www.geography.siu.edu/pdfFiles/Graduate/GradPapers/Mundia.pdf.
- (16) وزارة المياه والري: إستراتيجية المياه من أجل الحياة (2008-2022). مرجع سابق.
- (17) وزارة المياه والري، سلطة المياه: بيانات الأمطار السنوية للفترة (1990/89 – 2009/8)، مرجع سابق، 2009.
- (18) دائرة الإحصاءات العامة: نتائج التعداد العام للسكان والمساكن لعامي (2004/1994)، مرجع سابق، 2007.
- (19) انظر موقعا: www.dodson-hydro.com/software/hydro-cd/.../smada.htm
- 20) International Reference Center for Community Water Supply and Sanitation, "Rainwater Harvesting for Drinking Water Supply", Training Module Series, August, 1981.
- 21) Liaw, C, H & Tsai, Y, L., " Optimum Storage Volume of Rooftop Rain Water Harvesting Systems For Domestic Use", *Journal of the American Water Resources Association (JAWRA)*, No 3014, 2005, P 901.
- (22) دائرة الإحصاءات العامة: الأردن بالأرقام 2010، العدد 13، 2010، ص 15.

- (23) وزارة المياه والري، إدارة الإعلام والتوعية: ترشيد الاستهلاك المائي، مرجع سابق، ص.17
- (24) Jabarin, A, S, " The Economics of Water Harvesting Techniques in Arid Zones of Jordan", *Dirasat, Agr & Sci*, Amman, Vol 30, No3, 2003, p 364.

المراجع العربية:

- دائرة الإحصاءات العامة: الأردن بالأرقام 2010، العدد 13، 2010، ص15.
- دائرة الإحصاءات العامة: نتائج التعداد العام للسكان والمساكن لعامي (2004/1994)، الأردن، عمان، قسم الحاسب، 2007.
- عطية، محمد: قراءة إستراتيجية تحليلية نقدية حول أزمة الأمن المائي في الأردن والحلول المقترحة، جريدة الرأي، الصادرة بتاريخ 28/9/2009.
- لطفي، عبدالفتاح: "إمكانيات الحصاد المائي في المراكز الحضرية الأردنية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مجلد 26، عدد 2، 1999، ص469.
- وزارة المياه والري، إدارة الإعلام والتوعية: التقرير السنوي لعام 2007، الأردن، 2007، ص15.
- وزارة المياه والري، إدارة الإعلام والتوعية: ترشيد الاستهلاك المائي، الأردن، 2008، ص17.
- وزارة المياه والري: إستراتيجية المياه من أجل الحياة (2008-2022)، الأردن، 2007، ص17.
- وزارة المياه والري، سلطة المياه: بيانات الأمطار السنوية للفترة (1990/89 - 2009/8)، الأردن، 2009.

المراجع الأجنبية:

- Clara, W, M., *Assessing the reliability of rooftop rainwater harvesting for domestic use in Western Kenya*, MSc Thesis, Edinboro University of Pennsylvania, 2010, www.geography.siu.edu/pdfFiles/Graduate/GradPapers/Mundia.pdf.
- International Reference Center for Community Water Supply and Sanitation, "Rainwater Harvesting for Drinking Water Supply", Training Module Series, August, 1981.

- Jabarin, A, S," The Economics of Water Harvesting Techniques in Arid Zones of Jordan", *Dirasat, Agr & Sci*, Amman, Vol 30, No3, 2003, p 364.
- Liaw, C, H & Tsai, Y, L., " Optimum Storage Volume of Rooftop Rain Water Harvesting Systems For Domestic Use", Journal of the American Water Resources Association (JAWRA), No 3014, 2005, P 901.
- Mahmood, M.H., *Feasibility of Using Roof Rainwater Catchment Systems in Jordan*, MSc Thesis, Yarmouk University, Irbid, Jordan, 1986,60 pages.
- Purwanti, S, P., "*Rooftop Rain Water Collection, A Small Scale Water Supply for Domestic Water Use*", Universities Muhammadiyah Surakarta, Surakarta, 2005: [http://eprints.UMS.ac.id/275/1/\(7\)_PS-pudyastuti.pdf](http://eprints.UMS.ac.id/275/1/(7)_PS-pudyastuti.pdf).
- Skinner, B., *Small Scale Water Supply and Sanitation, Postgraduate Module*, WEDC, Longhborough University, United Kingdom,2004.
- Tarawneh, S., " Water Harvesting of Urban Storm Runoff (West Side of Karak City as case –Study)", *Abhath AL Yarmouk, Basic sci & eng*, Irbid, Vol10, No1, 2004, p 113.

خطاب الاقتباس الحضاري في الحضارة العربية الإسلامية - مقارنة أولية -

مضر عدنان طلفاح*

ملخص

تهدف هذه الدراسة الى بيان انطلاق الأمة العربية الإسلامية في بناء مشروعها الحضاري العربي الإسلامي من خطاب متكامل متماسك صاغه الإسلام، ووجه الأمة نحو تطبيقه، حثها فيه على "الاقتباس الحضاري" من الأمم السابقة، وتطوير منجزاتها، وتوظيف هذا التراث العلمي والثقافي في بناء حضارة عربية إسلامية إنسانية، تميزت بتقدمها العلمي والتقني، وخصوصيتها الثقافية والفكرية، ورؤيتها الحضارية المغايرة للآخرين. لتفرض نفسها وتأثيرها على شعوب الجوار الإسلامي ودولهم، كحضارة إنسانية عالمية مثلت قمة ما توصل إليه الإبداع الإنساني الحضاري في وقتها.

المقدمة

تمتاز مسيرة الحضارة الإنسانية بالتراكمية، واستفادة الأمم اللاحقة من منجزات سابقتها العلمية لاستحالة الانطلاق من البدء في تأسيس مشروعها الحضاري، مما كفل مشاركة شعوب العالم وحضاراته في صياغة الحضارة الإنسانية وبنائها، وانفتاحها على بعضها بعضاً أخذاً وإعطاءً في آن معاً، وهو الأمر الذي شاركت وتشاركت به الحضارة العربية الإسلامية منذ انطلاقتها، مع حضارات العالم القديمة منها والحديثة على حدٍ سواء.

وقد شرعت الأمة العربية الإسلامية في ترجمة علوم الحضارات السابقة، والاستفادة من منجزاتها، والاحتكاك مع ثقافاتهما والتواصل معها، ووظفت هذا التراث العلمي والثقافي في بناء نسق حضاري عربي إسلامي إنساني تميز بتقدمه العلمي والتقني، وخصوصيته الثقافية والفكرية، ورؤيته الحضارية، ففرض نفسه وتأثيره على شعوب الجوار الإسلامي ودولهم، كحضارة إنسانية عالمية مثلت قمة ما توصل إليه الإبداع الإنساني الحضاري في وقتها.

وفي هذا السياق تطرح التساؤلات الآتية: هل كان شروع الأمة العربية الإسلامية في مشروعها الحضاري شروعاً عفويّاً لا ينطلق من أرضية فكرية أو يرنو الى هدف؟ أم كان وقوعاً تحت تأثير الحضارات السابقة وهيمنتها؟ أم امتلكت الأمة خطاباً متكاملًا متماسكاً صاغه الإسلام ووجه الأمة نحو تطبيقه، حثها فيه على "الاقتباس الحضاري" من الأمم السابقة، وتطوير

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم التاريخ، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

منجزاتها بهدف بناء حضارة زاهية تعبر عن خصوصيتها، وتكفل لها المساهمة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية وتقدمها في الوقت ذاته؟

وعلى الرغم من وجهة هذه التساؤلات، ورغم كثرة الدراسات، العربية منها وغير العربية، التي بحثت في الموضوع الحضاري العربي الإسلامي، فإن أياً منها، حسب ما اطلع عليه الباحث، لم يدرس الخطاب الفكري الذي انطلق منه العرب المسلمون "للاقتباس الحضاري" من الأمم الأخرى. ولهذا جاءت هذه الدراسة بهدف مقارنة بنية "خطاب الاقتباس الحضاري" بصورة أولية، معتمدة المنهج التاريخي للوصول الى هدفها والإجابة على التساؤلات السابقة.

مكانة العلم في الإسلام

أضفى الخطاب الإسلامي بركنيه؛ القرآن الكريم والحديث النبوي، على العلم مكانة مركزية في الخطاب الموجه الى أفراد الأمة، منذ أول يوم لتلقي البشرية للوحي الإلهي، إذ حثهم على طلب العلم والإبداع فيه، جاعلاً إياه فريضة، على المؤمنين والمؤمنات على حد سواء، معتبراً العلم وسيلة الإنسان، المستخلف في الأرض لإعمارها، للكشف عن سنن الله في الكون، وتسخير إمكاناته لما فيه نفعه وتقدمه. ليتبوا العلماء، تبعاً لذلك، مكانة سامية في الخطاب الإسلامي، والمجتمع البشري، نظراً لجسامة المهام الموكلة إليهم من تقدم ورقي حضاري. وأكد الخطاب الإسلامي على تلازم العلم والعمل، وما يترتب على العمل من اكتشاف وابتكار وتطوير مادي، ورقي معرفي، وازدهار حضاري بشري. مشدداً في الوقت ذاته على شمولية العلم للجانب الديني والديني، وعدم تعارض العلم والإيمان في الإسلام⁽¹⁾. إذ دفع القرآن الأمة إلى طلب العلم بشقيه: الديني والديني بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ: يُتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا، وَيُزَكِّيكُمْ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

استشعر العرب المسلمون الأوائل الفرق بين (الكتاب والحكمة) في الخطاب الإسلامي، فذهبوا بالكتاب إلى معنى العلوم الدينية، ومصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية، وذهبوا بالحكمة إلى معنى العلوم العقلية الدينيية⁽³⁾، ومصدرها الأمم الأخرى. ورأوا في هذا دعوة صريحة إلى اقتباس العلوم الدينيية منها، فأخذوا يبنون هذه الفكرة في المجتمع العربي الإسلامي الوليد.

نقل لنا سعيد بن أبي بردة (ت 132هـ/750م)، وهو حفيد الصحابي الشهير أبي موسى الأشعري، ما انتشر بين العرب المسلمين بصدد هذا التوجه، فقال: "كان يُقال: الحكمة ضالة المؤمن يأخذها إذا وجدها"⁽⁴⁾. وحفظ ابن عبد ربه (ت 328هـ/939م) طائفة من أقوال العرب المسلمين حول الحكمة ضمن هذا التوجه، منها ما نسب للرسول ﷺ، إذ يقول: "الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها، ولا يبالي من أي وعاء خرجت"، و"خذوا الحكمة ولو من السنة

المشركين". كما ينقل لنا قولاً عربياً إسلامياً شائعاً بعصره "قالوا: إذا وجدتكم الحكمة مطروحة على السكك فخذوها"⁽⁵⁾.

أدى هذا التميز إلى ظهور مجموعتين رئيسيتين للعلوم في الأمة العربية الإسلامية: أطلق على المجموعة الأولى منها اسم: العلوم الدينية، أو العلوم المليّة، التي ضمت علوم: القرآن، والحديث، والفقه، واللغة العربية، وعلم الكلام. فيما أطلق على المجموعة الثانية اسم: العلوم الحكّميّة، والتي ضمت علوم: الهندسة، والعدد (الرياضيات)، والتنجيم (علم الفلك)، والحيل (الميكانيكا)، والطب، والصيدلة، والأصباغ والأطلية (الكيمياء)، وعلم النبات، والمعادن، والحيوان، وعلم الآثار العلوية (علوم الجو). وعلم المنطق⁽⁶⁾.

تقاسمت مجموعتا العلوم هذه طلاب العلم العرب والمسلمين، فقسم توجه إلى العلوم المليّة، وهي العلوم التي صاغت الشخصية العربية الإسلامية المتميزة والمستقلة عن الآخرين، بترسيخ ثقافة عربية إسلامية، ذات منظومة قيمية منتمة للإسلام وللعروبة، وبناء منظومة قانونية شاملة لجوانب حياة الأمة مستمدة من القرآن الكريم، والسنة النبوية. ونشطت علوم اللغة العربية كمعبر عن هوية حضارية ومعرفية تترسخ بها خصوصية الأمة، وانتعشت علوم التاريخ بوصفها المرآة لتجربة الأمة التاريخية، وناقل خبراتها المتراكمة والمكتسبة خلال مسيرتها. واجتمعت هذه العلوم معاً لتشكل الهوية الثقافية للأمة العربية الإسلامية، ولتوجه مسيرتها الحضارية بشكل يؤمن لها نظرتها للحياة الخاصة بها⁽⁷⁾.

فيما توجه القسم الثاني من الطلاب العرب المسلمين إلى العلوم الحكّميّة، ليجدوا أنفسهم أولاً بحاجة إلى ترجمة مؤلفات العلوم من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، وخطوتهم هذه في جمع المادة العلمية تشبه إلى حد كبير خطوة طلاب العلوم المليّة في جمع مادتهم العلمية عبر ما أطلقوا عليه (الرحلة في طلب العلم)⁽⁸⁾.

حياسة مواريث الأمم: ترجمة علوم الحضارات السابقة

كان دافع العرب المسلمين في ترجمة العلوم واقتباسها: مبدأ استخلاف الأمة في النبوة والأرض والسلطة الذي نادى به القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾⁽⁹⁾، الذي اتسع مفهومه مع الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه (13-23هـ/ 634-644م) إذ كان يستنهض العرب للجهاد بقوله: "سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها....، والله: مظهر دينه، ومُعز ناصره، ومُول أهله

موراث الأُمَم"⁽¹⁰⁾، فلم تعد موراث الأُمَم تنحصر بالسلطة والأرض والنبوة، بل امتدت لتعني وراثَة العرب المسلمين للعلوم أيّ كان مصدرها، إذ هي من موراث الأُمَم الأساسيّة⁽¹¹⁾.

عدد الجاحظ (ت255هـ/998م) أهمّ الأُمَم التي اقتبس العرب المسلمون العلوم منها، ووراثَة المسلمين لها بقوله، المختصر عظيم الدلالة: "قد نُقلت كتب الهنود وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس، ... من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا؛ وكنا آخر من ورثها ونظر فيها"⁽¹²⁾.

كان تعامل العرب المسلمين مع منجزات الأُمَم السابقة لهم تعاملًا واقعيًا؛ فهم لم يتقبلوها أو يرفضوها جملة، بل اقتبسوا منها ما ارتأوه صالحًا لهم ولتوجهاتهم وتطلعاتهم، ولم يَحْصُر المسلمون وراثتهم للعلم والحضارة بأمة بعينها، كتابية أم غير كتابية، بل امتد المفهوم الجديد لمبدأ وراثَة الأُمَم، كما رسَّخه عمر بن الخطاب، ليشمل جميع الأُمَم السابقة للإسلام، والتي رأى المسلمون تجميع ما انفردت به كل أمة عن سواها في بوتقة حضارية عربية إسلامية واحدة.

قال أبو يوسف الكندي (ت252هـ/866م) موضحاً توجه العرب المسلمين بهذا الصد كما استقر إلى أيامه: "إنه لم ينل الحق، بما يستأهل الحق، أحدٌ من الناس يجهد طلبه، ولا أحاط به جميعهم، بل كل واحد منهم إما لم ينل منه شيئاً، وإما نال منه شيئاً يسيراً بالإضافة إلى ما يستأهل الحق، فإذا جُمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل، فينبغي أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق فضلاً عما أتى بكثير من الحق: إذ أشركونا في ثمار فكرهم، وسهلوا لنا المطالب الخفية الحقية، بما أفادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق، فإنهم لو لم يكونوا لم يجتمع لنا مع شدة البحث في مددنا كلها هذه الأوائل الحقية، التي بها خرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الحقية، فإن ذلك إنما اجتمع في الأعصار السالفة المتقدمة عصراً بعد عصر الى زماننا هذا، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب في ذلك،...، وينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأُمَم المباينة، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس يُبْخَسُ الحق، ولا يَصْغُرُ بقاله ولا بالآتي به، ولا أحد بَخْسُ الحق، بل كل يشرفه الحق"⁽¹³⁾.

شكل مبدأ وراثَة المسلمين موراث الأُمَم السابقة الأرضية الفكرية التي انطلق منها العرب المسلمون في المجال الحضاري، والعلمي، والإبداعي، وكان لابد لحيازة موراث الأُمَم: أن ينقل تراثها أولاً إلى اللغة العربية، لغة الأمة المستخلفة، لدراستها وفهمها وتجاوزها.

والملاحظ أن حيابة مواريت الأمم (الترجمة) لم تنشط في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين (11-132هـ/632-750م)، ورغم تعدد التفسيرات في أسباب ذلك، وأكثرها رواجاً انشغال الدولتين في الفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام، فإن ذلك يجب أن لا يغيب عن أعيننا حقيقة تزامن ازدهار العلوم القرآنية، وعلوم السنة، والعلوم الفقهية، واللغوية، والتاريخية في المجتمع الإسلامي آنذاك⁽¹⁴⁾، مع اتساع حركة الجهاد، ونشر الإسلام، إن لم يكن هذا النشاط متسايراً معها. وهو ما يثبت أن العرب المسلمين انصرفوا أولاً إلى العلوم التي ارتأوها أساسية في بنية الحضارة الجديدة، إذ هي المشكل للهوية الثقافية للمجتمع الجديد، التي تكسبه وعياً بذاته وبرسالته، وتشعره بتمايظه عن الآخرين من الأمم السابقة والمحيطه به.

إن الاعتقاد باكتمال اللبنة الأساسية في هذه المجالات أتاح السبيل للانتقال بعدها بصورة واسعة لحيابة مواريت الأمم، في صدر الدولة العباسية، رغم أن هذا لم يمنع من الشروع منذ عهد الدولة الأموية بالبداة بعملية نقل العلوم عن الحضارات السابقة⁽¹⁵⁾، مثل الخليفة الأموي مروان بن الحكم (64-65هـ/683-684م) الذي ترجمت له بعض كتب الطب⁽¹⁶⁾، والأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت90هـ/709م)، الذي ترجمت له بعض كتب الطب، وكتب الكيمياء، وكتب النجوم⁽¹⁷⁾.

غير أن أهم ما تم إنجازه في عهد الدولة الأموية في هذا السياق تعريب لغة الدواوين في الدولة الإسلامية؛ إذ شكل ذلك "أول عملية ترجمة منظمة [تقوم بها الدولة العربية الإسلامية] أدت إلى نقل الاصطلاحات الإدارية والمالية الرومية، والفارسية، والقبطية إلى اللغة العربية، وفتحت الباب على مصرعيه أمام الترجمة في حقول العلم الأخرى إلى اللغة العربية"⁽¹⁸⁾.

إلا أن النهضة الحقيقية في حيابة مواريت الأمم/ ترجمة العلوم تمت في العهد العباسي، وينبغي تأكيد أن الترجمة التي تمت خلال هذا العهد، كانت السبيل الرئيس لنقل علوم حضارات الأمم السابقة، ومعارفها إلى اللغة العربية. ويمكن تقسيم مراحل حيابة مواريت الأمم/ الترجمة إلى مرحلتين رئيسيتين⁽¹⁹⁾:

- المرحلة الأولى (136-198هـ/753-818م): انصب الاهتمام بها على ترجمة كتب: الطب، والفلك، والرياضيات، من اللغات: اليونانية، والهندية، والفارسية.

- المرحلة الثانية (198-300هـ/818-912م): تم الاهتمام خلالها بترجمة كتب: الرياضيات، والفلسفة والمنطق، مع الاستمرار بترجمة كتب الطب، والفلك.

كانت الترجمة سبباً واعياً وملتزمًا بخدمة مصالح الأمة الناشئة، وسبباً مدعوماً من السلطة السياسية في الدولة، الأمر الذي يكفل التشجيع والإنفاق. يضاف إلى ذلك فرض الرقابة على ما

ينقل من إرث الحضارات السابقة، إن كانت المجالات العلمية هي التي توجهت اهتمامات الدولة إليها آنذاك.⁽²⁰⁾ واضطلعت مؤسسة علمية رسمية كبيرة في العصر العباسي بهذه المهمة سميت (بيت الحكمة)⁽²¹⁾، الذي أصبح منذ تأسيسه في عهد الرشيد (170-193هـ/786-809م)، وازدهاره في عهد المأمون (198-218هـ/813-833م)، راعي حركة الترجمة في الدولة الإسلامية لحيازة موارث الأمم.⁽²²⁾

الإبداع العربي الإسلامي حضارياً وثقافياً

كانت نتيجة عملية حيازة موارث الأمم: اقتباس العلوم عن الأمم الأخرى، وتجميع ما انفردت به كل أمة عن مثيلاتها، فامتلك العرب المسلمون خبرة علمية هائلة، اتخذوها أساساً ومنطلقاً للإبداع والتقدم العلمي والابتكار الحضاري في جميع المجالات. غير أن هذا لم يكن أساس الإبداع الحضاري الإسلامي والعلمي العربي فحسب، بل يضاف إليها ما تمتع به العرب من مؤهلات عقلية وفكرية فريدة، إن "للرب خاصة طبع عجيب في الإخبار والاستخبار، والمباحثة والاستكشاف، وسرعة إدراك ما يسفر عن الأواخر عند النظر في الأوائل"⁽²³⁾.

قال الجاحظ (ت 255هـ/868م) راداً على الزعم القائل: (ما ترك الأول للآخر شيئاً) بتعداده بعضاً من ابتكارات العرب المسلمين حتى أيامه: "هل رأيتم أحداً اتخذ حراقة"⁽²⁴⁾، أو زلالة"⁽²⁵⁾، أو قارباً؟! وهل عرفوا الخيش مع حر البلاد ووقع السموم؟! وهل عرفوا الجمّازات"⁽²⁶⁾ لأسفارهم ومُنْتَزَحاتهم؟! وهل عرف فلاحوهم الثمار المطعمة، وغراس النخل على الكُردات المسطرة؟ وأين كانوا عن استخراج فوه العُصفُر؟ وأين كانوا عن تغليق الدُّور والمدن، وإقامة ميل الحيّطان والسواري المائلة الرؤوس الرفيعة السموك المركبة بعضها على بعض؟! وأين كانوا عن مراكز البحر في ممارسة العدو الذي في البحر، إن طارت البوارج أدركتها، وإن أكرهتها فانتهاها،... وأين كانوا عن الرمي بالنيران"⁽²⁷⁾!!

وقال ابن قتيبة (ت 276هـ/889م) في معرض حديثه عن فضل العرب: "والعلوم جنسان: أحدهما علم إسلامي نتج بين الدين واللغة، كالفقه والنحو ومعاني الشعر، وهذا للعرب خاصة، ليس للعجم فيه سبب إلا تعلمه واقتباسه، وللعرب سناؤه وفخره. والآخر علم متقادم تتشارك فيه الأمم، لا أعلم منه فناً إلا وقد جعل الله للعرب فيه حظاً، ثم تنفرد من ذلك بأشياء لا تُشارك فيه"⁽²⁸⁾.

وقال مسكويه (ت 421هـ/1030م) مؤكداً هذه الحقيقة: إن العرب المسلمين "لما ملكوا الدور والقصور، والجنان، والأودية والأنهار، والمعادن، والقلاع والمدن والبلدان، والسهل

والجبل، والبر والبحر؛ لم يقعدوا عن شأو من تقدمهم بآلاف السنين، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم، بل أبرؤا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا، وهذا حكم ظاهر معروف، وحاضر مكشوف، ليس إلى مرده سبيل، ولا لجاحده دليل" (29).

وأكدت عديد الدراسات الحديثة، العربية وغير العربية على حد سواء، المستوى الحضاري الرفيع الذي بلغه المجتمع العربي الإسلامي، والتقدم العلمي والتقني للحضارة العربية الإسلامية، بتجاوزها مرحلة الاقتباس وولوجها في مرحلة الإبداع في حقبة ازدهارها، ليطال تأثيرها المجتمعات الإنسانية المجاورة لها، بوصفها الحضارة الإنسانية المهيمنة حضارياً آنذاك (30).

واللافت للنظر أن أثر عملية حيازة مواريث الأمم السابقة لم يقتصر على الجانب العلمي فحسب، بل طالت الجانب الثقافي كذلك، إذ كانت عمليات الاحتكاك والامتزاج مع الثقافات المتباينة والأمم المختلفة عامل إثراء للثقافة العربية الإسلامية، بان أثره في مختلف فروعها. ففي مجال الفكر والأدب لعبت الأمم الأخرى دوراً كبيراً في الثقافة العربية الإسلامية، وتركت الثقافات التي احتك بها العرب المسلمون أثرها في المؤلفات العربية الإسلامية.

صرّح الجاحظ (ت 255هـ/868م) أن كتابه (الحيوان) خلاصة امتزاج الثقافات في البيئة العربية الإسلامية فيقول: "هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع من معرفة السماع، وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة" (31).

وكذلك فعل الفقيه ابن قتيبة (ت 276هـ/889م) في كتابه (عيون الأخبار) عندما صرّح أنه حصيلة امتزاج الثقافات في البيئة العربية الإسلامية، إذ يقول في وصف مصادره: "إعلم أنا لم نزل نلتقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة، وعن جلسائنا وإخواننا، ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتاب في فصول كتبهم، وعمن هو دوننا، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سناً لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لخساسته، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها، فضلاً عن غيرها، فإن العلم ضالة المؤمن من حيث أخذه نفعه، ولن يزرى بالحق أن تسمعه من المشركين، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين،...، ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة، والفرص تمر مر السحاب" (32).

فكان من نتيجة الامتزاج والاحتكاك بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافات الأخرى أن طُعمت اللغة العربية بألفاظ جديدة، في مجال اللغة اليومية المحكية (33)، وبألفاظ ومصطلحات علمية في

مجالات العلوم والفلسفة، أورد الخوارزمي الكاتب (ت 3هـ/10م) في كتابه (مفاتيح العلوم) طائفة كبيرة مما دخل منها إلى اللغة العربية⁽³⁴⁾، فغدت اللغة العربية لغة علمية وثقافية عالمية⁽³⁵⁾، قادرة على حمل العلوم والإبانة عنها. قال البيروني (ت 440هـ/1048م)، مقررًا هذه الحقيقة، ومبينًا مكانة اللغة العربية العلمية العالمية آنذاك: "وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة"⁽³⁶⁾.

اكتسبت الثقافة العربية الإسلامية أساليب جديدة في مجالي الأدب والفكر، إذ ساهمت الأمم الأخرى، ضمن المجال الثقافي والحضاري العربي الإسلامي، بدور كبير في تزويد الثقافة العربية الإسلامية بأساليب مبتكرة في الشعر والأدب، جمعت بين الموروثات العربية وتراث هذه الأمم، مما أبرز للوجود شكلاً جديداً من أشكال الإبداع الأدبي في الثقافة العربية الإسلامية⁽³⁷⁾.

واقتسبت الثقافة العربية الإسلامية أساليب الفلسفة من اليونان، فتسلح علماء الكلام المسلمين بالفلسفة في الدفاع عن الثقافة العربية الإسلامية أمام أعدائها، وهو ما دفع الجاحظ للجمع بين علوم الدين والفلسفة كشرط أساسي في ثقافة المتكلم، إذ قال: "ليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة يصلح للرئاسة؛ حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعلم عندنا هو الذي يجمعهما"⁽³⁸⁾.

وأدت الفتوحات العربية الإسلامية إلى توحيد المراكز الحضارية الكبرى في العالم القديم في الدولة العربية الإسلامية، وكان لاستيطان العرب في الأقاليم المفتوحة، واستقرار الكثير من غير العرب في المدن العربية في شبه الجزيرة العربية، خاصة مكة والمدينة، الأثر الحاسم في عملية امتزاج كبرى بين العرب الفاتحين وأهالي هذه المناطق الحضارية في جميع المجالات الاجتماعية⁽³⁹⁾.

أدى احتكاك الثقافة العربية الإسلامية مع غيرها من الثقافات إلى ردها بمقومات جديدة ساهمت في قوتها وتميزها، ورغم ذلك بقيت ثقافة عربية إسلامية في جوهرها: لغة وقيماً وعادات وتقاليد وأفكار وقوانين. وهي الثقافة التي استطاعت التغلب على غيرها من الثقافات في الأقاليم التي فتحتها العرب، فانتشر الإسلام والعربية فيها بصورة شبه تامة، وأزاحت الثقافة العربية الإسلامية من أمامها الثقافات المحلية التي كانت سائدة من قبل. وأضحى أبناء هذه الثقافات علماء غيورين على الثقافة العربية الإسلامية، يعملون بكل جهد بهدف تنميتها وبقائها وديمومتها. ويكفي للدلالة على ذلك الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من علماء الحضارة العربية الإسلامية وأدبائها ومفكرها يعودون لأصول عرقية غير عربية⁽⁴⁰⁾، وهو ما أكد قوتها واستعدادها المتأصل للاحتكاك مع مثيلاتها دون أن يعني ذلك زوبانها أو تلاشيها، بل خرجت بناءً أقوى وتأثيراً أشد.

المكانة العلمية والحضارية للمجتمع العربي الإسلامي في العالم آنذاك

مثّلت الحضارة العربية الإسلامية قمة الرقي والتطور والتفوق الإنساني الحضاري والعقلي في وقتها، وهو ما استشعره العرب المسلمون وافتخروا به⁽⁴¹⁾، وكان هذا التفوق جلي الوضوح، لا للعرب المسلمين فحسب، بل حتى لدول الجوار ومواطنيها، فأصبحت المراكز العلمية العربية الإسلامية مقصد طلاب العلم والثقافة آنى كانوا.

أكد رئيس أحد الأديرة في الأندلس مشاهدته "طلاباً من فرنسا وألمانيا وإنجلترا يترددون أفواجاً إلى المراكز العلمية العربية" الإسلامية بها، بهدف طلب العلم العربي الإسلامي، وفسّر رئيس الدير ذلك قائلاً: "العلم منحة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية الإسلامية على العالم المعاصر"⁽⁴²⁾.

ولم يقتصر الأمر أوروبياً على المبادرة الفردية، بل قامت ممالك: فرنسا وإنجلترا وبافاريا⁽⁴³⁾ بإرسال بعثات علمية رسمية إلى الأندلس بهدف: نقل العلوم والمعارف والتقنيات العربية إليها⁽⁴⁴⁾، وتتضح مرامي البعثات العلمية الأوروبية هذه في رسالة الملك الإنجليزي جورج الثاني إلى الخليفة الأموي في الأندلس هشام الثالث، إن قال فيها: "سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم، لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان"⁽⁴⁵⁾. كما عمد بعض ملوك أوروبا إلى استقدام علماء الأندلس لتأسيس المدارس ونشر العلم والعمران في بلادهم، فدرّس الأساتذة العرب المسلمون في فروع العلم المختلفة في الجامعات! الفرنسية⁽⁴⁶⁾.

وتعاقدت حكومات (إنجلترا وسكسونيا⁽⁴⁷⁾ وهولندا) في القرن 3هـ/9م "مع حوالي (90) من الأساتذة العرب الأندلسيين بمختلف العلوم" للتدريس في بلادها، "وقد اختير هؤلاء من بين أشهر العلماء العرب الذين كانوا يحسنون اللغتين اللاتينية والإسبانية"، فضلاً عن اللغة العربية⁽⁴⁸⁾، التي فرضت سيادتها العلمية والثقافية والحضارية على العالم اجمع آنذاك⁽⁴⁹⁾، ولا تزال العديد من المفردات العربية في جميع المجالات الحضارية، والعلمية، والاقتصادية، والاجتماعية مستخدمة في لغات دول وشعوب الجوار، مع بعض التحريف، دلالة قوية وواضحة على حجم التأثير الحضاري العربي⁽⁵⁰⁾.

وقد بث تفوق العرب المسلمين الحضاري هذا شعوراً بالعجز عند الأمم المجاورة عن اللحاق بهم؛ كتب الشاعر الإيطالي بترارك (ق 8هـ/14م) يؤنب قومه: "إنكم تتوهمون أنه لن

ينبغي أحد بعد العرب!! لقد نافسنا اليونان وتفوقنا عليهم، ونافسنا كل الشعوب والأمم، ومع ذلك تقولون: إننا لن ننافس العرب!! ترى هل أصيبت عبقرية الإيطاليين بالعمق⁽⁵¹⁾؟!

الخاتمة

توصلت الدراسة الى النتائج التالية:

- انطلق العرب المسلمون في الاستفادة من منجزات الأمم السابقة وحضاراتها من خطاب متكامل ومتماسك صاغه الإسلام ووجه الأمة نحو تطبيقه، حثهم فيه على "الاقتباس الحضاري" من الأمم السابقة، وتطوير منجزاتها لبناء نسق حضاري عربي إسلامي إنساني، يحقق للأمة حضارة زاهية تعبر عن خصوصيتها، ويكفل لها المساهمة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية وتقدمها، في ذات الوقت.
- كان هدف "خطاب الاقتباس الحضاري" تأكيد استقلالية شخصية الأمة العربية الإسلامية الحضارية، وعدم وقوعها تحت تأثير أو هيمنة الحضارات السابقة، لذ وجه هذا الخطاب الأمة نحو العلوم النافعة لتوجهاتها وتطلعاتها الحضارية، بهدف دراستها وتجاوزها للولوج في مرحلة الإبداع العلمي والابتكار التقني، لتأكيد أصالة الحضارة العربية الإسلامية العلمية، وتميزها وإبداعها عما يعاصرها أو سبقها من حضارات.
- على الرغم من تأكيد "خطاب التواصل الحضاري" على الخصوصية الثقافية للأمة العربية الإسلامية التي أكسبتها وعيا بذاتها وبرسالتها، وأشعرتها بتميزها عن الثقافات الأخرى، إلا انه لم يحل بينها وبين الاحتكاك والامتزاج معها، الأمر الذي شكل عامل إثراء للثقافة العربية الإسلامية برفدها بمقومات جديدة ساهمت في زيادة قوتها وتميزها، فاستطاعت التغلب على غيرها من الثقافات. مما أكد شخصيتها المستقلة واستعدادها المتأصل للاحتكاك مع مثيلاتها دون أن يؤدي ذلك الى إضعافها أو تلاشيها، بل خرجت بناءً أقوى وتأثيراً اشد.
- كفل "خطاب التواصل الحضاري" للأمة العربية الإسلامية المساهمة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية وتقدمها، بنجاحه في هدفه: بناء حضارة عربية إسلامية إنسانية عالمية، تميزت بإبداعها العلمي والتقني، وهويتها الثقافية والحضارية المستقلة والمتعالية عن الاستتباع، ليطال تأثيرها شعوب الجوار الإسلامي ودولهم، آنذاك، بوصفها قمة ما توصل إليه الإبداع الإنساني الحضاري في وقتها، ولتترك بصمات قوية، يمكن تلمسها حتى وقتنا الراهن، في المسيرة الحضارية الإنسانية.

The Quotational Discourse in the Arab-Islamic Civilization -Initial Approximity-

Modar Telfah, Department of History, YarmoukUNiversity,Irbid,Jordan.

Abstract

This study indicates the Arab nation's start of building its cultural Arab-Islamic speech formulated by Islam and the face of the nation towards its application, urging the government to quote from previous nations and civilizations, the development of its achievements, and employment this scientific and cultural heritage in building a human and Islamic Arab civilization, characterized by it's scientific and technical progress, and it's vision different from others. So that it can impose itself and its impact on the neighboring Islamic peoples and their countries as a global human civilization represented the best is reached by the creativity of human civilization in the time.

قدم البحث للنشر في 2011/12/11 وقبل في 2012/4/8

الهوامش

- (1) انظر في ذلك: عبد البديع الخولي، العلم في الإسلام، مجلة تربية الأزهر، ع 23 (1992م)، ص 333 وما بعدها. سيشار إليه: عبد البديع الخولي، العلم في الإسلام.
- (2) سورة آل عمران: أية 164. وانظر أيضاً: سورتي: البقرة: أية 151، الجمعة: أية 2.
- (3) قال أبو الحسن العامري: العلم "ينقسم الى: المِلِّي والحَكْمِي، وأرباب العلوم المِلِّيَّة هم المصطفون من الأنبياء صلوات الله عليهم، وأرباب العلوم الحَكْمِيَّة هم المرتضون من الحكماء". العامري، محمد بن يوسف (ت381هـ/992م)، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق: أحمد غراب، الرياض: دار الأصاله، 1408هـ، ص80. سيشار إليه: العامري، الإعلام بمناقب الإسلام. وقال ابن خلدون: "اعلم أن العلوم التي يخوض بها البشر ويتداولونها في الأمصار، تحصيلاً وتعليماً، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عن وضعه. والأول: هي العلوم الحَكْمِيَّة الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ووجوه تعليمها، حتى يَقِفَ نظره وبحته على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر. والثاني: هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي،.... واصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة، التي هي

مشروعة لنا من الله ورسوله". ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: مكتبة الأسرة، 2006م، ج3، ص 930 - 931. سيشار إليه: ابن خلدون، المقدمة. وانظر أيضاً: محمد عمارة، العرب والتحديث، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ع 29، أيار 1980، ص 92-96. سيشار إليه: محمد عمارة، العرب والتحديث.

(4) ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد (ت235هـ/849م)، المصنف، تحقيق: كمال الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ، ج7، ص240. سيشار إليه: ابن أبي شيبة، المصنف.

(5) ابن عبد ربه، احمد بن محمد (ت328هـ/939م)، العقد الفريد، تحقيق: مفيد قميعة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1404هـ، ج9، ص2، ص117. سيشار إليه: ابن عبد ربه، العقد الفريد.

(6) العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، ص80 وما بعدها. وانظر أيضاً: ابن خلدون، المقدمة، ج3، ص 930 وما بعدها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيراً من الفقهاء رفضوا تسمية ما اعتبروه (علوم الأوائل) باسم العلوم الحكمية، المشتقة من لفظة الحكمة القرآنية، وحرصوا على صرفها إلى علوم السُّنة النبوية، إذ أن ظاهر النص يخبر بتعليم الرسول ﷺ الحكمة، ولم يصرفوها إلى معنى توجيه الرسول ﷺ العرب المسلمين إلى طلب هذه العلوم ممن أبدع فيها. والإمام الشافعي (ت204هـ/820م) إذ يحرص على تأكيد نسبة الحكمة إلى علوم السُّنة، (انظر: الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الفكر، د.ت، ص76 وما بعدها. سيشار إليه: الشافعي، الرسالة.) نجده يثبت تفسير جناح آخر من العلماء لها بمعنى علوم الأوائل، والذي يبدو أنه كان قوياً، بحيث إنه يختم مناقشاته حول التسمية بالقول: "فلم يجز- والله أعلم- أن يقال الحكمة ها هنا إلا سُنَّة رسول الله ﷺ" (الرسالة، ص78). والمهم في مناقشة الإمام الشافعي، عدا رفضه نسبة الحكمة إلا لسُنَّة الرسول ﷺ، تأكيده قوة الاتجاه المفسر للحكمة بأنها (علوم الأوائل). والظاهر أن جهود الإمام الشافعي (ت204هـ/820م) لم تفلح في بداياتها، إذ نجد العامري (ت381هـ/992م) لا يزال يستخدم مصطلح (العلوم الحكمية) ليذهب به مقصداً غير مقصد الإمام الشافعي. وانظر ضمن هذا السياق: ابن رشد، محمد بن احمد (ت595هـ/1198م)، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق: محمد عمارة، القاهرة: دار المعارف، ط3، د.ت، ص 21 وما بعدها. سيشار إليه: ابن رشد، فصل المقال.

(7) انظر: عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، 1986م، ص 83 وما بعدها. سيشار إليه: عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي.

(8) حول أهمية (الرحلة في طلب العلم) في مجال العلوم الدينية (الملية)، انظر: الخطيب البغدادي، احمد بن علي (ت463هـ/1070م)، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1395هـ. سيشار إليه: الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب العلم.

- (9) سورة الأنبياء: 105-106.
- (10) انظر مبدأ استخلاف الأمة وشواهد التاريخية عند: رضوان السيد، الجماعة والمجتمع والدولة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1418هـ/1997م، ص 23-25، 83 وما بعدها. سيشار إليه: رضوان السيد، الجماعة والمجتمع.
- (11) محمد عمارة، العرب والتحدي، ص 90.
- (12) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ/998م)، كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجليل، 1408، ج1، ص75. سيشار إليه: الجاحظ، كتاب الحيوان.
- (13) الكندي، يعقوب بن إسحاق (ت252هـ/866م)، رسالة الكندي إلى المعتصم بالله، تحقيق: أحمد الأهواني، بيروت: دار التقدم: ط 2، 1986م، ص 87-89. سيشار إليه: الكندي، رسالة الكندي إلى المعتصم بالله؛ محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 9، 2006م، ص 239-240. سيشار إليه: محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي.
- (14) أنظر في ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر: سمية الوافي، التعليم في الشام في العصر الأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة-جامعة أم القرى، 1428هـ، ص 130 وما بعدها. سيشار إليه: سمية الوافي، التعليم في الشام في العصر الأموي، صالح احمد العلي، دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ/1983م، ص 14 وما بعدها. سيشار إليه: صالح احمد العلي، الحركة الفكرية في صدر الإسلام.
- (15) أنظر في ذلك: لطف الله القاري، بدايات الترجمة في العهد الأموي (40-132هـ)، ضمن: أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب، تحرير: خالد ماغوط ومحمد خياطة، حلب: معهد التراث العلمي العربي-جامعة حلب، 1984م، ص 285 وما بعدها. سيشار إليه: لطف الله القاري، بدايات الترجمة في العهد الأموي؛ محمد خريسات، "خالد بن يزيد بن معاوية وإهتماماته العلمية"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 13-14، 1983م، ص 25 وما بعدها. سيشار إليه: محمد خريسات، "خالد بن يزيد بن معاوية".
- (16) ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون (ت685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، باعتناء: خليل منصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ/1997م، ص 99. سيشار إليه: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول.
- (17) ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت380هـ/990م)، الفهرست، باعتناء إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة، 1415هـ، ص302، 434. سيشار إليه: ابن النديم، الفهرست.
- (18) محمد خريسات ورفاقه، تاريخ الحضارة الإسلامية، إربد: مؤسسة حمادة للدراسات، ط1، 2000م، ص 103. سيشار إليه: محمد خريسات، تاريخ الحضارة الإسلامية.

- (19) خليل السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، الموصل: جامعة الموصل، 1983م، ص82-83. سيشار إليه: خليل السامرائي، تاريخ الفكر العربي.
- (20) يميز الدوري بين "اتجاهين رئيسيين" للترجمة داخل بنية الحضارة العربية الإسلامية: "اتجاه رسمي" عني بترجمة العلوم، و"اتجاه غير رسمي" عني بالأدب. التكوين التاريخي، ص 90.
- (21) لاحظ ارتباط اسم هذه المؤسسة العلمية بلفظة الحكمة القرآنية، وعملية حيازة موارث الأمم، في السياق الفكري والحضاري العربي الإسلامي.
- (22) تألف بيت الحكمة من غرف متعددة تمتد بينها أروقة طويلة، وتنقسم هذه الغرف أقساماً عدة تبعاً للعاملين فيها: فهناك غرف للمترجمين، وأخرى للناسخين، وأخرى للمجلدين والوراقين، وأخرى للخازنين والمناولين، فضلاً عن مكتبتها الشهيرة، وغرف تحوي خرائط ومصورات بلدانية، وتقاويم فلكية وأزياج، إضافة الى قاعات للمحاضرات والمناظرات، وإلى جانبها غرف خصصت لسكنى الطلاب الوافدين لها من جميع أنحاء الدولة. حول بيت الحكمة، انظر: محمد مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار العودة، 1998م، ص210-213. سيشار إليه: محمد مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب. وانظر أيضاً: سعيد الديوه جي، بيت الحكمة، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ط2، 1392هـ/1972م، ص 31 وما بعدها. سيشار إليه: سعيد الديوه جي، بيت الحكمة؛ علي الخلاقي، "بيت الحكمة البغدادي في عصر الازدهار العباسي"، مجلة سبأ، عدد 14-15 (1428هـ/2007م)، ص 196 وما بعدها. سيشار إليه: علي الخلاقي، "بيت الحكمة البغدادي".
- (23) المرزوقي، أحمد بن محمد (ت 421هـ/1030م)، الأزمنة والأمكنة، تحقيق: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ، ص11. سيشار إليه: المرزوقي، الأزمنة والأمكنة. ويؤكد محمد مرحبا، بحق، أن العبرة ليست "بالتأثيرات الأجنبية، وإنما العبرة كل العبرة بالعقل الذي يستخدم هذه التأثيرات، ويصوغ منها مادة جديدة". أصالة الفكر العربي، بيروت: منشورات عويدات، ط1، 1982م، ص175. سيشار إليه: محمد مرحبا، أصالة الفكر العربي.
- (24) الحراقة: من أنواع سفن الأسطول الإسلامي، " فيها مرامي النيران، يرمى بها على العدو في البحر". مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1416هـ/1996م، ص 140. سيشار إليه: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات.
- (25) الزلزلة: نوع من السفن الإسلامية، يمتاز بصغر حجمه وسرعته. المرجع السابق، ص 223.
- (26) الجمازات: " آلة المحامل التي توضع" على الجمال. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، نقله الى العربية وعلق عليه: سليم التكريتي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980م، ج 10، ج 2، ص 270. سيشار إليه: دوزي، تكملة المعاجم العربية.

- (27) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ/868م)، **الوكلاء**، تحقيق: عبد السلام هارون، ضمن رسائل الجاحظ، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1979م، ج 4، ص 103-105. سيشار إليه: الجاحظ، **الوكلاء**.
- (28) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م)، **فضل العرب والتنبية على علومها**، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ط 1، 1998م، ص 119-120. سيشار إليه: ابن قتيبة، **فضل العرب**.
- (29) مسكويه، أحمد بن محمد (ت 421هـ/1030م)، **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق: محمد حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ، ص 81. سيشار إليه: مسكويه، **الإمتاع والمؤانسة**.
- (30) انظر في ذلك على سبيل المثال: سيمون الحايك، **نقل الحضارة العربية إلى الغرب**، د.م. د.ن، 1987م؛ شاخت وكليفورد بوزورث (محرران)، **تراث الإسلام**، ترجمة: حسين مؤنس وإحسان العمد، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ط 2، أيار - حزيران، 1998م، ج 2؛ زيجرد هونكة، **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، بيروت: دار الأفاق الجديدة، ط 6، 1981م؛ زكريا هاشم، **فضل الحضارة الإسلامية على العلوم**، القاهرة: دار النهضة المصرية، د.ت؛ دونالد ر. هيل، **العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية: لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية**، ترجمة: احمد فؤاد باشا، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ع 305، يوليو 2004م؛ محمد خلف الله احمد (محرر)، **أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية**، القاهرة: مركز مطبوعات اليونسكو، 2000م؛ توبي أ. هف، **فجر العلم الحديث: الإسلام-الصين-الغرب**، ترجمة: محمد عصفور، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ط 2، ع 260، آب 2000م؛ عبدالرحمن بدوي، **دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي**، الكويت: وكالة المطبوعات، ط 3، 1978م؛ منتجمري واط، **أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا**، ترجمة جابر جابر، دمشق: وزارة الثقافة، 1981م.
- (31) الجاحظ، **كتاب الحيوان**، ج 1، ص 11.
- (32) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م)، **عيون الأخبار**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1985، ج 4، ج 1، ص 47 - 48. سيشار إليه: ابن قتيبة، **عيون الأخبار**.
- (33) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ/868م)، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط 7، 1998م، ج 4، ج 1، ص 19-20. سيشار إليه: الجاحظ، **البيان والتبيين**.
- (34) الخوارزمي، محمد بن أحمد (ت 3هـ/10م)، **مفاتيح العلوم**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص 79 وما بعدها. سيشار إليه، الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**.
- (35) التوحيدي، علي بن محمد (ت 414هـ/1023م)، **البصائر والذخائر**، تحقيق: وداد القاضي، بيروت: دار صادر، 1408هـ، ج 9، ج 8، ص 35. سيشار إليه: التوحيدي، **البصائر والذخائر**.

- (36) البيروني، محمد بن أحمد (ت 440هـ/1048م)، كتاب الصيدنة، تحقيق: محمد سعيد ورانا إحسان الهي، كراتشي: مؤسسة همدرد الوطنية، 1973، ص 12. سيشار إليه: البيروني، الصيدنة، عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص110.
- (37) أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ط3، 1938م، ص164 وما بعدها؛ 279 وما بعدها.
- (38) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج2، ص134.
- (39) انظر في ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر: الأصفهاني، علي بن الحسين (ت356هـ/966م)، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، بيروت: دار الفكر، د.ت، 25ج، ج 3، ص 273؛ إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي، عمان: لجنة تاريخ بلاد الشام، 1990، ص 389 - 390، محمد زيود، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي، دمشق: جامعة دمشق، 2001، ص412. سيشار إليه محمد زيود، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي؛ أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج1، ص190؛ أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، ص271؛ أحمد الحومي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، القاهرة: دار نهضة مصر، ط3، د.ت، ص 111-113؛ ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد أبو ريده، بيروت: دار الكتاب العربي، 1967، ج 2، ص236-243. سيشار إليه: ادم متز، الحضارة الإسلامية.
- (40) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ج3، ص 1122 وما بعدها.
- (41) انظر مثلاً رأي: صاعد الأندلسي، صاعد بن احمد (ت462هـ/1070م)، طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، د.ت، ص6 وما بعدها. سيشار إليه، صاعد الأندلسي، طبقات الأمم. وينبغي هنا التأكيد على أن العرب المسلمين لم يفسروا تفوقهم الحضاري والعلمي تفسيراً عنصرياً كما فعلت أوروبا لاحقاً. انظر في ذلك: توماس باترسون، الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ، ترجمة: شوقي جلال، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2001م.
- (42) عبد الفتاح الغنيمي، الإسلام والثقافة العربية في أوروبا، القاهرة: عالم الكتب، 1399هـ، ص205. سيشار إليه: عبد الفتاح الغنيمي، الإسلام والثقافة العربية.
- (43) بافاريا: إحدى الولايات الألمانية حالياً، وتقع في جنوب شرقها. فاتنة الشعال، "بافاريا"، ضمن الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، ط1، 2001م، ج23، ج 1، ص621.
- (44) خليل السامرائي، تاريخ الفكر العربي، ص386-387.
- (45) زكريا هاشم، فضل الحضارة الإسلامية على العلوم، ص24؛ خليل السامرائي، تاريخ الفكر العربي، ص386.

- (46) عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، بيروت: دار الرشاد، 1969م، ص50. سيشار إليه: عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس.
- (47) سكسونيا: إحدى الولايات الألمانية حالياً، تقع في وسطها، وتطل على بحر الشمال. صافية عيد، "سكسونيا"، الموسوعة العربية، ج 11، ص 23.
- (48) خليل السامرائي، تاريخ الفكر العربي، ص387. كما استقدمت دول الجوار خبراء عرب للعمل فيها وتدريب أبنائها، ففي الصين استقدم المغول خبراء عرب في مجالات؛ (الفلك، والطب، والمدفعية، وهندسة العمارة). و. ل. مي بدر الدين، تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر، طرابلس: دار الإنشاء، د.ت، ص31. سيشار إليه: و.ل بدر الدين، تاريخ المسلمين في الصين. وهو ذات التوجه لبعض الدول الأوروبية، ولا سيما: إنجلترا، وهولندا، وسكسونيا، وبافاريا، التي استقدمت خبراء عرب في مجالات: "إنشاء السفن، وصناعة النسيج، والزجاج، والبناء، وفنون الزراعة". خليل السامرائي، تاريخ الفكر العربي، ص387.
- (49) كان الراهب الفرنسي سكاني روجر بيكون (ت1294م) دائم التأكيد في تأليفه على: " أن الفلسفة تحتاج إلى أن تدرس باللغة العربية ". سيمون الحايك، نقل الحضارة العربية إلى الغرب، ص119. وقام الأوروبي ماتياس فاسموت بتأليف كتاب بعنوان: (النحو العربي)، طبع في أمستردام سنة 1654م، مؤكداً "في مقدمته الطويلة على أهمية تعلم اللغة العربية لدراسة الطب". مارتن بلنسر، العلوم [الإسلامية]، ضمن: تراث الإسلام، ج2، ص176.
- (50) انظر مثلاً: شوقي الجمل، دور العرب الحضاري في إفريقيا، ضمن: العرب في إفريقيا (الجزور التاريخية والواقع المعاصر)، سمنار قسم التاريخ، جامعة القاهرة، 1987م، ص149؛ سيد مقبول، العلاقات العربية والهندية، بيروت: الدار المتحدة، 1974م، ص76؛ فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986م، ص62 وما بعدها؛ زيجرد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص 17 وما بعدها؛ ص 56 وما بعدها؛ ص 161؛ ص 552 وما بعدها؛ محمد مرجبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص421؛ أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص485؛ انور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دمشق: دار الفكر، ط3، 1986م، ص218؛ عبد العزيز إبراهيم، محاضرات في تاريخ أوروبا الحديث (عصر النهضة)، مالطا: ELGA، 1999م، ص42؛ شاخت، القانون [الإسلامي]، ضمن تراث الإسلام، ج 2، ص106؛ زكريا هاشم، فضل الحضارة الإسلامية، ص 258.
- (51) محمد مرجبا، أصالة الفكر العربي، ص21.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

القرآن الكريم.

ابن أبي شيبة، عبدالله بن محمد (ت 235 هـ / 849م)، المصنف، تحقيق: كمال الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ، 7ج.

ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون (ت 685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، باعتناء: خليل منصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ/1997م.

ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت 380هـ/990م)، الفهرست، باعتناء إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة، 1415هـ.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: مكتبة الأسرة، 2006م، 3ج.

ابن رشد، محمد بن احمد (ت 595هـ/1198م)، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق: محمد عمارة، القاهرة: دار المعارف، 3، د.ت.

ابن عبد ربه، احمد بن محمد (ت 328هـ/939م)، العقد الفريد، تحقيق: مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1404هـ، 9ج.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م)، عيون الأخبار، بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م، 4ج.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م)، فضل العرب والتنبيه على علومها، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ط1، 1998م.

الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ/966م)، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، بيروت: دار الفكر، د.ت، ط2، 25ج.

البيروني، محمد بن أحمد (ت 440هـ/1048م)، كتاب الصيدنة، تحقيق: محمد سعيد ورانا احسان الهي، كراتشي: مؤسسة همدرد الوطنية، 1973.

الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ/998هـ)، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط7، 1998م، ج4.

الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ/998هـ)، **الوكلاء**، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1979م.

الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ/998هـ)، **كتاب الحيوان**، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت: دار الجيل، 1408هـ، ج8.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت463هـ/1070م)، **الرحلة في طلب الحديث**، تحقيق: نور الدين عتر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1395هـ.

الخوارزمي، محمد بن أحمد (ت3هـ/10م)، **مفاتيح العلوم**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
الشافعي، محمد بن إدريس (ت204هـ/820م)، **الرسالة**، تحقيق: أحمد شاكرو، بيروت: دار الفكر، د.ت.

صاعد الأندلسي، صاعد بن أحمد (ت462هـ/1070م)، **طبقات الأمم**، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، د.ت.

العامري، محمد بن يوسف (ت381هـ/992م)، **الإعلام بمناقب الإسلام**، تحقيق: أحمد غراب، الرياض: دار الأصاله، 1408هـ.

الكندي، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (ت252هـ/866م)، **رسالة الكندي إلى المعتصم بالله**، تحقيق: أحمد الأهواني، بيروت: دار التقدم، ط2، 1986م.

المرزوقي، أحمد بن محمد (ت421هـ/1030م)، **الأزمنة والأمكنة**، تحقيق: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ/1996م.

مسكويه، أحمد بن محمد (ت421هـ/1030م)، **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق: محمد حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2002م.

مسكويه، أحمد بن محمد (ت421هـ/1030م)، **البصائر والذخائر**، تحقيق: وداو القاضي، بيروت: دار صادر، ط1، 1408هـ/1988م، ج9.

المراجع العربية:

إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي، عمان: لجنة تاريخ بلاد الشام، 1990م.

أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ط3، 1938م.

أحمد الحومي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، القاهرة: دار نهضة مصر، ط3، د.ت.

أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دمشق: دار الفكر، 1986.

خليل السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، الموصل: جامعة الموصل، 1983م.

رضوان السيد، الجماعة والمجتمع والدولة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1418هـ/1997م.

سعيد الديوه جي، بيت الحكمة، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ط2، 1392هـ/1972م.

سمية الوافي، التعليم في الشام في العصر الأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة-جامعة أم القرى، 1428هـ.

سيد مقبول، العلاقات العربية والهندية، بيروت: الدار المتحدة، 1974م.

سيمون الحايك، نقل الحضارة العربية إلى الغرب، د.م: د.ن، 1987م.

شوقي الجمل، دور العرب الحضاري في إفريقيا، ضمن: العرب في إفريقيا (الجزور التاريخية والواقع المعاصر)، سمناز قسم التاريخ، جامعة القاهرة، 1987م.

صالح احمد العلي، دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ/1983م.

عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، الكويت: وكالة المطبوعات، ط3، 1978م.

عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، بيروت: دار الرشاد، 1969م.

عبد العزيز إبراهيم، محاضرات في تاريخ أوروبا الحديث: عصر النهضة، مالطا: ELGA، 1999م.

عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، 1986م.

عبد الفتاح الغنيمي، الإسلام والثقافة العربية في أوروبا، القاهرة: عالم الكتب، 1399هـ.

فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986م.

محمد خريسات ورفاقه، تاريخ الحضارة الإسلامية، اربد: مؤسسة حمادة للدراسات، ط1، 2000م.

محمد خلف الله احمد (محرر)، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة: مركز مطبوعات اليونسكو، 2000م.

محمد زيود، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي، دمشق: جامعة دمشق، 2001م.

محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط9، 2006م.

محمد عمارة، العرب والتحدي، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ع 29، أيار 1980.

محمد مرحبا، أصالة الفكر العربي، بيروت: منشورات عويدات، 1982م.

محمد مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت: دار العودة، 1998م.

مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1416هـ/1996م.

هاشم زكريا، فضل الحضارة الإسلامية على العلوم، القاهرة: دار النهضة المصرية، د.ت.

و.ل. مي. بدر الدين، تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر، طرابلس: دار الإنشاء، د.ت.

المراجع العربية:

ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد ابو ريده، بيروت: دار الكتاب العربي، 1967م.

أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ت.

توبي أ. هف، فجر العلم الحديث: الإسلام-الصين-الغرب، ترجمة: محمد عصفور، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ط2، ع260، آب 2000م.

توماس باترسون، الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ، ترجمة: شوقي جلال، القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة، 2001م.

دونالد ر. هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية: لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية، ترجمة: احمد فؤاد باشا، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ع 305، يوليو 2004م.

رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، نقله الى العربية وعلق عليه: سليم التكريتي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980م، 10ج.

زيجرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1981م.

منتجمري واط، أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا، ترجمة جابر جابر، دمشق: وزارة الثقافة، 1981م.

الأبحاث والدراسات العربية:

عبد البديع الخولي، العلم في الإسلام، مجلة تربية الأزهر، ع 23 (1992م).

علي الخلاقي، "بيت الحكمة البغدادي في عصر الازدهار العباسي"، مجلة سبأ، عدد 14-15 (1428هـ/2007م).

لطف الله القاري، بدايات الترجمة في العهد الأموي (40-132هـ)، ضمن: أبحاث المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب، تحرير: خالد ماغوط ومحمد خياطة، حلب: معهد التراث العلمي العربي-جامعة حلب، 1984م.

محمد خريسات، "خالد بن يزيد بن معاوية وإهتماماته العلمية"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 13-14 (1983م).

محمد خلف الله احمد (محرر)، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة: مركز مطبوعات اليونسكو، 2000م.

الأبحاث والدراسات المعربة:

شاخت وكليفورد بوزورث (محرران)، تراث الإسلام، ترجمة: حسين مؤنس وإحسان العمدة، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ط2، أيار - حزيران، 1998م، ج2

شاخت، القانون [الإسلامي]، ضمن تراث الإسلام، تحرير: شاخت وكليفورد، ترجمة: حسين مؤنس وإحسان العمدة، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ط2، أيار-حزيران، 1998م، ج2، ج2.

مارتن بلنسر، العلوم [الإسلامية]، ضمن: تراث الإسلام، تحرير: شاخت وكليفورد، ترجمة: حسين مؤنس وإحسان العمدة، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ط2، أيار - حزيران، 1998م، ج2، ج2.

الموسوعات:

الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، ط1، 2001م، ج23.

السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين في ضوء تغير موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة

وصفي محمد عقيل وخالد مفضي الدباس *

ملخص

تبحث هذه الدراسة في تأثير التغيرات في موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة في السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين؛ فقد أفضى التغير في مفهوم ونمط توازن القوى الدولية إلى بروز نظام رأسمالي عالمي متعدد المراكز سياسيا، واقتصاديا، الأمر الذي انعكس على طبيعة إدارة السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين، وبالذات في القضايا السياسية، والاقتصادية.

وقد تناولت الدراسة التغير في عملية صنع القرار في السياسة الخارجية اليابانية، وبرز التنافس بين التيارات المختلفة حول كيفية إدارة السياسة الخارجية، ثم تناولت انعكاس التغيرات في السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين في ضوء التغيرات الدولية.

توصلت الدراسة إلى أنه يوجد تغير في السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين بعد نهاية الحرب الباردة، وتغير موازين القوى الدولية، متمثلا في تنامي النظرة الإيجابية نحو الصين من اعتبارها خطرا عسكريا محتملا إلى شريك اقتصادي مهما في المستقبل، في وقت تتطلع فيه اليابان لإعادة مكانتها الدولية كعضو دائم في مجلس الأمن.

الكلمات المفتاحية: السياسة الخارجية، واليابان، والصين، والتوازن الدولي، والحرب الباردة.

المقدمة

ظهرت النزعة العسكرية لليابان في ثلاثينيات القرن العشرين، مدفوعة بعقيدة دينية تعدّهم أرقى الشعوب الآسيوية وان أرضهم مقدسة، وإمبراطورهم هو من نسل الالهة (الخطيب، 1994، ص 32)، حيث انسحبت من عصبة الأمم في عام 1933م، وبدأت بغزو الأجزاء الشمالية الشرقية من الصين خلال الفترة 1933-1937م، ثم تحالفت مع ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وهاجمت المستعمرات البريطانية والفرنسية في جنوب شرق آسيا، ثم شنت هجماتها على القواعد العسكرية الأمريكية في الفلبين، وهاواي عام 1941م، لكنها أعلنت استسلامها عام 1945م بعد ان

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم العلوم السياسية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

أُلقت الولايات المتحدة قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي، ووضعت بعد ذلك في ظل رقابة دولية من الحلفاء، وفقدت كل ممتلكاتها في الخارج.

وخلال الفترة بين عامي 1945 إلى 1952، كانت اليابان تحت احتلال الحلفاء بقيادة القوات العسكرية الأمريكية التي يرأسها الجنرال دوغلاس ماك آرثر، الذي اعتمد على سياسة تجريد اليابان من سلاحها، وتحبيد عسكرها وإضعاف ارثها الإمبراطوري، وتغيب نزعتها العسكرية، وإرساء قواعد الديمقراطية الليبرالية، وإعادة بناء مؤسساتها المدنية (فوجل، 1996، ص19).

ومنذ نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991م، تبنت اليابان سياسة خارجية أكثر براغماتية تجاه مشكلاتها، وتحولت تطلعاتها من إستراتيجية المواجهة إلى إستراتيجية التعاون، وخاصة بعد تطورها الاقتصادي الكبير، الذي دفعها لتحتل موقعاً متقدماً في الاقتصاد العالمي، وهو ما جعل القادة اليابانيون يتطلعون إلى إعادة تطوير العلاقة بطريقة سلمية ومتكافئة مع الولايات المتحدة الأمريكية، بالشكل الذي يعزز مكانتها الدولية في الأمم المتحدة من جهة وينمي تجارتها واستثماراتها، ويحقق الأمن الإقليمي مع دول الجوار الآسيوي من جهة أخرى.

أهمية الدراسة

تنطلق أهمية الدراسة من أهمية الموضوع ذاته، باعتباره حقلاً معرفياً للدراسات الأكاديمية العربية المتعلقة بدراسات شمال شرق آسيا، ومن ثمّ فهي محاولة لإثراء المكتبة العربية بهذا النوع من الدراسات، كما تبرز أهمية الدراسة من وقوفها على مدى تأثير البيئة الداخلية للدول المتمثلة بنظمها السياسية بالبيئة الخارجية ومتغيراته، ومدى انعكاس هذا التأثير في سلوكها السياسي الخارجي، كذلك تساهم هذه الدراسة في إبراز التغير في مفاهيم العلاقات الدولية التقليدية، ومنها صنع القرار وتوازن القوى.

وفي ناحية أخرى تبرز أهميتها مما تقدمه من توضيح لكيفية إدارة السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين بعد انتهاء الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفييتي، والادعاء بنهاية التاريخ غير الرأسمالي الذي تحدث عنه الكثير من منظري العلاقات الدولية الراهنة، في وقت تتنامى فيه علاقات الاعتماد المتبادل بين الدول الرأسمالية، والاشتراكية معاً.

مشكلة الدراسة

تتضح أبعاد مشكلة الدراسة من جدلية العلاقة بين تنامي العلاقات الثنائية بين اليابان والصين من جهة، وتغيرات موازين القوى الدولية من جهة أخرى، وهو ما يدفع للتساؤل عن طبيعة العلاقة بين المتغيرين، وميكانيزماتها، والتساؤل عن احتمالية وجود تغير في وجهة النظر

اليابانية تجاه الصين يوعز لتغيرات موازين القوى الدولية التي برزت بعد نهاية الحرب الباردة، وينبثق عن هذا التساؤل المحوري عدة تساؤلات فرعية تتمحور حول النقاط الآتية:

- هل هناك تغيرات في اتجاهات صانع القرار السياسي الياباني، وفي أهداف وأدوات تنفيذ السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين، يوعز للتغيرات في موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة؟
- ما طبيعة تلك التغيرات التي حدثت في موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة؟
- كيف انعكس تأثير تلك التغيرات الدولية على السياسة الخارجية اليابانية، وما كان ميكانزم عملها؟
- ما نتائج تلك التغيرات، وكيف حكمت العلاقة بينهما؟

أهداف الدراسة:

- تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:
- التعرف على التغيرات الدولية، وتأثير على السياسة الخارجية اليابانية.
- التعرف على نمط العلاقات القائمة بين قوى النظام الدولي بعد نهاية الحرب الباردة، وتأثيرها على طبيعة إدارة السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين.
- التعرف على طبيعة الاتجاهات والتيارات التي تؤثر في صنع القرار السياسي الياباني.

فرضية الدراسة:

تقوم فرضية الدراسة على وجود علاقة طردية إيجابية بين التغيرات في موازين القوى الدولية، والسياسة الخارجية اليابانية بعد انتهاء الحرب الباردة تجاه الصين، وقد صيغت الفرضية على النحو الآتي:

"كلما زادت التغيرات في موازين القوى الدولية زادت تغيرات السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين بعد انتهاء الحرب الباردة"

- كذلك ستعالج الدراسة مجموعة من الفرضيات الفرعية المرتبطة بالفرضية الرئيسة، ومنها:
- إن سياسة اليابان الخارجية تجاه الصين كانت عدائية خلال فترة الحرب الباردة لكنها تغيرت بعد حدوث التغيرات في موازين القوى الدولية وأصبحت سلمية.
- هناك تحول في الموقف لدى صانع القرار السياسي الياباني، ومؤسساته بعد نهاية الحرب الباردة من إطار الاهتمام بالاقتصاد إلى إطار الاهتمام بالسياسة.

منهجية البحث:

- تقوم منهجية البحث على استخدام منهج صنع القرار مع منهج تحليل النظم، وفق الآتي:
- مدخلات النظام، وتتمثل باعتبار المتغيرات في موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة عبارة عن مدخلات للنظام السياسي الياباني، وهي تعكس مطالب البيئة الخارجية تجاهه، من أجل تعديل سلوكه السياسي الخارجي تجاه الصين، وهي تمثل ضغوطات وتحديات سياسية أو عسكرية، أو اقتصادية جديدة عليه بعد نهاية الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفييتي، وهي حسب فرضية البحث المؤثر الأكبر على مواقفه السياسية تجاه الصين، ومن خلال طريقة استجابته لها تتضح قدرته على التكيف مع المتغيرات الجديدة.
 - صنع القرارات، وتقوم بهذا الدور مؤسسات صنع القرار السياسي الياباني، حيث سيتم تناول دور وزارة الخارجية اليابانية في صنع السياسة الخارجية، وتنفيذها باعتبارها احد مؤسسات السلطة التنفيذية، التي تعكس اتجاهات ومواقف الدايت الياباني بمجلسيه (النواب والشيوخ)، لاسيما وأن النظام السياسي الياباني يقوم على مبدأ تبني الليبرالية السياسية وفق النهج الغربي التي تستند إلى حكم الأغلبية الحزبية، حيث الافتراض بأن الأغلبية الحزبية الحاكمة ستقوم بالتفاعل مع المدخلات، وتعمل على استيعاب المطالب الجديدة في البيئة الدولية من أجل تحويلها إلى مخرجات تجاه التعامل مع الصين.
 - المخرجات، وتتمثل في الأفعال والتصرفات التي صدرت عن النظام السياسي الياباني تجاه الصين بعد نهاية الحرب الباردة، وهي تتضح في التركيز على استخدام احد أدوات تنفيذ السياسة الخارجية على حساب الأداة الأخرى، فمثلا تميل السياسة الخارجية اليابانية إلى تبني استخدام الأداة الاقتصادية في سياستها الخارجية تجاه الصين، أكثر من ميلها لاستخدام الأداة العسكرية، أو الأداة الدبلوماسية، وذلك نظرا لطبيعة التأثيرات التي افرزتها المتغيرات الجديدة في موازين القوى الدولية، التي من أبرز نتائجها اعتبار الاقتصاد محركا رئيسيا في السياسة الخارجية للدول.

الدراسات السابقة:

على الرغم من صعوبة الحصول على الأدبيات السابقة التي تختص بعنوان الدراسة مباشرة، إلا أن هناك بعض الأدبيات المميزة التي تحدثت عن بعض المواضيع المتعلقة بالدراسة، نذكر منها:

أولا: دراسة علي سيد النقر بعنوان: "السياسة الخارجية اليابانية تجاه شرق آسيا" الصادرة عام 2001م، وفيها تحدث الباحث عن أن التعاضد الاقتصادي لليابان سيدفع باتجاه إعادة توزيع

توازن القوى الإقليمية في المنطقة، الأمر الذي يحتم عليها أن تتبع إستراتيجية تقوم على احترام المصالح الصينية فيه، وما يؤخذ على هذه الدراسة اغفالها لتأثير التاريخ في العلاقات اليابانية الصينية، وهذا ما ستوضحه الدراسة.

ثانياً: دراسة Furuoka Fumitaka بعنوان: "Japan's Foreign Aid Sanctions Policy Toward China"، الصادرة عام 2007م، وقد بحثت الدراسة في استخدام اليابان للمساعدات الخارجية كأداة في سياستها الخارجية تجاه اليابان، وكيف عزفت الحكومة اليابانية عن استخدام هذه الأداة كأداة عقابية تجاه الصين، هادفة لتعزيز مصالحها الاقتصادية ومتلافية لأية رد فعل عكسية من الصين، إلا أن هذه الدراسة عظمت من دور الأداة الاقتصادية في السياسة الخارجية اليابانية على حساب الأداة الدبلوماسية، والأداة العسكرية، ولم تبرز سبب تراجع استخدامهما، وهذا ما ستوضحه الدراسة.

ثالثاً: دراسة Hitoshi Tanaka and Adam P.Liff بعنوان: "Japan's Foreign Policy and East Asian Regionalism"، الصادرة عام 2009م، وقد بينت الدراسة أن نجاح الحزب الديمقراطي في انتخابات عام 2009م، نقله نوعية للسياسة الخارجية اليابانية التي عظمت من اهتمامها بالتعاون الإقليمي، وتأكيد دور اليابان السيادي فيه، لكن هذه الدراسة أغفلت تأثير الطموحات اليابانية في ردود الفعل الصينية، وهذا ما ستوضحه الدراسة.

رابعاً: دراسة Andrew Forrest بعنوان "Future Patterns in China-Japan Power Relations: A Problematic and Puzzling Reality"، الصادرة عام 2009م، حيث ركزت الدراسة على استكشاف ديناميات القوة المتغيرة بين الصين واليابان، وبينت أن تصاعد النمو الصيني أثر في طبيعة العلاقة اليابانية-الأمريكية واليابانية-الصينية، وهو ما قد يدفع إلى إعادة ترتيب الظروف الأمنية في إقليم شرق آسيا وفق رؤية صينية، لكن هذه الدراسة ركزت على الأبعاد الأمنية في العلاقة بين الطرفين، مغفلة دور الدور الاقتصادي في العلاقة بينهما، وهذا ما ستوضحه الدراسة.

I- التغيرات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة

شهد النظام الدولي تغيراً في بنيته وآليات عمله بعد نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، وهذه التغيرات يبرز ظهورها عملياً وبشكل واقعي في موضوع السيادة سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً داخلياً وخارجياً، فداخلياً يتم تناوله في مؤسسات صنع القرار السياسي، وخارجياً يمكن تلمس ذلك فيما يلي:

أولاً: التغير في مفهوم النظام الدولي

شهد النظام الدولي اختلافاً في مفهومه ومدلولاته، فالمفهوم الذي كان سائداً عن النظام الدولي باعتباره مجموعة من الوحدات السياسية المستقلة المتفاعلة وفقاً لعملية منظمة (بركات، 1989م، ص287)، قد أصابه شيء من التغير لدخول أطراف أخرى فاعلة فيه، حيث أصبح يقصد بالنظام الدولي تلك التفاعلات الناجمة عن نمط المصلحة، والقوة بين الفاعلين الدوليين، سواء من الدول كوحدات سياسية أم غير الدول كالمنظمات الدولية، والشركات متعددة الجنسية (ربيع، 1994م، ص878).

ولذلك أصبح هناك تغير في مفهوم النظام تبعاً للتغير في نمط العضوية فيه بظهور فاعلين جدد، وعلاقات جديدة، ونشاط غير الدول كالمنظمات السياسية، والاقتصادية فوق الدولة، أو الجماعات السياسية دون الدولة، أو الهيئات الاجتماعية، والاقتصادية عبر الدولة، التي تتميز من حيث إمكاناتها، وقدراتها، وأهدافها، والتزاماتها بالقانون الدولي.

ثانياً: طبيعة التغيرات الدولية

بات في حكم المؤكد، أن هناك جملة من الملامح والسمات التي أصبحت تميز هذا النظام، من أبرزها:

1- تغير مفهوم القوة: يعدّ مفهوم القوة من المفاهيم الدارجة الاستخدام على وجه الدوام في حقل العلوم السياسية، وعلى وجه الخصوص في حقل العلاقات الدولية، حيث تتخذ القوة شكلها الصريح على المستوى الدولي كأسلوب للتعامل بين الدول نظراً لغياب المؤسسات الدولية الكفيلة باتخاذ الإجراءات اللازمة لحل الصراعات الدولية (رسلان، 1986، ص123).

ومفهوم القوة من المفاهيم القديمة المتجددة التي تلقي بظلالها على حقل السياسة الدولية منذ عهد أرسطو، أما في عصرنا الحالي فإن هانز مورجانشو من أبرز المدافعين عن سياسة القوة، فهو يرى أن السياسة الدولية ما هي إلا صراع من أجل القوة، بما تتضمنه من سيطرة على عقول الآخرين وتصرفاتهم (حسين، 1994، ص56).

أما عالم السياسة "روبرت دال" فهو يرى أن مفهوم القوة ينصرف إلى القدرة على جعل الآخرين يقومون بأشياء ما كانوا ليقوموا بها لولا تلك القدرة التي تتضمن عناصر كثيرة مثل: (القدرة الاقتصادية، والعسكرية، والموارد الطبيعية...). وإمتلاك هذه القوة السياسية، أو الاقتصادية، أو العسكرية ليس هو المقياس الفعلي لنجاح سياسات التأثير في الآخرين، وإنما فن إدارة هذه القوة يمثل العنصر الرئيسي الثاني لنجاح أية سياسة فعلية تأثيرية، هذا إذا علمنا أن الدولة ليس لها مطلق الحرية في اختيار أسلوب التعامل مع الآخرين؛ لأن الظروف الدولية والواقع السياسي قد لا يتيح لها ذلك،

خاصة إذا كان موقع هذه الدولة في توزيع القوى العالمي هامشياً، مما يعني بالضرورة أن تكيف الدولة سياساتها مع الواقع الدولي الذي تعيشه. ولا يتأتى لها ذلك إلا إذا أحسنت اختيار الأداة أو الوسيلة.

في السابق كانت القوة العسكرية تتمتع بمزايا لا مثيل لها في تحقيق الفائدة السياسية، والاقتصادية للدولة. لكن تحولات العصر وتطوراتها قد جعلت الأداة الاقتصادية في سلم أدوات السياسة الخارجية، فلم تعد الأداة العسكرية تحتفظ بميزتها السابقة، ولم تعد نتائجها مضمونة، وإنما تبدلت وأصبحت غير مجدية، ولا تحقق الأهداف السياسية للدولة، نظراً لارتفاع تكاليف تلك الأداة (ناي، 1991، ص30) ووقوفها كحجر عثرة في وجه تحقيق التنمية الشاملة في مجتمع الدولة؛ لأنها تشكل عبئاً كبيراً على الاقتصاد الوطني، هذا فضلاً عن إمكانية ردها، فقد كانت الأداة العسكرية التقليدية والنووية مردوعة من قبل الطرفين (السوفيتي، والأمريكي)، فلا يجرو أي طرف منهما على استخدامها، وبذلك انعدمت جدواها السياسية، وكان الحسم للقوة الاقتصادية التي كانت تتميز بها الولايات المتحدة ومعسكرها الغربي، حيث ركزوا على القوة الكامنة.

إذاً فقد تغير مفهوم القوة في النظام الدولي الحالي، فلم تعد القوة العسكرية تعرف قوة الدولة، وأصبحت القوة الاقتصادية المقياس الفعلي لقوة الدولة، وقد ترتب على هذا الأمر ما يأتي:

أصبحت هناك دول تمتلك قدرات عسكرية فائقة، ومع ذلك فإن أمنها مهدد مثل روسيا.

وكذلك أصبحت هناك دول لا تمتلك قدرات عسكرية جبارة، ومثالها اليابان، ومع ذلك فإن أمنها غير مهدد.

تغيرت طبيعة التحالفات من تحالفات عسكرية إلى تحالفات ذات طبيعة اقتصادية، ومثالها: الناتفا، الاتحاد الأوروبي، آسيان، وايك...الخ.

2- الثورة الهائلة في وسائل الاتصال، ونقل المعلومات وسرعة تداولها عبر الدول، الذي انعكس بشكل كبير على سرعة التواصل، وفي معدل التغير. فإذا كانت البشرية قد احتاجت ما يقرب من 1800 عام حتى تبدأ الثورة الصناعية الأولى، واحتاجت كذلك إلى مئة عام تقريباً حتى تدخل الثورة الصناعية الثانية، فقد احتاجت إلى ما لا يزيد عن ربع قرن لتدخل الثورة الصناعية الثالثة التي نعيشها الآن عبر التطور الكبير في مجالات الفضاء، والمعلومات، والعقول الالكترونية، والهندسة الفضائية(هلال، 1995، ص13-14).

II- التغير في موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة

أولاً: التغير في مفهوم تعدد القوى

خلال فترة الحرب الباردة سيطر نظام ثنائية القطبية على بنية النظام الدولي، وسلوكه، إذ انقسم العالم سياسياً، واقتصادياً إلى كتلتين: أحدهما في شرق أوروبا، وتهيمن عليها الاتحاد السوفيتي، وحلفاؤه في حلف وارسو، والأخرى في غرب أوروبا، وشمال أمريكا، وتهيمن عليه الولايات المتحدة الأمريكية، وحلفاؤها في حلف الناتو، وقد اتسمت هذه الفترة بحالة من الصراع والتوتر، والتنافس، والحروب بالوكالة بين القوتين العظميتين في ظل غياب حرب معلنة بينهما.

ومنذ منتصف الثمانينات، بدأت هناك بوادر أزمة حقيقة تحيط بالاتحاد السوفيتي اتضحت بعجزه عن مواجهة تداعيات أزماته الاقتصادية، حيث انكشف تردي الوضع الداخلي السوفيتي وفشل سياسته "البيروسترويك والجلاسنوست"⁽¹⁾، ويوعز بعض الباحثين أسباب حالة التردّي تلك إلى ضعف سياسات التخطيط المركزي للنظام السياسي، وتنامي الفساد، وإلى سباق التسلح مع الغرب (كروكات، 2004، ص189).

وقد أثار انهيار الاتحاد السوفيتي جدلاً واسعاً حول طبيعة النظام الدولي الذي ساد بعد انهيار القطبية في مجال العلاقات الدولية، مما جعل البعض يدعي بأنه نظام أحادي القطبية تنزعمه الولايات المتحدة (ثرو، 1995م، ص17)، بينما يمكن الاعتقاد بأنه نظام رأسمالي متعدد الأقطاب، ولا تهيمن عليه دولة واحدة.

ويشار إلى أن هذا التعدد في مصادر القوى مصدره التراجع في قوة الولايات المتحدة الاقتصادية، وهو تعدد يقوم على توسيع نطاق عمل المنظمات الدولية في مجال السياسة، والاقتصاد، والثقافة وغيرها، بهدف الحفاظ على السلم، والأمن الدوليين، ويبدو أن توزيع القوة الحالي بين الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الأوروبي، والصين، واليابان، وروسيا هو من مصلحة النظام العالمي نفسه، وهو ما يعطي هامشاً لدول الأطراف على المناورة، والحركة، حيث سيستمر إلى فترة غير محدودة على المدى المنظور، كما أنه سيدفع بتعزيز ظهور مزيد من الدول المتوسطة القدرات الصناعية، والديمقراطية على جانبي المحيط الهادي.

ثانياً: نمط العلاقات القائمة بين قوى النظام

مثل بروز روسيا الاتحادية كقوة عظمى متعاونة، وتراجع الدور الأحادي المهيمن للولايات المتحدة الأمريكية في مجلس الأمن إلى بروز دور قوي وفاعل للمؤسسات الدولية، وحدوث نوع من سياسة التوافق، والميل إلى الإجماع في فرض الشرعية الدولية، على الدول أو المجموعات

الخارجة عنها، وهو أمر دفع البعض إلى اعتباره مشابها لما يسمى بوجود حكومة عالمية (ربيع، 1994م، ص877)، لكن بالرغم من المؤسسات الدولية قد لعبت دورا كبيرا في التخفيف من الفوضى التي خلفها غياب الثنائية القطبية، إلا أن البعض يرى بان دورها جاء أساسا لتلبية متطلبات الرأسمالية العالمية، حيث انتهى الصراع الإيديولوجي في التاريخ الإنساني بانتصار الرأسمالية، وانتشار قيم الليبرالية الغربية (Fukuyama, 1992, p8-9).

وبهذا فإن النظام العالمي الذي استقر بعد نهاية الحرب الباردة، واتسم بطابع الرأسمالية لم يسمح بتفرد دولة واحدة للهيمنة عليه، بل سمح لتشكيل التوازنات القائمة على اعتماد المنفعة الاقتصادية المتبادلة (الطحان، 1991م، ص164)، فأصبحت وحداته تعيش حالة من الاعتماد المتبادل (الحوامده، 1993، ص7)، والابتعاد عن الصراع باتجاه التنافس في إطار التعاون السلمي، وعدم استخدام القوة العسكرية، أو سياسة المقاطعة الاقتصادية، وصولا إلى إيجاد درجة عالية من التعقيد في العلاقات بين أطرافه، ومن هنا برزت فكرة أن المكاسب من التعاون الدولي ستكون مطلقة وفق وجهة نظر إيمانويل كانت (Kant, 2001, p103).

وهذا ما يفسر امتناع الدول العظمى عن استعمال القوة المسلحة، أو الاعتداء على المصالح المباشرة لأي منها، فبعض القوى كاليابان مثلا قادرة على امتلاك قوة عسكرية تكنولوجية أو نووية، لكن الحفاظ على النظام العالمي واستقراره يحول دون الدخول في سباق تسلح، لأن ذلك سوف يعيق نموها، ويجردها من المكاسب التي حققها، وهذا ما يفسر عدم رغبتها القيام بأي دور سياسي عالمي على الرغم من حجم مساهمتها الكبيرة في ميزانية الأمم المتحدة التي تعادل إجمالي حصص كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا والصين معا⁽²⁾.

مما سبق نجد أن التغير في موازين القوى الدولية، وما أوجده التغير في أنماط العلاقات في الصفحات السابقة، قد انعكس في طبيعة السياسة الخارجية اليابانية باعتبارها احد وحدات النظام الدولي، حيث أفرز ثلاثة نماذج تحدد سياستها الخارجية، وهي: تقييد سيادتها الوطنية، وتقييد اقتصادها الوطني، وتأثر بعدها الاجتماعي، وهذا ما يمكن ملاحظته في ملامح تطورات السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين بعد نهاية الحرب الباردة.

III- تطورات السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين بعد نهاية الحرب الباردة

يعد نظام الحكم في اليابان نظاماً ملكياً دستورياً مع وجود حكومة برلمانية، ويعد الإمبراطور كيهيتو رمزاً لوحدة الدولة والشعب الياباني، وليس له أية صلاحيات فعلية. في حين تناط السلطة التنفيذية بمجلس الوزراء، الذي يتألف من رئيس الوزراء، والوزراء، وهم مسئولون بشكل جماعي أمام البرلمان "الدايت"، الذي تناط به السلطة التشريعية بمجلسيه النواب، والشيوخ.

أولاً: صنع القرار في السياسة الخارجية اليابانية

يعدّ مجلس الوزراء المسئول عن إدارة الشؤون الداخلية، والخارجية، للدولة برئاسة رئيس الوزراء المسئول عن تقديم تقارير دورية عن العلاقات الخارجية إلى البرلمان، وفي البرلمان يتم تشكيل لجان مخصصة من حين لآخر، للنظر في المسائل الخاصة بشؤون السياسة الخارجية، كما ويعد وزير الشؤون الخارجية العضو البارز في مجلس الوزراء فيما يتعلق بشؤون السياسة الخارجية، ويقوم بدور مستشار رئيس الوزراء في شؤون التخطيط، والتنفيذ للسياسة الخارجية، وله مساعدين اثنين: الأول مسئول عن الإدارة وتنظيم الهيكل الوظيفي، والثاني مسئول عن الاتصال السياسي، كذلك هناك مناصب رئيسية أخرى في الوزارة تضم أعضاء من الأمانة العامة، ومديري الدوائر القنصلية، والهجرة والاتصالات، والتبادل الثقافي، وغيرها، وتضم وزارة الخارجية مجموعة من الموظفين في صفوف السلك الدبلوماسي، والمعينين على أساس امتحان تنافسي، حيث يجري تدريبهم بعد ذلك من قبل وزارة الخارجية في معهد التدريب على الخدمات الدبلوماسية (وزارة الخارجية اليابانية، 2011م).

وتنقسم دوائر صنع القرار في وزارة الخارجية كل حسب اختصاصه في القضايا المحددة في السياسة الخارجية بين المكاتب الجغرافية، والفنية للحد من التداخل والمنافسة، وخلال الفترة ما بين الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة كان التوظيف الدبلوماسي حكراً على الطبقات الاجتماعية العليا، ومن داخل الحزب الليبرالي الحاكم، حيث اتخذ صفة نخبوية خاصة (الموند وجي بنجهام، 1998م، ص549)، أما بعد نهاية فترة الحرب الباردة، فقد تغيرت أساليب التوظيف الدبلوماسي كجزء من تدابير الإصلاح السياسي، حيث خضعت التعيينات لشروط بيروقراطية بحته منذ العام 1993م، وهي شبيهة بتلك خلال عهد أسرة الميجي.

كما تلعب الأحزاب السياسية الرئيسية التي تتداول السلطة فيما بينها دوراً هاماً في التوظيف السياسي للمناصب العليا، فبعد فوز أحزاب المعارضة بالأغلبية البرلمانية في الانتخابات العامة عام 1993م وعام 2009م، وإنهاء احتكار الحزب الليبرالي للسلطة، جرى فرض قيود على التبرعات للحملات الانتخابية التي أفرزت نتائجها تيارات سياسية جديدة.

وبعد أن أصبحت العوامل الأمنية، والاقتصادية الجديدة التي أفرزتها التغيرات الدولية محور اهتمام الحكومات اليابانية المتعاقبة، أصبح لوزارة الدفاع اهتماماً كبيراً بالتحديات الأمنية الإقليمية، وخطوط النقل البحري، كما أصبح لوزارة العمل ووزارة المالية اهتمام كبير بشأن مسائل التجارة الخارجية، والتمويل الدولي، والمساعدات الخارجية.

كذلك لعبت وزارة الصناعة والتجارة الدولية دورا في الرقابة الإدارية على الصادرات والواردات، وفرض الرسوم، والمفاوضات مع منظمة التجارة العالمية، مما أنهى أيضا احتكار وزارة الخارجية لها.

ولذلك أصبح للشؤون الخارجية الأهمية الحيوية في حياة المواطن الياباني، ولاسيما عند الحديث عن العديد من القضايا التي تؤثر على الأنشطة الاقتصادية في البلاد الأجنبية، أو على استقرارها السياسي، لكن نظرا لتعدد الجهات المشاركة في الشؤون الخارجية، فقد أثر ذلك في حدوث الارتباك، وعدم الكفاءة في صياغة السياسة الخارجية، مما جعل اتخاذ القرار في مسائل السياسة الخارجية يجري على أساس تأثير المحددات القانونية، والدستورية، والتنظيمية، وتوجهات القوى السياسية المتحركة في صنع القرار، وعناصر التأثير فيه ضمن حد ممكن لتوافق في الآراء الأكثر قبولا (عابدين، 2011م).

ثانيا: التنافس بين التيارات والقوى المختلفة على إدارة السياسة الخارجية

ارتبطت السياسة الخارجية اليابانية خلال الحرب الباردة بالاعتقاد بأهمية تطوير نظام للتعاملات الدولية يقوم على أساس إمكانية عودة اليابان بفعالية إلى المجتمع الدولي، والعمل على إزالة الحواجز التي تعيق دخولها إلى مجالات التجارة، والمنافسة العالمية (ربيع، 1994م، ص885)، وقد أكدت الهوية السياسية لليابان في النظام الدولي بعد عقدها لاتفاقية الدفاع المشترك مع الولايات المتحدة عام 1951م، التي مكنت الأخيرة من إقامة قواعد عسكرية دائمة فيها، ومنذ أن بدأت سياسة الانفراج الدولي كان التساؤل عن جدوى التواجد العسكري الأمريكي في الجزر اليابانية، لكن التغير في موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة أعطى أهمية أخرى لنمط التحالف الياباني الأمريكي، ولكن بإطار يخالف الرؤية القديمة التي كانت تنظر للتحالف الاستراتيجي بينهما كنتيجة طبيعية لهزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية، إذ أصبحت اليابان تتحدث عن احتمالية التخلي عن هكذا نمط من التحالف مع الولايات المتحدة لصالح نمط قائم على تبادل المنافع المتناقضة ما بين السيادة الوطنية، والأمن الإقليمي، والدور الدولي، وهو ما تعبر عنه التيارات الآتية:

1- التيار التقليدي المحافظ:

ينطلق أصحاب هذا التيار من تصورهم للدور الياباني على الساحة العالمية، بأن تستمر اليابان كقوة اقتصادية عظمى دون محاولة السعي للحصول على قدرات نووية، أو القيام بدور عالمي في السياسة الدولية (Tanaka, 2009, p17)، ويرون بأن البديل للتوجه نحو تعظيم قدرة اليابان العسكرية، هو توجيهها نحو تعظيم قدراتها التكنولوجية، والمعلوماتية من أجل زيادة قدرتها

على التكيف مع الأزمات وصولاً إلى التحول الهيكلي في قدرات الدولة الدفاعية⁽³⁾، ويتشكل أنصار هذا التيار من قيادات الحزب الديمقراطي الليبرالي، والحزب الاجتماعي، وحزب كوميتو، ومنهم رئيسي الوزراء السابقين "هاشيموتو" و"كيوزومي" ووزير الخارجية السابق "كوهي هاشي" و"أواد موتور" رئيس معهد النظم السياسية الدولية الجديدة، "وروجي تايتيما" الأستاذ بأكاديمية الدفاع القومي.

ويعتقد أنصار هذا التوجه بأن حرب الخليج الثانية، وتردد اليابان في ممارسة دور عالمي كان نتيجة صعوبات موضوعية تتعلق بنواحي دستورية، وقانونية، وتاريخية (شكر، 2005م)، وهي تلك التي تعترض اليابان في سبيل تدعيم دورها السياسي، والعسكري في النظام العالمي، كما أن محاولة اليابان لإعادة تسليح نفسها، سيضر بشكل كبير على مشاريع التنمية فيها، كما سيثير حفيظة الشركاء الاقتصاديين في منطقة شرق آسيا ومنهم الصين.

ويتفاوت حصول هذا التيار على مقاعد البرلمان (الدايت) تبعاً للمواقف السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية، فخلال الفترة (2000-2009) حصل هذا التيار على أغلبية مقاعد البرلمان ما بين (242-320 مقعد)⁽⁴⁾، وتمكن من تشكيل الحكومة، وتمير بعض السياسات الاقتصادية، نتيجة لمواقفه في الدعوة لخفض الضرائب على الشركات، وإعادة تنظيم العلاقة التجارية مع الصين، ومطالبتها برفع سعر صرف عملتها.

2- التيار اليميني القومي:

يتبنى أصحاب هذا التيار فكرة أن تتبنى اليابان دوراً بارزاً في الشؤون العالمية، وأن تضطلع بمكانة دولية تليق بمسؤولياتها الكبيرة التي تتحملها في الأمم المتحدة (شكر، 2005م)، ويتشكل أنصار هذا التيار من الحزب الديمقراطي الياباني المعارض، وقياداته السياسية، ومنهم رؤساء الوزراء السابقين "هاتوياما"، و"ناوتو كان"، و"إيتشيرو أوزاوا"، بالإضافة إلى وزير الخارجية السابق "كويشيرو غيمبا"، الذي أدار أزمة الخلافات الحدودية مع الصين، وروسيا، وقاد مباحثات شاقة مع الولايات المتحدة، لنقل القاعدة العسكرية في جزيرة اوкинаوا عام 2010م.

كذلك يمثل رئيس الوزراء الحالي "بيوشيهيكو نودا" (2012م) أحد أنصار هذا التوجه، وتواجه حكومته احتمالية الانهيار لكثرة الانتقادات الموجهة له، لحديثه عن احتمالية نقل القواعد الأمريكية إلى مكان آخر، الأمر الذي يثير حفيظة معارضيه من بعض أعضاء حكومته الائتلافية الذين وصفهم بأنهم لم يعودوا يسمعون له، ويطالب أصحاب هذا الاتجاه بأن تحتل اليابان مقعداً دائماً في الأمم المتحدة، لكي تكون قادرة على تحمل مسؤوليات العالمية، وبذلك تتخلص من تداعيات الحرب العالمية الثانية كافة (عابدين، 2010م، ص18-19)، ومن القيود التي فرضت

عليها بما في ذلك تعديل الدستور، والسماح بإعادة تسليحها، ومشاركاتها بجميع عمليات حفظ السلام، وقد كان للسيد "اوزاوا" دورا رئيسيا في تمرير القانون الخاص لمشاركة اليابان في عمليات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة منذ عام 1992م، ويؤكد مؤيدو هذا التيار ضرورة تمتين علاقات التحالف مع الولايات المتحدة، باعتباره حجر الأساس في الأمن الإقليمي في ظل تنامي التسلح الصيني.

ويتفاوت حصول هذا التيار على مقاعد في البرلمان (الدايت) تبعا للمواقف السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية، فخلال الفترة (2009-2011) حصل هذا التيار على ثلثي مقاعد مجلس النواب ما بين (308-342 مقعداً) وضمن الأغلبية لتشكيل الحكومة، نتيجة لارتفاع معدل البطالة إلى مستوى قياسي في اليابان 5.7%، ودعوته لعدم رفع ضريبة الاستهلاك، وموقفه المتشدد من حادثة اختطاف كوريا الشمالية للصيادين اليابانيين، وتمسكه القوي تجاه الصين بحقوق التنقيب عن النفط في البحر الأصفر.

3- التيار البراغماتي- النفعي:

ينتمي أنصار هذا التيار إلى فئة التكنوقراط في الحكومة اليابانية، ووزارة الخارجية، وفي داخل الحزبين الكبيرين في اليابان الحزب الليبرالي، والحزب الديمقراطي من المعتدلين، وعلى رأسهم رئيس الوزراء الإصلاحي السابق "موريهيرو هوسوكاوا". وي طرح أنصار هذا التيار تصورا وسطيا بين التيار القومي، والتيار المحافظ، ويرى أنصار هذا التيار بأن تنتهج اليابان مسلكين براغماتيين في سياستها الخارجية، يتكون الأول من الجانب الاقتصادي الذي يقوم على تنمية العلاقات الاقتصادية الجماعية بشكل قوي مع الصين، ودول الجوار الآسيوي، وفي الوقت نفسه توثيق العلاقات التشاركية الاقتصادية الثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية، والغرب من جهة أخرى (ربيع، 1994م، ص886).

أما على الصعيد السياسي، يرى أنصار هذا التيار بأنه لا بد من المشاركة النشيطة في تحقيق السلام العالمي، من خلال اتباع استراتيجية عالمية للسياسة الخارجية اليابانية، تقوم على ضرورة الاحتفاظ بعلاقة استراتيجية أمنية قوية مع الولايات المتحدة، وعلاقات حسن جوار مع الصين، وعدم إغفال التشاركية الاقتصادية بما يحقق الاستقرار العالمي، ومن ثم يحقق ذلك الرغبة اليابانية بممارسة دور عالمي، مع الحفاظ في الوقت ذاته، على ثوابت السياسات السلمية لليابان (شكر، 2005م).

4- التيار الاشتراكي:

ويمثله الحزب الاشتراكي الياباني الذي ظهر بشكل فاعل منذ مشاركته بالحكومة الائتلافية الثانية مع الحزب الديمقراطي عام 1994م وعام 2009م، وهو يرى ضرورة تنمية العلاقات السياسية، والاقتصادية مع الصين، وتقوية الروابط معها، بدلا من الولايات المتحدة التي باتت معنية بتطوير علاقاتها السياسية، والاقتصادية مع الصين على حساب اليابان، ويقوم الحزب بدور فاعل في التواصل السياسي مع الحزب الشيوعي الصيني، ورسم صورة جديدة للتعاون الياباني الصيني من خلال القيام بترتيبات أمنية مشتركة بعد انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من منطقة شرق آسيا، ويتألف هذا الحزب مع الحزب الديمقراطي الياباني، ويحصل على ما نسبته 2% من أصوات الناخبين في العادة.

IV- السياسة الخارجية اليابانية تجاه الصين في ضوء التغيرات في موازين القوى الدولية

تتبنى السياسة الخارجية اليابانية نهجا يقوم على ما يأتي (وزارة الخارجية اليابانية، 2011م):

1. تعزيز التعاون الدولي القائم على الاحترام المتبادل، وعدم التدخل في شؤون الغير.
2. تعزيز التعاون الاقتصادي الدولي، وخلق بيئة دولية مستقرة تعزز نموها.
3. معارضة الهيمنة وصيانة السلم العالمي، والاستقرار الإقليمي، والسيادة الوطنية.
4. المحافظة على بيئة إقليمية مستقرة في شرق آسيا.

لكن وبالنظر إلى منطقة شرق آسيا، فإنها لا زالت منطقة مقسمة، وتتوفر فيها إمكانية اندلاع الصراع في أي وقت، حيث لا زالت الصين تعدّ نفسها شطرين، فهي تنظر لتايوان كإقليم منشق عن شرعية السلطة الشرعية في بكين، كما أن التواجد العسكري الأمريكي في اليابان، وكوريا الجنوبية، يساهم في تمزيق الأمة الصينية⁽¹⁾، كذلك تعد شبه الجزيرة الكورية منطقة مقسمة، ولا زال بينهما تنافس محموم، قد يبقي الباب مفتوحا لاحتمالية حدوث سباق تسلح في المنطقة (العزي، 2001م، ص279).

أولا: الممارسات الدبلوماسية

خلال فترة الحرب الباردة غلب على العلاقة اليابانية-الصينية طابع العدائية والتحدي، في حين كانت العلاقة اليابانية-الأمريكية تتسم بالحيوية والاستراتيجية، فقد وقفت الولايات المتحدة إلى

1 John Faust and Others: "China in World Politics", Lynne Rienner Publishers, UK, London, 1995,p163.

جانب اليابان، وأقيمت بينهما علاقات وثيقة، ومتعددة الأوجه، على أساس القيم الليبرالية، والمصالح المشتركة، وقد تطورت العلاقات بينهما، وتشابكت حتى أصبحت اليابان المورد الأول للولايات المتحدة الأمريكية، وبالمقابل كانت العلاقات مع الصين يشوبها التوتر.

وتنظر اليابان إلى طبيعة علاقاتها مع الصين من منظور مصالحها القومية، فالصين باتت اليوم أكثر تطورا اقتصاديا، وأكثر قدرة عسكرية منها، ولذلك فإن الجيش الصيني من المحتمل أن يشكل تهديدا مباشرا لأمنها، كذلك تخشى الصين عودة النزعة العسكرية العدائية لليابان.

لذلك تتسم العلاقات الدبلوماسية بين اليابانية-الصينية على مستوى المؤسسات، والقادة، بالحذر واليقظة تجاه الآخر، فقد كانت مخلفات التاريخ السياسي بينهما تلقي بظلالها على طبيعة علاقات الجانبين، لاسيما أن هناك مفاصل تاريخية في مفكرة، وتراث كل منهما عن الآخر لا يمكن تجاهلها، وهو ما كان سببا في فشل كثير من اللقاءات الدبلوماسية بين قادة البلدين أو عرقلتها.

فكلا البلدين يتبعان دبلوماسية براغماتية حذرة، ففي منتدى التجارة الحرة المنعقد في تورنتو عام 2010م التقى الرئيس الصيني "هو جين تاو" برئيس الوزراء الياباني "ناوتو كان"، إلا أن هذا اللقاء لم يساهم في تقارب وجهات النظر بين الجانبين، لاسيما مع بروز النزاع الجديد بينهما حول أزمة اقتحام المتظاهرين في كلا البلدين لسفارة البلد الآخر، على خلفيه استمرار رفض اليابان الإفراج عن الصيادين الصينيين، الذين اقتربوا من جزيرة سنكاكو المتنازع عليها.

وترى اليابان أن هناك مجموعة من الأولويات في الدبلوماسية اليابانية، يمكن توضيحها كما يأتي:

1. اعتبار العلاقة العسكرية مع الولايات المتحدة ضرورة تتعلق بالأمن القومي (الدسوقي، 2008م، ص149).
2. اعتبار العلاقة مع الصين ضرورة من ضرورات التنمية الاقتصادية
3. اعتبار تطوير العلاقة مع مجموعة دول الآسيان مصلحة اقتصادية (عبد المنعم، 1998م، ص127).

وعلى صعيد آخر تهتم اليابان بحل مسألة الملف النووي الكوري الشمالي، وترى بأن شراكتها مع الصين في هذا الجانب أمر مهم للغاية، لكونه يساهم في تقريب وجهات النظر بين البلدين حول ضرورة تدعيم الامن الإقليمي، وفي علاقاتها مع كوريا الجنوبية، وتايوان، فهي تعتقد بان هذه الدول تمثل نموذجا للديمقراطية في شرق آسيا.

أما فيما يتعلق بمجموعة الآسيان، فهي ترى أن سلوك الصين العدائي مع دول جنوب شرق آسيا سوف يساهم في تأجيج الصراع الإقليمي، إذ لا بد من حل مسألة جزر سبراتلي مع فيتنام،

والفلبين، وماليزيا، بالطرق السلمية، لكن الاهتمام الصيني بالجزر لا يعكس سوى رغبتها بالسيطرة على حقول الغاز أولا، وما يراه آخرون برغبتها بمد نفوذها البحري، بعيدا عن الشواطئ الصينية، ليعكس قوتها العسكرية (Fravel, 2008, p74-75).

وبرغم الخلافات التاريخية بين الطرفين، إلا أن هناك بوادر لتطبيع العلاقات الدبلوماسية بينهما، لاسيما بعد زيارة رئيس الوزراء الياباني كيوزومي إلى الصين عام 2005م، إذ اتفق الطرفان على ضرورة الالتزام بالوثائق السياسية الثلاث الموقعة بين الجانبين (البيان المشترك لحسن النوايا عام 1972)، (الإعلان المشترك لبدء تبادل التمثيل الدبلوماسي 1972م)، (معاهدة السلام، والصداقة، وحسن الجوار 1978م)، (وزارة الإعلام الصينية، 2005م).

أما على صعيد المنافسة الدبلوماسية الدولية مع الصين، تسعى اليابان منذ العام 2005م بأن يتاح لها مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي، وقد تنامي هذا التوجه مع تنامي قوة اليابان الاقتصادية، ومساهمتها المالية الواسعة في الأمم المتحدة، إذ بلغت مساهمتها في ذلك العام 20% من إجمالي الميزانية السنوية للأمم المتحدة، وتقدر تقريبا بـ 1.2 مليار دولار أمريكي (الشرق الأوسط، 2005م)⁽⁵⁾، وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

ولذلك فإن الدبلوماسية اليابانية لم تكف عن المطالبة باستعادة مكانتها الدولية، والسعي لإصلاح الأمم المتحدة للتكيف مع المتغيرات الدولية، إذ طالبت بحقها في أن تحتل مقعدا دائما في مجلس الأمن، لاسيما بعد فوزها خمس مرات بمقاعد غير دائمة بالمجلس (القرعي، 1994م)، ولذلك فإنه في حال توسيع عضوية مجلس الأمن، فإن اليابان من بين الدول المرشحة للعضوية الدائمة، لكن الصين لا زالت تعارض عضوية اليابان فيه.

وبشكل عام شكلت التغيرات في موازين القوى الدولية بعد نهاية الحرب الباردة، مرحلة جديدة من التعاون بين اليابان، والصين في مجال السياسة الخارجية، فقد أوضحت اليابان للصين مواقفها، سواء على صعيد العمل الثنائي، أو على صعيد العمل الجماعي في الأمم المتحدة، من خلال مشاركتها الفعلية في احتواء أزمة البرنامج الكوري الشمالي عامي 2006م و2008م، عندما شاركت الصين بتكوين ائتلاف مالي يلبي احتياجات كوريا الشمالية من الطاقة، وفي دعم الجهود الصينية لتوفيق وجهات النظر بين الكوريتين، ضمن إطار المجموعة السداسية.

كما برزت مواقفها في القبول بالحلول الوسط حول تقاسم حقول الغاز البحرية في بحر الصين الشمالي بينهما عامي 2008م و2009م، وتشجيع الاستثمارات اليابانية في الصين، وفي تنمية أواصر التعاون ما بين الحزب الاشتراكي الياباني، والحزب الشيوعي الصيني، الذي قام قاداته بزيارة الصين، والمشاركة في احتفالاتها الوطنية مرات عديدة، على أمل أن تساند الصين موقفها في الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي.

كذلك يلاحظ مؤخرا حدوث زخم كبير في تبادل الزيارات الدبلوماسية بين ممثلي الجانبين، وزيادة عدد اجتماعاتهما على الصعيد الثنائي، أو على الصعيد الجماعي، سواء من خلال اجتماعات منظمة الآسيان+3، أو من خلال اجتماعات الايك، حيث بدا واضحا اهتمام الدبلوماسيين في تنمية العلاقات بينهما وتعزيزها بما يغير من موقف الصين تجاه عضويتها في مجلس الأمن، لاسيما بعد موقف رئيس الوزراء الياباني يوشيهيكو نودا في اجتماع الآسيان+3 عام 2011م، عندما تحدث عن: "أن اليابان يمكن ان تلعب دوراً ايجابياً في الحد من التواجد الأمريكي في شرق آسيا في حال استقرار الأمن فيه" (شبكة الصين، 2011م).

ثانياً: التعاون الاقتصادي

بلغ إجمالي حجم التجارة اليابانية مع العالم عام 2010م 1.458 تريليون دولار أمريكي، حيث بلغت قيمة الصادرات 767 مليار دولار، بينما بلغت الواردات 691 مليار دولار، وبذلك حققت اليابان فائضا تجاريا بلغ 75 مليار دولار تقريبا (Japanese Trade Organization. 2011. [Jetro]، إفريقيا جاءت آسيا في المرتبة الأولى كشريك تجاري، تلتها أمريكا الشمالية، ثم أوروبا، أما على صعيد الدول فقد احتفظت الصين بمكانتها التجارية كأكبر الشركاء التجاريين لليابان، وتلتها الولايات المتحدة، وكوريا الجنوبية، وتايوان.

وقد عدت اليابان خلال حقبة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين الشريك التجاري الأول للولايات المتحدة الأمريكية، لكن منذ السياسة الإصلاحية والانفتاحية التي اتبعتها الصين منذ تسعينيات القرن العشرين والاقتصاد الصيني ينمو بمعدل سنوي يتراوح بين 8-9%، وهو ما مكنها من أن تحتل المرتبة الاولى في حجم علاقاتها الاقتصادية مع الولايات المتحدة، حيث حلت الصين مكان اليابان والهند كأكبر شريك تجاري للولايات المتحدة منذ العام 2004م، كما أصبحت أكبر مصدر لها، وهو ما جعلها تحقق فائضا في ميزانها التجاري خلال السنوات العشر الأخيرة، وفي عام 2008م حلت الصين محل اليابان كأكبر دائن أجنبي للحكومة الأمريكية، حسب تصريح السيد جينغ مين رئيس بعثة إنبيث . باليت لاتور للعلاقات الصينية الأوروبية (Men. 2009)، ومع ذلك تسعى اليابان للعودة إلى موقع الصدارة في تجارتها الخارجية مع الولايات المتحدة، لما تجسده من أكبر سوق استهلاكية نشطة في العالم.

ومنذ العام 2010م حلت الصين محل اليابان ك ثاني أكبر قوة اقتصادية في العالم، حيث وصل إجمالي ناتجها المحلي 5878,6 مليار مقابل 5474,2 مليار دولار لليابان (world bank. 2011)، ومن ثم تكون اليابان خسرت الموقع الذي كانت تحتله منذ 1968 ك ثاني اقتصاد في العالم، وتدرك اليابان بأن الصين قد أصبحت قوة اقتصادية لا يمكن منافستها، ولذلك تقيم معها شراكة تجارية قوية، وهذا ما يتضح من نمو تجارتها الخارجية معها، وكما يوضح الجدول رقم

(1)، حيث أصبحت الصين الشريك الاقتصادي الأول لليابان، كما نمت استثماراتها المباشرة فيها من 822 مليون دولار أمريكي عام 1993م إلى أكثر من 68 مليار دولار أمريكي عام 2009م (Japanese Trade Organization. [jetro]. 2011)، وقد اعتبرت الشركات اليابانية هي ثالث أهم مستثمر في الصين بعد رجال الأعمال الصينيين، الذين يعيشون خارج الصين والشركات الأمريكية.

أما على الصعيد الآسيوي فتولي اليابان أهمية خاصة لتحسين العلاقات الإستراتيجية مع بلدان جنوب شرق آسيا من خلال إطار التعاون الجماعي "الآسيان"، إذ عقدت أول قمة مع الآسيان في كوالالمبور عام 1997م، وقد كان لها دور فاعل في حل الأزمة المالية التي عصفت بنمور آسيا عامي 1997/1998م، وأبعدت شبح الركود الاقتصادي عنها، من خلال تقديمها للمساعدات المالية، ورفع مستوى الانتعاش الاقتصادي، وزيادة استثماراتها في دول الآسيان تدعيماً لموقفها السياسي، والاقتصادي على حساب الصين، لكن استثماراتها بشكل عام تبدو ضئيلة بالمقارنة بحجم الاستثمارات الصينية، وكما يوضح الجدول رقم (2).

جدول رقم (1): التجارة البينية بين اليابان والصين حيث القيم بالمليار دولار أمريكي

السنوات	حجم التجارة البينية	الصادرات اليابانية إلى الصين	الواردات اليابانية من الصين	الميزان التجاري
1993	43.5	22.5	21.0	1.5+
1994	47.8	25.5	22.3	3.2+
1995	52.1	27.1	25.0	2.1+
1996	56.4	28.1	28.3	03.-
1997	60.7	28.9	31.8	-2.9
1999	66.0	33.7	32.3	1.4 +
2001	87.6	42.7	44.9	-2.2
2003	107.2	58.5	48.7	9.8+
2005	184.5	67.5	84.0	16.5 -
2007	236.5	109.0	127.5	18.5 -
2009	232.0	109.6	122.4	12.8 -
2011	344.8	161.4	183.4	22.0-

منظمة التجارة اليابانية (جيترو)، 2012م، تقارير وإحصاءات: النسخة الإلكترونية

<http://www.jetro.go.jp/en/reports/statistics>

جدول رقم (2): حجم الاستثمار الياباني والصيني في دول رابطة الآسيان حيث القيم بالمليار دولار أمريكي لسنوات مختارة

البيان	2002	2003	2004	2005	2006
اليابان	9.2	6.3	7.8	2.7	8.2 -
الصين	52.7	53.5	60.6	72.4	70.0

المصدر: ASEAN INVESTMENT REPORT 2007: <http://www.asean.org/21406.pdf>

ثالثا: الأداة العسكرية والأمن القومي

تنص المادة 9 من الدستور الياباني لعام 1947م على "أن الشعب الياباني ينبذ الحرب للأبد كحق سيادي للأمة، ويمنع التهديد بالقوة، أو استخدامها كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية....وان اليابان تنزع نحو السلام، وهي ستحتفظ بذلك بقوات للدفاع الذاتي التي يمنع عليها أن تشر خارج حدود اليابان، كما يمنع عليها امتلاك السلاح النووي، أو أية أسلحة هجومية" (وزارة الخارجية اليابانية، 2011م).

وتخضع قوات الدفاع الذاتي اليابانية لإدارة وكالة الدفاع المدني التابعة لرئيس الوزراء، وهي تتمتع بدرجة عالية من التدريب، والتأهيل، إلا أنه تنقصها المعدات الكافية للعمليات العسكرية القتالية، وتستند سياسة الدفاع اليابانية على معاهدة عام 1960م الثانية للأمن والتعاون مع الولايات المتحدة، التي بموجبها تتولى اليابان مسؤولية الأمن الداخلي، في حين أن تساهم الولايات المتحدة بالدفاع عن اليابان في حال تعرضها لهجوم خارجي.

وعلى الرغم من اليابان لم تدخل في صراع مسلح، أو تستخدم القوة العسكرية في سياستها الخارجية منذ انضمامها للأمم المتحدة، وليست لديها توجهات نحو التسلح، حيث تبلغ نسبة انفاقها العسكري 0.8% من الناتج المحلي الإجمالي لعام 2008م، وتحتل المرتبة 149 عالميا (2012). [CIA]، لكن التسلح الصيني المستمر يسبب قلقا متزايدا لليابان، لاسيما وأن التقارير الدولية تشير إلى أن النفقات العسكرية الصينية في تزايد مستمر، حيث يشار إلى أن ميزانية وزارة الدفاع الصينية قد ارتفعت نسبتها كما تشير بعض التقارير من 9% عام 1993م إلى 14.6% عام 2001م (Roberts. 2001. P27).

لكن الصين تنفي ذلك، وتقدر أن نفقاتها لم تزد عن 7.5% عام 2007م (وزارة الإعلام الصينية، 2010م)، لكن وزارة الدفاع الأمريكية تقدر بأن الرقم أكبر من ذلك بكثير، حيث تقدره بـ 18% سنويا (Ikenberry. 2008. P26-27)، ويرى بعض الباحثين بأن هذه النسبة قد ترتفع مع

احتساب نمو الناتج المحلي الإجمالي الذي يقدر عام 2008م بين 97-139 مليار دولار (الششتاوي، 2008م، ص130).

ويعتقد بأن تنامي النزعة العدائية للصين في بحر الصين الجنوبي، ما هو إلا انعكاس ومؤشر على تنامي قدراتها العسكرية، فمنذ العام 2003م تقوم القوات المسلحة الصينية بتبادل الأدوار مع القوات الفلبينية، والفيتنامية، والماليزية للسيطرة على جزر "سبراتلي" التي تبعد 200 ميل بحري عن الحدود الصينية.

ومن ناحية أخرى فإن الصين لا تغفل نظرها عن تواجد السفن الحربية اليابانية في بحر الصين الشمالي، التي تحمي سفنها التجارية العابرة من تلك المنطقة، حيث ترسل الصين باستمرار طائرات تجسس لجمع بيانات عن تلك السفن، كما أنها تنصب صواريخها الحربية على طول الشواطئ المواجه لتايوان (CNBC, 2011).

ولذلك تشعر اليابان بالقلق الشديد تجاه تنامي التحديات الصينية المستمرة في جزر بحر الصين، وتتهمها بأن تسلح نفسها باستمرار (Forrest, 2009, p22)، لاسيما مع تنامي حجم الإنفاق العسكري في منطقة شرق آسيا الذي تضاعف من 117 مليار دولار عام 2001 إلى 211 مليار دولار أمريكي عام 2010م، وفقاً لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (SIPRI, 2011) الذي أشار أيضاً إلى أن إجمالي الإنفاق العسكري للصين عام 2009م بلغ 119.4 مليار دولار.

رابعاً- جدلية العلاقة بين اليابان والصين في ضوء التغيرات الدولية

إن المراقب لتطورات السياسة الخارجية اليابانية خلال الفترة ما بعد نهاية الحرب الباردة يجد بأن هناك محددات للدور المتوقع للسياسة الخارجية اليابانية، فقد ساهمت التغيرات الدولية الجديدة في موازين القوى بعد نهاية الحرب الباردة -بوصفها عاملاً مضاعفاً- باستمرار تنامي التطور الاقتصادي لليابان، حيث قفز ناتجها المحلي الإجمالي خلال الفترة 1975-2010 من 830 مليار دولار إلى 5497,8 مليار دولار أمريكي.

أما في داخل مؤسسات صنع القرار السياسي الخارجي، فقد اتبعت اليابان سياسة براغماتية تنأى بها عن الدخول في أي صدام مباشر مع أعدائها التقليديين في منطقة شرق آسيا، في ظل وجود دستور يمنع عليها تنمية قواتها العسكرية لغايات هجومية، ووجود أمريكي وفر لها الظروف الأمنية للتطور الطبيعي (درويش، 1997م، ص242).

ومع وصول اليابان إلى قمة النظام الاقتصادي العالمي خلال فترة الحرب الباردة إلا أن ذلك لم يدفعها لأن تأخذ دوراً سياسياً منافساً للصين في النظام الدولي، حيث ابتعدت كلياً عن اخذ زمام المبادرة في حلقة الصراع الدولي، كما ساهم ابتعادها عن العضوية الدائمة في مجلس الأمن

في طي كثير من الأنظار عنها، حتى دعاها البعض بأنها عملاق اقتصادي، وقزم سياسي، إشارة إلى دور اليابان غير المتوازن في الساحة الدولية، لكن بعد نهاية الحرب الباردة حدثت هناك تغيرات في موازين القوى الدولية على مستويات متعددة، مما أدى إلى حدوث تغيرات كثيرة في سياستها الخارجية تجاه الصين، وذلك على النحو الآتي:

1. تدرك اليابان بأن الصين باتت قوة اقتصادية عظمى، وأنه يجب التعامل معها وفق هذا الأساس، لذا يجب أن لا تدخل معها بمنافسة اقتصادية، أو سباق تسلح قد يرهق كاهلها، ولذلك بدأت بتنمية علاقاتها السلمية معها من خلال الجوانب التجارية، والاستثمارية لتصبح الصين أهم شريك اقتصادي لها، وهذا ما يتباه التيار التقليدي المحافظ الذي يدعم بناء علاقات تشاركية مع الصين.

2. لا زالت الخلافات التاريخية تلقي بظلالها على طبيعة العلاقة الدبلوماسية بينهما وتحول دون تطوير علاقاتهما إلى المستوى الطبيعي، فبينما هناك علاقات تجارية ساخنة من جهة، فإن هناك علاقات دبلوماسية باردة وحذره من جهة أخرى، لكن التقارب الاقتصادي بينهما مرشح لطي صفحة الخلافات بينهما، حيث عدت الصين اليابان أكبر شريك تجاري لها منذ العام 2007م.

3. تدرك اليابان بأن الصين تسلح نفسها باستمرار، لكونها تجد في الوجود العسكري الأمريكي في الجزر اليابانية خطرا على أمنها القومي، وعانقا أمام عملية إعادة توحيد جزيرة تايوان، ولذلك فإن اليابان حريصة على أن لا تدخل معها في عملية سباق تسلح، أو أن تقوم بأي سلوك استفزازي في الجزر المتنازع عليها، وهي ترى بأن الوجود العسكري الأمريكي ضمان كافي لاستقرارها وأمنها.

4. ساهمت التغيرات في موازين القوى الدولية في تبدل كثير من توجهات السياسة الخارجية اليابانية نحو السعي للحصول على مكانتها الدولية، لاسيما بعد تنامي مشكلات الدين الأمريكي، حيث غدت الدول الأجنبية تملك أكثر من 44% منه، وتحتل اليابان والصين معا رבעه تقريبا (2010). [census].

5. بروز تيار قومي ياباني يدعو إلى أن تأخذ اليابان موقعها في السياسة الدولية، فهي تساهم بما نسبة 20% من ميزانية الأمم المتحدة، وتقدم سنويا 10 مليار دولار كمساعدات للدول النامية (Jica, 2011)، كما أن عليها أن تعتمد على نفسها في توفير الحماية، وأن تتبنى نظرة جديدة أكثر استقلالية تجاه الصين، وخاصة بعد أن أصبحت الضمانات الأمنية الأمريكية غير واضحة، في ظل تنامي العلاقات الأمريكية-الصينية، وفي ذلك يشير "جوزيف ناي" مساعد وزير الدفاع الأميركي الأسبق إلى أن اليابان تعدّ اليوم أقل أهمية للولايات المتحدة

من الناحية الإستراتيجية لا بل أنها أصبحت ترى في اليابان تهديدا اقتصاديا (Naye, 2010).

الخاتمة

نتيجة لتغير الظروف الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة بدا واضحا أن هناك تغيرا في طبيعة العلاقة التقليدية بين اليابان، والصين من اعتبارها علاقة عدائية إلى علاقة تشاركية، لاسيما إذا علمنا بأن هناك تراجع في الشعور العدائي، والقومي تجاه الصين، الذي كان يعده البعض أحد ركائز عقيدتها العسكرية (ناجاي، 1992، ص35)، مما اضعف احتمالية الصدام بينهما ونما من علاقتهما الاقتصادية، حيث أفرز نمط العلاقات الجديدة بين قوى النظام العالمي فكرة التعاون، وفرض مزيدا من القيود على حرية الدول في تصريف شؤونها، وخلق بذلك قدرا من انسجام المصالح، وأضعف من فرص الحرب، وقوى من فرص السلام.

لذلك ساهم النمو الاقتصادي لكل من اليابان والصين في ردم جزء من الفجوة في العلاقات التاريخية بينهما، حيث وفر النجاح الاقتصادي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة لليابان ثروة هائلة وجهتها نحو الاستثمار في الصين، كذلك ساهم انفتاح الصين على الاقتصاد العالمي في جذب الاستثمارات اليابانية إليها، مما عزز من إمكانية تنمية العلاقات السلمية بينهما، وغير من توجهات مؤسسات صنع القرار السياسي الياباني تجاهها، وهذا قوى من الأداتين الدبلوماسية، والاقتصادية، وأضعف من الأداة العسكرية في سياسة اليابان الخارجية تجاه الصين.

لكن بالرغم من أن اليابان قوة اقتصادية كبرى وأكبر دولة دائنة في العالم، إلا أن تأثيرها الجيو-سياسي على المسرح الدولي لا يزال لا يوازي تأثيرها الجيو-اقتصادي، ولعل السبب يعود إلى القيود الدستورية التي يفرضها البند التاسع الذي يحد من انخراطها في السياسة الدولية، وإلى القيود الثقافية التي شكلت جزءا من ثقافتها السياسية القومية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وإلى الموقف الصيني الرافض لأن تحتل اليابان مقعدا دائما في مجلس الأمن.

وفي ضوء هذه المعطيات يمكن استشراف مستقبل العلاقات اليابانية-الصينية، فإذا ما تحقق السيناريو المحتمل بإنهاء الوجود العسكري الأمريكي في اليابان، فأن الخطر الأمني الذي تشعر به الصين نتيجة الوجود العسكري الأمريكي سوف سيتلاشى، وسيصبح الميكانيزم الاقتصادي هو المحرك الفعلي، والمؤشر المركزي في قياس درجة التطور السلمي في العلاقات الثنائية بين البلدين، وستصبح الاعتبارات البراغماتية الناتجة عن علاقة الربح والخسارة، هي مؤشر حركية الدولتين تجاه بعضهما، في ضوء تكثف شبكة العلاقات الاقتصادية بينهما.

Japanese Foreign Policy towards China in the Light of the International Shift of Balance Post Cold War

Wasfe Egeal and Khaled Aldabbas, *Department of Political Science, Yarmouk. University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This study examines the impact of the international shift of balance in the post Cold War on Japan's foreign policy towards China. The change in perception of the concept and mode of the international balance led to the emergence of a capital and global system, with multi political and economic axes. These changes had its impact on Japanese foreign policy towards China in term politics and economy levels.

The study concentrates on the changes in the Japan's foreign policy decision-making, the emergence of competition between the different parties on how to run foreign policy, and the impact of the new Japanese foreign policy on China.

The study concluded that there is a shift in Japanese foreign policy towards China in the light of the international shift of balance in the post Cold War; there is a positive view towards china as being an economic partner rather than potential military threat to Japan, at the time Japan is looking forward to re-gaining its global position as a permanent member in the UN Security Council.

Key Words: Foreign policy, Japan, China, international balance and Cold War.

قدم البحث للنشر في 2012/2/8 وقبل في 2012/5/29

الهوامش

- 1- تقوم أسس سياسة (البيروسترويك)إعادة البناء: على اعادة بناء الاقتصاد الاشتراكي وفق قواعد ومبادئ جديدة تتصل بصورة مباشرة بالفكر الاشتراكي وليس الانتقال من الاشتراكية الى الرأسمالية مباشرة، وكذلك اقامة برلمان جديد ينتخب ثلثا اعضاءه من الشعب وإلغاء الدور القائد للحزب الشيوعي، وأول من طرح فكرة البيروسترويك هو اندريوف وتبناها عمليا الرئيس غورباتشوف. اما سياسة (الجلاسنوست) حرية التعبير والأبي فتقوم على افساح المجال للانتخاب والتصويت واتباعها بسياسة الانفتاح الاقتصادي وتشجيع الاستثمارات الأجنبية ومبدأ حرية النقد وتخفيف القيود عن وسائل الاعلام.

- ولمزيد من المعلومات راجع كتاب ميخائيل غورباتشوف، البيروسترويكا والتفكير الجديد، ترجمة زياد الملا، دار الشيخ للدراسات والترجمة، دمشق-سوريا، 1988م.
- 1- كروكات، ريتشارد. (2004). نهاية الحرب الباردة. في: عولمة السياسة الدولية. (تحرير جون بيليس وستيف سميث)، دبي: مركز الخليج للدراسات والأبحاث.
- 2- جريدة الشرق الأوسط، ع 9790. 9/17/2005م، ص13.
- 3- ورد ذلك في محاضرة لرئيس الوزراء الياباني ناوتو كان عن السياسة الخارجية اليابانية. راجع نص المحاضرة في:
- Japanese Diplomacy at a Historic Watershed: Lecture Presentation on Foreign Policy by Prime Minister Naoto Kan, January 20, 2011, Tokyo.
http://www.kantei.go.jp/foreign/kan/statement/20/201101speech_e.html
- 4- حكومة تارو اسو هي الوحيدة التي حصلت على 351 صوت عام 2008م خلال الفترة 200-2008م.
- 5- جريدة الشرق الأوسط. (2005م). ع 9790. مرجع سابق، ص13.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية

- أمين، سمير. (1991). ملاحظات حول العولمة. مجلة عالم الفكر، العدد 66، ص42.
- بدران، ودودة. (1995). مفهوم النظام الدولي الجديد في الأدبيات الأمريكية: دراسة مسحية. مجلة عالم الفكر، ابريل/مايو، ص 26-28.
- بركات، نظام. (1989م). مبادئ علم السياسة. ط3. عمان: دار الكرمل. عمان.
- ثرو، لستر. (1995). الصراع على القمة: مستقبل المنافسة الاقتصادية بين أوروبا وأمريكا واليابان. (ترجمة احمد فؤاد). مجلة عالم المعرفة. العدد 204. ص17.
- حسين، عدنان السيد (1994)، العلاقات الدولية: الحرب والسلام، ومفاهيم أساسية (بيروت، مركز الدراسات الإستراتيجية.
- الحوامدة، عبير محمد. (1993). القوة المؤثرة في العالم المعاصرة: حالة الصراع بين الشرق والغرب. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التجارة، الجامعة الأردنية، عمان.
- الخطيب، محمد. (1994م). التجربة اليابانية: رؤية إسلامية. القاهرة: دار الصحة للنشر والتوزيع.

- درويش، فوزي. (1997م). **الشرق الأقصى: الصين واليابان**. القاهرة: مطابع غباشي.
- الدسوقي، ابو بكر. (2008م). **الدور العالمي للصين.. رؤى مختلفة، السياسة الدولية**، العدد 173، يوليو، ص150
- دورتي، جيمس؛ بالتستغراف، روبرت. (1995م). **النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية**. (ترجمة وليد عبد الحي). عمان: مركز احمد ياسين.
- ربيع، محمد؛ وآخرون. (1994م). **موسوعة العلوم السياسية**. الكويت: جامعة الكويت.
- رسلان، احمد (1986)، **نظرية الصراع الدولي: دراسة في تطور الأسرة الدولية المعاصرة**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الششتاوي، مسعد. (2008م). **القدرات العسكرية الصينية. السياسة الدولية**، العدد 173، المجلد 43، يوليو. ص129-131.
- الطحان، عبد الرضا حسين. (تحرير). (1991م). **النظام الدولي الجديد**. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- طلعت، عبد المنعم. (1998م). **إدارة المستقبل: الترتيبات الآسيوية في النظام العالمي الجديد**. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عابدين، صدقي. (2010م). **اليابان: حكومة جديدة وثقة مهزوزة**، مجلة الشروق. العدد 949، 14-20 يونيو، ص 18-19.
- عبد المنعم، احمد فارس. (1998م). **تحولات ادوار القوى الإقليمية، في: آسيا والتحولت العالمي**. (تحرير محمد السيد سليم). القاهرة: مركز الدراسات الآسيوية.
- العزي، غسان. (2001م). **سياسة القوة... مستقبل النظام الدولي والقوى العظمى**. بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث.
- علي، عبد المنعم السيد. (2000م). **العرب والتحديات الاقتصادية للعولمة، في: العرب والتحديات السياسية والاقتصادية والثقافية للعولمة**. (تحرير: محمد الارناؤوط). المفرق: جامعة آل البيت، 2000، ص112-115.
- العيسوي، ابراهيم. **العولمة الاقتصادية بين حتمية الاستقرار واحتمالات التراجع**. مجلة النهضة. العدد الاول، اكتوبر، 130-131

- فوجل، ازرا.ف. (1996م). *المعجزة اليابانية*، (ترجمة: يحيا زكريا). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كروكات، ريتشارد. (2004). *نهاية الحرب الباردة*، في: *عولمة السياسة الدولية*. (تحرير جون بيليس وستيف سميث)، دبي: مركز الخليج للدراسات والأبحاث.
- متشو، ناجاي. (1992). *الثورة الاصلاحية في اليابان*. (ترجمة عادل عوض). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الموند، جابريل؛ بيل، جي بنجهام. (1998م). *السياسات المقارنة في وقتنا الحاضر*. (ترجمة هشام عبدالله). عمان: الاهلية للنشر والتوزيع.
- ناي، جوزيف.س. (1991م). *حتمية القيادة: الطبيعة المتغيرة للقوة الأمريكية*. (ترجمة عبد القادر عثمان). عمان: مركز الكتب الأردني.
- هلال، علي الدين. (1995). *النظام الدولي الجديد: الواقع الراهن واحتمالات المستقبل*، مجلة *عالم الفكر العربي*، الكويت. العدد 4/3، ص 14-13.
- ويلتس، بيتر. (2004م). *الأطراف المتخفية للحدود الوطنية والمنظمات الدولية*، في: (محرر: جون بيليس وستيف سميث). *سميث السياسة العالمية*. في: *عولمة السياسة العالمية*. (ترجمة مركز الخليج)، دبي، مركز الخليج للأبحاث.
- ويبر، مارك، (2004م). *الدولة واكتساب كيان الدولة*، في: *قضايا في السياسة العالمية*. (ترجمة مركز الخليج). دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004م، ص 28-27.

المراجع باللغة الانجليزية

- Callinicos, A. (2002). *Against The Third Way*. London: Polity press Cambridge.
- Giddens, A. (1994). *Beyond Right and Left: The Future of Radical Politics*. London: Cambridge University Press.
- Falk.R. (2007). *On Human Governance, Toward A New Global Politics*. London: Cambridge Polity Press.
- Fravel. M.(2008). Power Shift and Escalation Explaining Chinas USA Force in Territorial Disputes. *International Security*, Winter2007/2008. Vol 32, No32. p74-75.
- Fukuyama, F. (1992). *The End of History and The Last Man*. UK: Penguin.

- Hoffmann, S. (2005). *The Politics and Ethics of Military Intervention*. London: Macmillan,
- Ikenberry, G. J. (2008). The Rise of China and The Future of The West: Can the Liberal System Survive?. *Foreign Affairs*, Jan-feb, Vol.87, No. 1, P26-27.
- Japanese Trade Organization. [jetro]. (2010). Directory of Business, and Financial, Services. Tokyo: Special Libraries Association, Report 2010, p12-23.
- John Faust and *et al.* (1995). "*China in World Politics*", Lynne Rienner Publishers, UK, London, ,p163.
- Kant, I. (2001). *Political Writings*. Hans Reiss. Cambridge: Cambridge University Press.
- Ministry of Foreign Trade and Economic of China. (2008.) Report: *The Foreign Trade Situation*. Chinese Academy of International Trade and Economic Cooperation and Department of Planning and Finance.China: Beijing. p27-31.
- Roberts, Jone. (2001). Chinese Army's Business Empire. *New World Business*, Issue15. 11/16, p. 27.
- Rosenau, J.(1996). The Dynamics of Globalization: Toward an Operational Formulation. San Diego. *CA:ISA Conventio*, Apr1-8(1),7-9.

المواقع الالكترونية

- عابدين، صدقي. (2011م) السياسة الدفاعية اليابانية الجديدة.[النسخة الالكترونية]. السياسة الدولية، ابريل، <http://digital.ahram.org.eg/Policy.aspx?Serial=474092>
- شكر، نغم نذير. (2005م). الدور الياباني الجديد على الساحة الدولية. مجلة النبأ. نيسان، العدد 76، [النسخة الالكترونية]، <http://www.annabaa.org/nbahome/nba76/japan.htm>
- القرعي، احمد يوسف. (1994م). اليابان والعضوية الدائمة في مجلس الامن، السياسة الدولية.[النسخة الالكترونية]. <http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=217884&eid=970>
- جريدة الاتحاد. (2011): اليابان تقرر مشاركة قواتها في إعمار جنوب السودان[النسخة الالكترونية]. الاربعاء 2011/11/2م. <http://www.alittihad.ae/details.php?id=101507&y=2011>

Jing. Men- (2009). هل الازمة المالية العالمية تحول الصين قوة عظمى؟ [النسخة
الالكترونية]:

<http://www.nato.int/docu/review/2009/FinancialCrisis/Financial-Crisis-China/AR/index.htm>

- وزارة الخارجية اليابانية. (2011م). [النسخة الالكترونية].

<http://www.mofa.go.jp/policy/index.html>

-وزارة الاعلام الصينية. (2006م). مركز المعلومات الوطني على شبكة الصين:علاقة الصين مع
الدول الرئيسية. العلاقات الصينية اليابانية 2006م، [النسخة الالكترونية]

http://arabic.china.org.cn/china/archive/sss06/2007-03/15/content_7964558.htm

-وزارة الاعلام الصينية. (2010). مركز المعلومات الوطني الصيني،[النسخة الالكترونية]:
الحقائق والأرقام 2010م

http://arabic.china.org.cn/china.archive/sss06/node_7012367.htm

-شبكة الصين الاخبارية. (2011م). [النسخة الالكترونية]. الزعماء يتعهدون بتعزيز العلاقات
والتعاون في قمم الآسيان+3. <http://arabic.news.cn/world/2011-11/19>

-CNBC. (2011). الموقع الاخباري. على شبكة الانترنت: <http://www.cnbcarabia.com>

[النسخة الالكترونية: (2011). World Bank.

<http://data.albankaldawli.org/country/china-japan>.

-Central Intelligence Agency[CIA]. (2012). The World Factbook: Japan.[النسخة
الالكترونية]

<https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/ja.html>

-SIPRI is an independent international institute dedicated to research into
conflict, armaments, arms control and disarmament. (2011). Sweden.
Stockholm. <http://www.sipri.org/yearbook>

-Center analysis of U.S .data. [census]. (2010). <http://www.census.gov/>

-Japan International Cooperation Agency. [JICA]. (2011).

<http://www.jica.go.jp/english/>

-Naye, Joseph S. (2010). Project syndicate-japan.

<http://www.project-syndicate.org/commentary/nye88/Arabic>.

مجلس الأعيان الأردني ومجلس الشورى البحريني -دراسة مقارنة-

خالد عيسى العدوان* و رمزي محمود هيلات**

ملخص

ترمي هذه الدراسة إلى عقد مقارنة بين مجلس الأعيان الأردني ومجلس الشورى البحريني، من حيث التشكيل، الحصانة البرلمانية، الحل النيابي، الوظائف والصلاحيات، مع التركيز على الدور السياسي الرقابي، بهدف فحص الصلاحيات الرقابية للمجالس المعينة في المؤسسة التشريعية لإظهار مدى الجدوى السياسية لهذا النوع من المجالس، ولتحقيق أهداف الدراسة فقد اعتمدت على المنهج التحليلي المقارن من مدخله السياسي والقانوني، وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج منها:

- 1- إن الجدوى السياسية للمجالس المعينة ترتبط بأدوات الرقابة السياسية المناطة بها من الناحية النظرية، وأن استعمال هذه الأدوات هو العامل الأساسي في تحديد هذه الجدوى.
 - 2- إن المجلس المعين في المؤسسة التشريعية (مجلس الأعيان ومجلس الشورى) يمتلك أدوات رقابية سياسية- دستوريا على الأقل- في إطار السلطات والصلاحيات المنصوص عليها في الدستور واللائحة الداخلية؛ وإن كان أقل بالضرورة بالمقارنة مع تلك التي يملكها المجلس المنتخب.
 - 3- إن مجلس الأعيان الأردني يمتلك أدوات رقابية لا يمتلكها مجلس الشورى البحريني مثل الاستجواب والمناقشة العامة وتشكيل لجان تحقيق.
 - 4- إن ثمة أداة سياسية رقابية للمجالس المعينة يمكن أن تنبثق من الوظيفة المالية للبرلمان.
- وأخيرا قدمت الدراسة مجموعة من التوصيات أهمها اقتراح نموذج لقياس الجدوى السياسية للمجالس المعينة.

الكلمات الدالة: مجلس الأعيان، مجلس الشورى، الوظيفة التشريعية، الرقابة السياسية، الوظيفة المالية.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم العلوم السياسية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

** قسم القانون العام، جامعة العلوم التطبيقية، البحرين.

المقدمة

بتعبير George Washington (جورج واشنطن) فإن المجلس الثاني والحاجة إليه كالوعاء الذي يُصب فيه التشريع ليُبرد.⁽¹⁾

تتفاوت الدول فيما بينها بالأخذ بنظام الغرفة الواحدة أو نظام الغرفتين للبرلمان، والبحث عن الجدوى السياسية للغرفة الثانية داخل المؤسسة التشريعية يزداد أهمية في حال كان مصدر إسناد السلطة لها مُستمدداً من التعيين لا من الانتخاب، بالمقارنة مع الدول التي أخذت بمبدأ الانتخاب لغرفتي المؤسسة التشريعية، وهو ما من شأنه أن يُعمق من النقاش الدائر حول الأهمية السياسية لوجودها.

إن البحث عن حقيقة الدور الذي من الممكن أن تقوم به المجالس المُعيّنة بالمقاربة مع المجالس المنتخبة هو جوهر الحالة الوجودية السياسية لها؛ حيث يتعاقد مكونا البرلمان معاً - مع تسليمنا بعلو كعب المجلس المنتخب واتساع سلطاته بالمقارنة مع المجالس المُعيّنة - لتشكيل الصخرة السياسية التي تؤلف هيكلًا مانعاً لإضعاف البرلمان، ورافعة قويّة لتعزيز وتحسين وزنه - المشكوك من انخفاضه - في الجسد السياسي داخل الدولة.

إن أنه من غير الديمقراطي أن نتصور وجود مجتمع بدون برلمان يُسيطر على أوجه النشاطات التي يمارسها الأفراد، ويقوم هذا البرلمان بالتعبير عن آراء ومعتقدات الشعب من أجل رفع شأنه حتى يصل هذا الشعب إلى تحقيق الهدف المنشود له⁽²⁾.

وفي هذا السياق تستدعي الدراسة كلمات المفكر الفرنسي فيكتور هوغو؛ إذ يقول: "من الممكن مقاومة غزو الجيوش ولكن ليس من الممكن مقاومة الأفكار" ويقول أيضاً " ليس هناك جيش أقوى من فكرة حان وقتها"⁽³⁾، إن الفكرة التي حان وقتها اليوم، هي تعزيز ما من شأنه تكريس مبادئ الديمقراطية وتقوية دور المواطن ومشاركته في الحياة السياسية من كافة جوانبها، والتي من الممكن أن تتعارض مع مبدأ التعيين الذي يكسي المجالس المُعيّنة، وهنا يشير ألكسيس دو توكفيل في كتابه " الثورة والنظام القديم" إلى أن أزمنة التغيير من قبيل ما يحصل في أزمنة الثورات، تكون مليئة بالمفاجآت، كما تكون محاصرة بمعارك غير متوقعة⁽⁴⁾. ولكن المعركة السياسية المتوقعة اليوم تكمن في البحث عن ما هية القيمة السياسية للمجالس المُعيّنة والجدوى السياسية لبقائها بقطع النظر عن الجدل الدائر بين المؤيدين والمعارضين لمبدأ التعيين والانتخاب لغرفتي الهيئة التشريعية.

وفي ضوء ذلك بدأ الحديث- وهو بالضرورة قد بدأ من قبل- عن مدى أهمية المجالس المُعيّنة ومقاربتها بالديمقراطية من حيث مبدأ التعيين، لذا بدأ يلوح في الأفق الحديث عن دور

المجالس المعينة أو الغرفة الثانية في المؤسسة التشريعية، والعديد من المطالبات بإعادة النظر في مسألة التعيين برمتها أو على الأقل تبرير وجودها.

وهذا بحد ذاته يُكسب الدراسة أهمية خاصة؛ إذ يسود الاعتقاد بضعف القيمة السياسية للمجالس المعينة. وعليه فإن الأمر المهم هو تعميق البحث في مدى قدرة المجالس المعينة على ممارسة الصلاحيات المناطة بها في الحدود التي يرسمها الدستور لمساندة المجالس المنتخبة، ومن هنا انطلقت فكرة الدراسة للبحث في حقيقة دور المجالس المعينة وحدود القيمة السياسية التي يمكن أن تقدمها من المنظور الرقابي بشكل رئيس إلى جانب الدور التشريعي والمالي للمؤسسة البرلمانية ككل، حتى تجد تبريراً سياسياً لوجودها كركن من أركان هذه المؤسسة المحورية وضرورتها الوجودية في النظام السياسي للدولة.

والمملكة الأردنية الهاشمية ومملكة البحرين من الدول العربية التي أخذت بنظام المجلسين، ويرتكز المجلس الثاني فيهما على مبدأ التعيين بالكامل، فقد اتخذت الدراسة الدولتين محلاً للمقارنة، وتتأتى مبررات وأسباب تناول الحالة الأردنية والبحرينية في ضوء انحسار عدد المجالس المعينة في الوطن العرب؛ حيث أخذت الدول التالية بمبدأ الغرفة البرلمانية الواحدة: الكويت، سوريا، فلسطين، جزر القمر، جيبوتي، الصومال، العراق، الإمارات، قطر، السعودية، لبنان، ليبيا، وثمة دولاً أخرى أخذت بمبدأ الغرفتين وهي: الأردن، والبحرين، واليمن، والسودان، وموريتانيا، والمغرب، والجزائر، وتونس، ومصر.

وبتعميق دراسة دساتير الدول العربية⁽⁵⁾؛ نجد أن الدول التالية أخذت بنظام الغرفتين وتتشكل فيها المجالس المعينة من قبل رئيس الدولة بالكامل وهي: الأردن - مجلس الأعيان، البحرين - مجلس الشورى، اليمن - مجلس الشورى، أما السعودية وإن كان مجلس الشورى يجري تعيينه بالكامل إلا أنها من الدول التي أخذت بمبدأ الغرفة الواحدة وليس الغرفتين كما هو في الأردن والبحرين واليمن، وهو الأمر الذي دفع الباحثين لعقد المقارنة العلمية بين دولة خليجية وهي البحرين ودولة غير خليجية وهي الأردن بالإضافة إلى أن نظام الحكم في كلا الدولتين ملكي بالمقارنة مع النظام الجمهوري في اليمن، في حين أن مجلس الشورى القطري مثلاً يتألف من أعضاء معينين من الأمير والقسم الآخر انتخاب، أما مجلس الشورى المصري فالجزء الأكبر انتخاب وثلث أعضاء المجلس تعيين من رئيس الجمهورية، بينما المجلس الوطني الاتحادي في دولة الإمارات لا يتشكل بالتعيين الخالص، بل نجد أن نصف الأعضاء يتم انتخابهم بشكل غير مباشر من خلال مجمع انتخابي والنصف الآخر تعيين.

أما بالنسبة لباقي البرلمانات العربية التي أخذت بنظام الغرفتين، فقد جمعت في المجلس الثاني بين التعيين من قبل رئيس الجمهورية والانتخاب غير المباشر في مجلس المستشارين في

تونس والجزائر ومجلس الشيوخ في موريتانيا من خلال أعضاء المجالس المحلية والنيابات والاتحادات، أما مجلس المستشارين المغربي فيتم من خلال انتخاب غير مباشر من قبل هيئات انتخاب محلية ووطنية مؤلفة من مجالس محلية وجمعيات، أما في السودان فإن مجلس الولايات يتم انتخاب ممثلين اثنين عن كل ولاية من جانب المجلس التشريعي لكل ولاية، وبالعكس المجلس الوطني الذي يخضع للانتخاب المباشر.

أهمية الدراسة

تنبثق أهمية الدراسة العلمية من تناولها أحد أبنية المؤسسة البرلمانية التي تستند على مبدأ التعيين، وذلك من خلال استجلاء الدور الرقابي للمجالس المعينة بالمقاربة مع المجالس المنتخبة، وتوضيح حقيقة هذا الدور الذي يقتصر - في الثقافة السياسية السائدة - على مساندة الحكومات وضعف تقوية وزن البرلمان ككل في العلاقة السياسية التوازنية مع السلطة التنفيذية.

بالإضافة إلى ضرورة إظهار الجدوى السياسية للمجالس المعينة من منظور الدور الرقابي السياسي- كمتغير أساس- الذي من الممكن أن تقوم به إلى جانب الدور التشريعي والمالي، لأهمية ذلك على الوزن السياسي الكلي للمؤسسة التشريعية داخل النظام السياسي.

وعلى مستوى أهمية الدراسة العملية فمن المحتمل أن تفيد نتائج هذه الدراسة وتوصياتها الدارسين في شؤون المجالس البرلمانية عموماً، والمجالس المعينة خصوصاً، بالإضافة إلى العاملين وأعضاء مجلس الأعيان ومجلس الشورى واحتمال إفادتهم في فهم حقيقة الدور الرقابي لها وجدوى مساهمتها السياسية على هذا الصعيد في مجمل العلاقة التوازنية مع الحكومة، ومن ثم إمكانية تحسين الأداء البرلماني عموماً.

وكمحاولة لتأكيد أو تبديد الاعتقاد الشائع الذي مفاده أن دور المجالس المعينة في مجمله ينحصر - على الأغلب - في المهام التشريعية والمالية دون أن يتعداها إلى المهام الرقابية - السياسية على أعضاء السلطة التنفيذية، التي هي برأي الكثيرين تعد حكرًا على المجالس المنتخبة فقط.

مشكلة الدراسة

كل ما ذكر يقودنا إلى إشكالية الدراسة التي انبثقت من فكرة تعميق الحفر في أعماق المجالس المعينة لاستكشاف قيمتها وجدواها السياسية من منظور المدى الذي تكون فيه داعمة للمجالس المنتخبة، انطلاقاً من فهم الباحثين الذي يتمحور حول أن الصلاحيات الرقابية المناطة بالمجالس المعينة هي من أهم المتغيرات التي من الممكن أن تدعم فكرة الجدوى السياسية لهذا النوع من المجالس، ومن هنا انطلقت مشكلة الدراسة للإجابة على السؤال الآتي: "في إطار

البحث عن الجدوى السياسية للمجالس المعيّنة، هل يمتلك مجلس الأعيان الأردني، ومجلس الشورى البحريني - بالإضافة إلى صلاحيات الوظيفة المالية والتشريعية-، سلطات وصلاحيات تمكنها من ممارسة الوظيفة الرقابية السياسية على السلطة التنفيذية؟".

أهداف الدراسة

ترتيباً على ما تقدم، فقد هدفت الدراسة إلى تحقيق التالي:

1. المقارنة بين مجلس الأعيان ومجلس الشورى من حيث التشكيل، والاختصاصات، وتحديد أوجه الشبه والاختلاف.
2. محاولة إستكشاف حدود الدور الرقابي- الوظيفة السياسية، إلى جانب الرقابة التي تنبثق من منظور الصلاحيات المالية والتشريعية- الذي من الممكن أن تقوم بها المجالس المعيّنة، من خلال المقارنة بين الصلاحيات الممنوحة لمجلس الأعيان الأردني ومجلس الشورى البحريني.
3. محاولة التحقق من الجدوى (السياسية) للمجالس المعيّنة في الدولتين محل الدراسة إن وجدت، في ضوء التحليل المقارن ووزن الأدوات السياسية الرقابية المناطة بها، والصلاحيات التشريعية والمالية بالمقارنة مع المجالس المنتخبة.

منهجية الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي المقارن من مدخله السياسي والقانوني، وهي تطبقه على مستويات ثلاثة: وصف طريقة التشكيل وتحديد الوظائف والصلاحيات المحددة دستورياً ولانحياً لمجلس الشورى ومجلس الأعيان - فالمقارنة تستوجب الوصف للتعرف على الظاهرة وتحديد بدقة -، وتجلية البعد القانوني للسلطات والصلاحيات والوظائف ليُصار إلى تجلية وزن القيمة السياسية للمجلسين المعيّنين محلاً للمقارنة في ضوء الوصف والبعد القانوني، مع لزوم التنويه على المستوى المنهجي إلى أن التحليل المقارن يستدعي المقاربة القانونية في التحليل ولا يستبعد بوصفها إحدى أبعاد الدراسة المقارنة لموضوع الدراسة إلى الجانب السياسي، فالمقاربة القانونية تفيد من حيث تحليل النصوص الدستورية والقانونية الخاصة بمجلس الأعيان، ومجلس الشورى في الدولتين محل المقارنة.

وقد حددت الدراسة وحدات المقارنة وهي: آلية التشكيل، والحصانة النيابية، والحل النيابي، والوظائف والاختصاصات الرقابية والتشريعية والمالية.

وقد تحدد البعد المكاني للدراسة في المملكة الأردنية الهاشمية - مجلس الأعيان، ومملكة البحرين - مجلس الشورى، بينما كان الدستور الأردني لسنة 1952 والنظام الداخلي لمجلس

الأعيان لسنة 1998 وتعديلاته، والدستور البحريني لسنة 2002 وتعديلاته واللائحة الداخلية لمجلس الشورى، بمثابة الحد الزمني للدراسة.

وكمحاولة للإجابة على التساؤل الذي طرحته إشكالية الدراسة تم تناول هذا الموضوع في مباحث ثلاثة وخاتمة، تناول المبحث الأول نظام المجلس الواحد ونظام المجلسين ومزاياهما.

أما المبحث الثاني فقد عالج: المقارنة بين مجلس الأعيان الأردني والشورى البحريني على محك التشكيل وحصانة الأعضاء والحل النيابي، ويتم تقسيم هذا المبحث أيضاً إلى مطلبين، نتناول في المطلب الأول المقارنة من حيث التشكيل، والحصانة البرلمانية وحل المجلس المُعين في المطلب الثاني.

أما المبحث الثالث فتناول الجدوى السياسية لوظائف وصلاحيات المجلسين بمنظور مقارن، ويتم تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب، الوظيفة التشريعية في المطلب الأول والوظيفة المالية في المطلب الثاني والوظيفة الرقابية (السياسية) في المطلب الثالث. وتنتهي الدراسة بخاتمة تشمل النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: نظام المجلس الواحد ونظام المجلسين ومزاياهما

نظراً إلى أن موضوع الدراسة يتناول الغرفة الثانية من المؤسسة التشريعية، ويدور التساؤل البحثي حول قيمة هذا النوع من المجالس، وأن الدول تنطلق من مرتكزات فكرية وفلسفية عند الأخذ بنظام المجلسين كما هو الحال بنظام المجلس الواحد، فقد أثرت الدراسة في البداية توضيح النظامين ومزاياهما للإحاطة بفهم أعمق حول الموضوع، فالدول تختلف فيما بينها - في النظام الذي تأخذ به في تكوين البرلمان فيها - إلى اتجاهين هما: نظام المجلس الواحد ونظام المجلسين، ولكل من النظامين مزايا ومؤيدون ومعارضون. وسوف ندرس هذين النظامين على النحو التالي:

أولاً: نظام المجلس الواحد ومزاياه

يقصد بنظام المجلس الواحد أن تناط السلطة التشريعية بمجلس واحد فقط، ويطلق على هذا المجلس عدة تسميات: فمثلاً في الكويت يطلق عليه مجلس الأمة، وفي مصر وسوريا يسمى مجلس الشعب، وفي الإمارات العربية المتحدة المجلس الوطني الاتحادي⁽⁶⁾، وفي جزر القمر يسمى الجمعية الاتحادية، وفي جيبوتي الجمعية الوطنية، وفي العراق ولبنان مجلس النواب، وفي

الصومال البرلمان الاتحادي الانتقالي، وفي فلسطين المجلس التشريعي الفلسطيني، وفي ليبيا المؤتمر الوطني الليبي، وفي قطر والسعودية مجلس الشورى.

ويلاحظ أن بعض دساتير الدول العربية - كما تم تناوله في مبررات الدراسة- تأخذ بهذا النظام (نظام المجلس الواحد). ويتم تشكيل هذا المجلس في غالبية الدول من خلال الانتخاب؛ وذلك للتعبير عن الحياة النيابية الصحيحة، إلا أن بعضها جعله بالتعيين مثل دستور دولة قطر⁽⁷⁾، حيث تنص المادة (14) منه على أنه "يتألف مجلس الشورى من عشرين عضواً يصدر بتعيينهم أمر أميري".

ولكن وفق الدستور الدائم لدولة قطر لسنة 2004 أصبح تشكيل المجلس يجمع بين التعيين والانتخاب؛ حيث نصت المادة (74) منه على أن "يتألف مجلس الشورى من خمسة وأربعين عضواً، يتم انتخاب ثلاثين منهم عن طريق الاقتراع العام السري المباشر، ويعين الأمير الأعضاء الخمسة عشر الآخرين من الوزراء أو غيرهم." وتنتهي عضوية المعينين في مجلس الشورى باستقالتهم أو إعفائهم والبعض الآخر يتم تشكيل المجلس فيه من خلال الجمع بين الانتخاب والتعيين، على أن يشترط في ذلك أن يكون عدد الأعضاء المنتخبين أكثر من عدد الأعضاء المعينين، وذلك لإضفاء الصفة النيابية على هذه المجالس. ومن الدساتير التي أخذت بهذه الطريقة الدستور المصري لعام 1971 ومن قبله دستور عام 1946⁽⁸⁾. ويرى دعاة الأخذ بنظام المجلس الواحد وتفضيله على الأخذ بنظام المجلسين، أن هذا النظام له مبررات ومزايا يمكن إجمالها في ما يلي⁽⁹⁾:-

- 1- إن نظام المجلس الواحد يؤدي إلى سرعة العمل التشريعي، وذلك على خلاف نظام المجلسين الذي يعمل على تعقيده وإعاقته؛ حيث يتطلب هذا النظام موافقة وإقرار كل من المجلسين على مشروعات القوانين، الأمر الذي يتطلب وقتاً طويلاً لإتمامها ولذلك شبه "بنيامين فرانكلين" نظام المجلسين بالعربة التي يجرها جوادان في اتجاهين متضادين.
- 2- يتفق نظام المجلس الواحد مع مبدأ سيادة الأمة، فالسيادة طبقاً لهذا المبدأ وحدة واحدة لا تقبل الانقسام أو التجزئة، الأمر الذي يتطلب تمثيلها بمجلس واحد لا بمجلسين. ولكن يرى الدكتور نعمان الخطيب عكس ذلك، حيث يعتبر نظام المجلس الواحد أكثر انسجاماً واتفاقاً مع مبدأ سيادة الشعب، في حين أن مبدأ سيادة الأمة أكثر انسجاماً مع نظام المجلسين.
- 3- يؤدي الأخذ بنظام المجلس الواحد إلى القضاء على روح الانقسام وتجاوز النزاعات داخل السلطة التشريعية، فالأخذ بنظام المجلسين يتطلب موافقة أعضاء المجلسين على مشروعات القوانين، بحيث تكون مثاراً للاختلاف والانقسام في الرأي، إذا ما وقف احد المجلسين موقفاً مغايراً من موقف المجلس الآخر إزاء أي مشروع قانون تتقدم به الحكومة إلى السلطة التشريعية.

4- يؤدي الأخذ بنظام المجلسين إلى خلق أرستقراطيات جديد؛ وذلك لاختلاف المجلس الأعلى عن المجلس الأدنى من حيث شروط تعيين أعضائه وتكوينه وعدم جواز حله في كثير من الدول وطول مدة نيابته. كل ذلك يساعد على خلق أرستقراطيات جديدة لا تنسجم بتاتا مع العصر الديمقراطي الذي نعيش فيه. وهذه الفكرة هي التي حملت الجمعية التشريعية الفرنسية سنة 1798 على الموافقة بأغلبية كثيرة على نظام المجلس الواحد.

ثانيا: نظام المجلسين ومزاياه

إن أول نشوء لهذا النظام في إنجلترا نتيجةً لتطور تاريخي طويل، حيث كان البرلمان الإنجليزي يتألف من مجلس واحد يسمى بالمجلس الكبير، ويتكون من الإشراف ورجال الدين، وبعد ذلك تم إضافة ممثلين من المدن والمقاطعات الإنجليزية لعضوية هذا المجلس. وقد أدى هذا التشكيل إلى حدوث صراع بين الطرفين المكونين لهذا المجلس، الأمر الذي دعا نواب المقاطعات إلى عقد جلساتهم في قاعة منفردة، فكانت هذه الواقعة بداية لظهور نظام المجلسين في إنجلترا⁽¹⁰⁾.

ومن الدول العربية بالإضافة إلى الأردن والبحرين التي أخذت بنظام المجلسين اليمن (مجلس النواب، مجلس الشورى)، وموريتانيا (الجمعية الوطنية، مجلس الشيوخ)، والمغرب (مجلس النواب، مجلس المستشارين)، وتونس (مجلس النواب، مجلس المستشارين)، والجزائر (المجلس الشعبي الوطني، مجلس الأمة)، ومصر (مجلس الشعب، مجلس الشورى)، والسودان (المجلس الوطني، مجلس الولايات)، وسلطنة عُمان (مجلس الدولة، مجلس الشورى). أما في الدولتين محل الدراسة، فنجد أن مملكة البحرين أخذت بأسلوب التعيين الكامل لأعضاء مجلس الشورى - كما هو الحال في مجلس الشورى اليمني، ومجلس الشورى السعودي-؛ حيث نصت المادة (51) من الدستور البحريني لسنة 2002 وتعديلاته⁽¹¹⁾ على أن: "يتألف المجلس الوطني من مجلسين: مجلس الشورى ومجلس النواب" وذلك بعد أن كانت تأخذ بنظام المجلس الواحد في ظل دستور عام 1973، ونصت المادة (52) على أن "يتألف مجلس الشورى من أربعين عضواً يعينون بأمر ملكي، وذلك وفقاً للإجراءات والضوابط والطريقة التي تحدد بأمر ملكي". كما أخذ بهذا النظام الدستور الأردني الصادر عام 1952؛ إذ نصت المادة (25) منه على أن "تتألف السلطة التشريعية بمجلس الأمة والملك ويتألف مجلس الأمة من مجلسي الأعيان والنواب". وكذلك نصت المادة (62) منه على أن: "يتألف مجلس الأمة من مجلسين مجلس الأعيان ومجلس النواب". ونصت أيضاً المادة (36) منه على أن "الملك يُعين أعضاء مجلس الأعيان ويُعين من بينهم رئيس مجلس الأعيان ويقبل استقالتهم".

وكما أن لنظام المجلس الواحد مبررات ومزايا تقدم ذكرها كذلك لنظام المجلسين مبررات متعددة جعلت الكثير من الدول تأخذ به ومن هذه المزايا: (12)

- إن الأخذ بنظام المجلسين ضرورة حتمية لدول الاتحاد الفيدرالي، إذ يمثل المجلس الأعلى الولايات على أساس المساواة، ويمثل المجلس الأدنى الشعب حسب عدد سكان كل ولاية، فعلى سبيل المثال يتكون الكونجرس الأمريكي من مجلسين: مجلس الشيوخ الذي يمثل الولايات الأمريكية على أساس المساواة، إذ يمثل كل ولاية شيخان بغض النظر عن عدد سكانها، ومجلس النواب الذي يمثل مجموع الشعب الأمريكي وهذا يتم تشكيله حسب عدد سكان كل ولاية.
- إن الأخذ بنظام المجلسين يؤدي إلى إتقان العملية التشريعية وإجادتها، فمناقشة مشروعات القوانين التي ترسلها الحكومة إلى المجلس النيابي المكون من مجلسين، يؤدي إلى تفادي وقوع الخطأ في التشريع، بحيث لو اخطأ المجلس الأدنى وتسرع في إقرار قانون دون اخذ المدة الكافية لمناقشته فأن مناقشته، من قبل المجلس الأعلى يؤدي إلى تلافي الأخطاء في سن التشريعات وتجعلها أكثر اتفاقاً مع دواعي الاستقرار القانوني.
- منع استبداد السلطة التشريعية: فالأخذ بنظام المجلسين يحول من استبداد السلطة التشريعية، فإذا كانت هذه السلطة مكونة من مجلس واحد فإنها كثيراً ما تعتدي على السلطة التنفيذية؛ مما قد يؤدي إلى خلل في العلاقة بين السلطتين والتي تقوم على التعاون والتوازن فيما بينهما دون اعتداء إحداها على الأخرى، فوجود مجلس آخر يعمل على الحد من اندفاعه والتعسف في استعمال السلطة.
- يؤدي الأخذ بنظام المجلسين إلى رفع مستوى كفاءة المجالس النيابية: إن الأخذ بنظام المجلسين يؤدي إلى دخول كفاءات لم يحالفها الحظ في الانتخابات النيابية أو لم تقدم نفسها للترشيح، وذلك من خلال تعيين الكفاءات وأصحاب الخبرة والحكمة، وهو ما ينعكس أثره ذلك على الإجابة التشريعية والعمل النيابي بشكل عام.
- يؤدي الأخذ بنظام المجلسين إلى التخفيف من حدة النزاع بين البرلمان والحكومة: فالأخذ بنظام المجلسين يساعد على تخفيف النزاع بين أحدهما والحكومة. فإذا ما حصل هذا النزاع قام المجلس الآخر بدور الوسيط والحكم بين الطرفين؛ مما يساعد على إنهاء النزاع والخلاف بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية.

وبعد أن بيّنا مزايا كلا النظامين - نظام المجلس الواحد ونظام المجلسين - وأن لكل نظام أنصاره ومؤيديه، وبناءً على ذلك نتساءل أي النظامين أفضل؟ وللإجابة على ذلك نقول: إن أخذ الدولة بأحد النظامين يعتمد على سياقها التاريخي، وظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وبالنسبة للدولتين محل الدراسة، فقد أخذت مملكة البحرين بنظام المجلسين بموجب التعديل الدستوري الذي تم عام 2002، وذلك استناداً لما ورد في ميثاق العمل الوطني في الفصل الخامس منه والذي نص على أن تتكون السلطة التشريعية من مجلسين، مجلس منتخب انتخاباً حراً مباشراً يتولى المهام التشريعية، إلى جانب مجلس مُعين يضم أصحاب الخبرة والاختصاص للاستعانة بأرائهم فيما تتطلبه الشورى من علم وتجربة⁽¹³⁾.

كما أخذت الأردن كذلك بنظام المجلسين، وذلك من خلال المادة (52) من الدستور لعام 1952 والتي تنص على أن "تتألف السلطة التشريعية بمجلس الأمة والملك، ويتألف مجلس الأمة من مجلس الأعيان والنواب". وكذلك نصت المادة (62) من الدستور على أن "يتألف مجلس الأمة من مجلسين: مجلس الأعيان ومجلس النواب".

المبحث الثاني: مجلس الأعيان الأردني والشورى البحريني على محك التشكيل وحصانة الأعضاء والحل النيابي

أفردت الدراسة هذا المبحث للمقارنة بين المجلسين على مستويات ثلاثة هي: آلية تشكيل المجلس وشروط العضوية لتأثير ذلك على نوعية الأعضاء، والحصانة النيابية والتي تعتبر صمام الأمان السياسي للقيام بالواجبات والصلاحيات المناطة بالمجلس دون إعاقة، والحل النيابي الذي يُعبّر عن أداة التأثير الأقوى بيد السلطة التنفيذية وتستطيع بموجبه إنهاء الحالة الوجودية للمجلس. وتجد الدراسة أن هذه الوحدات المقارنة الثلاثة تشكل محددات على مقدرة المجالس المعينة بدايةً في ممارسة سلطاتها وصلاحياتها ومن ثم إثبات جدوى وجودها السياسي.

ويشير ذلك إلى أن خصائص وسمات وخبرة الأعضاء إلى جانب حدود ونطاق الحصانة التي يتمتع بها العضو، وتقييد حالات الحل النيابي وعدم التعسف باستخدام هذا الحق، من الممكن أن يؤثر إلى جانب صلاحيات وسلطات هذه المجالس في ارتفاع أو انخفاض وزن القيمة السياسية للمجالس المعينة.

المطلب الأول: المقارنة من حيث التشكيل

فيما يتعلق بطريقة تكوين المجلس الأعلى كما يسميه البعض، فإنها تختلف باختلاف ما ينص عليه دستور كل دولة. فقد يتكون بطريقة الوراثة أو بالتعيين أو بالانتخاب والتعيين معاً، وقد يكون بالانتخاب الكامل، فقد يتشكل المجلس الأعلى جميعه أو غالبية بالوراثة. ومن أمثلة ذلك مجلس اللوردات في إنجلترا، الأمر الذي جعل الإنجليز يعملون على تقليل صلاحيات هذا المجلس إلى حين إلغائه أو الاستعاضة عنه بمجلس منتخب. وقد جرت عدة محاولات لذلك إلا أنها لم تحقق أية نتيجة؛ وذلك بسبب غلبة الروح المحافظة على الشعب الإنجليزي⁽¹⁴⁾. وقد

يتشكل المجلس الأعلى بواسطة التعيين من قبل السلطة التنفيذية وبالتحديد من رئيس الدولة، وقد يكون هذا التعيين سلطة مطلقة للرئيس، كما كان معمولاً به في الدستور الليبي حيث نصت المادة (94) منه على أن "يؤلف مجلس الشيوخ من أربعة وعشرين عضواً يعينهم الملك"⁽¹⁵⁾.

كما قد تتشدد بعض الدساتير فتتص على أن يكون التعيين ضمن شروط معينة يجب توافرها فيمن يعين عضواً في هذا المجلس، ومن هذه الدساتير: الدستور الأردني والدستور البحريني. حيث نصت المادة 64 من الدستور الأردني لعام 1952 على أن:

"يشترط في عضو مجلس الأعيان زيادة على الشروط المعينة في المادة (75)⁽¹⁶⁾ من هذا الدستور أن يكون قد أتم أربعين سنة شمسية من عمره وأن يكون من إحدى الطبقات الآتية: رؤساء الوزراء، والوزراء الحاليون، والسابقون، ومن أشغل سابقاً مناصب السفراء، والوزراء المفوضين، ورؤساء مجلس النواب، ورؤساء محكمة التمييز، وقضااتها، ومحاكم الاستئناف النظامية والشرعية، والضباط المتقاعدون من رتبة أمير لواء فصاعداً، والنواب السابقون الذين انتخبوا للنيابة لا أقل من مرتين، ومن ماثل هؤلاء من الشخصيات الحائزين على ثقة الشعب واعتماده بأعمالهم وخدماتهم للأمة والوطن".

كما نصت المادة 53 من الدستور البحريني لعام 2002 وتعدلاته على أنه: "يشترط في عضو مجلس الشورى أن يكون بحرينياً، وأن يمضي على من اكتسب الجنسية البحرينية عشر سنوات على الأقل، وغير حامل لجنسية دولة أخرى، باستثناء من يحمل جنسية إحدى دول الأعضاء بمجلس التعاون لدول الخليج العربية بشرط أن تكون جنسيته البحرينية بصفة أصلية، ومتمتعاً بكافة حقوق المدنية والسياسية، وأن يكون أسمه مدرجاً في أحد جداول الانتخاب، وأن لا يقل سنه يوم التعيين عن خمس وثلاثين سنة ميلادية كاملة، وأن يكون ممن تتوافر فيهم الخبرة أو الذين أدوا خدمات جليلة للوطن".

ولقد أضافت المادة (3) من المرسوم بقانون رقم (15) لسنة 2002 بشأن مجلس الشورى والنواب إلى الشروط السابقة، أن يكون تعيين عضو مجلس الشورى من بين الفئات التالية:

"أفراد العائلة المالكة، الوزراء السابقين، من شغل مناصب السفراء والوزراء المفوضين، أعضاء الهيئات القضائية السابقين، كبار الضباط المتقاعدين، كبار موظفي الدولة السابقين، كبار العلماء ورجال الأعمال والمهن المختلفة، أعضاء مجلس النواب السابقين، الحائزين على ثقة الشعب".

ويرى بعض الباحثين أن ثمة أهمية للمجالس المعينة؛ "لأن مبدأ التعيين في ذاته أمراً متعارف عليه في الكثير من الأنظمة التي أخذت بنظام المجلسين، فلا غضاضة أن يضم البرلمان عدداً من الأعضاء المعيّنين، لتدارك تقلبات الانتخاب، أو لتفادي النقص في الكفايات، بالإضافة إلى

أن الأخذ بنظام المجلسين يقتضي التغيرات في تشكيلهما حتى يُستفاد من الأخذ بهذا النظام⁽¹⁷⁾. بينما يرى آخرون أن طريق تعيين أعضاء المجلس الأعلى بالكامل يتنافى والمبادئ الديمقراطية التي تجعل من الانتخاب الوسيلة الأساسية لإسناد السلطة، هذا عوضاً عن أنها تتعارض مع جوهر وخصائص النظام النيابي الذي يتطلب أن تكون الهيئة النيابية الممثلة للشعب منتخبة لا معينة، ويمكن القول إن هذا التخوف يقل أحياناً في بعض الدول التي حددت أعضاء هذا المجلس بما لا يزيد عن نصف عدد أعضاء المجلس المنتخب.

ومن الدساتير التي عملت على ضمان التفوق العددي للمجلس الأدنى على المجلس الأعلى دستور المملكة الأردنية الهاشمية لعام 1952 حيث نصت المادة (63) منه على أن "يتألف مجلس الأعيان بما فيه الرئيس من عدد لا يتجاوز نصف عدد مجلس النواب".

وفي هذا السياق يُعلق أحد الباحثين حول هذا الأمر بالقول:⁽¹⁸⁾ يُشكّل مجلس الأعيان ثلث مجلس الأمة. وفي حالات عديدة نص الدستور على ضرورة اتخاذ القرار في حالة اجتماع المجلسين بأغلبية خاصة⁽¹⁹⁾ هي أغلبية ثلثي الحضور، أو أغلبية ثلثي أعضاء مجلس الأمة، أو أغلبية ثلثي كل مجلس على حدة، وهذه الحالات تتعلق بالعملية التشريعية، أو تعديل الدستور، ومما لا شك فيه أن السلطة التنفيذية تستطيع التأثير على أعضاء المجلس المعينين، وبذلك يكون التصويت دائماً لصالح وجهة نظرها ويصبح مجلس الأعيان عقبة في وجه المجلس المنتخب؛ لذا لا بد أن يكون عدد الأعيان بنسبة لا تزيد عن ربع أعضاء مجلس الأمة".

أما دستور مملكة البحرين والمعدل لعام 2002 فقد أثر أن يساوي بين المجلسين في عدد الأعضاء؛ وذلك بأن جعل عدد أعضاء كل من مجلسي الشورى والنواب أربعين عضواً بموجب المادة (52) والمادة (56) من الدستور.

وقد يتشكل المجلس الأعلى من خلال الجمع بين الانتخاب والتعيين مثل ما ورد في الدستور القطري لسنة 2004 فيما يخص مجلس الشورى، وكذلك مجلس الشورى المصري؛ حيث يقوم رئيس الدولة بتعيين بعض أعضاء المجلس، على أن يتم انتخاب البعض الآخر من قبل الشعب. وهنا وانسجاماً مع المبادئ الديمقراطية يشترط أن يكون عدد الأعضاء المنتخبين أكثر من الأعضاء المعينين من قبل السلطة التنفيذية، ويؤخذ بهذه الطريقة عادة لادخال بعض الكفاءات الى السلطة التشريعية، والتي لم يحالفها الحظ في الانتخابات النيابية، او التي عرفت عن الترشيح⁽²⁰⁾. وقد يتشكل المجلس الاعلى جميعه بالانتخاب سواء كان مباشراً، وهو ما اخذ به الدستور الامريكي بموجب التعديل السابع عشر، او غير مباشر كالدساتير الفرنسية الثلاثة الاخيرة (1875 - 1946 - 1958)⁽²¹⁾.

وفيما يتعلق بالعمر اللازم للعضوية، فعادة ما تكون شروط العضوية في المجلس الأدنى أيسر وأسهل منها في المجلس الأعلى، فمن حيث السن تشترط بعض الدساتير أن يكون سن العضو في المجلس الأعلى أكبر منه في المجلس الأدنى. فعلى سبيل المثال نجد أن الدستور الأمريكي يشترط فيمن يرشح نفسه لعضوية مجلس النواب أن يكون قد بلغ من العمر 25 سنة، بينما اشترط أن يكون عمر المرشح لمجلس الشيوخ 30 سنة. كذلك اشترط الدستور الأردني لعام 1952 أن يكون عضو مجلس النواب قد أتم من عمره 30 سنة، بينما اشترط أن يكون عضو مجلس الأعيان قد أتم 40 سنة، بالإضافة إلى انتمائه إلى إحدى الطبقات التي حددها الدستور في المادة 64 منه والتي تمت الإشارة إليها فيما سبق. وكذلك فرق الدستور البحريني بين المجلسين فيما يتعلق بسن العضوية؛ حيث اشترط أن لا يقل سن عضو مجلس الشورى عن 35 سنة⁽²²⁾. وبيرر هذا الاختلاف بين المجلسين - فيما يتعلق بسن العضوية - في أن المجلس الأدنى يمثل الشباب والحيوية والنشاط والإقدام، فيما يمثل المجلس الأعلى الحكمة والاعتزان والهدوء. وكل هذه الأمور يستحسن تواجدها في البرلمان الذي يتكون من مجلسين⁽²³⁾.

أما فيما يتعلق بمدة العضوية فنجد أن الدستور الأردني قد ساوى بين المجلسين في ذلك. فالمادة (1/65) من الدستور الأردني لعام 1952 نصت على ما يلي: "مدة العضوية في مجلس الأعيان أربع سنوات، ويتجدد تعيين الأعضاء كل أربع سنوات، ويجوز إعادة تعيين من انتهت مدته منهم". كما نصت المادة (68) منه على أن: "مدة مجلس النواب أربع سنوات شمسية تبدأ من تاريخ إعلان نتائج الانتخاب العام في الجريدة الرسمية، وللملك أن يمدد مدة العضوية إلى مدة لا تقل عن سنة ولمدة لا تزيد عن سنتين".

وعلى الرغم من أن الدستور الأردني قد ساوى بين المجلسين من حيث مدة العضوية⁽²⁴⁾، إلا أنه أجاز في المادة (68) منه للملك أن يطيل من مدة نيابة مجلس النواب إلى مدة لا تقل عن سنة واحدة ولا تزيد على سنتين، وبذلك تصبح مدة مجلس النواب ست سنوات. وبهذا أصبحت أطول من مدة المجلس المعين، مما يتنافى مع مبدأ تقصير مدة المجلس المنتخب عن مدة المجلس المعين⁽²⁵⁾.

كذلك نصت المادة (54) من الدستور البحريني على أن: "مدة العضوية في مجلس الشورى أربع سنوات، ويجوز إعادة تعيين من انتهت مدة عضويته". ونصت المادة (58) منه على أن: "مدة مجلس النواب أربع سنوات ميلادية تبدأ من تاريخ أول اجتماع له، وتجري خلال الأربعة شهور الأخيرة من تلك المدة انتخابات المجلس الجديد مع مراعاة حكم المادة (64) من هذا الدستور، ويجوز إعادة انتخاب من انتهت مدة عضويته، وللملك أن يمدد الفصل التشريعي لمجلس النواب عند الضرورة بأمر ملكي مدة لا تزيد على سنتين".

ويلاحظ هنا الاختلاف بين الدستور البحريني والأردني فيما يتعلق ببداية مدة العضوية، فالمدة في الدستور الأردني تبدأ من تاريخ إعلان الإرادة الملكية بالتعيين في الجريدة الرسمية على غرار مجلس النواب الذي تبدأ عضويته من تاريخ نشر نتائج الانتخابات في الجريدة الرسمية. أما في الدستور البحريني فتبدأ من تاريخ أول اجتماعا يعقده المجلس.

وعلى خلاف ذلك فهناك بعض الدساتير تغاير بين المجلسين من حيث مدة العضوية، فتجعلها في المجلس الأدنى أقل منها في المجلس الأعلى؛ وذلك لضمان الرقابة الشعبية على هذا المجلس المنتخب، ومن ثم عودة النواب بين الحين والآخر إلى الشعب ليقرر من هو الأفضل ويعيد انتخابه مرة أخرى. وقد أخذ الدستور المصري لعام 1923 بهذه القاعدة، فجعل مدة عضوية مجلس النواب خمس سنوات، بينما جعل مدة عضوية مجلس الشيوخ عشر سنوات.

أما فيما يتعلق بتعيين رئيس المجلس في كلا الدولتين، نرى أن رئيس مجلس الشورى يُعين لمدة 4 سنوات وفقاً للمادة (54 فقرة د) من الدستور البحريني لسنة 2002 وهي ذات مدة مجلس النواب، بينما رئيس مجلس الأعيان في الأردن يُعين لمدة سنتين وفق المادة (65 فقرة 2) من الدستور الأردني لسنة 1952 وتعديلاته. "والحقيقة أن تعيين رئيس هيئة تشريعية بواسطة السلطة التنفيذية يُضعف مركز هذه الهيئة، فضلاً على أنه يؤثر في الصبغة النيابية التي من المفروض أن تتوافر في هذه الهيئات. ويبدو شذوذ اختيار رئيس مجلس الأعيان من قبل الملك في حالة انعقاد مجلس الأمة أن تكون الرئاسة لرئيس مجلس الأعيان وفقاً للمادة 92 من الدستور الأردني، وفي هذه الحالة يكون نواب الشعب وممثلوه تحت رئاسة عضو مُعين لا يستمد وكرالته من هيئة الناخبين، وهو أمر شاذ لا بد من تعديله"⁽²⁶⁾.

ويتضح مما سبق ما يلي:

أولاً: أن ثمة فارقاً في التشكيل بين المجلس المنتخب والمجلس المُعين من المنظور العددي، يتمثل في أن واضعي الدستور الأردني كانوا يهدفون إلى مسألة إعلاء إرادة المجلس المنتخب على المجلس المُعين؛ وذلك بوضع قيد ضابط لعدد أعضاء المجلس المُعين بحيث لا يتجاوز نصف عدد أعضاء المجلس المنتخب، بينما ساوى الدستور البحريني بين المجلسين. وهذا فارق ديمقراطي بين مجلس الشورى البحريني ومجلس الأعيان الأردني؛ لأنه من معايير الديمقراطية غلبة المجلس المُعين على المجلس المنتخب.

ثانياً: أن ثمة تشابهاً بين المجلسين في شروط العضوية؛ حيث حدد كلا المجلسين شروطاً دستورية لا بد من توافرها للذين يتم تعيينهم في المجلس الأعلى. ويمكن القول إن المجلسين يشتركان في الطابع الأرستقراطي في التشكيل.

المطلب الثاني: المقارنة من حيث الحل النيابي والحصانة البرلمانية

أولاً: الحل النيابي

يمكن القول: "إن حل البرلمان هو أفضل الشواهد للطابع التبادلي للرقابة في النظم البرلمانية؛ حيث يكون أهم اختصاص يمارسه رئيس الدولة هو حق حل المجلس النيابي رئيسياً، فالوزارة هي صاحبة السلطة الحقيقية في النظام البرلماني وهي المسؤولة عن ممارسة اختصاصاتها أمام البرلمان، ولكنها أيضاً تستطيع المبادرة بطلب ممارسة الرئيس لاختصاصه في حل البرلمان. بهذا يكفل حق الحل التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية وبدونه تصبح الحكومة خاضعة لسيطرة البرلمان" (27).

"إن الفقه الدستوري يرى - بحق - أن حق الوزارة في حل البرلمان وما يقابله من مسؤولية سياسية للوزارة أمام البرلمان من أبرز وأهم مميزات وخصائص النظام البرلماني، حتى إن بعض الكُتّاب عند بحثهم عن خصائص هذا النظام يكتفون بذكر هاتين الخاصيتين دون غيرهما من الخواص، باعتبار أن قيام النظام البرلماني مرتبط بهما" (28).

وعلى الرغم من أن مسألة بحث حق الحل من منظور الفقه البرلماني تعد نقطة محورية في العلاقة بين مجلس النواب والحكومة في كلا الدولتين، وتحديداً في نمط توازن علاقات القوة السياسية بين السلطة التشريعية والتنفيذية، إلا أن ذلك لا يمنع من تناوله في سياق المجالس المعينة، لأهمية الحل النيابي كصلاحية بيد السلطة التنفيذية في مواجهة البرلمان عموماً وليس على مجلس النواب لوحده، انطلاقاً من أن المجلس المَعين يُفترض أن يقوم بمساندة المجلس المنتخب في العلاقة مع السلطة التنفيذية ويدخل في حساب طبيعة العلاقة بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في إطار النظام السياسي ككل.

وفي ضوء ما سبق، تتصاعد أهمية الضوابط الدستورية التي تنظم استعمال حق الحل، بهدف حماية المؤسسة البرلمانية من التعسف بإستخدام هذا الحق، ولأهمية أثر الحل البرلماني على البرلمان بغرفتيه، نبين فيما يلي موضع الحل بالنسبة للمجلس الآخر المَعين، وعلى النحو التالي:

مجلس الأعيان الأردني:

في إطار الدستور الأردني لسنة 1952 وتعديلاته، نجد أن الصلاحية الدستورية بحل مجلس الأعيان في الأردن مناطة بالملك؛ حيث تنص المادة (34 فقرة 4) على أن: "للملك أن يحل مجلس الأعيان أو يعفي أحد أعضائه من العضوية". مع ضرورة التنويه إلى عدم وجود أي نص يتضمن حل مجلس الأعيان في الدستور الأردني لسنة 1947، والدستور الأردني لسنة 1952

وحتى عام 1974؛ حيث أجري تعديل على الدستور بتاريخ 1974/11/10 أضاف بموجبه الفقرة الرابعة المشار إليها إلى المادة 34 من الدستور.

وعلى صعيد ضمانات حق حل مجلس الأعيان الأردني نجد أن الدستور لسنة 1952 وتعديلاته لم يجعل هذا الحق مطلقا للملك كما هو واضح من نص المادة (34 فقرة 4) من الدستور، بل أحاطه بضمانة قوية وهي مبدأ التوقيع المجاور؛ حيث يمارس الملك صلاحياته (بما فيها حل مجلس الأعيان) بإرادة موقعة من رئيس الوزراء والوزير أو الوزراء المختصين بموجب المادة 40 من الدستور والتي تلقي بالمسؤولية السياسية على الوزارة وتتسق مع المادة 30 من الدستور التي تعفي الملك بالمطلق من أي تبعة أو مسؤولية، والمادة 26 والتي أناطت السلطة التنفيذية بالملك ويتولاها بواسطة وزرائه، وهذا يعني أن الملك في الأردن لا يمارس سلطاته الدستورية المتصلة بالشأن العام بشكل مباشر.

مجلس الشورى البحريني:

في إطار تدقيق نصوص دستور مملكة البحرين لسنة 2002 تبين عدم وجود نص صريح ومباشر كالوارد في الحالة الأردنية ينص على حل مجلس الشورى. وهذا فارق بين المجلسين من منظور النص صراحة على الحل، وإنما نص الدستور البحريني مباشرة على حق الملك في حل مجلس النواب⁽²⁹⁾. ولم يتناول الدستور أي نص يتعلق بحل مجلس الشورى واكتفى بالنص الوارد في المادة (33 فقرة و) من الدستور ومؤداه أن "يُعَيِّن الملك أعضاء مجلس الشورى ويعفيهم بأمر ملكي"، وأيضاً بالنص على أن جلسات مجلس الشورى تتوقف في حال حل مجلس النواب⁽³⁰⁾.

ونلاحظ هنا أن الدستور الأردني كان أكثر دقة وتحديداً لحالة حل مجلس الأعيان، بالإضافة إلى صلاحية إعفاء أحد أعضائه. وحرصاً من واضعي الدستور على إمكانية حصول الالتباس والإبهام في ظاهر المادة الدستورية فقد نص على كلمة الحل؛ بحيث لا تكفي كلمة الإعفاء الواردة في ذات النص كبديل عن الحل. بينما خلا نص الحل من الحالة البحرينية واكتفى بمسألة إعفاء الأعضاء من العضوية. فالحل يعني إنهاء وجود المجلس قبل نهاية مدته المحددة دستورياً، أي يتعلق بالحالة الوجودية للمجلس.

وفي سياق البحث عن ضمانات حل المجلس، وجدت الدراسة وتعميق النظر في المادة 33 من الدستور البحريني لسنة 2002 والتي تنص على أن يمارس الملك صلاحياته مباشرة وبواسطة وزرائه، أن الملك في البحرين يمارس صلاحياته مباشرة ويمكن أن يمارسها من خلال وزرائه، وهو ما يفيد أن الملك يمكن أن يمارس صلاحياته مباشرة دون الوزراء، وهو على النقيض تماماً من الكيفية التي يمارس في إطارها الملك في الأردن لصلاحياته الدستورية التي حصرت ممارستها

بواسطة الوزراء فقط. وبالمقارنة بين الحالتين، نجد أن الحالة الأردنية أحاطت حل مجلس الأعيان بضمانة لا تتوافر في الحالة البحرينية إلا في حال قيام الملك في البحرين بممارسة صلاحياته بواسطة وزرائه عند إصدار قرار حل مجلس الشورى. ولكن عند ممارسته لصلاحياته مباشرة وبدون الوزراء فلا يعود هناك ضابط لحق الحل، وعندها يصبح حق الحل مطلق.

ثانياً: المقارنة من مدخل الحصانة

أما في يتعلق بالحصانة البرلمانية، فيمكن القول: إن "الحصانة هي حماية لعضو البرلمان تفرضها متطلبات العمل البرلماني لتمكين أعضاء البرلمان من التعبير عن آرائهم بكل حرية واستقلال وعدم مؤاخذتهم؛ للحيلولة دون اتخاذ أي إجراء جنائي أو مدني في مواجهتهم، ومن هنا انبثقت الحصانة الموضوعية. وبالمقابل إذا ارتكب عضو المجلس أية جريمة خارج هذا النطاق، فإن الصفة البرلمانية لمرتكب الفعل الإجرامي تفرض تأجيل هذا التدخل إلى حين الحصول على إذن من المجلس وتسمى الحصانة الإجرائية أو الجنائية، إلا في حال الجرم الجنائي المشهود فهو المستثنى الوحيد من هذه الحصانة"⁽³¹⁾.

"وتختلف الأنظمة في عدة مسائل منها: مدى شمول الحصانة للعضو في فترات الانعقاد وخارجها، ومدى حرية الكلام والتعبير عن الرأي بين التضييق المكاني داخل المجلس أو في الجلسات، وآلية رفع الحصانة، والحصانة الجنائية ومدى شمولها للعضو باستثناء التلبس بالجرم المشهود".

ويمكن تصنيف الحصانة على نوعين:

1. الحصانة الموضوعية: وهي حماية تفرضها متطلبات العمل البرلماني لتمكين أعضاء البرلمان من التعبير عن آرائهم وأفكارهم بكل حرية واستقلال، وعدم مؤاخذتهم - بصفة تكاد تكون مطلقة - للحيلولة دون القيام بأي إجراء جنائي، أو مدني في مواجهتهم. وهكذا نستطيع القول بأن الحصانة ضد المسؤولية البرلمانية امتياز دستوري مقرر لأعضاء البرلمان بصفاتهم لا بأشخاصهم سواء كانوا منتخبيين أو معينين يتيح لهم أثناء قيامهم بواجباتهم البرلمانية حرية الرأي والتعبير.

2. الحصانة الإجرائية: وهي عدم جواز اتخاذ أي إجراءات جنائية ضد أي عضو من أعضاء البرلمان في غير التلبس بالجريمة إلا بعد إذن المجلس التابع له العضو، ولهذا يُطلق عليها الحصانة ضد الإجراءات الجنائية، إذ إن الصفة البرلمانية لمرتكب الفعل الجرمي تفرض تأجيل التدخل القانوني إلى حين الحصول على إذن من المجلس الذي ينتمي إليه العضو. ولذلك يسمى هذا النوع من الحصانة بالمؤقتة⁽³²⁾.

وبالتطبيق المقارن على حالة كلا المجلسين نجد ما يلي:

أولاً: الحصانة الموضوعية

باستعراض الدستور الأردني لسنة 1952 وتعديلاته، نجد ان هذا النوع من الحصانة تجسد في المادة (87) من الدستور، حيث نصت على أنه "لكل عضو من أعضاء مجلسي الأعيان والنواب ملء الحرية في التكلم وإبداء الرأي في حدود النظام الداخلي للمجلس الذي هو منتسب إليه، ولا يجوز مؤاخذة العضو بسبب أي تصويت أو رأي يبديه أو خطاب يلقيه في أثناء جلسات المجلس". ومن ثم نلاحظ التضييق المكاني على حرية الرأي لعضو مجلس الأعيان كما هو لعضو مجلس النواب.

وعلى الوجه المقارن وبتدقيق الدستور البحريني لسنة 2002، نجد ان الحصانة الموضوعية تجسدت في المادة (89) فقرة (ب) من الدستور حيث تنص على أنه: "لا تجوز مؤاخذة عضو كل من مجلس الشورى أو مجلس النواب عما يبديه في المجلس أو لجانه من آراء أو أفكار، إلا إذا كان الرأي المعبر عنه فيه مساس بأسس العقيدة أو بوحدة الأمة أو بالاحترام الواجب للملك أو فيه قذف في الحياة الخاصة لأي شخص كان".

ثانياً: الحصانة الإجرائية

تناولت المادة (86) من الدستور الأردني بفقرتيها الأولى والثانية موضوع الحصانة الجزائية، فقد نصت المادة (86) فقرة (1) على أنه "لا يوقف أحد أعضاء مجلسي الأعيان والنواب، ولا يحاكم خلال مدة اجتماع المجلس، ما لم يصدر من المجلس الذي هو منتسب إليه قرار بالأكثرية المطلقة بوجود سبب كافٍ لتوقيفه أو لمحاكمته، أو ما لم يقبض عليه في حالة التلبس بجريمة جنائية، وفي حالة القبض عليه بهذه الصورة يجب إعلام المجلس بذلك فوراً". أما الفقرة (2) من ذات المادة فقد نصت على أنه "إذا أوقف عضو لسبب ما خلال المدة التي لا يكون مجلس الأمة مجتمعاً فيها، فعلى رئيس الوزراء أن يبلغ المجلس الذي هو منتسب إليه ذلك العضو عند اجتماعه بالإجراءات المتخذة مشفوعة بالإيضاح اللازم".

أما على مستوى مجلس الشورى البحريني فنجد ان المادة (89) فقرة (ج) من الدستور قد تناولت الحصانة الإجرائية، حيث نصت على أنه: "لا يجوز أثناء دور الانعقاد في غير حالة الجرم المشهود أن يتخذ نحو العضو إجراء التوقيف أو التحقيق أو التفتيش أو الحبس أو أي إجراء جنائي آخر إلا بإذن سابق من المجلس. وفي غير دور انعقاد المجلس، يتعين لاتخاذ أي من هذه الإجراءات أخذ إذن من رئيس المجلس. ويعتبر بمثابة إذن عدم إصدار المجلس أو الرئيس قراره في طلب الإذن خلال شهر من تاريخ وصوله إليه. ويتعين إخطار المجلس بما قد يتخذ من

إجراءات وفقاً للفقرة السابقة أثناء انعقاده، كما يجب إخطاره دوماً في أول اجتماع له بأي إجراء اتخذ أثناء عطلة المجلس السنوية ضد أي عضو عدا أعضائه".

وفي سياق توضيح الإجراءات الناظمة لرفع الحصانة الإجرائية عن العضو، نجد وبالرجوع إلى اللائحة الداخلية الناظمة لعمل المجلس في كلا الدولتين، أن النظام الداخلي لمجلس الأعيان الأردني لسنة 1998 وتعديلاته، وفي المادة 97 قد نص على أنه "لا يجوز خلال أدوار انعقاد المجلس ملاحقة العضو جزائياً أو اتخاذ إجراءات جزائية أو إدارية بحقه أو إلقاء القبض عليه أو توقيفه إلا بإذن المجلس باستثناء حالة الجرم المشهود". كما نصت المادة (101) من النظام الداخلي على أنه: "إذا أوقف العضو لسبب ما عندما لا يكون مجلس الأمة منعقداً، يجب على رئيس الوزراء أن يبلغ رئيس المجلس بذلك فوراً، وعلى رئيس الوزراء كذلك أن يبلغ المجلس فور اجتماعه بالإجراءات المتخذة ومبرراتها، وللمجلس أن يقرر بالأكثرية المطلقة استمرار هذه الإجراءات أو إيقافها فوراً".

وبالمقارنة مع مجلس الشورى، ويتدقيق المادة (147) من مرسوم بقانون رقم (55) لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس الشورى البحريني، فقد تناولت الإجراءات الجزائية على العضو، على النحو التالي: "يقدم طلب الإذن برفع الحصانة عن العضو إلى رئيس المجلس من وزير العدل، ويجب أن يرفق بالطلب صورة رسمية من أوراق القضية المطلوب اتخاذ إجراءات فيها ويحيل الرئيس الطلب المذكور إلى لجنة الشؤون التشريعية والقانونية لبحثه وإبداء الرأي فيه، ويجب على اللجنة إعداد تقريرها بشأن طلب رفع الحصانة خلال عشرة أيام على الأكثر من تاريخ إحالة الأوراق إليها".

ومن ثم نرى أنه - في الدستور البحريني كما في الدستور الأردني - قد اقتضت الحصانة الموضوعية أثناء الجلسات فقط في مجلس الأعيان. أما في مجلس الشورى فتم تحديد الحصانة الموضوعية في المجلس أو لجانه، ولم تشملها لتمتد خارج نطاق المجلس. ومن حيث منظور الضوابط على حرية الكلام والرأي نجد أن الدستور البحريني في المادة (89) منه حدد هذه الاستثناءات: وهي إذا كان الرأي فيه مساساً بأسس العقيدة، أو بوحدة الأمة، أو بالاحترام الواجب للملك، أو فيه قذف في الحياة الخاصة لأي شخص كان. وهذه الضوابط على حرية الكلام في حالة مجلس الشورى. أما في حالة مجلس الأعيان فثمة ضوابط أيضاً على حرية الرأي تناولتها المادة (40) من النظام الداخلي؛ حيث حددت بعض القيود منها: أنه لا يجوز للعضو أن يستعمل عبارات غير لائقة، أو فيها مساس بالأشخاص، أو بالهيئات، أو بالمصلحة العامة، وألا يأتي أمراً مخللاً بالنظام.

أما الحصانة الجزائية فقد اقتضت فقط في مجلس الأعيان ومجلس الشورى أثناء أدوار الانعقاد إلا في حالة التلبس بالجرم المشهود والتي لا تشملها الحصانة، أو قرار من المجلس لرفع الحصانة حدده الدستور الأردني بالأكثرية المطلقة للمجلس. أما في مجلس الشورى فلم يحدد الدستور - على غرار الدستور الأردني - نصاً على مقدار التصويت الذي يتوجب على المجلس بلوغه لرفع الحصانة من عدمه، واكتفى النص الدستوري بأنها تحتاج إلى إذن المجلس، وفي غير أدوار الانعقاد للمجلس، أي عندما لا يكون المجلس منعقدًا، ففي مجلس الأعيان الأردني يتعين على رئيس الوزراء إبلاغ رئيس المجلس بذلك فوراً، وعلى رئيس الوزراء كذلك أن يبلغ المجلس فور اجتماعه، وللمجلس الأعيان الحق في وقف الإجراءات فوراً أو استمرارها بقرار محدد وهو الأكثرية المطلقة. أما في مجلس الشورى فيتطلب أخذ إذن من رئيس المجلس، ويقدم طلب إذن رفع الحصانة إلى رئيس المجلس من وزير العدل والشئون الإسلامية. وهذا على خلاف كما هو معمول به في الأردن؛ حيث يقدم الطلب إلى رئيس مجلس النواب من رئيس مجلس الوزراء.

المبحث الثالث: الجدوى السياسية لوظائف وصلاحيات المجلسين بمنظور مقارن

يسعى هذا المبحث إلى إختبار مدى الجدوى السياسية للمجلسين محل المقارنة في ضوء التحقق من الصلاحيات التي تتوفر لهذا النوع من المجالس التي تنبثق من الوظائف المنوطة بها، ومن ثمّ يمكنها من ممارستها في العلاقة مع الغرفة المنتخبة في البرلمان وكذلك العلاقة مع السلطة التنفيذية.

وفي ضوء ما سبق، يختص مجلسي الأعيان الأردني والشورى البحريني وعلى غرار المجالس المنتخبة، بوظائف رئيسة ثلاثة وهي: الوظيفة التشريعية، والوظيفة السياسية (الرقابية)، والوظيفة المالية، وكون هذه الدراسة تتركز حول الوظيفة الرقابية للسلطة التشريعية في كل من الأردن والبحرين، وبالتحديد للمجلس الأعلى في كل منهما (مجلس الأعيان الأردني، ومجلس الشورى البحريني)، فإننا سنتناول الوظيفة التشريعية والمالية لكل منهما بشيء من الإيجاز، على أن نتوسع في الوظيفة الرقابية وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: الوظيفة التشريعية

تعدّ الوظيفة التشريعية من الوظائف الأساسية لأي برلمان في العالم؛ لذا يسمى البرلمان في الدراسات الفقهية بالسلطة التشريعية⁽³³⁾. وتناط السلطة التشريعية في الأردن بمجلس الأمة، والملك، وذلك بموجب المادة (25) من الدستور الأردني. ويتولاها في البحرين الملك، والمجلس الوطني بموجب المادة (32) من الدستور البحريني.

ومن المعروف أن العملية التشريعية تمر عادة بعدة مراحل، تبدأ باقتراح من قبل الحكومة، أو البرلمان، ثم مناقشته والتصويت عليه من قبل أعضاء البرلمان، وأخيراً التصديق والإصدار من قبل رئيس الدولة⁽³⁴⁾. فالإقتراح هو أول الأعمال الأساسية في التشريع، وقبل الاقتراح لا يكون لمشروع القانون أي وجود قانوني⁽³⁵⁾. ويطلق على اقتراحات القوانين إذا جاءت من جانب السلطة التنفيذية مشروعات القوانين، أما التي تصدر من قبل السلطة التشريعية فيطلق عليها اقتراحات القوانين⁽³⁶⁾. وقد اختلفت الدساتير فيما بينها على من هو صاحب الحق في اقتراح القوانين، فمنها ما جعلته من حق السلطة التشريعية لوحدها، ومنها ما جعلته حقاً مشتركاً بين السلطتين التنفيذية والتشريعية وهو ما يعتبر في نظر البعض من أفضل أساليب ترتيب تلك العلاقة⁽³⁷⁾. وبهذا الأسلوب أخذ كل من الدستور الأردني والدستور البحريني.

فالمادة (91) من الدستور الأردني نصت على أن: "يعرض رئيس الوزراء مشروع كل قانون على مجلس النواب الذي له حق قبول المشروع أو تعديله أو رفضه، وفي جميع الحالات يرفع المشروع إلى مجلس الأعيان، ولا يصدر قانون إلا إذا أقره المجلسان وصدق عليه الملك". وكذلك بينت المادة (95) من الدستور الأردني الاقتراح الذي يكون مصدره مجلس الأمة، حيث نصت على ما يلي: "يجوز لعشرة أو أكثر من أعضاء أي من مجلس الأعيان والنواب أن يقترحوا القوانين، ويحال كل اقتراح على اللجنة المختصة في المجلس لإبداء الرأي، فإذا رأى المجلس قبول الاقتراح أحاله إلى الحكومة لوضعه في صيغة مشروع قانون وتقديمه للمجلس في الدورة نفسها أو الدورة التي تليها. كل اقتراح بقانون تقدم به أعضاء أي من مجلسي الأعيان والنواب وفق الفقرة السابقة ورفضه المجلس لا يجوز تقديمه في الدورة نفسها".

كذلك نصت المادة (35) من الدستور البحريني على أنه: "للملك حق اقتراح تعديل الدستور واقتراح القوانين، ويختص بالتصديق على القوانين وإصدارها". كما نصت المادة (81) من الدستور البحريني على أن: "يعرض رئيس مجلس الوزراء مشروعات القوانين على مجلس النواب الذي له حق قبول المشروع أو تعديله أو رفضه، وفي جميع الحالات يرفع المشروع إلى مجلس الشورى الذي له حق قبول المشروع أو تعديله أو رفضه أو قبول أية تعديلات كان مجلس النواب قد أدخلها على المشروع أو رفضها أو قام بتعديلها، على أن تعطى الأولوية في المناقشة دائماً لمشروعات القوانين والاقتراحات المقدمة من الحكومة". كما نصت المادة (82) على أن: "لخمس عشرة عضواً من مجلس الشورى أو مجلس النواب حق طلب اقتراح تعديل الدستور، ولأي من أعضاء المجلسين حق اقتراح القوانين. ويحال كل اقتراح إلى اللجنة المختصة في المجلس الذي قدم فيه الاقتراح لإبداء الرأي، فإذا رأى المجلس قبول الاقتراح أحاله إلى الحكومة لوضعه في صيغة مشروع تعديل للدستور أو مشروع قانون لتقديمه إلى مجلس النواب في الدورة نفسها، أو في الدورة التي تليها، وكل اقتراح بقانون تم تقديمه وفق الفقرة السابقة ورفضه

المجلس الذي قدم إليه لا يجوز تقديمه ثانية في دور الانعقاد ذاته". وكذلك تنص المادة (70) من الدستور البحريني على أن "لا يصدر قانون إلا إذا أقره كل من مجلسي الشورى والنواب أو المجلس الوطني - بحسب الأحوال - وصدق عليه الملك".

وهنا نبدي على النصوص الدستورية الأردنية والبحرينية الملاحظتين التاليتين وهما:

الملاحظة الأولى: إن كلاً من الدستور الأردني، والدستور البحريني ساوى بين المجلسين فيما يتعلق بالوظيفة التشريعية، وذلك فيما يتعلق باقتراح القانون أو مناقشته، ومن ثم التصويت عليه، وكذلك حق كل منهما قبول مشروع القانون أو رفضه أو تعديله المعروض من قبل السلطة التنفيذية، وختم كل منهما بالنص على أنه لا يمكن لأي قانون أن يصدر إلا إذا تم إقراره من قبل المجلسين معاً، وهذا الأمر معيب سياسياً ودستورياً، ويتنافى مع المبادئ الديمقراطية؛ وذلك لإمكانية قيام المجلس المعين بعرقلة إرادة المجلس المنتخب على المستوى التشريعي.

الملاحظة الثانية: تتلخص في أن الدستور الأردني قد ضيق كثيراً من حق أعضاء مجلس الأمة في اقتراح القوانين، وذلك بأن اشترط أن يصدر الاقتراح على الأقل من قبل عشرة أعضاء من السلطة التشريعية. وفي ذلك يختلف عن الدستور البحريني الذي وسع من هذا الحق بأن أعطاه لأي عضو من أعضاء المجلس الوطني.

وبالمقارنة مع مجلس العموم واللوردات في المملكة المتحدة يمكن القول: "إنه في الأصل كان يتمتع مجلس اللوردات بنفس اختصاصات مجلس العموم، فكان من الضروري موافقة المجلسين لإصدار أي قانون، لكن في نهاية القرن الثامن عشر ذهب مجلس العموم أن مجلس اللوردات ليس من حقه تعديل مشروعات القوانين المتعلقة بالمسائل المالية"⁽³⁸⁾.

وفي ضوء ذلك، نرى أن مجلس العموم "أصدر تشريعات عدة أسهمت بدورها في الحد من نفوذ مجلس اللوردات إلى حد بعيد ومن أهمها القانون البرلماني الصادر عام 1911، وقد تضمن هذا القانون أمرين هاميين: الأول، حظر على مجلس اللوردات القيام بإجراء أي تعديلات فيما يُعرض عليه من مشروعات القوانين ذات الصفة المالية، وذلك مع تخويل رئيس مجلس العموم سلطة تحديد ما إذا كان قانون ما مالياً أم لا. الثاني، في حال الخلاف بين المجلسين حول التشريعات العادية، فإن الكلمة الأخيرة تكون لمجلس العموم بإقراره إياها بعد مرور عام - هذا وقد كانت المدة في ظل النص الأصلي الصادر عام 1911 عامين، إلا أنه مع تعديلها عام 1949 إلى عام واحد- من استخدام مجلس اللوردات لحق الاعتراض (الفيتو) عليها. حيث يدخل التشريع حيز التنفيذ فور إقراره بعد مضي هذه المدة من قبل مجلس العموم"⁽³⁹⁾.

و"يعتبر إصلاح مجلس اللوردات مستمراً في المناقشات البرلمانية عبر فترة ممتدة خلال القرن السابق تقريباً. وقد ركزت هذه المناقشات على تقييد سلطات المجلس، وربما إعادة النظر في تشكيله ليكون أكثر تمثيلية وتقليل نسبة مقاعد الوراثة وكذلك تقليل نفوذ المحافظين في مجلس اللوردات. وبالتالي فإن المقترحات المطروحة بشأن إصلاح مجلس اللوردات تستهدف أمرين؛ أولهما، تقليل صلاحيات المجلس، والثاني تغيير شكله. ومع ذلك، فإن أغلب المهتمين بالشؤون الدستورية يشعرون بالإحباط بسبب الصعوبات الكثيرة أمام تحقيق إصلاح راديكالي لمجلس اللوردات"⁽⁴⁰⁾.

ويرى إتجاه آخر، إن تاريخ التطور الديمقراطي في المملكة المتحدة بدأ يدفع باختصاصات هذا المجلس في التقلص، حتى أصبح اليوم لا يملك سوى اختصاصات بسيطة⁽⁴¹⁾.

وبقطع النظر عن الجدال الدائر حول تقليص اختصاصات المجالس المعينة، إلا أنه وفي سياق الفهم السياسي للصلاحيات التشريعية التي يتمتع بها كلا المجلسين في الدول محل المقارنة، فإن تحقق القيمة السياسية لهما كما ترى الدراسة يتطلب أن يكون الدور التشريعي - أوسع نطاقاً من مجرد الوقوف عند ما يملكه المجلس المعين من اختصاصات أو صلاحيات تشريعية - على النحو التالي: تشكيل وعاء التنقية والتنقيح للتشريعات التي ترده من المجلس المنتخب، وأن يمارس دور الحكماء في تحليل التشريعات والغوص في غاياتها وآثارها خصوصاً أن هذا النوع من المجالس يبتعد عن التأثير بالقواعد الانتخابية، وأن يساند المجلس المنتخب تشريعياً في العلاقة مع الحكومة، وأن يساهم بفحص وتدقيق التشريعات الواردة من الحكومة إلى المجلس المنتخب لضمان جودتها.

المطلب الثاني: الوظيفة المالية

تعد الوظيفة المالية للمجالس النيابية أقدم من وظيفتها التشريعية، وأهم الأعمال المالية التي تقوم بها السلطة التشريعية هي الموافقة على الموازنة العامة، بالإضافة إلى التشريعات ذات الصبغة المالية. و"لقد دأب البرلمان بثبات على استخدام الموازنة العامة كذراع للتأثير على تشكيل السياسات، ومن ثم رفع درجة التحكم الديمقراطي في القرارات السياسية"⁽⁴²⁾.

وتعرف الموازنة العامة بأنها: عبارة عن نظرة توقعية لنفقات الدولة وإيراداتها عن مدة مقبلة تخضع لإجازة من السلطة المختصة⁽⁴³⁾. حيث تقوم السلطة التنفيذية بإعداد مشروع الموازنة، ومن ثم تقوم بإرساله إلى السلطة التشريعية والتي تقوم بدراسته ومناقشته ومن ثم التصويت عليه وفقاً لإجراءات محددة نص عليه كل من الدستور الأردني والبحريني⁽⁴⁴⁾.

ومن الأمور المسلم بها أنه لا يجوز للحكومة أن تقوم بالإنفاق إلا بعد اعتماد الموازنة من قبل السلطة التشريعية، ولا تصدر الموازنة إلا إذا تم إقرارها من قبل المجلسين (النواب والأعيان) في الأردن (النواب والشورى) في البحرين. ومن خلال ذلك تقوم السلطة التشريعية في الدولتين بالرقابة على تنفيذ الموازنة من قبل الحكومة، وذلك بأن يكون لها الحق في طلب كافة البيانات والإيضاحات لدراساتها، فإذا تبين لها أن هناك مخالفات مالية رافقت تنفيذ الموازنة يكون لها الحق عندها في توجيه أسئلة واستجوابات إلى الوزراء المختصين بتنفيذ الموازنة، كما قد تؤدي إلى تحريك المسؤولية للوزير.

وتمارس السلطة التشريعية رقابتها على تنفيذ الموازنة العامة في الدولة، وذلك من خلال عرض الحساب الختامي عن السنة المالية المنتهية لمناقشته واعتماده ثم إصداره في شكل قانون أو في شكل قرار من رئيس الدولة. فالسلطة التشريعية لكونها تقوم باعتماد الموازنة، فمن المنطق أن تعرض عليها بعد تنفيذها؛ وذلك للتأكد من أن الحكومة قد قامت بتنفيذها على نحو اعتمادها لها⁽⁴⁵⁾. فإذا تبين للسلطة التشريعية أن الحكومة قد ارتكبت مخالفات مالية جسيمة في تنفيذ الموازنة يحق لها تحريك المسؤولية السياسية ضد الوزراء المخالفين، وذلك من خلال سحب الثقة من الوزير أو الحكومة بأكملها. وهذا ما جاء في المادة (113) من الدستور البحريني والذي يفقد له الدستور الأردني والتي تنص على أن "الحساب الختامي للشؤون المالية للدولة عن العام المنقضي يقدم أولاً إلى مجلس النواب خلال الأشهر الخمسة التالية لإنهاء السنة المالية. ويكون اعتماده بقرار يصدر عن كل من مجلس الشورى ومجلس النواب مشفوعاً بملاحظاتهما، وينشر في الجريدة الرسمية".

ونلاحظ هنا ومن خلال مناقشة الوظيفة المالية للسلطة التشريعية في كل من الأردن والبحرين أن دستور كل منهما قد ساوى بين المجلسين في هذه الوظيفة، ويقف المجلسان في الدولتين على قدم المساواة (مجلس الأعيان الأردني ومجلس الشورى) أمام مجلس النواب في كل منهما في مجال مناقشة مشروع الموازنة، ومن ثم إقرارها من قبلهما، وما يترتب على هذا الأمر - في حالة حصول مخالفات مالية من قبل الحكومة في أمر تنفيذ الموازنة - من تحريك المسؤولية السياسية لأي وزير يثبت ارتكابه مخالفات مالية في تنفيذ الموازنة.

ويعلق أحد الباحثين على اشتراك المجلسين في مناقشة الموازنة وإقرارها على قدم المساواة، بأن في هذا الأمر مخالفة لروح النص الدستوري؛ فمناقشة الموازنة تشبه إلى حد بعيد مناقشة بيان الحكومة، ولأعضاء مجلس النواب فقط الحق في سحب الثقة من الحكومة ولا يتمتع مجلس الأعيان بهذا الحق⁽⁴⁶⁾.

ويشكك بعض الباحثين في فاعلية الرقابة التشريعية⁽⁴⁷⁾؛ كون أعضاء هذه السلطة ليس لديهم الوقت الكافي والخبرة الفنية والمحاسبة الكافية لمناقشة الحساب الختامي الذي من الممكن أن يصل إلى آلاف الصفحات والأرقام، بالإضافة إلى الأعباء والمهام السياسية الخطيرة والملقاة على عاتق أعضاء السلطة التشريعية، مما يجعل هذه الرقابة غير كافية بمفردها على تتبع سير مراقبة حسن تنفيذ الموازنة العامة للدولة.

لهذا قامت العديد من الدول - ومن ضمنها الأردن والبحرين - بإنشاء جهات رقابية أخرى نص عليها الدستور لمساعدة السلطة التشريعية في هذا الأمر؛ حيث تم تشكيل ديوان المحاسبة بقانون بموجب نص المادة (119) من الدستور الأردني ليتولى مراقبة إيرادات الدولة ونفقاتها، وكذلك ديوان الرقابة المالية بموجب المادة (116) من الدستور البحريني.

وترتيباً على ما تقدم، يمكن القول إن ثمة بعداً سياسياً للوظيفة المالية للمجلس المُعين - إلى جانب المجلس المنتخب- ينبثق من مساواة الدستور في كلاً من الأردن والبحرين بين المجلس المُعين والمجلس المنتخب في المصادقة على قانون الموازنة العامة. ولما كانت الموازنة العامة هي في الحقيقة أبعد من مجرد الأرقام والاعتمادات المالية، لأنها تتضمن برامج عمل الحكومات وخططها، فإن ذلك يجعل من مناقشة المجلسين للموازنة العامة لا تقل أهمية عن مناقشة البيان الوزاري للحكومة، وهو ما يشير إلى أن رفض البرلمان لقانون الموازنة العامة هو إعلان غير مباشر عن حجب الثقة عن الحكومة، ومن هنا يكتسب الاختصاص المالي أهميته السياسية. وفي ضوء هذا الفهم السياسي لأهمية الوظيفة المالية التي تنبثق من أن الحكومات لا تملك حق تنفيذ برامجها وخططها دون موافقة البرلمان على قانون الموازنة العامة، فإن للوظيفة المالية بعداً سياسياً يمكن أن يُعزّز الوظيفة الرقابية للمجلس المُعيّن جنباً إلى جنب مع المجالس المنتخبة.

واتساقاً مع التحليل السياسي للوظيفة المالية يمكن القول أن المساواة بين المجلسين في موضوع الموازنة لا يتفق مع المبادئ الدستورية الحديثة؛ فمن ناحية يتحمل الأفراد نتائج الميزانيات التي تقترحها الحكومات، ومن ثم يجب أن يكون لممثلي الأمة المنتخبين الكلمة الأخيرة في أي موضوع يتعلق بالموافقة على الميزانية، ولهذا السبب نجد أن عرفاً دستورياً قد استقر في إنجلترا قبل التعديل الأخير على قانون البرلمان لسنة 1911، وبمقتضاه لا يجوز لمجلس اللوردات رفض ميزانية وافق عليها مجلس العموم⁽⁴⁸⁾.

لقد "كان مجلس اللوردات في أول أمره يتمتع بذات الاختصاصات التي يمارسها مجلس العموم وكان يشير بعض الفقهاء، أن مونتسكيو دعا إلى المساواة بين المجلسين في إنجلترا، وكانت حجته في ذلك أن يوفق بين المبادئ الأرستقراطية والمبادئ الديمقراطية، ويجنب النبلاء،

أو الشعب من أن يتعسف أيهما في استعمال سلطته ضد الآخر. ولكن هذه الاختصاصات تقلصت إلى حد كبير⁽⁴⁹⁾.

وهكذا يتضح لنا أن مجلس العموم هو مركز الثقل الحقيقي بالنسبة للعملية التشريعية، وفق الوضع القائم الآن بالنسبة للسلطة التشريعية في المملكة المتحدة، فهو صاحب الاختصاص وحده بالنسبة للقوانين المالية ومحور حياة الدولة الحديثة، وترجمان سياساتها العامة، وإن تكوين مجلس اللوردات هو السبب في تقليص سلطة المجلس المالية إلى أن أصبحت مجرد حق في الاعتراض لا يصمد أمام رغبة مجلس العموم⁽⁵⁰⁾.

المطلب الثالث: الوظيفة الرقابية (السياسية)

يعود الثقل الكبير للوظيفة الرقابية في نظر المجتمع وأعضاء البرلمان إلى عدد من الأمور التي أملتتها التطورات السياسية، أهمها: هيمنة الحكومات على صنع السياسات العامة، فهي مصدر معظم التشريعات، وهي التي تمتلك القدرة على التنفيذ، وهي المخولة بوضع اللوائح التنفيذية للقوانين، وتملك القدرات الفنية والإدارية وقواعد المعلومات اللازمة لصنع وتنفيذ السياسة، ورسم الأولويات. ومن ناحية ثانية فإن التوازنات السياسية والحزبية في البرلمان قد تحد من قدرته على توجيه الحياة السياسية، وصنع السياسات العامة، ومن ثم تصبح الوظيفة الرقابة أهم الوسائل المتبقية أمام المعارضة للتأثير في السلطة التنفيذية⁽⁵¹⁾.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن المجالس المُعيّنة لا تتمتع بدور رقابي إلا في أضيق الحدود بالمقارنة مع المجالس المنتخبة. وإن كنا نقر بأن المجالس المنتخبة - ومن المنظور الديمقراطي - لها الأولوية في ممارسة الدور الرقابي، إلا أننا - ومع تسليمنا بذلك - نرى من باب التعامل مع الحقيقة القائمة، وهي وجود بعض المجالس إلى اليوم تتشكل أوتوقراطياً (التعيين)، أن نبحت عن الجدوى السياسية لها على المستوى التشريعي والرقابي-السياسي، ويمكن أن نستكشف هذه الجدوى المبحوث عنها في إطار الموازنة بدقة بين تبرير وجود المجلس المُعيّن من ناحية - إن وجد - وعدم علو كعب هذا المجلس على إرادة مجلس النواب المنتخب ومساندته في العلاقة الرقابية مع الحكومة من ناحية أخرى؛ حيث إن ممارسة الدور الرقابي للمجالس المُعيّنة - مهما كان وزن هذا الدور - فلا بد أن يتحدد في إطار المساندة للمجلس المنتخب في العلاقة الكلية مع السلطة التنفيذية.

إن هذه الموازنة الدقيقة تفترض أن الدور الرقابي تنحصر حدوده ابتداءً بما رسمه الدستور واللائحة الداخلية لمجلس الأعيان، ومجلس الشورى من سلطات وصلاحيات ومقاربتها بالجانب العملي التطبيقي، والهدف هو أن يكون مجلس الأعيان في الأردن، أو مجلس الشورى في البحرين

عاملين لدعم وتطوير المجلس النيابي، وليساً من عوامل إضعافه أو إعاقته، وهذا هو الهدف النهائي من فحص دوره الرقابي السياسي تعزيزاً للديمقراطية.

إن المجلس المُعَيّن يمكنه من خلال مراجعته للتشريعات والمصادقة عليها ممارسة دور رقابي في تنقية التشريعات للصالح العام وليس لتمير ما تريده الحكومات وبالتالي كسر إرادة المجلس المنتخب. فمشروع القانون الذي يمر عبر مجلس الأعيان/الشورى يوفر فرصة سياسية لهذا المجلس من ممارسة رقابة ثنائية على مشروع القانون القادم إليه من مجلس النواب. وأيضاً فإن المشروع بصيغته الحكومية وتنقيحه وتعديله والموافقة على بنوده هو الدور الذي يساهم به مجلس الأعيان/الشورى في هذا الجانب، الذي من الممكن اعتباره رقابياً وفق هذا الفهم؛ لأنه يفحص المشروع في صيغته الأصلية وموقف مجلس النواب منه. ومن ثم فإن موقفه من المشروع - بقطع النظر عن مضمونه - هو إعمال لرقابته من خلال سلطته التشريعية. ويستوي في هذا الجانب مجلس النواب أيضاً الذي يمارس الرقابة الثنائية على ما يقوم به مجلس الأعيان، والحكومة بخصوص مشروع القانون محل المناقشة والدراسة.

ومن خلال ممارسة الأدوات الرقابية المتاحة - مهما بلغت أو آلت إليها نتيجة الممارسة - بهدف تحسين الأداء الرقابي - ليس فقط لمجلس الأعيان/الشورى بل أيضاً للصورة العامة للسلطة التشريعية - ومساندة المجلس المنتخب (النواب) في تحسين توازن القوة السياسية مع السلطة التنفيذية، فإن المجلس المعين يكون بمثابة عامل وآلية توازن بدلاً من آلية إضعاف داخلي، أو حتى إملاء إرادته عليه.

ويمكن في ضوء أهمية موضوع الموازنة العامة للدولة وقيمتها السياسية المتمثلة في أنها ليست مجرد أرقام وبنود، بل هي في الحقيقة السياسية تشمل تقريباً كل أعمال الحكومة على أساس أن السياسات والخطط معبر عنها رقمياً. ومن هنا يمكن لمجلس الأعيان/الشورى أن يراقب الحكومة ويتعامل مع الموازنة العامة - وإن كان من حيث الشكل يمر في القنوات التشريعية - إلا أن مشروع الموازنة العامة ليس الجانب القانوني منه إلا الشكل، والأهم هو القيمة السياسية التي تستتر خلف الأرقام والبنود بشكل يُعمّق من ممارسة الدور الرقابي على السلطة التنفيذية.

ومن الممكن أن نحافظ على الشكل الديموقراطي لدور مجلس الأعيان/الشورى في حال تمكن المجلس من الموازنة بدقة بين ممارسة الدور الرقابي المأمول والحد الذي لا يطغى به على الدور الرقابي للمجلس المنتخب (النواب)، ومن ثم يساهم في تعزيز الدور الرقابي للسلطة التشريعية في إطار العلاقة التوازنية السياسية مع الحكومة، أي القبول بدور محدود لمجلس الأعيان في الرقابة السياسية بما يساعد جناحي السلطة التشريعية على الحركة بشكل يضمن الحد الأدنى من التوازن في العلاقة المختلة مع الحكومة، ويتجنب مجلس الأعيان ممارسة أدوار قد

تطغى على مجلس النواب من ناحية وتعرقل أو تكبح إرادته من ناحية أخرى. وهنا يصبح المحدد أو المحذور الديموقراطي حاضراً دائماً في تحليل دور المجلس المُعين الرقابي.

إن الدور السياسي الرقابي الحقيقي المأمول للمجلس المُعين هو دور مساندة لرقابة المجلس المنتخب صاحب الحق الأصيل في هذه الرقابة، وليس دوراً شكلياً أو خاتماً مطاطياً للحكومة، أو معيقاً لإرادة المجلس المنتخب (النواب)، أو عنصر الإخلال في العلاقة التوازنية مع السلطة التنفيذية.

ومن ثم، تمتلك السلطة التشريعية العديد من الصلاحيات الرقابية تجاه السلطة التنفيذية بموجب النصوص الدستورية؛ كون هذه الوظيفة من مؤشرات الدولة القانونية، وخضوع الحاكم والمحكوم لسيادة القانون على حد سواء، إن يتم من خلالها مناقشة الحكومة في أعمالها لمنعها من الانحراف عن الأهداف العامة وحماية لحقوق الأفراد وحياتهم العامة.

ويملك كل من مجلس الأعيان الأردني ومجلس الشورى البحريني صلاحيات رقابية على السلطة التنفيذية نص عليها دستورا البلدين وأنظمتها الداخلية، وتتلخص هذه الصلاحيات فيما يأتي:

أولاً: السؤال

"يرتبط وجود الأسئلة البرلمانية مع حق الوزراء في حضور جلسات البرلمان، فكلما كان للوزير حق الحضور، كان بالإمكان توجيه الأسئلة إليه... ولقد تقرر رسمياً الاعتراف بحق السؤال لأعضاء البرلمان في بريطانيا عندما أعلن رئيس مجلس العموم بتاريخ 1783/5/21 بأنه (يمكن لأعضاء البرلمان الآن تقديم الأسئلة إلى أحد الوزراء، والذي يلتزم بالإجابة عليها، أو على الأقل يوضح الأسباب التي تمنعه من الإجابة)"⁽⁵²⁾.

ويقصد بهذا الحق أن لكل عضو من أعضاء البرلمان أن يوجه الأسئلة إلى الوزارة، أو أحد الوزراء في أي موضوع يدخل في اختصاصهم؛ لمعرفة بعض الأمور التي يود أن يتعرف عليها أو لغرض لفت نظر الحكومة إلى أي أمر من تلك الأمور⁽⁵³⁾. ولقد نص الدستور الأردني لعام 1952 في المادة (96) منه على حق أعضاء البرلمان في توجيه الأسئلة إلى أعضاء الحكومة، ومما جاء فيها: "لكل عضو من أعضاء مجلسي الأعيان والنواب أن يوجه إلى الوزراء أسئلة واستجابات حول أي أمر من الأمور العامة، وفقاً لما هو منصوص عليه في النظام الداخلي للمجلس الذي ينتمي إليه ذلك العضو.....".

وقد عرفت المادة (114) من النظام الداخلي لمجلس النواب لعام 1996 السؤال بأنه: استفهام العضو في البرلمان من رئيس الوزراء، أو الوزراء عن أمر يجله في شأن من الشؤون

التي تدخل في اختصاصاتهم، أو رغبته في التحقق من حصول واقعة وصل علمها إليه أو استعلامه عن نية الحكومة في أمر من الأمور. ويلاحظ هنا أن النظام الداخلي لمجلس النواب قد أجاز توجيه الأسئلة إلى رئيس الوزراء، في حين أن النص الدستوري قد ذكر الوزراء فقط. ويرى الدكتور أمين العضيلة - بحق - أن هذا التوسع مقبول لأن رئيس الوزراء هو الوزير الأول ولا يجوز استثناءه من توجيه الأسئلة من قبل أعضاء مجلس الأمة⁽⁵⁴⁾.

وفي مملكة البحرين نص الدستور البحريني المعدل لعام 2002 في المادة (91) منه على ما يلي: "لكل عضو من أعضاء مجلس الشورى أو مجلس النواب أن يوجه إلى الوزراء أسئلة مكتوبة لاستيضاح الأمور الداخلة في اختصاصهم، وللوسائل وحده حق التعقيب مرة واحدة على الإجابة، فإن أضاف الوزير جديداً تجدد حق العضو في التعقيب، ولا يجوز أن يكون السؤال متعلقاً بمصلحة خاصة بالوسائل أو بأقاربه حتى الدرجة الرابعة أو بأحد موكله".

وبناءً على النصوص الدستورية السابقة والأنظمة الداخلية لكل من مجلس النواب ومجلس الأعيان والشورى في كل من البلدين⁽⁵⁵⁾، نرى أن هناك شروطاً شكلية وموضوعية يجب مراعاتها عند توجيه عضو البرلمان للسؤال؛ بحيث يتعين أن يقدم إلى الوزير مكتوباً، وأن يكون موجزاً ومنصباً على الوقائع المطلوب استيضاحها، وخالياً من التعليق والجدل والآراء الخاصة، وألا يكون ضاراً بالمصلحة العامة أو مخالفاً لأحكام الدستور، كما لا يجوز أن يتضمن عبارات نابية وغير لائقة، وأن يخلو من أسماء الأشخاص، أو المس بشؤونهم الخاصة، وألا يكون به مساس بأمر تنظره المحاكم، أو يشير إلى ما نشر في الصحف، ولا يجوز أن يتعلق بشخص عضو البرلمان، أو بمصلحة خاصة، كما لا يجوز أن يوجه السؤال إلى أكثر من وزير. وحق السؤال شخصي، فللعضو الحق في سحب السؤال في أي وقت قبل الإجابة عليه من الوزير المعني، ولا يجوز تحويله إلى استجواب في نفس الجلسة، فإذا لم يقتنع العضو في الإجابة فله الحق بتحويل السؤال إلى استجواب بعد مضي شهر من ورود السؤال إلى الحكومة دون الرد عليه.

وبناءً على النصوص الدستورية السابقة واللوائح الداخلية لكل من المجلس الوطني البحريني، ومجلس الأمة الأردني، نرى أن مجلس الشورى البحريني، ومجلس الأعيان الأردني يمكن لهما أن يلعبا دوراً رقابياً من خلال ممارسة حق السؤال - من المنظور الدستوري على الأقل- في العلاقة التوازنية مع السلطة التنفيذية. ويمكننا هنا أن نبدي الملاحظة التالية فيما يتعلق بحق أعضاء المجلس الأعلى في كل من الأردن والبحرين بتوجيه الأسئلة إلى أعضاء السلطة التنفيذية، وهي أن الدستور في كل من البلدين لم يبين مصير السؤال إذا ما كانت إجابة الوزير غير مقنعة للعضو السائل، أي ما هو مصير السؤال؟. وهل يترتب على ذلك أي إجراء آخر من قبل أعضاء مجلس الأعيان، ومجلس الشورى؟. وذلك على العكس من قدرة عضو مجلس النواب في كلا البلدين الذي يمتلك القدرة على تحويل السؤال إلى استجواب.

ثانياً: الاستجواب

يرى البعض أن بريطانيا مهد النظام البرلماني لا تعرف نظام الاستجواب كوسيلة رقابية على الوزارة، ولكن في الوقت نفسه أقرّ النظام البريطاني الوسائل الرقابية التالية: الأسئلة، لجان التحقيق البرلمانية، لجان المحاسبة العامة، تحريك المسؤولية الوزارية⁽⁵⁶⁾.

ولتعميق فهم نشأة الاستجواب كأداة رقابية يمكن القول أن أصل نشأة السؤال انجليزي، غير أن الاستجواب أصله فرنسي، لكن ثمة جانباً من الفقه يرى أن هناك إجراء شبيه بالاستجواب في الفقه الانجليزي. هذا الإجراء ما يُعرف باسم "الاقتراح بالتأجيل" ومضمونه هو السؤال مع المناقشة. ويوافق الفقهاء على اعتبار أن الاقتراح بالتأجيل هو أسلوب متطور عن نظام الأسئلة، ولو أنه منفصل عنه، ويُقارن بالإجراء الذي يقابله في فرنسا وهو تحويل السؤال إلى استجواب، وهو إذن امتياز يقدم للأعضاء غير الراضين عن إجابة الوزير. ومن ثم، فإن الاستجواب - في حد ذاته - هو إجراء من إجراءات الرقابة البرلمانية على أعمال السلطة التنفيذية. وبناء عليه فالاستجواب هو إجراء من إجراءات تقصي حقائق أوضاع معينة في أحد الأجهزة التنفيذية، يجري على أساس تبادل الأسئلة من مقدم الاستجواب أو بعض الأعضاء يقابله إجابة الوزير أو رئيس الحكومة على الأسئلة؛ فالمناقشة هي التي تؤدي إلى هذه الحقيقة⁽⁵⁷⁾.

ويقصد بالاستجواب محاسبة السلطة التنفيذية أو أحد أعضائها في أي أمر من الأمور العامة التي تدخل في اختصاصهم⁽⁵⁸⁾. وعبارة عن نوع من الإنذار الموجه من أحد أعضاء البرلمان لوزير من الوزراء بقصد تقديم إيضاحات وشروح في أحد الأمور المتعلقة بوزارته أو فيما يتعلق بأمر السياسة العامة للحكومة، وقد ينتهي بإثارة مسألة طرح الثقة بالحكومة⁽⁵⁹⁾. وهو أخطر من السؤال؛ حيث يتضمن مناقشة سياسة الوزارة في أمر من الأمور وانتقادها بحيث لا يقتصر على المستجوب فقط، بل يحق لكل من الأعضاء والوزراء الاشتراك في المناقشة حتى لو عدل صاحب الاستجواب عن استجوابه⁽⁶⁰⁾. ويقوم جوهر الاستجواب على أساس اتهام الوزارة - أو أحد أفرادها - والرغبة في محاسبتها تمهيداً لسحب الثقة عنها وعزلها⁽⁶¹⁾.

ونظراً "لخطورة الاستجواب على هذا النحو، تحيطه الدساتير أو الأنظمة الداخلية للبرلمانات بضمانات لحماية الحكومة من التعسف أو عدم التروي في مناقشة الاستجواب، ومنها منح الوزارة، أو رئيسها، أو الوزير المختص مهلة كافية من أجل تحضير ردود الحكومة ودفاعها المعزّز بالمستندات"⁽⁶²⁾. وعليه فإن المشرع الدستوري في كل من الأردن والبحرين أحاطه ببعض الضمانات التي تكفل سلامة استخدامه؛ حيث ورد النص عليه في المادة (96) من الدستور الأردني لعام 1952 بقولها: "لكل عضو من أعضاء مجلسي الأعيان والنواب أن يوجه إلى الوزراء أسئلة واستجابات حول أي أمر من الأمور العامة وفقاً لما هو منصوص عليه في النظام الداخلي

للمجلس الذي ينتمي إليه ذلك العضو، ولا يناقش استجواب ما قبل مضي ثمانية أيام على وصوله إلى الوزير إلا إذا كانت الحالة مستعجلة ووافق الوزير على تقصير المدة المذكورة".

كذلك نصت المادة (65) من الدستور البحريني المعدل لعام 2002 على أنه "يجوز بناءً على طلب موقع من خمسة أعضاء من مجلس النواب على الأقل أن يوجه إلى أي من الوزراء استجابات عن الأمور الداخلة في اختصاصاتهم، ولا يجوز أن يكون الاستجواب متعلقاً بمصلحة خاصة بالمستجوب أو أقاربه حتى الدرجة الرابعة أو بأحد موكله، ولا تجري المناقشة في الاستجواب إلا بعد ثمانية أيام على الأقل من يوم تقديمه، ما لم يوافق الوزير على تعجيل هذه المناقشة. ويجوز أن يؤدي الاستجواب إلى طرح موضوع الثقة بالوزير وفقاً لأحكام المادة (66) من هذا الدستور".

يتبين لنا من النصوص السابقة أن السؤال والاستجواب كليهما وسيلة رقابية لأعضاء البرلمان على السلطة التنفيذية، ضمن شروط شكلية وموضوعية مقررة للاستجواب هي نفسها التي ذكرناها في معرض حديثنا عن السؤال. ولكنهما يختلفان من حيث غرض كل منهما، فالغرض من السؤال كما ذكرنا هو مجرد استفهام عن أمر مجهول لدى عضو البرلمان قامت به الحكومة فإذا وصل مقدم السؤال إلى ما يريد من السؤال أو وافق الوزير الموجه إليه السؤال على اتخاذ الإجراءات، أو الامتناع عن اتخاذ إجراءات يطلبها السائل ينتهي السؤال، وإلا قام بتحويل السؤال إلى استجواب في الجلسات اللاحقة. في حين أن الغرض من الاستجواب هو أشد من ذلك ويتمثل في محاسبة الوزير أو الوزارة عن تصرف يتعلق في شأن من الشؤون العامة، وقد يؤدي في النهاية إلى طرح الثقة بالوزير أو بالحكومة على مجلس النواب؛ مما يؤدي إلى استقالة الوزير في حالة فقدانه ثقة المجلس واستقالة الحكومة عند حجب الثقة عنها.

وكذلك نلاحظ من خلال النصوص الدستورية المتعلقة بالاستجواب في الدستور الأردني، أن الاستجواب حق لكل عضو من أعضاء مجلسي الأعيان والنواب، مع التوضيح بأن أعضاء مجلس النواب يمكن لهم حق تحويل الاستجواب إلى تحريك المسؤولية الوزارية، بينما لا نرى هذا الحق لأعضاء مجلس الأعيان، الأمر الذي يدفع البعض إلى التساؤل حول القيمة السياسية للاستجواب الذي لا يمكن أن يؤدي إلى طرح الثقة. وفي هذا الإطار يرى البعض أن الدستور البحريني أكثر دقة وواقعية من الدستور الأردني عندما اقتصر الاستجواب على مجلس النواب فقط.

ويرى إتجاه آخر أن قيمة الاستجواب لا تقف عند حدود تحويل الاستجواب إلى طرح ثقة حتى تكتسب هذه الوسيلة قيمتها، بل تكتسب هذه الوسيلة الرقابية قيمتها السياسية بمجرد استخدامها من المجالس المعنية وذلك في إطار الجهد الرقابي للبرلمان ككل؛ حيث أن قيام المجالس المعنية باستخدام وسيلة الاستجواب في العلاقة مع الحكومة هو بحد ذاته مؤشر سياسي

يقوي من المركز السياسي للمؤسسة التشريعية بغرفتيها المنتخبة والمعيّنة في مواجهة الحكومة؛ خصوصاً إذا ما علمنا أن الاستجواب يحمل في طياته اتهام للحكومة أو أحد أعضائها.

كما تبين لنا كذلك أن النظام الداخلي لمجلس النواب الأردني قد أجاز توجيه الأسئلة إلى رئيس الوزراء، في حين لم نجد ذلك في التشريع البحريني. ولكن المادة (67) فقرة (ل) من الدستور البحريني قررت لأعضاء المجلس الوطني الحق في إصدار قرار بعدم التعاون مع رئيس مجلس الوزراء ضمن شروط محددة، وإحالة الأمر في النهاية إلى الملك للبت فيه إما بإعفاء رئيس مجلس الوزراء من منصبه وتشكيل وزارة جديدة، أو بحل مجلس النواب. وفي ذلك نصت على ما يلي: "إذا رأى ثلثا أعضاء مجلس النواب عدم إمكان التعاون مع رئيس مجلس الوزراء أحيل الأمر إلى المجلس الوطني للنظر فيه. لا يجوز للمجلس الوطني أن يصدر قراره في عدم إمكان التعاون مع رئيس مجلس الوزراء قبل سبعة أيام من تاريخ إحالته إليه. إذا أقر المجلس الوطني بأغلبية ثلثي أعضائه عدم إمكان التعاون مع رئيس مجلس الوزراء رفع الأمر إلى الملك للبت فيه، بإعفاء رئيس مجلس الوزراء وتعيين وزارة جديدة، أو بحل المجلس".

ثالثاً: التحقيق البرلماني

قد تكون الرقابة البرلمانية على أعمال السلطة التنفيذية - بالإضافة إلى السؤال والاستجواب - من خلال تشكيل لجان برلمانية تقوم بالتفتيش داخل أجهزة السلطة الإدارية، أو قيامها بالتحقيق في مسألة معينة من المسائل المعروضة على المجلس. وهذه الوسيلة تختلف عن السؤال والاستجواب؛ إذ قد يقوم بها كافة أعضاء المجلس أو من خلال لجنة برلمانية خاصة تشكل لهذا الغرض⁽⁶³⁾. وهذا النوع من أنواع الرقابة مقتصر على أعضاء مجلس النواب في مملكة البحرين فقط دون أعضاء مجلس الشورى. وهذا ما جاء في المادة (69) من الدستور البحريني، حيث نصت على أنه: "يحق لمجلس النواب في كل وقت أن يؤلف لجان تحقيق أو ينيب عضواً أو أكثر من أعضائه للتحقيق في أمر من الأمور الداخلة في اختصاصات المجلس المبينة في الدستور، على أن تقدم اللجنة أو العضو نتيجة التحقيق خلال مدة لا تتجاوز أربعة أشهر من تاريخ بدء التحقيق، ويجب على الوزراء وجميع موظفي الدولة تقديم الشهادات، والوثائق، والبيانات التي تطلب منهم".

أما عن هذا النوع من الرقابة في الأردن فلم نجد في التشريع الأردني نصاً مباشراً يخول مجلس الأمة هذا الحق. وعلى الرغم من خلو النظام الداخلي من الإشارة مباشرة إلى لجنة التحقيق، إلا أنه يمكن اشتقاق إمكانية مجلس الأعيان (وكذلك مجلس النواب) تشكيل هذا النوع من اللجان في ضوء أمرين:

- الأول: المادة (17) من النظام الداخلي لمجلس الأعيان لسنة 1998 وتعديلاته، التي تنص على أن "للمجلس أن يعين لجاناً مؤقتة يحدد عدد أعضائها ومهامها ومدة عملها"، وذلك من أجل الاطلاع والتحقق من قضايا محددة عن طريق البحث والاتصال مع المؤسسات الحكومية، والاطلاع على ملفات خاصة بالقضية المراد البحث فيها. وأيضاً نجد خلو النص المباشر من تشكيل هذا النوع من اللجان حتى في مجلس النواب الأردني، ولكن منحت المادة (51) من النظام الداخلي صلاحية للمجلس بتشكيل لجان مؤقتة، ويمكن في ظل هذا النص أن يشكل المجلس لجان تحقيق.
- الثاني: على الرغم -أيضاً- من عدم النص على وجود لجنة التحقيق النيابية، إلا أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال، حرمان البرلمان من واحدة من أهم الوسائل اللازمة لممارسة دوره الرقابي على السلطة التنفيذية، وهو أيضاً ما يؤكد عليه فقه القانون الدستوري في تقريره لحق البرلمان بإجراء ما يراه ضرورياً ومناسباً للتحقيق، حتى وإن لم يرد النص على ذلك في الدستور⁽⁶⁴⁾. وترتيباً على ذلك تسمح الدساتير عادةً أن يشكل المجلس النيابي لجنة من أعضائه، تتولى مهمة التحقيق"⁽⁶⁵⁾.

رابعاً: المناقشة العامة

تعدّ هذه الوسيلة في الفقه الدستوري من الوسائل الرقابية الهادئة التي تهدف إلى إجراء حوار بين البرلمان والحكومة حول موضوع من الموضوعات الهامة؛ من أجل الوصول إلى حل حوله يتفق عليه الطرفان. لهذا عدّه البعض من قبيل التعاون بين الطرفين في سبيل تحقيق المصلحة العامة⁽⁶⁶⁾.

"ومن خلال طلبات المناقشة أيضاً يمكن الوقوف على الحقيقة، وتبادل الرأي حول موضوع معين مع الحكومة لكشف الحقيقة أو للإطلاع على سياستها تجاه ذلك، وللحكومة أيضاً حق طلب المناقشة مع البرلمان بقصد إطلاع المجلس على برامجها وسياساتها في موضوع معين"⁽⁶⁷⁾.

وفي ذلك نصت المادة (128) من النظام الداخلي لمجلس النواب الأردني لعام 1996 على أنه: "يجوز لعشرة أعضاء أو أكثر أن يتقدموا إلى المجلس لطلب مناقشة أي أمر من الأمور والقضايا العامة، وكذلك للحكومة الحق في أن تطلب من المجلس طرح موضوع هام وعام للمناقشة ليتناول فيه الرأي مع المجلس". أما النظام الداخلي لمجلس الأعيان الأردني فقد حدد الأعضاء الذين يحق لهم طلب المناقشة العامة بخمسة أعضاء أو أكثر؛ كون عدد أعضاء مجلس الأعيان لا يزيد على نصف أعضاء مجلس النواب⁽⁶⁸⁾.

ويقدم طلب المناقشة العامة خطياً إلى رئيس المجلس الذي يقوم بدوره في إدراجه ضمن قائمة أعمال المجلس في أول جلسة تالية، حيث ينظر المجلس في طلب المناقشة العامة. وبعد

انتهاء المناقشة العامة يحق لطالبي المناقشة وغيرهم من أعضاء المجلس طلب طرح الثقة بالحكومة أو بالوزارة، وذلك طبقاً لأحكام المادة (54) من الدستور. وهذا الحق هو حكر لمجلس النواب الأردني دون مجلس الأعيان الذي لا يمتلك بالضرورة طلب طرح الثقة بعد جلسة المناقشة العامة، وهو أمر يتسق مع المبادئ الديمقراطية.

واستناداً لما سبق يتضح لنا أن هذه الوسيلة الرقابية هي من حق المجلسين اللذين يتكون منهما مجلس الأمة الأردني على حد سواء، وبالمقارنة مع البحرين نجد أن هذه الوسيلة غير مقررّة للمجلس الوطني البحريني.

خامساً: الاقتراحات برغبة

عرفت المادة (131) من النظام الداخلي لمجلس النواب الأردني الاقتراح برغبة بأنه "عبارة عن دعوة الحكومة للقيام بأي عمل ذي أهمية يدخل في اختصاصها". كما نص الدستور البحريني على هذا الحق لأعضاء مجلس النواب في المادة (68) والتي نصت على ما يلي: "لمجلس النواب إبداء رغبات مكتوبة للحكومة في المسائل العامة، وإن تعذر على الحكومة الأخذ بهذه الرغبات وجب أن تبين للمجلس كتابة أسباب ذلك". كما نصت على هذا الحق المقرر لأعضاء مجلس النواب البحريني المواد (127-132) من المرسوم بقانون رقم (54) لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس النواب البحريني. وبناءً على ما سبق تبين لنا أن هذا الحق مقرر لأعضاء مجلس النواب في كل من الأردن والبحرين دون المجلس الآخر.

وفي إطار الصلاحيات المشار إليها آنفاً، ولإظهار الصلاحيات التي يتفوق فيها مجلس النواب على مجلس الأعيان، فقد خصّ الدستور الأردني المجلس المنتخب عن المجلس المعين بالعديد من الوسائل الرقابية وهي:

1- المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب، إذ أن رئيس الوزراء والوزراء مسؤولون مسؤولية تضامنية، ومسؤولية فردية أمام مجلس النواب، الذي له منفرداً سلطة منح الثقة للحكومة عند تأليفها، أو طرح الثقة بها أو بأحد وزرائها، وهذا ما يسمى تحريك المسؤولية السياسية تجاه الوزارة أو أحد الوزراء فيها، وفقاً للمادتين 53 و54 من الدستور لسنة 1952 وتعديلاته.

2- إحالة الوزراء إلى النيابة العامة بأغلبية الأعضاء الذين يتألف منهم مجلس النواب وفقاً للمادة 56 من الدستور المعدل لسنة 2011، علماً أن نص المادة 56 وقبل التعديل الذي طرأ عليها منحت مجلس النواب حق الاتهام الجنائي؛ حيث كانت تنص على أن "لمجلس النواب حق إتهام الوزراء..... ولا يصدر قرار الاتهام إلا بأكثرية ثلثي أصوات الأعضاء الذين يتألف منهم مجلس النواب....".

3- طلب دعوة مجلس الأمة إلى الاجتماع في دورة استثنائية وفقاً للفقرة الثانية من المادة 82 من الدستور؛ حيث يمكن لمجلس النواب تحديد الأمور التي يُراد البحث فيها، والتي من الممكن أن تتضمن مسائل رقابية.

وعلى الجانب الآخر أيضاً، فقد وجد الباحثان وبالمقارنة بين النصوص الدستورية من ناحية، والتعديلات التي طرأت عليها من ناحية أخرى، أن ثمة صلاحية لمجلس الشورى البحريني لم تتوفر لمجلس الأعيان الأردني، وهي التي وردت بالمادة 67 من الدستور البحريني لسنة 2002 وحتى بداية العام 2012 والتي ساوت بين مجلس النواب ومجلس الشورى في تقرير التعاون مع رئيس الوزراء من عدمه وهو يرقى إلى مستوى مشاركة المجلس المعين مع المجلس المنتخب في هذا الخصوص؛ حيث نصت المادة على أن "لا يُطرح في مجلس النواب موضوع الثقة برئيس مجلس الوزراء، وإذا رأى ثلثا أعضاء مجلس النواب عدم إمكان التعاون مع رئيس مجلس الوزراء، أحيل الأمر إلى المجلس الوطني للنظر في ذلك".

إن التدقيق في هذه المادة الدستورية يكشف في المقام الأول عن العجز السياسي للمجلس المنتخب في طرح الثقة بالوزارة وتغييرها، لأنه ليس الوحيد الذي يحتكر ذلك، والأمر الثاني يُظهر حالة "المساواة الشاذة" بين مجلس النواب، والشورى في مسألة التقرير حيال التعاون مع رئيس الوزراء من عدمه؛ التي تعادل وترقى إلى مصاف تحريك المسؤولية الوزارية في الفقه البرلماني مع اختلاف عدم قدرة المجلس المنتخب في الحالة البحرينية في أن يكون المرجع الوحيد ديمقراطياً والحاسم في طرح الثقة بالوزارة. إذ أن إضافة عبارة "المجلس الوطني" يعني مجلسي الشورى والنواب معاً. وهو الأمر الذي يؤدي إلى إرتطام إرادة المجلس المنتخب على صخرة مجلس الشورى المعين في أهم الوسائل الرقابية المقررة للمجالس المنتخبة.

وبالمقارنة مع مجلس الأعيان، نجد أن ذات الحالة كانت موجودة بطريقة أخرى؛ فمنذ تأسيس مجلس الأعيان عام 1947 وحتى 1974 لم يكن هناك نص دستوري على حل مجلس الأعيان، في الوقت الذي ساوى فيه الدستور بين مجلس النواب والأعيان في الصلاحيات التشريعية والمالية. وأن رفض الموازنة من مجلس الأعيان مثلاً لا يقل أهمية عن طرح الثقة بالحكومة، وهذه الحالة غير الصحية برلمانياً تم تجاوزها عند تعديل الدستور الأردني لسنة 1952 وتعديلاته، بإضافة حق الملك في حل مجلس الأعيان أو إعفاء أي عضو من منصبه.

وللخروج من حالة العوار هذه في الحالة البحرينية التي تتنافى مع المبادئ الديمقراطية السليمة، وبمتابعة الباحثين للإصلاحات الدستورية، فقد جرى تلافياً وفاقاً للتعديل الدستوري الذي جرى لسنة 2012 والمذكرة التفسيرية لتعديلات دستور مملكة البحرين الصادرة سنة 2012 في الجريدة الرسمية/ ملحق العدد 3050/ بتاريخ 3 مايو، وذلك بحصر مسألة تحريك

عدم امكانية التعاون مع رئيس الوزراء بمجلس النواب فقط، وإلغاء صلاحية مجلس الشورى في هذا الخصوص؛ حيث نصت المادة 67 المعدلة فقرة د على أنه " اذا أقر مجلس النواب بأغلبية ثلثي أعضائه عدم إمكان التعاون مع رئيس مجلس الوزراء رفع الأمر إلى الملك للبت فيه، بإعفاء رئيس مجلس الوزراء وتعيين وزارة جديدة، أو بحل مجلس النواب. "

وبهذا التعليق يمكن القول ومن خلال استعراض الوسائل الرقابية المختلفة أن هناك من الوسائل ما هي مشتركة على حد سواء بين المجلسين في البلدين، ومنها ما هو مقتصر على المجلس الأدنى؛ وبذلك نستطيع أن نقرر أن للمجلس الأعلى - مجلس الأعيان الأردني ومجلس الشورى البحريني - دوراً رقابياً لا يُستهان به على أعضاء الحكومة بموجب النصوص الدستورية والأنظمة الداخلية للمجلسين.

ويتوازي مع كل ما ذكر الإيمان بأن الرقابة السياسية الحقيقية هي للمجلس المنتخب والتي تنتهي إلى طرح الثقة في الحكومة، إلا أننا نرى أنه - وحرصاً على تقوية الدور السياسي للبرلمان في الإطار التوازني مع الحكومة - يمكن التعويل سياسياً على الدور الرقابي لمجلس الأعيان/ الشورى والاعتراف له بدور رقابي إلى الحد الذي لا يتجاوز معه بسط المجالس المنتخبة رقابتها السياسية على الحكومة. ولكن التقليل من الدور الرقابي لمجلس الأعيان/ الشورى قد يقود بالمحصلة إلى عملية إضعاف سياسي للبرلمان ككل، الأمر الذي يدفع سياسياً إلى تحديد دقيق للدور الرقابي لمجلس الأعيان/ الشورى من منظور فهمنا الديمقراطية لدور المجالس المعنية بالمقاربة مع المجالس المنتخبة.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى ثلة من النتائج أهمها ما يلي:

أولاً / إن طريقة تشكيل مجلسي الأعيان والشورى في ضوء الشروط، والضوابط الدستورية الحاكمة لإختيار الأعضاء، تجعل من المجلس المعين مجلساً للخبرة والحكمة - في حال الإلتزام الدستوري بهذه الشروط والضوابط-، بالإضافة إلى أن مبدأ التعيين قد يتلافى التقلبات الانتخابية، ويرفد البرلمان بنقص الكفايات التي أحدثها مبدأ الانتخاب، ويؤثر ذلك إيجاباً على طريقة تناول التشريعات، ومستوى ممارسة الصلاحيات والسلطات، ويساند بالتالي في وزن القيمة السياسية لهذا النوع من المجالس التي تتعزز أيضاً لتوافر الحصانة النيابية الإجرائية، والموضوعية لأعضاء كلا المجلسين في حدود أداء عملهم داخل البرلمان.

أما مسألة ضمانات حق حل المجلس، فقد وجدت الدراسة أن المشرع الدستوري في الأردن أحاط حق حل مجلس الأعيان بضمانة مبدأ التوقيع المجاور، في حين أن المشرع الدستوري في

البحرين أباح للملك ممارسة السلطة مباشرة ويمكنه ان يمارسها إلى جانب الوزارة وهو ما من شأنه أن يجعل حق الحل مطلقاً دون قيود.

ثانياً/ أظهرت الدراسة أن مجلس الشورى ومجلس الأعيان، يمتلكان صلاحيات من خلال الوظيفة الرقابية والتشريعية والمالية نظرياً على الأقل، وهي بالضرورة أقل من تلك المناطة بالمجالس المنتخبة، التي من المحتمل أن تشير إلى حد ما عن وجود جدوى سياسية لها. ووجدت الدراسة أن مختبر الجدوى السياسية للمجالس المُعَيَّنة يُقاس في إطار المقاربة بين مدى توفر السلطات والصلاحيات دستورياً ودرجة إعمالها تطبيقياً.

ثالثاً/ ساوى كل من الدستور الأردني والبحريني بين المجلسين فيما يتعلق بالوظيفة التشريعية والمالية، حيث لا يمكن إصدار أي قانون، إلا إذا اقره المجلسان. ولا يجوز للحكومة أن تقوم بالإنفاق إلا إذا تم اعتماد الموازنة وإقرارها من قبل المجلسين. وهذه المساواة بين المجلس المُعَيَّن والمجلس المنتخب علامة غير ديمقراطية لاحتمالية قيام المجلس المُعَيَّن بعرقلة إرادة المجلس المنتخب.

رابعاً/ تستخدم السلطة التشريعية في الأردن، والبحرين، العديد من الوسائل الرقابية بموجب النصوص الدستورية اتجاه أعضاء السلطة التنفيذية، منها ما هو حق للمجلسين كالسؤال، ومنها ما هو حق لمجلس النواب دون مجلس الشورى في البحرين كالاستجواب. في حين وجدت الدراسة أن الدستور الأردني قد ساوى بين المجلسين في استخدام هذه الوسيلة.

خامساً/ أما فيما يتعلق بالوسائل الرقابية الأخرى والمتمثلة في التحقيق البرلماني، فهو حق لمجلس النواب البحريني دون مجلس الشورى. أما في الحالة الأردنية فهو من حق كلا المجلسين الأعيان، والنواب. أما المناقشة العامة فهي من حق المجلسين في الدستور الأردني. كما أن الاقتراحات برغبة من حق مجلس الأعيان، ومجلس الشورى، بالإضافة إلى مجلسي النواب في الدولتين. أما بالنسبة لمسألة حجب الثقة عن الحكومة فهي حكر على المجالس المنتخبة فقط في المجلسين.

سادساً/ هناك دور رقابي فعّال يمارسه كل من المجلسين في الأردن، والبحرين، وذلك من خلال اشتراكهما في مناقشة مشروع الموازنة العامة واعتمادها له كي تتمكن الحكومة من الإنفاق، ومراقبة هذا الإنفاق عند عرض الحساب الختامي للموازنة على المجلسين معاً. وما يزيد من أهمية هذا الدور هو الأهمية السياسية لقانون الموازنة العامة الذي هو برنامج عمل الحكومة وسياساتها.

ولأهمية الدور الرقابي وجدنا أن حدود هذا الدور لا يقتصر أو يقف عند حد الأدوات الرقابية المعروفة كالسؤال أو الاستجواب أو لجان التحقيق في العلاقة مع الحكومة، بل أيضاً ثمة وسيلتان يمكن اعتبارهما رقابيتان - بشرط عدم عرقلة إرادة المجلس المنتخب- وباتجاهين على مستوى الحكومة وعلى مستوى البرلمان ذاته من الداخل؛ أي رقابة أفقية وتبادلية مع مجلس النواب، وأخرى عمودية على مستوى الحكومة، وعلى النحو الآتي بيانه:

1. تلك التي تنبثق من الوظيفة التشريعية؛ بحيث يقوم كلٌّ من مجلسي الأعيان/الشورى بدور الترشيح السياسي لمشروعات القوانين الواردة إليه من مجلس النواب، ومن الممكن أن يمارس دوراً رقابياً على البنود القانونية الواردة في المشروع؛ فهو من جهة يراقب ما قام به مجلس النواب، وذلك بما يمتلكه من خبرات وبُنى تقنية ناشئة من مواصفات الأشخاص الذين يكونون أعضاء في هذا النوع من المجالس. والرقابة هنا بمفهوم فحص الأعمال، وله الحق في الموافقة، أو التعديل، أو الرفض، وهنا تكمن أهمية المجلس المُعين الرقابي بشرط ألا تقوم هذه المجالس بأي دور لإعاقة إرادة المجالس المنتخب. وعلى مستوى الحكومة يكون المجلس المُعين قد بسط رقابته أيضاً على المشروع في النقاط التي لم يتناولها المجلس المنتخب في دراسة المشروع، ومن هنا تكون الرقابة الثنائية الأفقية والعمودية للمشروع، والدور الرقابي في هذا الجانب.

2. الوظيفة المالية: لا يخفى على أحد أهمية الموازنة العامة من المنظور السياسي وأنها في المحصلة ليست مجرد أرقام وجداول وبيانات؛ بل هي أيضاً سياسات الحكومة وبرامجها. ويأتي هنا دور مجلس الأعيان/الشورى عند ممارسة حقه الدستوري والتشريعي ببسط رقابته في الواقع على سياسات الحكومة. وهنا ينبثق في ضوء الصلاحيات التشريعية رقابة سياسية لمجلس الأعيان/الشورى على أعمال الحكومة. وهنا تكمن أهمية الوظيفة المالية وصلاحيات مجلس الأعيان/الشورى في هذا الجانب⁽⁶⁹⁾.

وفي ضوء النتائج السابقة، توصي الدراسة بما يلي:

أولاً/ إعادة الهندسة السياسية للمجالس المعينة من حيث التشكيل والصلاحيات لتكون أكثر جدوى على المستوى السياسي من خلال:

أ- تكوين المجلس الأعلى من خلال الانتخاب والتعيين (مختلط) مثلاً، وأن يكون الأعضاء المنتخبون أكثر من الأعضاء المُعينين؛ وذلك انسجاماً مع المبادئ الديمقراطية بالإضافة إلى أن يكون انتخابهم من قطاعات وفئات معينة في المجتمع، وعلى غرار مجالس المستشارين في المغرب العربي. وذلك للتخفيف من حدة البعد الأوتوقراطي (التعيين) وتطعيم هذه المجالس بمبدأ الانتخاب.

ب- ضرورة ممارسة مجلس الأعيان الأردني، ومجلس الشورى البحريني للوسائل السياسية المتاحة دستورياً مهما كان حدودها ووزنها، التي تُدعم الدور الرقابي للبرلمان على أعمال الحكومة لمساندة المجلس المنتخب، وذلك في نطاق العلاقة السياسية التوازنية مع الحكومة، من أجل تعزيز مسألة الجدوى السياسية التي تبرر وجود المجالس المُعيّنة.

ج- أن يقوم كلاً من مجلسي الأعيان والشورى بدور العقل والحكمة للمجلس المنتخب؛ من حيث ترشيد قراراته التشريعية والمساهمة في مزيد من عقلانية المؤسسة التشريعية في تعزيز الأداء التشريعي.

د- من الضروري أيضاً أن تكون هناك ثقافة سياسية لدى المجالس المُعيّنة مفادها قيمة وأهمية القيام بممارسة الوظيفة السياسية الرقابية حتى ولو أنها لا تُفضي إلى طرح الثقة بالحكومة مقارنة مع سلطات المجالس المنتخبة؛ لأن ممارسة الصلاحيات حتى وإن لم تقد إلى طرح الثقة إلا أنها ستؤثر حتماً على الحكومة بشكل أو بآخر، ومن المحتمل أن تدفعها إلى إعادة النظر بسياساتها وتضعها أمام مسؤولياتها السياسية، والأخلاقية من ناحية، وأمام الصحافة والرأي العام من ناحية أخرى. وهو الأمر الذي يقوّي من المركز السياسي للبرلمان بغرفته أمام الحكومة.

ثانياً/ تطوير المستوى الإعلامي للمجلس المعين:

ضرورة العمل على تطوير الصورة الشعبية لمجلسي الأعيان/الشورى، وعدم الإسراف في تحصينه من المتابعة الصحافية، أو حتى الشعبية، الأمر الذي من الممكن أن يُدعم من الأهمية السياسية لقراراته وإجراءاته.

ثالثاً / البعد الدستوري:

أ- زيادة أعضاء المجلس المنتخب عن عدد أعضاء المجلس المعين في الحالة البحرينية يعد تماشياً مع المبادئ الديمقراطية.

ب- أن يقوم المُشرع في كل من البلدين بالعمل على المغايرة بين المجلسين من حيث المدة، وذلك بأن تكون مدة المجلس المُعين أطول من مدة المجلس المنتخب؛ وذلك انسجاماً مع المبدأ القاضي بتقصير مدة المجلس المنتخب عن مدة المجلس المعين.

ج- إجراء تعديل دستوري يقضي بمدة فترة الحصانة النيابية لتشمل كامل مدة العمر الدستوري للمجلس، ولا تقتصر على أدوار الإنعقاد فقط كما هو الحال في مجلسي الأعيان والشورى.

د- إجراء تعديل دستوري يتضمن إحاطة حل مجلس الشورى في البحرين بضمانات تنظم حق الحل. وان يقترن بتوقيع رئيس الوزراء والوزير او الوزراء المختصين على غرار الحالة الأردنية.

رابعاً: تتقدم الدراسة باقتراح نموذج لقياس مقدار الجدوى السياسية للمجالس المعينة وعلى النحو الآتي:

يمكن القول: إن الجدوى السياسية للمجالس المعينة تخضع لمعايير ثلاثة من وجهة نظر الباحثين، وفي حال توافرها يكون من الممكن قياس درجة الجدوى السياسية للمجالس المعينة وهي:

1- المتغير السياسي: ويتمثل في الوسائل الرقابية المختلفة والمتاحة ابتداءً (السؤال، الاستجواب، لجان التحقيق، المناقشة العامة)، ومقدار إعمال هذه الوسائل الرقابية الدستورية على أعمال الحكومة لكي تكتسي بالبعد السياسي؛ حيث يكون المجلس المعين ركيزة مع المجلس المنتخب في ممارسة الرقابة على الحكومة وإخضاعها للمساءلة، لا أن يكون أداة الحكومة في إضعاف المؤسسة البرلمانية.

2- المتغير التشريعي (الترشيد والحكمة): قيام المجالس المعينة بمساندة المجالس المنتخبة؛ وذلك من خلال ترشيد القرار التشريعي وإكسابه مزيداً من العقلانية والجودة، وإعلاء الصالح العام كمعيار نهائي وغائي من التشريع، وهو الأمر الذي يتطلب بالضرورة الإمعان والتدقيق في أعضاء هذا النوع من المجالس وما يتمتعون به من الخبرة والحكمة الواجب توافرها فيمن يُعين منهم.

3- المتغير الديمقراطي (إعمال الإرادة): أن يكون للمجلس المنتخب القول الفصل في القرار النهائي داخل البرلمان؛ بحيث تخضع المجالس المعينة - إعلاءً للمبادئ الديمقراطية - للمجالس المنتخبة، حتى ولو كان هناك مساواة بينهما على المستويين التشريعي، والمالي، وعلى غرار البرلمانات الديمقراطية، ومن المؤشرات الداعمة لذلك:

أ- أن يمارس المجلس المعين السلطات والصلاحيات السياسية المناطة به، وذلك لتعزيز مركز البرلمان، وتوفير أي فرصة للحكومة بإضعافه؛ حيث لا يكون أداة الحكومة في إضعاف المجلس المنتخب.

ب- أن يقوم المجلس المعين بأخذ إرادة المجلس المنتخب في عين الاعتبار؛ بحيث لا يقوم بما من شأنه إعاقة إرادة المجلس المنتخب لا على المستوى التشريعي، أو المالي، في ضوء تحديد دستوري لمراحل يقف عندها دور المجلس المعين، كما هو الحال في بريطانيا التي حرمت مجلس اللوردات من إعاقة مجلس العموم في التشريعات المالية، وبالنسبة للتشريعات

الأخرى فلا يجوز لمجلس اللوردات تعطيلها إلا لفترة لا تزيد عن سنة واحدة فقط، وفي حال تم ذلك سيظهر دوراً للمجالس المعيّنة كقناة تنقية وتمحيص للتشريعات والسياسات ويُترك بالمحصلة القرار النهائي للمجالس المنتخبة.

اتساقاً مع ما سبق، يمكن الحديث عن جدوى و/أو عدم الجدوى السياسية للمجالس المعيّنة ووجودها في الجسد السياسي للدولة، ويبقى المعيار النهائي للحكم عليها رهينة بالمؤسسة البرلمانية ووزنها السياسي الكلي في العلاقة مع السلطة التنفيذية ودور المجالس المعيّنة في تدعيم هذا الوزن و/أو تخفيضه.

The Jordanian Senate and the Bahraini Shura Council A Comparative Study

Khalid I. Al Odwan, *Department of Political Science, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Ramze Helat, *Department of Public Law, University of Applied Sciences, Bahrain.*

Abstract

This study aims at comparing the Jordanian Senate and the Shura Council of Bahrain in terms of composition, parliamentary immunity, parliamentary dissolution, functions, and powers, with a focus on the political oversight role, to examine the oversight authority according to the appointed councils in the legislative institution to investigate the political feasibility of this kind of appointed councils. In order to achieve the objectives of the study, we resorted to a comparative analysis approach concentrating on legal and political dimensions. The findings of the study were:

- 1- The political feasibility of the appointed council correlated with the political oversight tools assigned to it theoretically, and the exert of these tools is the key factor in determining this feasibility.
- 2-The results of the study showed that the appointed councils in the legislative institution (the Senate and the Shura Council) have the political oversight tools – at least constitutionally – in the framework of the jurisdictions and authorities within the constitution and the internal regulation. And that was less by necessity compared with the elected council.
- 3- The study concluded that the Jordanian Senate has oversight tools more than the Bahraini Shura Council, such as interrogation and the general debate and the formation of commissions of inquiry.

4- The study also showed that there is a political oversight tool that can emerge from the financial function to the parliament.

Finally, the study provides a set of recommendations; the most important is to propose a model to measure the political feasibility of appointed councils.

Key words: The Jordanian Senate, The Bahraini Shura Council, Political Oversight, The legislative Function, Financial Function.

قدم البحث للنشر في 2012/2/22 وقبل في 2012/9/26

هوامش الدراسة

- 1 أبو علي، محمد أبو زيد، الازدواج البرلماني وأثره في تحقيق الديمقراطية، القاهرة، المؤلف، 1993 ص 273
- 2 د. بشير باز علي، حق حل المجلس النيابي في الدساتير المعاصرة، الإسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر، 2004، ص 5
- 3 محمد العدوان، أهمية التوثيق في عالم اليوم، عمان، المؤلف، 2011، ص 6
- 4 د. كمال عبد اللطيف، مدخل إلى قراءة الأبعاد الثقافية للثورات العربية، في: أمحمد مالكي (وآخ.)، الانفجار العربي الكبير في الأبعاد الثقافية والسياسية، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012، ص 49
- 5 حصل الباحثان على معلومات حول تنظيم الدساتير العربية للسلطة التشريعية من موقع مكتب الأمم المتحدة الإنمائي: www.pogar.org
- 6 نعمان الخطيب، الوسيط في النظم السياسية والقانون الدستوري، دار الثقافة للنشر والتوزيع ط1، عمان 1999- ص 345.
- 7 د. نعمان الخطيب، المرجع السابق، ص 346.
- 8 د. سامي جمال الدين، النظم السياسية والقانون الدستوري، منشأة المعارف، بالإسكندرية 2005 ص 263.
- 9 انظر، د. عبد الكريم علوان، النظم السياسية والقانون الدستوري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص 346- ص 347.
- 10 د. محمد المشهداني ود. مروان المدرس، القانون الدستوري البحريني، منشورات جامعة البحرين، كلية الحقوق، 2006، ص 272.

11 تعديلات دستور مملكة البحرين الصادرة سنة 2012 والمذكرة التفسيرية لتعديلات دستور مملكة البحرين الصادرة سنة 2012 والمنشورة في الجريدة الرسمية، ملحق العدد 3050، الخميس 3 مايو 2012.

12 انظر في ذلك:- د. نعمان الخطيب، المرجع السابق، ص360 وما بعدها.

- د. عبد الكريم علوان، المرجع السابق، ص168.

- د. سامي جمال الدين، المرجع السابق، ص261 وما بعدها.

- د. محمد المشهداني، المرجع السابق، ص125 وما بعدها.

وكذلك:- المرشد الى عمل مجلس الشورى في مملكة البحرين، الامانة العامة لمجلس الشورى، ص15.

- المجموعة التشريعية، الامانة العامة لمجلس النواب في مملكة البحرين، ص91 وما بعدها.

13 المجموعة التشريعية، الامانة العامة لمجلس النواب في مملكة البحرين، ميثاق العمل الوطني، الفصل الخامس، الحياة النيابية، ص24

14 نعمان الخطيب، المرجع السابق، ص349.

15 د. نعمان الخطيب، المرجع السابق، ص350.

16 نعلق هنا بالقول ان المادة 75 من الدستور الاردني تعرضت للتعديل بموجب مشروع تعديل الدستور الاردني لسنة 2011 والمنشور في عدد الجريدة الرسمية رقم 5117 تاريخ 2011/10/1 بحيث تم النص في المادة 23 من مشروع التعديل والخاصة بالمادة 75 فقرة 1 باضافة النص التالي:

ب- من يحمل جنسية دولة أخرى؛ حيث لا يجوز أن يكون عضواً في مجلس النواب أو الأعيان من يحمل الجنسية غير الأردنية. وعلى اثر هذا التعديل تقدم خمسة اعضاء من مجلس الاعيان الرابع والعشرين الحالي بتقديم استقالاتهم تماشياً مع هذا النص الجديد.

17 د. عادل الحياوي، القانون الدستوري والنظام الدستوري الأردني، عمان، الجامعة الأردنية، المؤلف، 1972، ص 724

18 د. امين سلامة العضيلة، الوجيز في النظام الدستوري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2010، ص138 - ص139.

19 انظر على سبيل المثال المادتين 92 / 93 من الدستور الأردني لعام 1952.

20 د. سامي جمال الدين، المرجع السابق، ص257.

21 د. نعمان الخطيب، المرجع السابق، ص352.

22 انظر المادتين (53، 57) من الدستور البحريني.

23 د. نعمان الخطيب، المرجع السابق، ص355.

- 24 يود الباحثان التنويه هنا إلى أن مجلس الأعيان الأردني في دستور 1952 الأصلي وقبل إجراء التعديلات عليه كانت مدة عضوية أعضائه ثمان سنوات، وهناك التجديد النصفى لأعضائه؛ حيث تتجدد العضوية كل أربع سنوات وفق آلية الاقتراع لنصف الأعضاء الذين سيغادرون المجلس.
- 25 د.أمين سلامة العضيلة، المرجع السابق، ص138.
- 26 د.عادل الحيارى، مرجع سابق، ص 727
- 27 د.علي الصاوي، من يراقب من: محاولة لتأصيل نظرية الرقابة البرلمانية، القاهرة، المؤلف، 2003، ص 19.
- 28 د.يحيى الجمل، الأنظمة السياسية المعاصرة، القاهرة، دار النهضة العربية، 1974، ص 176.
- 29 انظر المادة 42 فقرة ج من الدستور البحريني لسنة 2002.
- 30 انظر المادة 55 من الدستور البحريني لسنة 2002.
- 31 عبد الإله بناتي، الحصانة البرلمانية كوسيلة لتعزيز قدرات البرلمانين العرب، المؤتمر البرلماني الإقليمي حول وسائل تعزيز البرلمانين، والمنظم من طرف الاتحاد البرلماني العربي، بالاشتراك مع مجلس الأمة الجزائري، وبدعم من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. ص3.
- 32 د.خالد العدوان، صلاحيات وسلطات مجلس النواب من المنظور الدستوري والسياسي، عمان، مجلس النواب الأردني ومكتب الأمم المتحدة الإنمائي، 2009، ص 65.
- 33 د.محمد المشهداني، د.مروان المدرس، المرجع السابق، ص303.
- 34 د.أمين العضيلة، المرجع السابق، ص185.
- 35 د.محمد سليم محمد غزوي، الوجيز في التنظيم السياسي والدستوري، عمان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2005، ص131.
- 36 د.ماجد راغب الحلو، القانون الدستوري، دار المطبوعات الجامعية، 2007، ص332. وانظر أيضاً د.محمد المجذوب القانون الدستوري والنظام السياسي في لبنان، منشورات الحلبي الحقوقية الطبعة الرابعة، بيروت 2002، ص299.
- 37 د.محمد سليم محمد غزوي، المرجع السابق، ص132.
- 38 د.صلاح الدين فوزي، المحيط في النظم السياسية، القاهرة، دار النهضة العربية، 2000، ص 336
- 39 د.عفيفي كامل عفيفي، الأنظمة النيابية الرئيسية دراسة تحليلية مقارنة، الإسكندرية، منشأة المعارف، 2002، 154.
- 40 بول سيلك، رودري والتز، كيف يعمل البرلمان، ترجمة د.علي الصاوي، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط2004، 1، ص ص 397-398

- 41 زهير أحمد قدورة، المجلس التشريعي الثاني وتناقض دوره في النظم السياسية المعاصرة:دراسة مقارنة،مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات، جامعة الزرقاء،المجلد الثامن،العدد الأول،2006، ص128
- 42 ريتشارد كوريت وآخرون، البرلمان الأوروبي، ترجمة د.علي الصاوي، القاهرة،برنامج الدراسات البرلمانية،كلية الاقتصاد والعلوم السياسية،جامعة القاهرة، ص 336
- 43 سوزي عدلي ناشد، أساسيات المالية العامة، منشورات الحلبي الحقوقية، ط1، لسنة 2008، ص327.
- 44 انظر المواد 112، 113 من الدستور الأردني، وكذلك المواد 109، 110، 113 من الدستور البحريني المعدل لعام 2002.
- 45 د.سوزي عدلي ناشد، المرجع السابق ص390 - ص391.
- 46 د.أمين سلامة العضائيلة، المرجع السابق، ص231.
- 47 د.سوزي عدلي ناشد، المرجع السابق، ص392.
- 48 هاني خير، الدستور الأردني منذ عام 1923، عمان، المؤلف،2002، ص ص 559-560
- 49 محمد أبو زيد أبو علي، مرجع سابق،1993، ص ص 270-271.
- 50 د.يحيى الجمل، الأنظمة السياسية المعاصرة، القاهرة، مرجع سابق، ص ص 187-189
- 51 د.علي الصاوي،مستقبل البرلمان في العالم العربي،القاهرة،المؤلف،2003، ص 71
- 52 د.عادل الطبطبائي، الأسئلة البرلمانية نشأتها، أنواعها، وظائفها، الكويت،المؤلف،1987، ص ص 12-13
- 53 د.محمد عبدالله حمود الدليمي، القضاء الإداري في مملكة البحرين جامعة العلوم التطبيقية، ط1 2008، ص73. د.ماجد راغب الحلو القانون الدستوري، دار المطبوعات الجامعة، الإسكندرية، 2007 ص350.
- 54 د.أمين سلامة العضائيلة، المرجع السابق، ص216.
- 55 انظر(المواد 126- 136) من المرسوم بقانون رقم (55) لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس الشورى البحريني، والمواد (133- 143) من المرسوم بقانون رقم (54) لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس النواب البحريني والمواد (114- 121) من النظام الداخلي لمجلس النواب الأردني لعام 1996 والمواد (76- 81) من النظام الداخلي لمجلس الأعيان الأردني لعام 1998، وكذلك انظر فيما يتعلق بالشروط الشكلية والموضوعية للسؤال، المحامي، وسيم حسام الدين الأحمد، منشورات الحلبي الحقوقية، ط1 2008، بيروت ص308 وما بعدها.
- 56 سيد رجب محمد، المسؤولية الوزارية في النظم السياسية المعاصرة،رسالة دكتوراة غير منشورة،كلية الحقوق،جامعة القاهرة،1986، ص71
- 57 د.ايهاب زكي سلام،الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية في النظام البرلماني،القاهرة،عالم الكتب،1983، ص ص 86-87.

- 58 د. محمد عبد الله حمود الدليمي، القضاء الإداري في مملكة البحرين، المرجع السابق، ص74.
- 59 د. محمد فرحان الهياجنة، مبادئ العلوم السياسية، عمان، المؤلف، 2000، ص 213
- 60 محمد عبد الله حمود الدليمي، المرجع السابق، ص74.
- 61 فارس محمد عمران، التحقيق البرلماني، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الحقوق، جامعة القاهرة، 1998، ص 302
- 62 د. محمد المشهداني، النظم السياسية، القاهرة، العاتك لصناعة الكتاب، 2007، ص 131
- 63 محمد عبدالله حمود الدليمي، القضاء الإداري في مملكة البحرين، المرجع السابق، ص 75 وللإستزادة حول هذا الموضوع: انظر المحامي - وسيم حسام الدين الأحمد، المرجع السابق، ص 346 وما بعدها، وكذلك المواد (160 - 164) من المرسوم بقانون رقم (54) لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس النواب البحريني.
- 64 محتسب بني علي، العلاقة بين مجلس النواب والسلطة التنفيذية في الأردن، 1989-2001، اربد، المؤلف، 1999، ص72
- 65 د. محسن خليل، النظم السياسية والقانون الدستوري: الدستور اللبناني، الجزء الثاني، القاهرة، دار النهضة العربية، ط2 1967، ص208.
- 66 د. يحيى الجمل، النظام الدستوري المصري، دار النهضة العربية، القاهرة 1974، ص226.
- 67 نضال العمرو، دور مجلس الأعيان في العملية التشريعية والرقابية، رسالة مجلس الأمة، الأمانة العامة لمجلس الأمة الأردني، العدد 57، أيلول 2005، ص 52
- 68 د. أمين سلامة العضائيلة، الوجيز في النظام الدستوري، المرجع السابق، ص221.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية

- أبو علي، محمد أبو زيد، الازدواج البرلماني وأثره في تحقيق الديمقراطية، القاهرة، المؤلف، 1993.
- الأحمد، وسيم حسام الدين، الشروط الشكلية والموضوعية للسؤال، بيروت، المؤلف، 2008.
- بشير باز علي، حق حل المجلس النيابي في الدساتير المعاصرة، الإسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر، 2004.

- بني علي، محتسب، العلاقة بين مجلس النواب والسلطة التنفيذية في الأردن، 1989-2001،
أربد، المؤلف، 1999.
- جمال الدين، سامي، النظم السياسية والقانون الدستوري، الإسكندرية، منشأة المعارف،
2005.
- الجمال، يحيى، الأنظمة السياسية المعاصرة، القاهرة، دار الشروق، 1974.
- الجمال، يحيى، النظام الدستوري المصري، القاهرة، دار النهضة العربية، 1974.
- الحلو، ماجد راغب، القانون الدستوري، الإسكندرية، دار المطبوعات الجامعة، 2007.
- الحياري، عادل، القانون الدستوري والنظام الدستوري الأردني، عمان، الجامعة الأردنية،
المؤلف، 1972.
- خليل، محسن، النظم السياسية والقانون الدستوري: الدستور اللبناني، الجزء الثاني، القاهرة:
دار النهضة العربية، ط2، 1967.
- خير، هاني، الدستور الأردني منذ عام 1923، عمان، المؤلف، 2002.
- الدليمي، محمد عبدالله حمود، القضاء الإداري في مملكة البحرين، البحرين، جامعة العلوم
التطبيقية، ط1، 2008.
- سلام، إيهاب زكي، الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية في النظام البرلماني،
القاهرة، عالم الكتب، 1983.
- سيلك، بول، والترز، رودري، كيف يعمل البرلمان، ترجمة د.علي الصاوي، القاهرة، مكتبة
الشروق الدولية، ط1، 2004.
- الصاوي، علي، مستقبل البرلمان في العالم العربي، القاهرة، المؤلف، 2003.
- الصاوي، علي، من يراقب من، محاولة لتأصيل نظرية الرقابة البرلمانية، القاهرة، المؤلف،
2003.
- الطبطبائي، عادل، الأسئلة البرلمانية نشأتها، أنواعها، وظائفها، الكويت، المؤلف، 1987.

- العدوان، خالد، **صلاحيات وسلطات مجلس النواب من المنظور الدستوري والسياسي**، عمان، مجلس النواب الأردني ومكتب الأمم المتحدة الإنمائي، 2009.
- العدوان، محمد، **أهمية التوثيق في عالم اليوم**، عمان، المؤلف، 2011.
- العضايلة، أمين سلامة، **الوجيز في النظام الدستوري**، عمان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2010.
- عفيفي، كامل عفيفي، **الأنظمة النيابية الرئيسية دراسة تحليلية مقارنة**، الإسكندرية، منشأة المعارف، 2002.
- علوان، عبدالكريم، **النظم السياسية والقانون الدستوري**، عمان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2009.
- عمران، فارس محمد، **التحقيق البرلماني**، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الحقوق، جامعة القاهرة، 1998.
- العمرى، نضال، **دور مجلس الأعيان في العملية التشريعية والرقابية**، رسالة مجلس الأمة، الأمانة العامة لمجلس الأمة الأردني، العدد 57، أيلول 2005.
- غزوي، محمد سليم محمد، **الوجيز في التنظيم السياسي والدستوري**، عمان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2005.
- فوزي، صلاح الدين، **المحيط في النظم السياسية**، القاهرة، دار النهضة العربية، 2000.
- قدورة، زهير أحمد، **المجلس التشريعي الثاني وتناقض دوره في النظم السياسية المعاصرة: دراسة مقارنة**، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات، جامعة الزرقاء، الأردن، المجلد الثامن، العدد الأول، 2006.
- كوربت، ريتشارد وآخرون، **البرلمان الأوروبي**، ترجمة د.علي الصاوي، القاهرة، برنامج الدراسات البرلمانية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.
- مالكي، أمحمد وآخرون، **الانفجار العربي الكبير في الأبعاد الثقافية والسياسية**، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

المجذوب، محمد، القانون الدستوري والنظام السياسي في لبنان، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ط 4، 2002.

محمد، سيد رجب، المسؤولية الوزارية في النظم السياسية المعاصرة، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الحقوق، جامعة القاهرة، 1986.

المشهداني، محمد كاظم، النظم السياسية، القاهرة، العاتك لصناعة الكتاب، 2007.

المشهداني، محمد، القانون الدستوري والنظم السياسية، الدولة والحكومة، جامعة البحرين، البحرين، 2006.

المشهداني، محمد، المدرس، مروان، القانون الدستوري البحريني، جامعة البحرين، البحرين، 2006.

ناشد، سوزي عدلي، أساسيات المالية العامة، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ط 1، 2008.

الهياجة، محمد فرحان، مبادئ العلوم السياسية، عمان، المؤلف، 2000.

ثانياً: الدساتير والقوانين والأنظمة

1. الدستور الأردني لعام 1952 والمنشور في عدد الجريدة الرسمية رقم 1093 تاريخ 1952/1/8.

2. تعديل الدستور الأردني لسنة 2011 والمنشور في عدد الجريدة الرسمية رقم 5117 تاريخ 2011/10/1

3. الدستور البحريني لعام 2002. والتعديلات دستور مملكة البحرين الصادرة سنة 2012 والمذكرة التفسيرية لتعديلات دستور مملكة البحرين الصادرة سنة 2012 المنشورة في الجريدة الرسمية، ملحق العدد 3050، الخميس 3 مايو 2012.

4. المجموعة التشريعية، الأمانة العامة لمجلس النواب في مملكة البحرين، ميثاق العمل الوطني، الفصل الخامس، الحياة النيابية.

5. المرسوم بقانون رقم 55 لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس الشورى البحريني.

6. المرسوم بقانون رقم 45 لسنة 2002 بشأن اللائحة الداخلية لمجلس النواب البحريني.

7. النظام الداخلي لمجلس النواب الأردني لعام 1996.
8. النظام الداخلي لمجلس الأعيان الأردني لعام 1998.

اللغة والوجود في التصور العلائي، اللزوميات أنموذجاً

محمود سليم هياجنة*

ملخص

حاولت الدراسة أن تكشف السجوف عن ظاهرة الطبيعة والوجود وانقلاب الأحوال الكونية من خلال تمظهرها في المفاهيم والمصطلحات المستمدة من ظواهر اللغة وعلومها المختلفة؛ فمن خلال تأملها في ديوان اللزوميات، وجدت وبصورة لافتة، أن المعري يعمد إلى استثمار حصيلته المعرفية من علوم اللغة ومفاهيمها، للتعبير عن أفكار ومضامين أدبية خالصة على سبيل المماثلة أو الاستعارة أو التشبيه، إزاء ذلك، وقفت الدراسة عند هاتيك الظاهرة محاولة تجليتها، قصد الوقوف على المضامين والمرجعيات الفكرية المؤسسة لمثل هذه الظاهرة التي غدت نسقا خاصا في كثير من أبيات الشعر التي وردت في لزومياته.

المقدمة:

إن ديوان اللزوميات يزخر بموروث أدبي، غني بكنوز نفيسة كثيرة، يستدعي دراستها وفق منهجية حديثة، وذلك بتسليط الضوء عليه، والتنقيب فيه، وكشف السجوف عن نفائسه، للإفادة منه، واستلهامه ومعالجته، ومحاولة النهوض برؤية تفصيلية لجوانب الحياة المختلفة، لاستخلاص ما يمكن أن يخدم قضايا الأدب والنقد، وربما ورد النص ليسهم في ترسيخ مبدأ أو تأكيد اتجاه، أو إثارة فكرة أو إنارة قضية، أو مناقشة مشكلة، حول طبيعة الحياة الفنية، أو الاجتماعية أو السياسية، أو ظروف الشاعر، نشأة وفكراً، وثقافة ومذهباً.... وغير ذلك.

ولعل الفكر الوجودي من القضايا الجديرة بالدراسة في الفكر العلائي، التي لا يمكن التغافل عنها، لما لها من أهمية بالغة في ولادة النصوص وتجليتها لدى الشاعر؛ فقد يتجلى الأدب عند بعض الشعراء تعبيراً عن خصوصية الذات، أو تمظهراً في المجال الذي يعبر عن الذات، ومدى تناغمها مع المدارس الفنية التي شهدت تلك الحقبة من الزمن، فضلاً عن مدى تمسكها مع سلطة العقل، أو انسلاخها من مرجعيات العقل.

إن لزوميات أبي العلاء، غنية بطاقتها الإيحائية المعبرة عما يستكن في نفسه من إبداعات فنية تسترعي الانتباه، وتستوجب البحث والتنقيب، فضلاً عن دلالات ذات صبغة خارجية/ اجتماعية وسياسية، وفلسفية.... وغير ذلك؛ فالدال عند أبي العلاء محور مركزي في استراتيجيته القرائية

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة شقراء، الدوامي، المملكة العربية السعودية.

للوجود، ولا شك في أن ذلك يدل على دور اللغة في توليد المعاني، التي استنبطها من داخل تجربته الوجودية واللغوية. ومما هو حري بالتدبر، وجدير بالتأمل، ومستوجب للمقاربة، أن المعري يراهن على اللغة لتصبح جزءاً من تجربته الوجودية⁽¹⁾؛ لذا فهو لا يترك شيئاً من مصطلحات اللغة إلا ويجعله مسار التأصيل في مفهومه الوجودي، ولهذا سعت الدراسة جاهدة لتجلية الظاهرة الطبيعية والوجود، وانقلاب الأحوال من خلال تمظهرها في الدوال اللغوية والنحوية والعروضية.... الخ، تحت مسمى "اللغة والوجود في التصور العلائي"، متخذة من ديوان اللزوميات أنموذجاً للمقاربة، علّها تقف عند ما عول عليه أبو العلاء من إمكانات اللغة ومصطلحاتها في بناء الصورة الكونية والوجودية وانقلاب الأحوال.

رؤية المعري لعلوم اللغة ومفاهيمها:

ليست هذه الدراسة - كما تبدو - دراسة مجردة لديوان اللزوميات، كما أنها ليست لدراسة الفكر الوجودي عند أبي العلاء المعري؛ ذلك لأن الديوان يغري بقراءات عديدة، لما يفتح من مداخل للمقاربة، إن يعج بالمصطلحات والمفاهيم العروضية والصرفية والفقهية والطبية والفلسفية والتاريخية، ويحوي من الأمثال السائرة والحكم الماهرة ما يستلزم أبحاثاً وقراءات كثيرة لا حصر لها.

إن الدراسة في أبسط وصف لها، دراسة لتجليات الظاهرة الطبيعية والوجود وانقلاب الأحوال الكونية، من خلال تمظهرها في الدوال اللغوية والنحوية والعروضية، أو قل: من خلال التقاطها في الفعل أو الجنس اللغوي، وهو ما عول عليه أبو العلاء كثيراً، إذ يعتمد إلى توصيف الوجود وتجلياته، فيضاً، وتشكلاً، وانقلاباً، وتوليداً وفساداً، وسيطرة، وسبباً وعلة، وتفاعلاً، وانفعلاً... الخ، بمفاهيم مستمدة من ظواهر اللغة (العربية) وأوضاعها المختلفة إعراباً وصرفاً وصوتاً وأوزاناً... الخ، حتى المصطلحات العروضية لم تفلت هي الأخرى من الاحتضان، ومن ثم إدراجها ضمن التوصيف الذي تصوره ويصوره أو تبناه، وإنك واجد هذا - أيضاً - في عناوين مؤلفاته؛ إذ يسميها بأسماء لم تخرج عن هذا التوصيف، مثل: سقط الزند، الهمز والردف، الفصول والغايات، وبحر الزجر، والأيك والغصون... الخ، وكأن هاجس الرؤية تلك، قد تسلسل إلى تلك العناوين بمهارة وحذق لنظرته أو تصوره⁽²⁾.

والقراءة إن تعتمد إلى الغوص في هذا الموضوع، تهدف إلى الوقوف عند هاتيك الملامح والإشارات التي تمظهرت في مجموعة من الأبيات الشعرية، توزعت في قصائد ديوانه "اللزوميات" وقوفاً يستجلب استلهاماً، ومقاربتهم للوصول - ما أمكن - إلى ما ترمز إليه.

ولعل أول استهلاله تسترعي الانتباه وتستدعي التأمل، قوله:

والبرايا لفظُ الزمان ولا بدُ د له من تغيّرٍ وانقلاب⁽³⁾

ينهض هذا البيت على علامة محورية، كرسّت وجوداً قوياً في ساحة المشهد الوجودي لدى الفلاسفة والوجوديين والمفكرين بل أرقّت الإنسان على مر العصور، وعبر الشعراء عنها بصيغ وألوان شتى في شعرهم، وإنك واجد هذا في المقدمات الطللية، إذ تفيض تلك المقدمات بحركة الزمن وتأثيره، بل تنفعل الأشياء لفعله وتتأثر لتأثيره، وهي علامة التغير والانقلاب.

إن الصيغة اللغوية في الشطر الأول للبيت صيغة خبرية، قوله: "البرايا لفظ الزمان"، يتلوها الشطر الثاني بتلك الصيغة المؤكدة للصيغة الأولى، ضمن الرؤية اليقينية، قوله: "لا بد له من تغيّر وانقلاب"، والصيغتان تتضافران معاً في سياق علاقة تقابلية، تكرر حالاً من الاتفاق والتشابه، على أساس ما تحيل عليه فاعلية كل منهما، فاللفظ في اللغة (العربية) يتلون بلون السياق وبفاعلية المتلفظ/المتكلم ومراده، فمرة يكون بصيغة الأمر (افعل) ومرة بصيغة الماضي (فعل) ومرة بصيغة المضارع (يفعل، تفعل، أفعل) ومرة بصيغة المصدر (فعل) ومرة بصيغة اسم الفاعل (فاعل، وأخرى بصيغة اسم المفعول) (مفعول)... وهكذا، بمعنى أنها لا تثبت على حال، بل هي مرتبطة بمراد المخاطب والمخاطب، وما شاكل ذلك، كذلك الواقع/ الوجود (الكون/البرايا) لا تثبت على حال، إذ هي في سياق التغير والانقلاب، فلا ثبات ولا استقرار.

ولعل الباحث يمكنه رصد معطيات الاتساق في البيت على ضوء مرجعيته من الدوال التي يجهر بها المشهد اللغوي والبنائي للنص.

وبناءً على هذا التقابل التوافقي بين الصورتين: صورة اللفظ في تغييره وفق قانون اللغة وصورة الوجود وتقلبه وفق قانون التغير والتبدل المحكوم ضمن النواميس الكونية، انبنى فهم أبي العلاء للوجود الكوني من خلال الوجود اللغوي، حتى أصبح الوجود اللغوي أو التصور اللغوي مسوغاً إدراكياً لفهم الوجود الكوني.

ومن هنا نجد النص قد تشكل ضمن إطار من الحركة التي تؤول إلى التغير والتبدل، يقابل ذلك ضمناً، عدم استقرار وعدم ثبات ونفي لديمومة الأشياء/ الواقع.

لنتأمل الآن علاقة الزمن وفاعليته ضمن الرؤية العلانية.

إن الجملة الأولى (البرايا لفظ الزمان) تدور حول فاعلية الزمن، وهي تتزامن دلاليًا مع الإشارة التي ألمح بل صرح بها في قوله: ولا بد له من تغيّر وانقلاب؛ فالزمن مشخصاً هو الذي يلفظ، ويتلفظه يمتلك قدرة التغير، وقلب الألفاظ حسب ما يريد، ومن ثمة يصبح مالكاً بل فاعلاً مطلقاً، في نظر الشاعر، وتصبح حتمية التغير والانقلاب مجسدة في الأشياء من خلاله وبه.

وهكذا يمثل الواقع المتغير الرؤيا اليقينية والأساسية للمعري من تشكلات اللغة ونواميسها، ومن هنا تتعمق الدلالات الضمنية للخطاب الذي يكرسه البيت، وتستبطن وعي المتكلم بإضافة توشي بعدم الاطمئنان أو الاستقرار، تحاصره محاصرة لا ينفلت منها، بل تجلجل في ذاته وتقع في خلجات نفسه وإلا ما كان هذا التصريح وهذا الخطاب الذي يركز على التغيير والانقلاب وكأنه يريد أن يقول: لا يستطيع الواقع أن يمتلك حرية الثبات والديمومة وإن البرايا عاجزة، بل مسلوبة الإرادة أمام فاعلية الزمن المدمرة والمغيرة والمبدلة والمقلبة للأحوال والمآل، وبهذا يصدق البيت برويا يقينية ثابتة للواقع، تشرح تجلياته وتستسلم أمام فاعليته.

وفي هذا الصدد يحاول البحث العناية بلفظ الدهر/الزمن، وما يجتمع حوله من علاقات في رؤية أبي العلاء، وبخاصة في الطريقة نفسها التي اتخذها سبيلاً للإدراك؛ إدراك الوجود والكون/الواقع

يقول:

والناسُ كالأشعار ينطقُ دهرُهُمُ بهم فمطلقُ معشرٍ ومقيّد⁽⁴⁾

فكما البيت الأول يفيض بتلك الرؤيا الوثوقية، نجد هذا البيت-أيضاً- يكتسب وجوداً في سياق من اليقين بهوية الدهر، وامتلاكه سلطة مطلقة لحتمية المصير، ويظهر الإنسان عرضة لهذه الحتمية. والشاعر - بلا شك- يستخدم الاصطلاحات العروضية، رمزاً معبراً عن تلك الرؤيا؛ فالمطلق من الشعر هو الذي ينتهي بروي متحرك، وأما المقيد، فهو الشعر الذي ينتهي بحرف روي ساكن، وهذا واضح من أن الشاعر يريد نقل التجربة العروضية بهذين المصطلحين تجسيدا للرؤيا الأساسية، وهي حتمية تقييد الفعل الإنساني بالدهر وتصريفه، فالدهر هو الذي يصرف الإنسان كيف شاء، موتاً وحياة، يطلق هذا ويقيد ذاك وفي النهاية لا يفلت منه أحد.

ويمكن أن نرى في صيغ الجمل التي نسج منها البيت، ما يمكن أن يمرئي تلك الصورة بجلاء، فالصيغ تتوزع على ثلاثة محاور.

1. الدهر/ شاعر. 2. الناس أشعار ينطق بها ذلك الشاعر/الدهر. 3. نوع الشعر مطلق

ومقيّد.

أما نزوة التصور التي تنبثق من وراء هذه البنية الشعرية؛ فهي لحظة إدراك فردي للوجود الجماعي بما فيه الشاعر، وهو نفي أي إمكانية للإنسان أمام هذه القوة المطلقة التي لا ينفلت من عقالها أحد. فهي إن شاءت أطلقتته وإن شاءت قيدته، بمعنى آخر، تفعل بهم ما تشاء موتاً وحياةً.

على صعيد آخر، يساعد تشبيه الدهر بالشاعر على تأسيس منظور لمعاينة حدة القلق والتوتر الداخلي لأبي العلاء، ذلك لأن البيت السابق يشي بتساؤل يتضمن معنى التعجب، وكأنه يقول: ماذا يهم الدهر إن أ مات فلان أو أحيا فلان؟! ولعل الإجابة تبقى في خلجات الشاعر تجلجلاً قلقاً وتوتراً حاداً تجسد عجز الإنسان أمام تلك القوة المطلقة، وتتأكد حقيقة القلق بهوية الدهر وسلطته المتجسدة بالفاعلية التي تتجلى بامتلاك التغيير، الحياة والموت، ومما يؤكد هذه الحقيقة قول الشاعر:

وكأنما هذا الزمان قصيدةً ما اضطرَّ شاعرُها إلى إيطائها⁽⁵⁾

على الرغم من أن الشاعر يتحدث عن دقة صنع الوجود اللامتناهي؛ إذ الكون مصنوع بدقة ومهارة بالغين، إلا أنه يركز على قوة الزمان المطلقة التي لا تضطره إلى فعل ما لا يريد، فهو كالشاعر الذي يقول قصيدته بدقة ما لا يريد. يؤكد ذلك قوله في موطن آخر:

ولم أرَ الدنيا باختيارٍ ولكن أوْشكَ الفتَيانِ سَحْبِي

ولو خَيْرْتُ لم أَتركْ مَحَلِّي وأَسْكُنْ في مضيقٍ بَعْدَ رَحْبِ

وجدتُ الموتَ ينتظِمُ البرايا بِسُحْبٍ منه في أعقابِ سُحْبِ⁽⁶⁾

فالموت لم يكن باختياره بل فرضه عليه القدر، ولو كان له خيار في ذلك، لم يبدل فسيح مسكنه بضيق القبر؛ فالموت يعم الدنيا كما لو كان غيماً أو سحباً تتلوها سحب.

هكذا ينبع نص الدهر من يقينية البعد الواحد للوجود، بعد الاستلاب، أو بعد الاندثار والزوال، لأنه يجليه من خلال القضاء / الأيام، كما يجليه من واقع الحال، فلننظر إلى قوله:

سِرُّ سَيَعْلُنُ والحياةُ معارةٌ ولتَقْضَيْنِ بها ديونُ المُعْسرِ

كخبي "نعم" و"بئس" يُخْبَأُ فيهما ويكون ذاك على اشتراطِ مُفسَّر

أنا في إसार الدهر لست بمطلقٍ أبداً فأَسْرِ أخا الطَّلَاقِ أو سِرِ⁽⁷⁾

واضح من هذه الأبيات الرؤية اليقينية للبعد الواحد للوجود، إنها يقينية طاغية على الرؤيا العلانية؛ فهو لا يتصور إمكانية تجاوز الموت، ولو بمجرد النسيان أو الأمل بالحياة، وإنما ينظر إلى تلك اللحظة وكأنها قائمة في معنى، بل ينظر إلى الموت وكأنه لحظة حاسمة لم يفلت منه أحد، وهو قائم يجري فعله بشكل مستمر، ينظر إلى البرية في حال كونها في سياق الموت أو ما بعد الموت، وبهذا لا يجد مجالاً للصراع، ولا يعول على مسألة البقاء تعويل مؤمل؛ فما دامت الحياة

معارة، وما دام العمر بمثابة دينٍ، فلا بُدَّ لهذا الدين من انقضاء، ومن ثمَّ القضاء، فأين المفر؟ هذه هي الحقيقة اليقينية، وهذا هو السرُّ الذي سيُعلن في لحظةٍ ما.

ولعلَّ الخطاب يتكون من حركتين أساسيتين، يضيف إليهما حركة ثالثة تلعب دوراً دالياً توسيطياً: أما الحركة الأولى فهي نظرتة أو رؤيته للواقع/ الوجود، وأما الثانية فرؤية غيره للواقع/الوجود، وأما التوسيطية، فهي المتشكلة بأسلوب النداء التهكمي.

تقوم الحركة الأولى على مستويين مختلفين: المستوى النفسي الدلالي والمستوى اللغوي، ذلك لأن الحركة الأولى تتشكل في إطار الجملة الإسمية (أنا في إसार الدهر لست بمطلق أبداً) أما الحركة الثانية رؤية تشكلت من ناحية بنائها في إطار الجملة الفعلية (أسر أبا الطلاقة أو سير) يتوسط بين الفعلين جملة النداء أبا الطلاقة: إذ تقديرها يا أبا الطلاقة، وهو نداء ذو حمولة دلالية بمعاني التهكم والسخرية من جهة، والإصلاح من جهة أخرى، ذلك لأن الأصل في النداء، الدعوة والتنبيه والاستماع، وقد يخرج إلى معانٍ بلاغية كالدعوة الإصلاحية.

أما الجملة الاسمية أو الاسم خاصة، فذو "دلالة على الثبات المطلق"⁽⁸⁾، وهذا ما نفهمه من خطاب الشاعر، إذ ينطلق من رؤيا يقينية ثابتة راسخة لا ينفك عنها أو يحيد، فهو يقرر فاعلية الدهر وسلطته المطلقة، وهو عندما يقول: (أنا في إसार الدهر لست بمطلق أبداً). لا يعني هو وحده وبمفرده، وإنما يتحدث عن الحقيقة المطلقة، وعبثية كل محاولة إنسانية لتجاوز الموت أو لإعطاء الحياة معنى، ومن هنا فهو ينقل التجربة الفردية إلى صعيد التجربة الإنسانية الشاملة، ولهذا يقول لمن لا يمتلك هذه الحقيقة أو لا يصدق بها أو ينكرها ناسياً متغافلاً ويدعي غير ذلك، يقول له: أسرٍ ليلاً أو أسرٍ صباحاً يا من تدعي الانفلات من الدهر أو من ريب المنون؛ فلا بد من لحظة حاسمة تكشف لك الحقيقة، ولكني أنا؛ فقد انجلت لي من ذي قبل؛ فقد عرفتُها وتيقنت من ذلك.

من هنا نجده ينطلق بتصوير الحقيقة من صور مستدعاة من الوجود اللغوي، يستعين به على تجلية بُعد الرؤية، من خلال فاعل "نعم" و"بئس" المستتر، الذي سرعان ما يكتشف بوجود اللفظ الذي يأتي بعدها، ولهذا يقول: (ويكون ذلك على اشتراط مُفسّر).

ومن الأبيات التي تفيض بتلك الرؤية الجوهرية قوله:

غدوتُ أسيراً في الزمانِ كأنني عروضُ طويلٍ قبضُها ليسَ يُبسَطُ⁽⁹⁾

يجسدُ الشاعر الزمنَ جوهرياً في تجربته متمثلاً في سلطته المطلقة، فهو ذلك القيد، والإنسان أسير في ذلك القيد، لا يستطيع الانفكاك أو الانفلات منه، ثم يشبه هذه التجربة، وهذا التجلي العميق، بعروض البحر الطويل الذي لا يمكن لقبضها أن يبسط.

ويؤكد هذا في موضع آخر عندما يقول:

أَوْ مَا قَرَأْتَ سَجَلُ دَهْرِكَ نَاطِقًا بِالْهَلْكِ يُشَكِّلُ بِالْخُطُوبِ وَيَنْقُطُ⁽¹⁰⁾

والبيت واضح الدلالة في الكشف عن حقيقة الدهر/الزمن، وفاعليته في الوجود؛ فالوجود بهذه الرؤية اليقينية آيل إلى الثبور وإلى الزوال. ولا شك في أنه ناموسٌ كوني، دُون كتاب أيامه، منبئاً بالهلاك والفناء مشكولاً ومنطوقاً بالهموم للناس، يقول في موطن آخر:

والدهرُ شاعرُ أَفَاتٍ يَفُوهُ بِهَا لِلنَّاسِ يُفَكِّرُ تَارَاتٍ وَيَرْتَجِلُ⁽¹¹⁾

فالدهر شاعرٌ يتغنّى بمصائب الناس ويأْتِيهِم بِالْعَلَلِ متواليَةً حيناً ومباغتَةً حيناً آخر، ولعل ما يؤكد ذلك قوله في موطن آخر:

أَنَا بِاللَّيَالِي وَالْحَوَادِثِ أَخْبَرُ سَفَرُ يَجِدُ بِنَا وَجَسْرُ يُعَبِّرُ

سُرُّ الْفَتَى مِنْ جَهْلِهِ بِزَمَانِهِ وَهُوَ الْأَسِيرُ لِيَوْمٍ قَتْلٍ يُصْبِرُ

لَعِبَتْ بِهِ أَيَّامُهُ عَنْ جُرُوحِ نَوَائِبٍ حَرْفٌ يُلَيِّنُ فِي الْكَلَامِ وَيُنْبِرُ

عَجَزَ الْأَطْبَةُ عَنْ جُرُوحِ نَوَائِبٍ لَيْسَتْ بِغَيْرِ فُضَاءٍ رَبُّكَ تُسَبِّرُ⁽¹²⁾

إنَّ المتأمل في الأبيات يجد تعانقاً بين المعطيات الممارسة والغايات المستهدفة، فأمر التغيير والانقلاب، وأمر الوجود الآيل للثبور والزوال، يسيطران على نفسية أبي العلاء، كما أنه ينظر إلى الدهر وكأنه الفاعل الحقيقي لذلك التغيير، وذلك الانقلاب، حتى يجعله فاعلاً في الرفع والخفض، وفي العطاء والسلب، وما شابه، ذلك. لذلك يقول:

الدهرُ كالشاعرِ الْمُقْوِي ونحن به مَثَلُ الْفَوَاصِلِ مَخْفُوضٌ وَمَرْفُوعٌ

مَا سُرَّ يَوْمًا بِشَيْءٍ مِنْ مُحَاسِنِهِ إِلَّا وَذَاكَ بِسَوْءِ الْفَعْلِ مُشْفُوعٌ⁽¹³⁾

فالدهر يعبث بالناس، يرفعهم تارةً ويخفضهم تارةً أخرى، وهو إنَّ سُرَّ يوماً، فلا بُدَّ من اقتران مسرته بسوءٍ توحى بكل أنواع التوتر المشحونة بالانفعال القلق، والشعور بالأسى العميق الذي يعتمل في خلجات نفسه، إذ لا يتحدث عن الدهر/الزمن، إلا في سياق التغيير والانقلاب والثبور والاستلاب.

فإذا كانت دهريّة أبي العلاء، برؤياها الوثوقية أو اليقينية لَحْتِمِيَّةِ التغيير والانقلاب، أو الثبور والاستلاب، وانهايار قوى الحياة، متشكلة ضمن التجربة الفردية فإن ذلك لا يعني أنه يطوق نفسه

بها، بل ينقلها كتجربة جماعية تنسحب على الواقع/الوجود، أي: ينقلها على المستوى الكوني، على الرغم من ظهورها بنائياً على المستوى الفردي، فهي صيحة ودعوة يطلقها أبو العلاء كي يعي الآخر حقيقة الوجود/ الكون.

ومن هنا يستطيع البحث أن يستوحي من تجربة أبي العلاء للوجود الكوني خطاباً يكرّس عدمية الجدوى من القوى الحيوية، ذلك لأنها بالتصور العلائي لا تملك لنفسها شيئاً، بل هي مملوكة لاحتمية الدهر وسلطته المطلقة.

ولكن ثمة سؤالاً يطرح ههنا، هل أبو العلاء دهري المعتقد؟ هل يؤمن بالدهر فاعلاً على الحقيقة، بمعنى آخر هل ينطبق عليه قول الله بحق من يدعي فاعلية الدهر: (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)⁽¹⁴⁾.

وللإجابة على هذا السؤال، لا بدّ من دراسة الفكر العلائي من خلال مؤلفاته الكثيرة، وخاصة اللزوميات، دراسة عميقة، على الرغم من أن الباحث لا يرجح أن يكون أبو العلاء دهرياً بالمفهوم الديني لاعتبارات منها:

1. أن أبا العلاء على ثقافة واسعة دينياً، هذا لا يستطيع أحد إنكاره، ومن هنا لا بدّ أنه اطلع على الحديث القدسي الذي يقول، "لا تسبوا الدهرَ فإنني أنا الدهر"⁽¹⁵⁾.
2. لا شك في أن القارئ لديوان اللزوميات، يجد شاعراً يفيض بالإيمان، ويدرك اعتقاداً جازماً بقدرة الله المطلقة، ولعلّ الأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها لا على سبيل الحصر، قوله:
وبدائع الله القدير كثيرةٌ فيَخُورُ فيها لبُّنا ويَحَارُ⁽¹⁶⁾

وقوله:

إلهنا الله ملكٌ أولُّ أحدُ تطيعُهُ منُ صنوفِ الناسِ آحادُ⁽¹⁷⁾

وقوله:

الله لا ريب حقٌ وهو مُحْتَجِبُ بادٍ وكلُّ إلى طبع له جَدْبَا⁽¹⁸⁾

3. قد يكون الدهر الذي قصده أبو العلاء هو دهرٌ على سبيل المجاز لا الحقيقة، وهذا كثير في الشعر العربي.

إنّ الشاعر يكرس حضوراً معرفياً واسعاً، إذ يواصل طريقته في فهم الوجود الكوني من خلال الوجود اللغوي؛ نواميسه وعلاقات ما بينه؛ فهو يستنتق اللغة بكل نواميسها وعلاقاتها كي تعبر عن ذلك الجانب الصامت، وتكشف أسرار الحياة، مجلياً تلك الوشائج بين اللغة والوجود، معتمداً

على تأويله الخاص لمصطلحات الوجود اللغوي؛ إذ يعتمد إلى تأثير هذه المصطلحات وفق أساس وجودي، فيمنحها حياة وقوة خاصيتين تخرجها من دائرة الجمود.

فالتركيب اللفظي والحروف والأصوات، واللفظ والمعنى، والنثر والنظم، والمصدرية والاشتقاق، والإعراب والبناء، والتعديّة واللزوم، والإعلال والتصحيح، والإدغام، والترادف والاشتراك، والمضمر والمظهر، والعروض، والقبض والبسط، وأوزان الشعر.... الخ ليست خصائص - بنظره - لتحديد البناء اللغوي والعروضي والصرفي والنحوي فحسب، وإنما هي خصائص وجودية كذلك.

لقد توسل الشاعر باللغة ونواميسها في التفسير والتأويل والفهم والإدراك لقضايا الوجود، وجعلها سنداً معرفياً يتكى عليه للولوج والتأمل لبناء الحقائق، بمعنى ؛ أنه أعطى اللغة الاصطلاحية رُؤية تمثلت بالتفكير في اللغة، فاللغة بنواميسها هي الطريق الأنجع للسفر في عالم الكون، وهي السبيل الموصل إلى سدرة الصواب في الكشف عن حقائق الكون والوجود.

ومن هنا نجدّه يصدق بثوقية مطلقة للبرهنة على الأبدية والسرمدية والاتساع والامتداد واللامحدود واللامتناه بقوله:

هذي حروف اللفظ سطرٌ واحدٌ منها تُؤلفُ للكلام بحارٌ⁽¹⁹⁾

ليس عبثاً، إذن، أن يخص شيخ المعرفة اللغة في الفهم والإدراك لحقائق الوجود، والعبور من خلالها إلى أسرار الكون، ما دام التركيب اللغوي غير متناهٍ وغير نهائي، فهو، إذن، "كالأبدية والسرمدية في اتساعها وامتدادها وعمقها"⁽²⁰⁾.

إنّ المشار إليه هاهنا هو الحروف الهجائية التي يأتلف الكلام منها، فهي بصورتها السديمية أو الأولية لا تشكل إلا سطرًا واحدًا، لكن بإتلافها تكوين غير متناه من الكلام، وكذا الوجود، متسع وممتد وغير متناه، أما قال الله في محكم كتابة: (فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم)⁽²¹⁾ وقال: (والسماء بنيانها بأيدٍ وإنا لموسعون)⁽²²⁾؟ أما قال: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)⁽²³⁾؟ ألا يتلاءم ذلك مع التوسيع الذي عدّه المعري دعامة تنظيره للمفهوم؟ ألا يعدّ ذلك تعصيماً لمفهومه؟

لا يخفى على ذي لب الوشائج بين المعنى الذي يتضمنه البيت السابق والأساس الوجودي، ومما يؤكد ذلك قوله في البيت الذي قبل هذا البيت:

وبدائع الله القدير كثيرةٌ فيخور فيها لبُّنا ويحارٌ⁽²⁴⁾

فهو يتحدث عن عجائب الله القادر التي هي أكثر من أن تحصى؛ ولهذا تحارُ العقول فيها وتضعف أمام عظمتها، على الرغم من أنها مؤلفة من عناصر أربعة: الهواء، والماء، والتراب، والنار، يقول:

إنا اتلفنا لأن الله ركبنا من أربع ثم حرنا بعدُ تختلف⁽²⁵⁾

ويقول:

والناس من أربع شتى اتلفت رُدَّت إلى سبعة في الحكم تختلف⁽²⁶⁾

وعلى هذا؛ فالأساس الوجودي هو المبدأ في التأثيل، وهو المنطلق في التأصيل، لا يبرح عنه حتى يعضده بما تحصّل له من تجربة لغوية، فالخلفية اللغوية تفعل عمودياً باتجاه خلق حال العضوية التي يتأسس عليها العمل الإبداعي وبتوضيح أكثر دقة. تحقيق تمظهرات البنية في النصوص التي التقطها الباحث في لزومياته بما تحوزه من خلفية مشدودة إلى تصوره الوجودي وتجربته اللغوية فعلاً إشارياً يتوسل به الداخل للانكشاف، ولعلّ تأويل كلمات اللغة وإرساء دلالاتها الاصطلاحية الجديدة غدت جزءاً من تجربته، ومتزامنة مع مسار التقعيد لديه؛ فهو يبدأ من لحظة بداية العالم وتجلياته، ثم تأخذه حال من الاستغراق في ذلك؛ ليستنبت تجربته الذاتية، ومن ثمة ينصت إلى إمكانات اللغة، وهذا الممر لا يسير في اللزوميات على نحو يخضع لترتيب صارم، إذ هو متشعب في اللزوميات وفي الخطاب العلاني، فلم يأت لنا بنص كامل يتحدث فيه عن التصور الوجودي، على نحو نستطيع معه الخروج برؤية كاملة لمفهومه، بل نجدنا نلتقط ذلك في اللزوميات على اتساعها التقاطاً يحتاج إلى جهد ومشقة.

لنتأمل الآن البيتين السابقين من حيث مضمونهما ودلالاتهما، كلاهما يدور حول سر الوجود، أو قل: حول تجليات الظهور، واتساعه؛ فباجتماع الحروف على نحو ما، تظهر الكلمات، وظهور الأشياء وتلوناتهما لا حصر له أيضاً، هكذا يتبدى الكلام عند الشاعر حالاً وجودياً، بخلاف الحروف التي يعدها حالاً عدمية، ذلك لأن الوجود لديه ظهور وتجلٍ، لذلك يجب التمييز بين المظهر والعين في اجتماع العناصر الأربعة وعدم اجتماعها كما في الكلام، فالماء عين، والتراب عين، وكذلك الهواء والنار، أما عندما تجتمع هذه الأعيان؛ فإنها تشكل مظهراً وتجلياً، وهذه المظاهر والتجليات لا حصر لها، متسعة وممتدة إلى غير نهاية.

وها هو يتوسل بالمنظوم والمنثور من الكلام كي يعبرَ من خلالهما إلى منطلقات وجودية، ما يلفت إلى وشائج قربي بين الوجود الإنساني وما يتلفظ به، لقد تأمل الموضوع من داخل معراج معرفي وجودي، يقول:

أمور سكان هذي الأرض كلهم كلفظهم فيه منظوم ومنثور⁽²⁷⁾

ولا أعتقد أن أبا العلاء، يريد من ذلك تفضيل أحدهما على الآخر، أي تفضيل النثر على الشعر أو العكس، وإنما ينظر إلى المسألة على أساس ما تحيل عليه بنائية كل منهما، بمعنى أن نواة التدخل بين النثر والشعر في خصوصية بنائية لا غير، ولا شك في أن المنظوم من الكلام هو ذروة الانتظام ؛ فلا تنفصل حكمه عن إتقان البناء فيه، ولقد كان زمن أبي العلاء يؤمن بالوزن والقافية رهاناً مقيداً للشعر.

فالكلام في زمنه منظوم ومنثور، والمنثور ما لم يتقيد بالوزن والقافية، والمنظوم هو ما تقيد بهما معاً، فلا مندوحة. في أن أبا العلاء المعري قد نظر إلى هذا الجانب البنائي في الكلام.

فالمنظوم، ما اتسم بالاتقان والانتظام والإحكام، لا يشتغل المعنى فيه بمنأى عن البناء، فالمعنى مرتبط ارتباطاً وثيقاً وعضوياً بالبناء، ولهذا قسّم أمور سكان الأرض إلى قسمين: قسّم يحتكم إلى ضوابط تحكمه، بل هو منفلت منها غير أبه بها ولها، وقسّم يحتكم إلى ضوابط صارمة لا يخرج عنها قيد أنملة.

العروض والشعر في الرؤية العلانية:

اهتم القدماء بدراسة أو ملامسة علاقة الشعر بالوجود، لا من حيث الموضوعات فحسب، ولكن من خلال البناء، فالتوصيف الإيقاعي للبيت يجسد ذلك، وهذا ما أشار إليه ابن رشيق في قوله: "والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة وساكنته المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعراض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواني والأوتاد للأخبية"⁽²⁸⁾. إن تشبيه بيت الشعر بالسكن في نص ابن رشيق يتسع في نص أبي العلاء ليغدو تشبيهاً لهذا الموجود ولعل أساس التشابه في البيت السابق هو البناء والانتظام والتركيب والدقة والإحكام.

ولعل ما يلفت الانتباه في اللزوميات، أن أبا العلاء المعري قد استخدم بيت الشعر ليضمن كثيراً من الدلالات الوجودية، في ضوء خصائص يمكن استجلاؤها عند قراءة تلك النصوص، فمن ذلك مثلاً قوله:

فَمَنْ لِي بِأَرْضٍ رَحْبَةٍ لَا يَحُلُّهَا سِوَايَ تَضَاهِي دَارَةِ الْمُتَقَارِبِ⁽²⁹⁾

وقوله:

وَأَعْمَارُنَا أَبْيَاتُ شَعْرٍ كَأَنَّمَا أَوَاخِرُهَا لِلْمُنْشِدِينَ قِوَايَ⁽³⁰⁾

وقوله:

بِقَائِي الطَّوِيلُ وَغَيِّي البَاسِطُ وَأَصْبَحْتُ مُضْطَرِباً كَالرَّجْزِ⁽³¹⁾

وقوله:

وجسْمُ المرءِ للأعراضِ ربُّعٌ فهل زكاهُ تزكية العروضِ
معانيه مُحيلاتُ المعاني كبيتِ الشَّعرِ قُطْعٌ بالعروضِ⁽³²⁾

صحيح أن شعر القدماء لم يكرس حضوراً قوياً في ساحة التصوير الوجودي، اللهم في حدود الإشارات المقتضبة، ذلك لأن القدماء قد انشغلوا بالتأصيل للشعر من الحقل البلاغي والمنطقي، مما حال بينهم - غالباً - وبين الالتفات إلى صلته بالوجود، ولكن ما نلاحظه في شعر أبي العلاء غير ذلك؛ إذ انشغل في تأليف أبيات ترتبط بالعلم والجسد، وعَمَد إلى دراسة قضايا الإنسان من خلال القواعد العروضية، قال:

إذا ابنا أب واحد ألفيا	جواداً وعييراً فلا تعجب
فإن الطويل نجيب القريض	أخوه المديد، ولم ينجب
ويشجب كل امرئ في الزما	ن من آل عدنان أو يشجب ⁽³³⁾

إن الطبيعة التكوينية للإنسان تلعب دوراً جوهرياً في تكوين هذا النص، فلفظ (أب) تشكل مركز إشعاع دلالي في صورة الأصل الواحد، واختلاف الفروع، وهذا ليس عجباً في رؤية الشاعر الوجودية، بيد أن أوج الرؤية وذروتها تتبدى حين تسفر الحقيقة عن وجهها، لتتجلى شمولية الموت المربعة للوجود الإنساني؛ فالموت لا يفرق بين ابن عدنان أو ابن يشجب (من عرب الشمال أو من عرب الجنوب).

وهو في هذا التصور الوجودي يمثل على ذلك، ببحور الشعر، إذ يرى أن بحور الشعر أصلها واحد هو (القريض)، على الرغم من أن استعمالها لدى الشعراء يختلف من بحر لآخر، فالطويل يستخدمه الشعراء كثيراً، بينما المديد يستخدمه الشعراء بشكل قليل، على الرغم من أنهما من أصل واحد هو الشعر.

إن الشاعر يركز على القيم وفعلها؛ فهي تكرر حضوراً فعلياً في شخص ما، بينما تنعدم في شخص آخر، ولكن الأمر لا يثير عجباً لديه، ذلك لأن وسيلة الحكم على الفعل في الحياة تنعدم بعد الموت، فحين يأتي الموت يتساوى عمرو مع زيد، على الرغم من اختلافهما قبل الموت في الفعل.

هنا يحاول البحث تفسير المبتدأ والمنتهى؛ فالمبتدأ واحد هو الأب والمنتهى واحد هو الموت، وما بينهما مختلف، بل يكون ما بينهما ضدّين لا يجتمعان، وإن اجتماعاً فيتحقق شرط

التمايز والاختلاف فيما بينهما، فهذا يمثل نزوة الانحلال والتفاهة، وذاك يمثل الالتزام والنقاها، ولكنَّ الإثنين إلى الموت سائران، والموت بصورته الظاهرة يساوي بين الأضداد.

ومن الأبيات الشعرية التي تكشف عن رهان المعري في استجلاب العناصر العروضية أو ملامسة الوجود الكوني الإنساني قوله:

وجسم المرءٍ للأعراض رُبُعٌ فهل زكاهُ تزكية العُروضِ
معانيه مُحيلاتُ المعاني كبيتِ الشَّعرِ قطعُ بالعروضِ⁽³⁴⁾

واضحٌ أنه يتوسل ببيت الشعر في تعليل رؤيته الوجودية؛ فهو يولّد الدلالة اعتماداً على الصورة البنائية للتقطيع العروضي.

إنَّ بيت الشعر يمثل حال الانتظام والإتقان والإحكام، وأن معانيه وحِكمه لا تنفصل عن إتقان البناء فيه، هذا هو الأصل، وهذا هو المعتمد عنده، الذي كان يؤمن بالوزن والقافية وإحكام البناء لبيت الشعر، إنَّ الشاعر يضاعف -كما قلت- من أهمية البناء وإحكام الصنعة فيه، لكنه سرعان ما يواجهنا بهذه الرؤية التي تدلُّ دلالة واضحة على صورة الهدم، ليزكنا بأن هذا البناء دارس لا محالة، وباندراسه وهدمه يفقد معناه؛ فبيت الشعر يفقد معانيه بالتقطيع العروضي/الهدم، كذلك، معاني الجسم/منازله، تفقد معناها وتندرس معالمها، في كل لحظة لأنها في حال تغير على الدوام إلى أن تصل إلى الهلُك والفناء.

ولعلَّ الشاعر هنا يعقد مقايضة بين منازل الجسم في صيرورة الزمن/ البناء، والتقطيع العروضي، وكلاهما يغير ويبدل، بل يُذهب الصورة المثلى للبناء التام الذي انعقد عليه كمال المعنى.

إنَّ الشاعر يعيش حالاً من القلق والتوتر حيال فعل الفاعل/المغير للبناء المكتمل، ولهذا لا يرى قيمة لهذه المنازل التي لا تحافظ على كينونتها أو على صورتها المثلى.

ومن هنا نجده يقول في موطن آخر:

وأعمارنا أبيات شعر، كأنما إذا حَسُنَتْ زانَتْ، وإن قَبَحَتْ جَنَتْ
وأخرها للمنشدين قوافي أذىً وهَوَىً فيما يَسُوءُ هوافي⁽³⁵⁾

فحياة الإنسان كأبيات الشعر، تختلف بألفاظها ومعانيها، وكأنها في النهاية قافيتها واحدة، كالموت بالنسبة للإنسان، مصيرٌ واحد لجميع البشر وإن اختلفت حياتهم.

وهو ينظر إلى سُنَّة الحياة نظرة تكاد تكون سوداوية، إذ لا يرى تفاؤلاً يمكن أن يعوّل عليه المرء، إنَّ حتمية الموت وانهيار القوى الحيوية في وجهه قد سيطر على منطق كلامه، فهذا هو يقول:

وآخر الدهر يُلْفَى مثل أوله
والصَدْرُ يأتي على مقداره العجزُ
فجهزني، لحاك الله والدهً
عَلَيَّ أُنْبَع أصحابي فانتجِرُ⁽³⁶⁾

ولعله يمثل على شطري الحياة (الشباب / والهرم) بصدر بيت الشعر وعجزه، ويرى أنهما على وزن واحد وعلى وتيرة واحدة؛ فأول عمر الإنسان لا يختلف عن آخر عمره، كذا العجز في بيت الشعر، لا يختلف في وزنه عن صدره. ولعل هذه الرؤيا عينها تتجسد في نصوص أخرى، وتتفتح على العالم الوجودي من خلال العروض الشعرية، يقول:

وقد طَوَّنتي كَأَنِّي ضَرْبُ مُنْسَرَحٍ
فيا لَطِيَّ لَطِيٍّ غير مُنْتَشِرٍ⁽³⁷⁾
ويقول:

وأكرمني على عيبي، رجالُ
كما روي القريضُ على الزحافِ⁽³⁸⁾
ويقول في الطباع والأخلاق التي يقتضيها الظرف:
بكلِّ حالٍ سجايا، والقريضُ بُنَى
لا تقتضيك بغير البدءِ تصرُّيعاً⁽³⁹⁾

تناسق الرؤية والأداة عند المعري:

ولعل مجمل النصوص التي وردت من بداية البحث، تبدأ من حتمية الموت، والشاعر في كل ذلك لا يتفائل؛ فالمتمائل في أعماقها يجدها لا تبعث قوى الأمل التي تزيل حدة التوتر والقلق، الأمل الذي يحدث نوعاً من التوازن الانفعالي مع الواقع الذي يرسمه من خلال الرؤيا الوثوقية التي يحاول جاهداً إثباتها، بل على العكس من ذلك نجده يبدأ من حتمية الموت ليؤكد عدم جدية الحياة وعدم جدواها، وهو في هذه الرؤيا يذكرنا بقول امرئ القيس حين قال:

أرانا موضعين لأمرٍ غيبٍ
عصافير، وذُبَانٌ ودودُ
وكلُّ مكارم الأخلاق صارتُ
فبعوض اللؤمِ عازلتني فإني
إلى عرق الثرى وشجت عروقي
ونفسي سوف يسلبها وجرمي
ونسُحَرَ بالطعام، وبالشرابِ
وأجرأ من مُجَلِّحَةِ الذئابِ
إليه همتي وبه اكتسابي
ستكفيني التجاربُ وانتسابي
وهذا الموتُ يسلبني شبابي
فيلحقني وشيكا بالترابِ⁽⁴⁰⁾

"فالشاعر في هذه القصيدة يعرض رؤياه للوجود الإنساني عن طريق ثنائيات ضدية عميقة؛ فهو يرى الإنسان في حركته المتسارعة نحو غياهب الموت، ومع ذلك ظل الإنسان مسحوراً بالطعام والشراب، وبالنشاط الفيزيائي المادي الذي يحقق غرضاً واحداً هو الحفاظ على الحياة"⁽⁴¹⁾. وإذا كان المعري قد عوّل كثيراً في تأثيله لمفهوم الوجود وانقلاب الأحوال الكونية والإنسانية على المصطلحات العروضية، فإنه لا ينفك في تأثيل المفهوم من خلال تأويل المصطلحات النحوية، بما يتواءم مع الأساس الوجودي، أو قل من خلفية مشدودة إلى التصور الوجودي عبر مصطلحات اللغة والنحو، على نحو غدت معه تلك المصطلحات أو المفهوم النحوي، حتى جعلته حياً وجوده ضمن الرؤيا في الممارسة الشعرية، يقول:

حَكْمٌ تَدُلُّ عَلَى حَكِيمٍ قَادِرٍ	مُتَفَرِّدٍ فِي عَزِّهِ بِكَمَالٍ
وَالْمَالُ خِذْنُ النَّفْسِ غَيْرَ مُدَافِعٍ	وَالْفَقْرُ مَوْتُ جَاءَ بِالْإِهْمَالِ
أَوْ مَا تَرَى حَكَمَ النُّجُومِ مَصُوراً	بَيْتَ الْحَيَاةِ يَلِيهِ بَيْتُ الْمَالِ
وَمِنَ الْجِهَاتِ السَّتِّ رُبِّي حَائِطِي	لَا عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَشِمَالِ
أَرَاوَحُنَا أُلْفِينَ كَالْأَرْوَاحِ فِي	خَيْرٍ وَشَرٍّ مِنْ صَبَا وَشِمَالِ
وَالْمَرْءَ كَانَ، وَمِثْلَ كَانَ وَجَدْتُهُ	حَالِيهِ فِي الْإِلْغَاءِ وَالْإِعْمَالِ ⁽⁴²⁾

وما يهمننا في هذه الأبيات هو البيت الأخير على الرغم من أن الأبيات كلها تزدهم بالقلق الوجودي المتزامن مع القلق اللغوي الذي يتأرجح بين الإثبات والنفي، ثبات طلاقة قدرة الله المنفردة بالعزة والكمال والقدرة، ثم وجود المال وفقدانه، والتدليل على أهميته من خلال التناص بين قوله: (أو ما ترى حكم النجوم مصوراً بيت الحياة يليه بيت المال) وبين قوله تعالى: "الله الذي خلقكم ثم رزقكم"⁽⁴³⁾، ثم التأرجح بين الخير والشر، مثل الريح التي تهب من شمال مرة ومن الشرق مرة أخرى فنفس الإنسان في اصطراع الخير والشر في هذه الدنيا كما الريح في هبوبها.

أما البيت الأخير، فيمثل محط الرحال في توظيف المصطلح النحوي لتأثيل المفهوم الوجودي. فهو - أيضاً - يتأرجح بين (كان التامة/بمعنى وجدّ، وبين كان الناقصة التي تدخل على الجملة الاسمية فترفع الأول ويسمى اسمها وتنصب الثاني ويسمى خبرها، وهي في هذه الحال قد يبطل عملها في حال وقوعها بين ما التعجيبية وفعل التعجب (كقولنا: ما كان أعظمه).

وهو يشير إشارة لماحة إلى الإنسان الذي يعمل جاهداً، في هذه الحياة ثم يموت فيلغي عمله، وهو في هذا كله يتعجب من ذلك.

تكشف البنية اللغوية للبيت الأخير رهان شيخ المعرة على المصطلح النحوي المتمثل في "كان" التامة و"كان" الناقصة في حال بطلان عملها لصياغة قراءة كاشفة للكون الإنساني؛ فالمعتمد في هذا التأثيل ذو بنية متناغمة مع الرؤيا الوثوقية التي يحاول أبو العلاء تأصيلها؛ فالإنسان يصل لحظة ما، ذروة الاكتمال الحيوي، لذا فهو يمارس وجوده بشكل يتناغم مع "كان" التي تأتي بمعنى الوجود، ولكن هذه الصورة المتمثلة في "كان" تحمل صورة أخرى ضدية وهي صورة العدمية والبطلان، مع أن "كان" هي، ولكن الذي اختلف هو الموطن، فبالموطن فقدت "كان" عملها، كما يفقد الإنسان عمله في موطنه الجديد، موطن البرزخ/الموت.

وقال أيضاً:

والجسمُ ظرفُ نوائِبٍ، وكأنَّه ظَرْفٌ يُؤخِّرُ تارَةً وَيَقْدِمُ⁽⁴⁴⁾

يكرُس البيت حدة التوتر والقلق، فهو منذ البدء يعلن أن الجسم وعاءٌ للمصائب ولأحداث الزمان، وهو في ذلك يشبهه بظرفي الزمان والمكان (المفعول فيه)، الذي لا يمتلك لنفسه حرية الثبات، بل هو متأرجح بين تقديم وتأخير، إذ يجوز فيه الحالان: التقديم والتأخير/ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما العلاقة التي يقيمها الشاعر بين هذا الجسم والمفعول فيه؟ لا شك في أن قضية التقديم والتأخير على المستوى الدلالي، تذكر بقضية الموت في فترة الشباب وفي فترة الشيخوخة، وبخاصة إذا ربطنا الشطر الأخير من البيت بالشطر الأول ربطاً يواشج بين كل منهما دلالياً؛ فالجسم في حال كونه وعاءً لحوادث الزمان، معرضٌ لفعل الحوادث، فهي قد تؤدي به في شبابه وقد تؤخره إلى فترة الشيخوخة، ومن هنا يربط أبو العلاء بين هذه الحال وحال (المفعول فيه) في كونه لا يملك لنفسه المستقر الذي يريده، بل يجوز عليه التقديم كما يجوز عليه التأخير، فضلاً عن أنه يمثل ظرفي الزمان والمكان، وكلاهما قابل للتغيير والتبديل ويكرسان المعرفة اللايقينية، فقد يكون الزمان مبهماً ملتبساً كما يكون المكان كذلك، فهذا التيه الزماني والمكاني يتجسد قلقاً مطابقاً تماماً على مستوى الجسد/وعاء المصائب والنوائب.

ولنا في قوله في موطن آخر ما يكشف ويجلي تلك الرؤيا:

والفتى كاسمِ المَصْرَفِ هذا ال جسمٌ يلقى التَّغْيِيرَ والتَّغْلِيْبَ⁽⁴⁵⁾

وقوله:

وتودِعُ الناسَ في بعضِ الثرى نُوبٌ خفضٌ ورَفْعٌ وتحريكٌ وإسْكانٌ⁽⁴⁶⁾

وقوله:

والمرءُ مثلُ الحَرْفِ بين سُهاده وكراهُ يُسَكِّنُ تارَةً وَيُحَرِّكُ⁽⁴⁷⁾

وقوله:

ونحن بعلم الله من متحرك يرى ساكناً أو ساكن يتحرك⁽⁴⁸⁾

ولا يكتفي الشاعر بتوليد الدلالة من الدال اعتماداً على المصطلحات التي ذكرناها سابقاً، وإنما يقوم بأكثر من ذلك، إذ يقوم بإعادة ترتيب الحروف إلى حدّ قلب الدال؛ فقد فهم أبو العلاء كلمة (جرم) بقلبها إلى جمر، كي يدلل على استحقاق العذاب، يقول:

وجرم في الحقيقة مثل جمر ولكن الحروف به عكس⁽⁴⁹⁾

بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، حين يخضع الدال لقراءة تعتمد الأصل في الجذر للفظ، فيستحضر أصل الوضع اللغوي للمادة ويدمجها في بناء الدلالة على نحو قوله:

قالوا تقسم مقتول على حنق فقلت سيان كلم الميت والكلم⁽⁵⁰⁾

ونحو قوله:

والخل في لفظه دليل بأن في وده اختلالا⁽⁵¹⁾

يتجلى مما سبق أن الدال محور مركزي في استراتيجيّة القراءة، ولا شك في أن ذلك يدل على دور اللغة في توليد المعاني التي استنبطها الشاعر من داخل تجربته الوجودية واللغوية، فلا غرو - إذن - أن يراهن المعري على اللغة، لتصبح جزءاً من تجربته الوجودية. لذا فهو لا يترك شيئاً من مصطلحات اللغة إلا ويجعله مسار التأثيل في مفهومه الوجودي، على نحو قوله:

وبعض خوايل الأسماء دلت على تعريفه ألف ولام⁽⁵²⁾

أعللت علة "قال" وهي قديمة أعياء الأطباء كلهم إبراهيم⁽⁵³⁾

وهذا شبيه بقوله:

جسم الفتى مثل "قام" فعل مذ كان ما فارق اعتلالا⁽⁵⁴⁾

وقوله:

هي الأشباح كالأسماء يجري القضاء فيرتفع وينخفض⁽⁵⁵⁾

خاتمة

عَرَضَتْ هذه الدراسة تعويل أبي العلاء المعري على اللغة وإمكانات مصطلحاتها في بناء الصورة الكونية والوجودية؛ فمصطلحات اللغة بكل تجلياتها متشابكة مع تصوراته الوجودية؛ بل كانت منطلقاً تأويلياً استراتيجياً لديه، وعلى هذا فكون أبي العلاء ووجوديته قد تأسسا من رَحِم اللغة العربية لا من خارجها.

وإذا كانت نصوصه تتمرأى للدارس من معين ثقافات أخرى، وعلى نحو ما هو معلوم عنه من أنه مثقف – بثقافات عديدة- بامتياز؛ فإنّ هذه الكونية أو الوجودية تحققت من رَحِم إمكانات اللغة العربية ومن أقاصيها اللانهائية، وهو ما انكشف في ممارسته في رصد تصوراته من خلال مرجعياته لإمكانات اللغة العربية، وهو تصور اشتغلت فيه اللغة بانسجام مع الخلفية الوجودية التي سبق أن تابع البحث منطلقاتها.

Language and Presence in Al-Ala'ee Perception: Al-Lzumiat Model

Mahmoud Saleem Hayajneh, *Department of Arabic Language, Shaqra University, KSA.*

Abstract

This study discussed Abi Alaa' alm'ari dependence on language and the vocabulary characteristics in constructing the universal and existentialist figures, because Arabic vocabulary with all of its manifestations is related to his existentialist beliefs, also it was a strategic explanation base for him; thus, we can say that Abi Alaa' existentialism had been adopted within the Arabic language and not from any other source.

So if his texts are regarded by any researcher to be adopted from other people's cultures, especially if we realize that he was a highly multicultural educated person, the universal and existentialist beliefs had been achieved within the Arabic language context and its infinite extremes, and that appeared during his practice and belief review about the possibilities of the Arabic language, and this manifestation had been employed in the Arabic language in a way that was congruent with the existentialist background. The research has shed light on it presciently.

قدم البحث للنشر في 2012/9/9 وقبل في 2012/12/24

الهوامش

- (1) أبو العلاء المعري واللغة: د. عبد الكريم الأشتر، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 81، ج3، ص507-508.
- (2) قلق الحياة في أدب أبي العلاء المعري: د. حامد صادق قنبي، مجلة مجمع اللغة الأردني، مجلد 70، ص5 وما بعدها.
- (3) ديوان لزوم مالا يلزم (اللزوميات): لأبي العلاء المعري، تقديم وشرح: وحيد كباية وحسن محمد دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، ج1، ص160.
- (4) اللزومات، ج1، ص312.
- (5) اللزوميات، ج1، ص65.
- (6) المرجع نفسه، ج1، ص146-147.
- (7) المرجع نفسه، ج1، ص532.
- (8) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق: بكري شيخ أمين، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1985م، ص156.
- (9) اللزوميات، ج2، ص5.
- (10) المرجع نفسه، ج2، ص10.
- (11) المرجع نفسه، ج2، ص169.
- (12) اللزوميات، ج1، ص414-415.
- (13) اللزوميات، ج2، ص34.
- (14) الجاثية، 24.
- (15) رواه البخاري ومسلم.
- (16) اللزوميات، ج1، ص431.
- (17) المرجع نفسه، ج1، ص305.
- (18) اللزوميات، ج1، ص106.
- (19) اللزوميات، ج1، ص431.
- (20) المعري ذلك المجهول: رحلة في فكره وعالمه النفسي: عبد الله العلايلي، دار الجدير، بيروت، ط3، 1995، ص33.
- (21) البقرة، 115.

- (22) الذاريات، 47.
- (23) الكهف، 109.
- (24) اللزوميات، ج 1، ص 431.
- (25) اللزوميات، ج 2، ص 58.
- (26) اللزوميات، ج 2، ص 55.
- (27) اللزوميات، ج 1، ص 406.
- (28) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2001، ج 1، ص 121.
- (29) اللزوميات، ج 1، ص 129.
- (30) المرجع نفسه، ج 2، ص 65.
- (31) المرجع نفسه، ج 1، ص 597. والرجز: من بحور الشعر وهو كثير الاضطراب لما لتفعيلته من جوازات (مستفعلن تأتي على مفتلن، ومفاعلن).
- (32) المرجع نفسه، ج 1، ص 680.
- (33) اللزوميات، ج 1، ص 160.
- (34) اللزوميات، ج 1، ص 680.
- (35) اللزوميات، ج 2، ص 65.
- (36) المرجع نفسه، ج 1، ص 585، والوالدة هاهنا: الدنيا، وجهزيني بمعنى: أعدّي لي كفي.
- (37) اللزوميات، ج 1، ص 504، وفي هذا البيت يشير إلى فعل الليالي به، مثل ضرب المنسرح الذي أصابه الطي، والطي: هو حذف الرابع الساكن من الضرب مستفعلن، فتصبح مستعلن.
- (38) المرجع نفسه، ج 2، ص 72.
- (39) المرجع نفسه، ج 2، ص 41.
- (40) ديوان امرئ القيس: ضبط مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983، ص 43.
- (41) الرؤى المقنعة: كمال أبو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص 231.
- (42) اللزوميات، ج 2، ص 277.
- (43) الروم، آية 45.
- (44) اللزوميات، ج 2، ص 336، ظرف الأولى بمعنى الوعاء، وظرف الثانية المفعول فيه (ظرف الزمان والمكان).

- (45) اللزوميات، ج1، ص120، الاسم المصروف، هو الاسم الذي يقبل الحركات الإعرابية: الرفع والخفض والنصب.
- (46) اللزوميات: ج2، ص446.
- (47) اللزوميات: ج2، ص124.
- (48) اللزوميات: ج2، ص118.
- (49) اللزوميات: ج2، ص474.
- (50) المرجع نفسه، ج2، ص323.
- (51) المرجع نفسه، ج2، ص210.
- (52) المرجع نفسه، ج2، ص330.
- (53) المرجع نفسه، ج1، ص54.
- (54) المرجع نفسه، ج2، ص210.
- (55) اللزوميات، ج2، ص472.

المصادر والمراجع

- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1955.
- أبو العلاء المعري: ديوان لزوم مالا يلزم (اللزوميات)، تقديم وشرح وحيد كباية وحسن محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004.
- امرؤ القيس: ديوان امرؤ القيس، ضبط مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.
- حامد صادق قنبيبي: قلق الحياة في أدب أبي العلاء المعري، مجلة مجمع اللغة الأردني، مجلد 70.
- عبدالكريم الأشتر: أبو العلاء المعري واللغة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 81، ج3.

عبد الله العلايلي: المعري ذلك المجهول رحلة في فكره وعالمه النفسي، دار الجدير، بيروت، ط3، 1995.

فخر الدين الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1985م.

كمال أبو ديب: الرؤى المقنعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986.

محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري: صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1987.

مأساة "رستم وسهراب" / دراسة تتبعية وصفية

عارف أحمد الزغول*

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل قصة رستم وسهراب التي تعدّ من أشهر قصص التراجيديا وأقواها في ملحمة الفرس الشعرية "الشاهنامه"، التي نظمها الفردوسي في أواخر القرن الرابع الهجري، وألقى الضوء من خلالها على آمال وآلام أمة سادت المعمورة لآلاف السنين. وتركز الدراسة في هذه القصة _ التي يلقي فيها الفارس الشاب "سهراب" مصرعه على يد والده "رستم" دون أن يعرف أحدهما الآخر _ على القوة المربعة للقدر المكتوب على الجبين، الذي لا يمكن الإفلات منه بالحدز والتدبير، كما تركّز أيضاً على جانب النبوغ الأدبي لدى الفردوسي، إضافةً إلى تركيزها على المنزلة الرفيعة التي بلغتها هذه القصة، مقارنة بمثيلاتها في الآداب العالمية؛ إذ عدّها النقاد واحدةً من أعظم قصص التراجيديا وأكثرها إثارة وقوة.

الكلمات المفتاحية: الشاهنامه، الفردوسي، رستم، سهراب، التراجيديا.

المقدمة:

يُعدّ الأدب الفارسي من الآداب العريقة التي اشتملت على أدب ملحمي راق، اختزل بين جنباته نضالات أمة على مدى قرون طويلة، تجاوزت آلاف السنين، وقد عمل الشاعر الفارسي الكبير "أبو القاسم الفردوسي" على جمع شتات الأدب الملحمي في كتاب شعري ضخم سماه "الشاهنامه" بعدما كان مبعثراً هنا وهناك على شكل روايات نثرية دونها وجمعها "أبو منصور محمد بن عبد الرزاق"⁽¹⁾ في كتاب نثري باللغة الفارسية الإسلامية؛ وقد أصبح هذا الكتاب المرجع الرئيسي للفردوسي في نظم الشاهنامه⁽²⁾.

إن الشاهنامه التي نظمها الفردوسي شعراً، على قالب المزدوج "المثنوي" جاءت على وزن البحر المتقارب (فعلون فعولن فعولن فعل) واستغرق نظمها ثلاثين عاماً (370 - 400هـ. ت)⁽³⁾، وهي بدون شك تُعدّ عملاً ملحمياً ضخماً يتألف من ستين ألف بيت من الشعر، تحدث فيها الشاعر عن آمال أمة الفرس، وآلامها، وعن صراعها المير من بداية تشكل الإمبراطورية الفارسية

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

حتى أقول نجمها وانتهيارها على يد العرب المسلمين الذين هزموا جيوش يزدجرد الثاني في معركة القادسية.

تتألف الشاهنامه من ثلاث مراحل تكمل بعضها بعضاً؛ أولها المرحلة الأسطورية، وثانيها مرحلة الفروسية، وأخرها المرحلة التاريخية. وتعد مرحلة الفروسية من أجمل مراحل الشاهنامه؛ لأن هذا الجزء يحتوي على أقوى قصص الحرب والحب والتراجيديا، كما أن القارئ يتعرف من خلاله على فرسان الشاهنامه الكبار الذين خاضوا غمار حروب طاحنة ضد أعداء إيران من طورانيين، وروم، وعرب، كما يعاين القارئ ولع هؤلاء المحاربين بالخمرة والحرب والحب والطرب، سيما عندما يصمت صليل السيوف ويخبو وقع سنايك الخيل. وقد وصف المستشرق الألماني "نولدكه" وهو متخصص في الشاهنامه هذه الملحمة بقوله: "إن روح الفروسية تموج في جميع أرجاء الملحمة التي تمتدح بشدة بأس محاربي العصور القديمة، وقوة شكيمنتهم في ميادين النزال، بلغة صلبة ورزينة، ملحمة تمتزج فيها ضوضاء الحرب، وصيلل السيوف مع صيحات الطرب، وهمسات الفرسان العاشقين للشراب والحسان"⁽⁴⁾.

تشتمل الشاهنامه كأى ملحمة أخرى على قصص حب، وغرام، وتراجيديا، تشكلت أحداثها إلى جانب روايات الحرب الطاحنة التي ترتعد لهولها الجوارح. ومن هذه القصص: قصة عشق سياوش، وقصة بيجن ومنيجه، وقصة رستم واسفنديار، وقصة رستم وتهمينه، وتراجيديا رستم وسهراب التي نحن بصدد تحليلها.

ومن الجدير بالذكر أن الشاهنامه واحدة من ثلاث روائع ملحمة جادت بها أذهان خلافة أدباء خلدتهم أقلامهم الموهوبة، وهذه الملاحم هي: الألياذة والأوديسه لـ "هوميروس"، ورامايانا ومهابهاراتا لحكيم الهند "وياسا"، والشاهنامه للفردوسي⁽⁵⁾.

إن الشاهنامه كأثر ملحمة لأمة ذات تاريخ سحيق وحضارة موهلة في القدم، تتحدث في مجملها عن الحروب التي خاضتها الأمة الفارسية للحفاظ على استقلالها وحضارتها، ويلمح القارئ بين ثناياها معظم المظاهر والجوانب الثقافية والحضارية للأمة الفارسية ويتعرف من خلالها على أديان الفرس ومذاهبهم، وأخلاقهم وفلسفتهم في الحياة، وعلى طقوسهم المختلفة في الحرب والحب والزواج واحتساء الخمرة في مجالس لهوهم وطربهم، وقد نظمها الفردوسي شعراً بلغة تعدّ أنموذجاً في الفصاحة والبلاغة وعمق الدلالة وقوة النبوة وروعة الجرس مما حدى بـ "ابن يمين الفريومدي"⁽⁶⁾ أن يجزم بأن الكلام في البدء كان فوق العرش قبل هبوطه، فأخذه الفردوسي وأعادته ثانية إلى أعالي السماء⁽⁷⁾؛ كما أن "عروضي السمرقندي"⁽⁸⁾ الذي كان يعيش بعد الفردوسي بقرن ونصف، أدرك عظمة الفردوسي وشعره إذ قال: "لقد أوصل الفردوسي الكلام من حيث الرفعة إلى أعالي السماء، ومن حيث العذوبة إلى مرتبة ماء المعين، فأنى لشاعر هذه المقدرة

الفذة على إيصال الكلام للدرجة التي أوصله الفردوسي إليها، فأنا لم أر كلاماً بهذه الفصاحة في كلام العجم، وفي كثير من كلام العرب"⁽⁹⁾.

وكان الفردوسي على يقين بأن الشاهنامه التي نظمها سوف يكون لها شأن عظيم على صعيد الأدب الفارسي، والأدب العالمي، وقد عبر عن ذلك بقوله:

تتهلوي القصور العظيمة وتنهار، بفعل السيول الجارفة والرياح العاتية، أما أنا فقد شيدت من النظم قصراً منيفاً، ليس للخراب والدمار إليه سبيل، لقد ذقت الأمرين خلال هذه الأعوام الثلاثين، فأحييت أمة العجم بهذا الشعر الفارسي، لن أموت بعد الآن فقد كتبت لي الحياة، لأنني بذرت بذور فصيح الكلام"⁽¹⁰⁾.

أحداث القصة ومجرياتها:

في صبيحة أحد الأيام، أحس الفارس الإيراني الكبير "رستم"⁽¹¹⁾ بضيق شديد، ووجد في نفسه رغبة جامحة للخروج في طلب الصيد؛ فامتطى صهوة جواده "رخش"⁽¹²⁾ وسار بحثاً عن طريدة يصطادها، ففاده الترحال إلى تخوم "الطورانيين"⁽¹³⁾ الأعداء للدودين لإيران، وقد اصطاد بعض الحمر الوحشية، وبعد أن شوى إحداها وتناوله بالكامل، غط في نوم عميق، وعندما استيقظ من نومه لم يجد حصانه "رخش" فراح يبحث عنه، وقاده أثر الحصان إلى مدينة "سمنجان"⁽¹⁴⁾ التابعة للطورانيين؛ فاستقبله ملك سمنجان استقبلاً يليق بفارس مثله، وأنزله في قصره، وأقام له وليمة مهيبة حضرها نخبة من الأمراء والفرسان الطورانيين، وشرب الجميع كؤوسهم في جو حافل بالطرب وأنغام الموسيقى، وحينما أوى الفارس الضيف إلى فراشه جاءت إلى حجرته حسناء طورانية تخلص الألباب بجمالها، وطلبت منه أن يتزوجها، لأن الهوى تمكن منها وتغلب على عقلها من جهة، ولكونها تطمع في أن يكون لها ولد فارس، من سلالة فارس إيران "رستم" من جهة أخرى، تلك الحسناء المتيمة لم تكن سوى "تهمينه" ابنة ملك "سمنجان"، انتهز "رستم" هذه الفرصة، وتزوج "تهمينه" حسب الأصول المرعية، والتأم الشمل لليلة واحدة فقط، انعقدت خلالها نطفة مأساة مروعة ترقّ لهولها قلوب أعتى الرجال والفرسان، وعندما اقتربت لحظات الفراق أعطى رستم لزوجته "تهمينه" خزانة على سبيل الذكرى:

أعطاها الخزانة وقال لها، احتفظي بها، فإن رزقك الدهر طفلةً، فاجعليها في ظفيرة شعرها، كعلامة حسن طالع وفال طيب، وإن رزقتك السماء ولداً، فاربطي الخزانة في ساعده علامة من أبيه، فبدون شك سيكون طويل القامة كزريمان⁽¹⁵⁾، وسيكون فارساً مغوراً كريماً السجيا⁽¹⁶⁾.

في الصباح عثر رستم على جواده، وبعد أن ودّع زوجته "تهمينه"، سارع في العودة إلى إيران، ولم يمض وقت طويل حتى تحققت أمنية "تهمينه"، وأنجبت ولداً يحمل معظم صفات الفروسية التي يتمتع بها والده، وسمته أمه "سُهراب":

تحسبه رستم الفارس ذا الهيكل الضخم، أو سام⁽¹⁷⁾ الشجاع أو نيرم⁽¹⁸⁾، وعندما ترعرع وتألّق محياه، اختارت له تهمينه سهراب إسمًا⁽¹⁹⁾.

عندما بلغ "سهراب" العاشرة من عمره أصبح فارساً صلباً ومقاتلاً لا يشق له غبار، وما كان بمقدور أحد أن ينازله، وكان هذا الفارس اليافع مدرّكاً بأن الله قد حباه قوة غير عادية، لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن والده؛ مما دفعه إلى الإلحاح على والدته كي توضح له هذا الأمر، فخاطبته بقولها:

إنك ابن الفارس الكبير رستم، ومن سلالة دستان⁽²⁰⁾ وما استعلانك إلا لأنّ ذلك البيت أصلك⁽²¹⁾.

بعد أن أطلعت "تهمينه" ابنها على والده ونسبه، ألحت عليه أن لا يخبر الملك الطوراني "أفراسياب" عن نسبه حتى لا يدفعه حقه على "رستم" إلى الفتك بولده "سهراب"، كما طلبت من "سهراب" أن لا يبرح أرض "طوران"⁽²²⁾، ويلحق بأبيه في إيران لأنها تخشى عليه من نواب الدهر ولا تطيق فراقه.

خطة سهراب:

على الرغم من أن سهراب كان آنذاك فتى يافعاً، إلا أنه كان يفكر بعقلية الفرسان الكبار الناضجين، وكان تواقاً إلى أن يرى نهاية للحرب الضروس التي تدور رحاها باستمرار بين إيران وطوران، ودار في خلدّه أن يُخلّص إيران وطوران من كل هذا العناء، ورأى أن يقود جيشاً جراراً من طوران، يحتل بواسطته إيران وينهي حكم الملك الفارسي "كيكاووس"⁽²³⁾ ويقتلع ملكه من الجذور، ويُنصّب أباه رستم ملكاً على إيران، ثم يهاجم المملكة الطورانية، ويطيح بالملك الطوراني "أفراسياب" وتتوحد إيران وطوران تحت راية ملك واحد كي يتربع رستم "وتهمينه" على عرش ذلك الملك:

حين يكون رستم أبي وأنا ابنه، يجب ألا يبقى على وجه الأرض صاحب تاج آخر، فحين تسطع الشمس بأنوارها، فمن أين للنجوم مجال للظهور؟⁽²⁴⁾.

همّ سهراب بتنفيذ خطته، وبدأ بالبحث عن جواد باستطاعته أن ينوء بحمل فارس ضخم مثله، ووجد ضالته المنشودة بعد أن أحضروا له مُهراً من سلاسة حصان أبيه "رخش"، ثم

استأذن جده لأمه يعنى ملك مدينة "سمنجان" كي يسمح له بغزو إيران، وملاقاة والده والإطاحة بملك "كيكاووس" واجتمع حول "سهراب" جيش جرّار من الطورانيين، لكن ملك الطورانيين "أفراسياب" الذي علم بوجود سهراب فيما بعد راح يتوجس منه خيفة، ووجد الفرصة مناسبة للتخلص من "رستم" على يد ابنه "سهراب" كي يتمكن بعد ذلك من مهاجمة إيران واحتلالها، الأمر الذي يبدو ضرباً من المحال بوجود "رستم"، وفي سبيل الوصول إلى هدفه أوعز "أفراسياب" لفارسين من دهاة فرسانه كي يرافقا جيش "سهراب"، ويحولا دون تعرف الابن على والده:

يجب أن لا يعرف الابن والده، من خلال التآلف الروحي والعاطفي، فعندما يتقابلان وجهاً لوجه، فإن رستم سيبادر خصمه بالنزال، فلعل هذا الفارس العجوز يلقي حتفه على يد هذا الأسد الهصور، فنصبح قادرين على فتح إيران، وتضييق الخناق على الملك كاووس، وعندئذ نتدبر أمر سهراب، ونقضي عليه تحت جنح الظلام وإن قتل على يد والده رستم، فإن عزيمة والده سوف تخور⁽²⁵⁾.

كانت خطة أفراسياب خطة مأكرة وخبيثة، فهو يريد أن يقضي على "رستم" على يد ابنه "سهراب" أو أن يحطم عزيمة "رستم" بمصرع "سهراب" على يد والده، فيخلو له الميدان وينتزع ملك إيران دونما عناء.

إن "رستم" الذي نعرفه من خلال ملحمة الفرس يعنى الشاهنامة ليس مجرد فارس مغوار وبطل قهار يهزم خصوم إيران على الدوام، بل يمثل شخصية عسكرية فذة يجتمع فيها مزيج من العقل والحكمة، والقوة والشجاعة، والصبر والتضحية، والقارئ للشاهنامة يكبر في هذا البطل الأسطوري صلابته في إدارة المعارك، ورباطة جأشه في منازلة الخصوم وذوده عن حمى بلاده وقهره لأعدائها الطورانيين، ومما لاشك فيه أن إبعاده عن ميادين القتال بأي نحو كان، أو تحطيم عزيمته سيحدث خللاً في موازين القوى بين إيران وطوران؛ ولذلك كله نرى "أفراسياب" الطوراني يحيك هذه الدسيسة الخبيثة، ويمهد لوقوع مأساة مؤلمة تدمي المآقي والقلوب⁽²⁶⁾.

رحلة البحث عن الأب:

زحف سهراب بجيشه صوب إيران واحتل قلعة إيرانية حدودية، وأسر قائد حامية القلعة المسمى "هجير"⁽²⁷⁾ ليحصل منه على معلومات عسكرية، وليساعده في التعرف على والده رستم كي يتحاشى الصدام معه، وسرعان ما وصلت أخبار هذا الهجوم إلى إيران بواسطة الرسالة التي كتبها "كجدهم"⁽²⁸⁾، وهو أحد حراس القلعة الحدودية إلى الملك كيكاووس، وتحدث فيها عن قائد طوراني لم يرَ بشجاعته أحد قط من بين محاربي إيران وتوران، ويشير في رسالته إلى أن هذا

الفارس المهاجم يشبه "رستم" و"سام" و"نيرم" إلى حد بعيد: ولم ير أحد فارساً مثله ولا يشبه من الفرسان إلا سام.

ويستطرد حارس القلعة "كجدهم" في وصف شجاعة سهراب، ويؤكد أن هذا الفارس الصنديد شبيه بـ "رستم" و"سام" و"نيرم"؛ لأن فرسان هذه الأسرة رمز لفروسية وشجاعة العرق الآري الذي يهزم أعداءه على الدوام.

عرض الملك "كيكاووس" رسالة "كجدهم" على قادة وفرسانه، وتحدث لهم عن ذلك القائد الطوراني الذي أثار الرعب في قلوب محاربي إيران، فأشاروا عليه جميعاً أن يرسل رسولاً إلى "رستم" يطلب منه التصدي لهذا الخطر المحدق بمملكة إيران، واختار "كيكاووس" الفارس "جيو"⁽²⁹⁾ وأرسله رسولاً لرستم يطلب منه التحرك بسرعة للتصدي لجيش طوران وقهر قائده الجسور: فارس جسور وشجاع قوي كفيل غاضب وشجاع كأسد هصور لا قبل لأحد به من فرسان إيران، فليس أحد غيرك يصلح لملاقاته⁽³⁰⁾.

عندما وصلت الرسالة ليد "رستم" تعجب من ظهور فارس شبيه به وبآبائه وأجداده، وفكر للوهلة الأولى بأن يكون هذا الفارس هو ابنه "سهراب"، لكنه اعتقد أن "سهراب" مازال صغيراً على قيادة الجيوش واحتلال الممالك: إن لي ابناً من ابنة ملك سمنجان وهو لم يتأهل لمغامسة الحروب بعد، ذاك الصبي الغالي مازال غراً ولم يتمرس بعد على فنون القتال والنزال، فمحال أن يكون هذا العمل من صنع ذاك الصغير مهما كان جسوراً وشجاعاً⁽³¹⁾.

ساورت "رستم" حالة من الخوف والتوجس، وحال إحساس داخلي مبهم بينه وبين امتثال أوامر الملك "كيكاووس"، وشغل نفسه باللهو والشرب لأنه متشائم من مواجهة خصم قد يكون ابنه "سهراب"، ووافق في نهاية المطاف وأمام الحاح "كيكاووس" وفرسان إيران على ما كلفه به الملك، لكن "كيكاووس" غضب من تلكؤ "رستم" وتأخره عن الحضور إلى بلاطه وأمر الفارس "جيو" أن يصلب "رستم" حياً، ولم ينفذ "جيو" هذا الأمر، فأمر كيكاووس أن يقوم الفارس "طوس" بشنق كل من "كيو" و"رستم"، وغضب "رستم" غضباً شديداً وخاطب الملك "كيكاووس" بقسوة واستخفاف.

عندما أغضب لا أحسب حساباً لكاووس، من هو كاووس؟ ومن هو طوس؟ لست عبداً ليسبب لي طوس أي أذى ولن أكون عبداً إلا لله الباري لقد دعاني الفرسان لتسلم الملك وهياًوا لي العرش والتاج، فزهدت في الملك، ولم التففت إليه، وحافظت على تقاليد الفروسية، ولو قبلت العرش والتاج لما ظفرت يا كاووس بهذا الجاه⁽³²⁾.

لقد أغلظ رستم القول للملك، وأفهمه أنه فارس احترام قواعد الفروسية، ولو كان له أدنى رغبة بالملك، لما كان "كيكاووس" جالساً على عرش إيران، ولم يرق هذا النزاع بين الملك و"رستم" لقادة الجيش الإيراني، وتوسطوا لإنهاء الخلاف توحيداً للصفوف أمام الخطر الطوراني الماثل أمامهم، وأقنعوا "كيكاووس" بأن يعتذر من "رستم"، ويفوت الفرصة على الخصوم الطورانيين، وتم الصلح بين الجانبين، وسار الملك و"رستم" في مقدمة جيش عظيم لمواجهة قائد الجيش الطوراني يعني "سهراب"، ونصبوا خيامهم في مواجهة خصومهم، لقد صاغ الفردوسي هذا الجزء من القصة بأستاذية فذة، لأنه صور "رستم" وكأنه غير متحمس للقاء هذا الفارس الطوراني، ليس خوفاً منه بل خشية أن يكون هذا الفارس هو ابنه "سهراب" الذي شب وترعرع بين الطورانيين، ولم يسبق لهما أن شاهد أحدهما الآخر، فالقارئ أو المصغي لهذه القصة يتمنى أن يتأخر "رستم" في الدخول إلى مسرح الأحداث حتى لا يقع ما لا تحمد عقباه⁽³³⁾.

وقف "كيكاووس" و"رستم" يراقبان معسكر الطورانيين، وكان "سهراب" وخاله "زنده رزم"⁽³⁴⁾ يحتسيان الخمرة، وكانت مهمة "زنده رزم" هي تعريف "سهراب" على والده "رستم" حتى لا يقتل أحدهما الآخر، فها هي "تهمينه" توصي أختها زنده رزم بقولها: عندما يصل سهراب البطل حدود إيران ويقترّب من والده فارس الفرسان، وعندما يلتحم الجيشان في أتون القتال، عرّف الابن سهراب على والده رستم⁽³⁵⁾.

لكن رستم تسلل تحت جناح الظلام واقترب من خيمة "سهراب" و"زنده رزم"، فنهض "زنده رزم" ودار حول الخيمة فعاجله "رستم" بضربة قاضية أجهزت عليه فوراً، وبذلك تدخلت يد القدر وغيبت من كان سيدل "سهراب" على أبيه، ومهدت لتشكّل أول خيوط هذه المأساة المروعة، علم سهراب بمصرع خاله "زنده رزم"، لكن ذلك لم يزهه إلا إصراراً على مواصلة ما جاء من أجله ألا وهو الإطاحة بـ "كيكاووس" و"أفراسياب"، وتوحيد إيران وطوران تحت راية واحدة يرفعها "رستم" والد "سهراب"، لكن عقبة كأداء اعترضت طريقه ومات من كان سيدله على أبيه، ألا وهو خاله "زنده رزم"، ولم يبق أمام سهراب إلا الاستعانة بالفارس الإيراني الأسير "هجير" للتعرف على أبيه رستم.

صعد سهراب مع "هجير" الأسير إلى ربوة عالية تشرف على معسكر الإيرانيين، وتفحص خيام القادة خيمة خيمة سائلاً هجير عن اسم كل واحد من أولئك الفرسان، وكان "هجير" يوضح له أسماء القادة، واحداً واحداً، حتى سأله عن سرادق كبير يجلس امامه فارس لا شبيه له، وكان ذلك السرادق، سرادق "رستم"، لكن "هجير" امتنع عن البوح بهوية "رستم" خوفاً عليه من هذا الفتى الطوراني الجسور: من هذا الفارس العملاق الذي ترتفع الراية الملكية فوق رأسه، وتطاول

قامته عنان السماء ويبدو أطول من كل أقرانه المحاربين ومنقوش على رأيته صورة تنين مربع وعلى رمحه صورة أسد من ذهب⁽³⁶⁾.

أصر "هجير" على أن كل ما يعرفه عن هذا الفارس هو أنه جاء من بلاد الصين، وحلّ ضيفاً على ملك إيران: فارس شهم جاء من بلاد الصين والتحق بجيش الملك العظيم حزن سهراب حزناً شديداً لأنه لم يعثر على أثر لأبيه فقد أعطته أمه تهمينه أوصاف والده وها هو يشاهد تلك الأوصاف يريد الخبر اليقين من هجير حتى يطمئن بأنه أدرك مبتغاه لكن القدر المكتوب على الجبين واقع لا محالة دونما زيادة أو نقصان⁽³⁷⁾.

لغز المأساة:

إن هجير فارس إيراني غيور مخلص لوطنه، وقد دفعه هذا الإخلاص للتكتم على شخص القائد "رستم"، فلم يدل "سهراب" عليه؛ خشية من أن ينال منه وتخسر مملكة إيران أهم مقومات بقائها وصمودها أمام أعدائها؛ فحزن "سهراب" حزناً شديداً لعدم تمكنه من التعرف على والده "رستم"، ومع أن قلبه وإحساسه والأوصاف التي ذكرتها والدته كلها تشير إلى أن أباه هو ذاك الفارس الذي يتربع في ذلك السرادق الكبير، إلا أن "هجير" أصر على تكتمه، وكأن خيوط مصرع "زنده رزم"، وإنكار "هجير"، وقدر السماء وتقديرها تشابكت وتداخلت معاً، وكونت سدى مأساة رستم وسهراب ولحمتها: سأله عن والده فلم يخبره وأبقى على الحقيقة طي الكتمان إنك لا تملك التصرف بناموس الكون فالبارئ فرغ من صنعه وتقديره، فالمقدر والمكتوب شيء وما نريده شيء آخر، ولا سبيل إلى تغيير ماهو كائن⁽³⁸⁾.

إن الفردوسي يؤكد أن القدر يخبئ مصيراً آخر لـ "سهراب"، ولا يمكن لأحد أن يغير شيئاً مما تخبئه الأقدار، ويتضح ذلك من خلال مجريات قصة رستم وسهراب، فهما "رستم" يقتل "زنده رزم" عن غير قصد، كما أن "هجير" الأسير يمتنع عن تعريف "سهراب" على والده "رستم"، وتتعدد الأمور كلما اقتربنا من نهاية القصة وتصبح أكثر تعقيداً، لأن لغز القدر في الآداب العالمية بشكل عام يؤدي الدور الرئيسي في صنع المأساة والتراجيديا⁽³⁹⁾.

كان سهراب على يقين بأن "هجير" يتستر على الحقيقة ولا يفصح عن شخصية رستم، لذلك حاوره بمنطق وعقلانية: قال له سهراب، هذا ليس عدلاً أن لا تشير إلى رستم مطلقاً، رستم الذي يتربع على عرش الفروسية لا يمكن أن يبقى في الخفاء، لقد قلت بأنه قائد الجيش وحامي حمى إيران وحدوها، فعندما يسير كاووس الجيوش، ويحمل عرشه وتوجه إلى ميدان القتال، فلا بد أن يكون رستم في (المقدمة) طليعة الجيش عندما تفرع طبول الحرب والنزال⁽⁴⁰⁾.

لكن "هجير" أمعن في تستره وإنكاره، ونفى أن يكون رستم في صفوف الجيش وقال:

أجاب هجير على تساؤلات سهراب لعلّ ذلك الفارس الشجاع قد ذهب إلى مسقط رأسه زابلستان، فهذا فصل الربيع وأيام الشرب⁽⁴¹⁾.

إزداد غضب "سهراب" ودحض تبريرات هجير: قال له سهراب: هل يُعقل أن يتوجه الملك للحرب ويأتي المحاربون لنصرته من كل حذب وصوب بينما يجلس رستم في مجالس لطرب؟ إن هذا لإفك عظيم⁽⁴²⁾.

إن تصورات "هجير" لا يقبلها عقل ولا منطق، فلا يعقل أن ينهمك رستم بالشرب والطرب في زابلستان، بينما توشك حرب ضروس أن تندلع بين إيران وطوران، لكن هاجس الخوف الذي ساور هجير على مصير رستم أبقاها متمسكاً بموقفه، لقد هاله وأفزعه ما رآه من بطش "سهراب"، وقوة شكيمة وأصبح قلقاً على "رستم" و"كيكاووس" من صولة هذا الطوراني الذي يبحث عن معركة: قال هجير الغرّ لنفسه أن أعطيت أوصاف رستم لهذا الطوراني الشجاع الذي تبدو عليه علامات العظمة، فسيجمع فرسان جيشه وسيستفز رستم للقتال فارس بهذه القوة والعنفوان قد يلاقي رستم حتفه على يديه، فلا أحد من الفرسان المحاربين يجرؤ على مقابله وجهاً لوجه، ولن يتسنى لفارس من إيران أن يواجبه، وبذلك يستولي على عرش كاووس⁽⁴³⁾.

بعد هذه الهواجس ثارت ثائرة "هجير" وخاطب "سهراب" بحدة: قال هجير ما هذا الاضطراب؟ فكل كلامك معي حول رستم لماذا كل هذا الحقد والبغض ولماذا تضيع وقتك معي بالباطل فأنا لست على علم برستم فالوصول إلى السماء مستحيل فالأولى بك ألا تطلب ملاقاته فإنك لا تطيق مقاومته⁽⁴⁴⁾.

منازلة الأب والابن:

حينما سمع سهراب هذا الكلام غضب غضباً شديداً، وضرب "هجير" بعنف ثم عاد إلى جيشه وأعدّه للحرب والنزال، وأغار على معسكر الإيرانيين فراح فرسان إيران يروغون من أمامه ويتحاشون منازلته؛ مما مكّنه من الوصول إلى "كيكاووس"، وضمن إهانته له طلب منه أن يُخرج إليه قرن وند كي يبارزه أمام الجيشين، فأرسل كيكاووس في طلب "رستم" ليبازر "سهراب" الذي أرهب الجميع، سارع رستم لنجدة كاووس، وحرك جواده نحو ميدان النزاع بعد أن أعدّ له الفرسان حصانه "رخش": صفّق رستم بكلتا يديه، وارتدى جلد، نمر ثم تمنطق بنطاق ملكي مهيب⁽⁴⁵⁾.

بينما كان رستم متوجهاً نحو مكان الاشتباك، خرج فرسان إيران يرفعون الرايات أمامه، وما أن وقع نظره على "سهراب" حتى زمجر وأرعد، لكنه للوهلة الأولى لاحظ أن ملامح هذا الفارس تشبه ملامح "سام" إلى حد بعيد لا يمكن إنكاره، واقترح "رستم" على "سهراب" أن يتبارز

الاثنان بعيداً عن مكان اصطفااف الجيشين فوافق "سهراب" على ذلك، ووقف الفارسان، الابن وأبوه، أول مرة في مواجهة بعضهما البعض دون أن يعرف أحدهما الآخر، وبادر "سهراب" بالرجز وترديد عبارات التهديد والوعيد قاصداً إخافة خصمه وإضعاف روحه المعنوية؛ فقد خاطب "سهراب" والده "رستم" قائلاً: دعنا نبرح هذا المكان ونتنحى بعيداً عن جيشينا لماكن لك في هذا الميدان ولن تصمد أمام ضربة من ضربات قبضتي قدك طويل وملاحك قوية لكن عمرك الطويل، أنهك قواك⁽⁴⁶⁾.

إن رجز "سهراب" مشحون بالعبارات اللاذعة، لكنه يتسم في جوانب منه بالليونة، والعطف، وهو في الواقع يعكس إحساساً مبهماً من الارتياح إزاء والده "رستم"، ويتسم هذا الارتياح أكثر ما يتسم في البيت الأخير من الأبيات المذكورة أعلاه.

نظر "رستم" بدوره إلى خصمه "سهراب" فوجده فارساً قوياً ذا هامة عالية، وأكتاف متينة وقوية، وقبضة حديدية، وركاب طويل، فخاطبه بشكل لا شعوري بليونة ورفق وقال له:

أيها الفتى لا تسرف في الرجز ولا تغلظ في القول في حديثك، واخلع على الميدان دفناً ونعومة بكلماتك الودية اللينة⁽⁴⁷⁾.

راح "رستم" يردد عبارات الرجز والتهديد أيضاً، وتحدث عن بطولاته في الحروب، ولكن وميضاً من الحب والشفقة يلوح بين سحب التهديد والوعيد كنتاج لتألف روحي مبهم يفرض نفسه على لغة التخاطب بين الفارسيين. لقد شهدت لي البحار والجبال بما فعلت محاربي الطورانيين وتشهد النجوم بعظمة أفعالي وروضة العالم برجولتي إن قلبي يشفق عليك، ولست راعياً أن أسلبك روحك وحياتك قوتك وصلابتك تميزك عن الأتراك ولم أشاهد شبيهاً لك بين الإيرانيين⁽⁴⁸⁾.

خلق هذا التألف الروحي الذي ساد الموقف انطباعاً لدى "سهراب" بأن خصمه لا بد أن يكون والده "رستم": عندما صدر هذا الحديث من جانب رستم مال قلب سهراب نحوه قال له إني سائلك فاصدقني، اذكر لي سلالتك واحداً واحداً، وادخل السرور إلى قلبي بكلامك الجميل، إني أظنك رستم، وأحسبك من سلالة سام بن نيرم⁽⁴⁹⁾.

إن الخطاب المتبادل بين "رستم" و"سهراب" يشي بأن الفارسيين قد عرفا بعضهما بعضاً من خلال إحساس غريزي لا يحد، لكنهما لا يستطيعان الجنوح إلى الصلح لأن مصيرهما وقدرهما جعل منهما خصمين لدودين، وهما لا يستطيعان الإفلات من هذا المصير والقدر المحتوم، ولولا ذلك لكانت كلمة واحدة من أحدهما كافية لتعريفهما ببعضهما بعضاً، ولتغير مسار هذه المأساة المروعة، ولعانق "سهراب" أباه "رستم"، لكن تعنت "رستم" وعدم إفصاحه عن هويته أبقى حالة الخصام والعداء على حالها.

قال: أنا لست رستمًا ولستُ من سلالة سام بن نيرم، فأنا محارب صغير، وسام فارس عملاق، وكان صاحب عرش وتاج وبلاط، فاستحوذ اليأسُ على سهراب واسودت الدنيا في عينيه⁽⁵⁰⁾.

بقي الإبهام سيد الموقف، ولم يفصح أي من الفارسيين عن هويته، ولم يكن هنالك بدٌ من الصدام، فالتحم الطرفان في قتال شديد بالسيوف والرماح والسهام، ولم يتمكن أحدهما من حسم المباراة لصالحه، ويعتقد الفردوسي أن الطمع هو الذي يعمي البصر والبصيرة، ويؤدي إلى اقتتال الابن مع أبيه، ويعجب الشاعر من صنيع الدهر وصروفه بقوله: يا لك من دهر تفعل الأعاجيب تفتق من جهة وترتق من جهة أخرى، ألم تتحرك عاطفة أحد الفارسيين بعد العقل فلماذا غاب الحنان؟ إن الأنعام تعرف صغارها بالفطرة كما تعرف الأسماك مواليدها في البحار⁽⁵¹⁾.

استراح الفارسان برهة من الزمن، ثم عاودا القتال بالترشق بالسهم، وحالت الدروع التي ارتداها كل منهما دون إصابة أحدهما بأذى، ثم اشتبكا معاً بالأيدي في نزال شديد، وحاول رستم أن يطرح سهراب أرضاً ليُجهز عليه، لكن قوته لم تسعفه ولم يستطع زحزحته من مكانه، ونال التعب والإرهاق من الفارسيين، فاستراحا لمدة قصيرة، ثم عاودا القتال بضراوة أكثر من ذي قبل، فوجّه سهراب ضربة قرص محكمة لكثف "رستم"، تلوى على أثرها من شدة الألم، فسخر منه "سهراب" قائلاً: ضحك سهراب وقال أيها الفارس المغوار لا تبدو متمسكاً أمام ضربات الشجعان جوادك "رخش" يبدو كالأتان والوهن شق طريقه إلى قبضتيك⁽⁵²⁾.

أثرت هذه العبارات الجارحة في مشاعر "رستم"، وأصبح أكثر تصميمًا على مواصلة القتال، ثم هجم "سهراب" على جيش إيران، ولم يستطع "طوس" التصدي له وفر أمامه، لكن "رستم" خشي على الملك "كيكاووس" من "سهراب"، وطلب من خصمه إيقاف المباراة حتى الصباح بسبب هبوط الظلام.

قضى "رستم" ليلته بالحديث عن كيفية حربه مع "سهراب" ذلك الفتى المعجزة الذي لم يرَ مثيلاً له في حياته، وبدا في كلامه يائساً مضطرباً إلى حد كبير: سوف نستأنف القتال غداً وسوف يُصارع كل منا الآخر سوف أعمل ما في وسعي ولا أدري من سيفوز وغداً تتجلى إرادة الله⁽⁵³⁾.

ولم تسفر جولة اليوم التالي عن نتيجة، لكن رستم راح يضعف أمام خصمه، وأفصح في حديث له مع أخيه "زواره": أنه يواجه فارساً لا قبل له به، وقد ينال منه في هذه الحرب الضروس: إن فزت في هذه المباراة فلن أترث في ميدان القتال، وإن شئت الأقدار وقُلتُ فلا تبك علي، ولا تجزع، وسارعوا بالذهاب إلى زابلستان إلى حيث يقيم والدي دستان وواسي والدتي واشدر من أزرها فذاك ما قدره لي الإله لا أحد مخلص في هذه الدنيا وإخال أنني فقدت موجبات البقاء فكلنا للموت شباباً وشيباً، ولم يكتب الخلود لأحد في الكون، وقضى رستم نصف ليلته يتحدث عن سهراب، وأوى إلى فراشه في النصف الآخر⁽⁵⁴⁾.

في صباح اليوم التالي، ارتدى "رستم" بزة القتال وتوجه نحو ميدان النزال، بينما كان "سهراب" يحتسي الخمرة مع قادة الجيش الطوراني، فرحاً مستبشراً، كان "رستم" قلقاً ومتوجساً، لكن ثمة أمراً يؤرق "سهراب" ويسبب له معاناة داخلية، فالأوصاف التي ذكرتها والدته "تهمينه" حول أبيه "رستم" تشبه خصمه إلى حد بعيد، كما أن ميلاً داخلياً يتفاعل في أعماق "سهراب" نحو هذا الخصم الذي لا بد أن يكون أباه: قال سهراب لهومان، هذا الرجل الشجاع الذي يبارزني في ميدان القتال بأسه وشموخه لا يقل عن بأسى وشموخي، ولا يبدو عليه الضجر في النزال عندما يمتطي صهوة جواده يثير حبي وشجوني، ويعتريني أمامه إحساس بالمهابة والخجل، وتتحقق فيه كل ما ذكرت والدتي من أوصاف رستم، ويغلي قلبي بالأحاسيس عندما أراه يخامرني ظن بأنه رستم الهمام الذي ليس له قرين بين المحاربين، لا ينبغي لي أن أقاتل والدي وأنا أنازله وجهاً لوجه في ساحة النزال⁽⁵⁵⁾.

سبق السيف العذل:

عززت أسباب عدّة ظنون "سهراب" بأن هذا الخصم الذي يبارزه لا يمكن أن يكون سوى أبيه "رستم"، لكن "رستم" لم يفصح عن ذاته وترك ابنه "سهراب" فريسة للظنون، كما أن "هومان" الطوراني - حسب خطة "أفراسياب" - يؤدي دوراً بارزاً في تضليل "سهراب"، بقوله له أنه واجه "رستم"، في حروب كثيرة، ويعرفه حق المعرفة، ونفى أن يكون هذا الفارس الذي يقاتله "سهراب" هو "رستم"، عندئذٍ لم يكن أمام "سهراب" الحائر إلا أن يمضي قدماً في مناظرة خصمه، لكن إحساسه الفطري لا يخدعه، وهناك شيء يشده إلى هذا الرجل العجوز مما دفعه إلى ملاطفة حريفة بقوله: "إن قلبي يحن إليك، وأخجل من منازلتك، هلم أيها الفارس وأفصح عن نسبك وبع لي باسمك، فطالما أنك خصمي وندّي، فإن قواعد الحرب تقضي بأن تبوح بهويتك لذلك، غير أنني أظن أنك "رستم بن دستان بن سام الكابلي"، كما اقترح "سهراب" على "رستم" أن ينصرفا عن القتال ويشربا نخب بعضهما بعضاً، ويتعاهدا على أن لا يعودا للمبارزة بعد الآن، لكن "رستم" لم يلتفت إلى كل هذا الإطراء والتداني، وضمن إصراره على موقفه المتصلب قال لـ "سهراب": "أيها الفارس الباحث عن الشهرة لم تكن قد اتفقنا على ما تقول بل اتفقنا ليلة أمس على القتال صباحاً فلا تقل هذا، لأن خداعك لن ينطلي عليّ فلا يغرنك شبابك فأنا لست غراً وقد هيأت نفسي استعداداً للنزال فليسع كل واحد منا قدر طاقته وعاقبة الأمور من تقدير السماء⁽⁵⁶⁾".

إن تصلّب "رستم" في موقفه أزم فضاء القصة وسار بالأمور نحو نقطة اللاعودة، ووجد "سهراب" نفسه مضطراً لمناظرة "رستم"، إلا أنه تمنى أن لا يُقتل في هذه المواجهة، وأن يعيش حتى يموت ميتة طبيعية، واشتبك الفارسان بالأيدي، وكان كل طرف يحاول طرح الطرف الآخر أرضاً، فأمسك "سهراب" بوسط "رستم" ورفعته إلى أعلى ثم ألقيها على الأرض، وجلس فوق

صدره وأراد أن يفصل رأسه عن بدنه، لكن "رستم" لجأ إلى الخداع قائلاً لـ "سهراب" أيها الفتى في تقاليد القتال لدينا، لا يصرع الخصم خصمه من المرة الأولى، بل يمنحه فرصة أخرى، فإن غلبه في المرة الثانية أجهز عليه فوراً: فإن صرعه أرضاً في المرة الثانية فهو أسد قوي البأس شجاع لا ضير من الفتك به وقطع رأسه لأن تقاليدنا تقوم على هذه القاعدة⁽⁵⁷⁾.

أذن "سهراب" لطلب الفارس العجوز الذي لا يتمنى له الموت، ونهض عن صدره وأخلى سبيله حتى جولة قادمة، وهو لا يعلم أنه على موعدٍ مع قدر مرعب ومخيف، ولأن عقله الباطن يلح عليه أن لا يخوض هذه المعركة؛ فقد ترك الميدان وانهمك بصيد الغزلان، إلى أن لحق به "هومان الطوراني" ولامه على ترك "رستم" ينجو من موت محقق، ويرجح الفردوسي تراجع "سهراب" عن قتل "رستم" -عندما تغلب عليه- إلى عدة أسباب أولها شجاعة "سهراب" وثقته بأنه فائز على خصمه في جولة قادمة، وثانيها قدر "سهراب" الذي نقش على صفحة جبينه، وثالثها شهامة "سهراب" التي أبت إلا أن تليي رغبة ذلك الفارس العجوز: عفا عنه أولاً لشجاعته وثانياً بفعل القدر وثالثاً لشهامته دون أدنى شك⁽⁵⁸⁾.

مشاعر الحب والحنان التي تنبض في قلب "سهراب" نحو "رستم" حملته على التريث في قتله والانصياع لطلبه، لكن "هومان" الذي يريد لمخطط "أفراسياب" أن يُنفذ ويتم التخلص من "رستم"، راح يلوم "سهراب" الذي انهمك في صيد الغزلان، بينما تخلى عن صيد ثمين كـ "رستم" وبعد أن أفلت "رستم" من قبضة "سهراب" توجه نحو جدول ماء، فشرب واغتسل ثم راح يتضرع للخالق بأن يمنّ عليه بالنصر على خصمه: تضرع للخالق طالباً النصر والمنعة ولم يكن مطلعاً على تصارييف الأفلاك كما لم يكن مطلعاً على ما يخبئ له القدر الذي ينتزع التاج عن رأسه⁽⁵⁹⁾.

النهاية المفجعة:

كان "رستم" إبّان ريعان شبابه قوياً، وضخم الحجم، وكان من الصعب عليه أن يتحرك من مكان إلى آخر، فطلب من الإله أن ينقص من قوته، فاستجاب له الخالق وسلبه جزءاً من قوته وكبر حجمه، وعندما هزم أمام "سهراب" طلب من الإله ثانية أن يعيده إلى سابق عهده قوياً، وضخم الجسم، فكان له ما أراد، ثم التقى الفارسان في الميدان واحتدم النزال بينهما: بدأ الفارسان يتصارعان وأمسك كل منهما بوسط الآخر، فصار سهراب بتلك الأعضاء القوية والمرافق الشديدة كأن القضاء قد قيده، حزن رستم عندما أحكم قبضته وأمسك بعنق ذلك الفارس ورأسه ثم ضغط على ظهره حتى تقوس فخارته قواه وانتهى أجله فألقاه رستم على الأرض وجلس عليه، وخشية أن ينهض بسرعة، استل سيفه من غمده وشق صدر ابنه النابض بالحياة⁽⁶⁰⁾.

تأوه الشاب، وغرق في دمائه، فقد أجهز "رستم" عليه بسرعة خوفاً من أن ينهض من جديد، كان "رستم" قد قال إن الفارس عندهم لا يجهز على خصمه من الوهلة الأولى، واستطاع بهذه الحيلة أن ينجو من براثن "سهراب" إلا أنه لم يمنح هذه الفرصة لخصمه الذي كان قدره أن يموت على يد والده. فما هو "سهراب" الغارق في دمائه يئن من شدة الألم، ويقول لقاتله قبل أن يعرف أنه والده: لا زنب لك في مصرعي فإن الأفلاك هي التي قتلتني والدهر هو الذي أرداني ولم يرحم صباي وشبابي⁽⁶¹⁾.

اقتربت مأساة "رستم" و"سهراب" عند هذه النقطة من نهايتها بسرعة، وأصبحت الأحداث تموج بالحركة والإثارة، فما هو "سهراب" يحتضر ويقول لـ "رستم" في أصعب لحظات الاحتضار: "لقد زودتني أُمي بأوصاف والدي الذي فاضت روعي شوقاً إليه، إنني أبحث عن أبي، وخسرت حياتي في سبيل الوصول إليه، واحسرتاه لقد كانت معاناتي بدون حدود، وما أنا أرحل عن هذه الدنيا دون أن أرى وجه والدي، تيقن أنها الفارس أنك لو تواريت في أعماق البحر أو صعدت إلى أعالي السماء، فإن أبي سيقُتلُ ثأراً لي"⁽⁶²⁾ وتابع "سهراب" حديثه على مسامع والده "رستم": لا بد أن فارساً من كبار الفرسان سيخبر رستم بالحقيقة بأن سهراب قد سجى قتيلاً وليأخذن بثأري منك إذا بلغه مصرعي هذا⁽⁶³⁾.

عندما سمع رستم هذا الكلام، أيقن أن المحذور قد وقع، وأنه أُردي ابنه "سهراب" قتيلاً، وكان وقع هذه المصيبة عليه شديداً إلى الحد الذي فقد فيه وعيه، لأن حبكة الخيوط المعقدة لتلك المأساة قد حُلَّت دفعة واحدة، وفي تلك اللحظات المأساوية أدرك "رستم" سر كل ذلك التحب والتودد الذي كان يبديه خصمه نحوه، فلقد كان من ظنه عدواً طورانياً لدوداً، ابنه "سهراب" الذي يشبهه من جهات كثيرة، وبعد أن استعاد رستم وعيه خاطب ابنه "سهراب" قائلاً: أليدك علامة من رستم محق الله اسمه من بين الفرسان؟ أنا رستم لا أبقى الله لي اسماً وأجلس في مأتمي دستان بن سام وصاح رستم جزعاً وغلى الدم في عروقه وراح يصرخ وهو يقتلع شعر رأسه⁽⁶⁴⁾.

أما "سهراب" المضرج بدمايه فأيقن أن أحاسيسه ومشاعره التي كانت تشده إلى "رستم" لم تكن تخدعه؛ فما هي خيوط المأساة قد اكتملت وقُتل على يد والده "رستم" الذي لم يرحم شبابه، وكان بإمكان "سهراب" أن يقتله، لكنه لم يفعل، لأن إحساسه الصادق كان يمنعه، وفي هذه اللحظات المفجعة، وأمام مصيبة أب ينتحب كان قدره أن يقتل فلذة كبده، خاطب "سهراب" والده "رستم" معاتباً إياه على فعلته وعلى كل ما بدر منه من صد وعناد: قال له سهراب، بما أنك رستم لماذا قتلتني بعنادك وتهورك لم أذكر جهداً في تعريفك بشخصي ولكنك لم تبد تجاهي ذرة عطف وحب⁽⁶⁵⁾.

وتابع سهراب قائلاً: "افتح درعي، وانظر إلى بدني، وشاهد الخرزة المعلقة في ساعدي التي أعطيتها لأمي لتكون ذكرى منك لولدك، أعلم أن الأمل قد ضاع، ولكنني أحب أن تتيقن في اللحظات الأخيرة بأنني ابنك سهراب، فسارع "رستم" وأزال درع "سهراب" عن بدنه وشاهد العلامة التي كان قد أعطاها لزوجته "تهمينه" مشدودة على عضد "سهراب": عندما أزال الدرع وشاهد الخرزة ذاب حزناً ومزق كل ثيابه وكان يردد: أيها الفارس القاتل، أيها الشجاع الكريم السجاي في كل محفل وكان يذرف الدمع ويلطم الرأس ففاض رأسه تراباً ووجهه دمعاً⁽⁶⁶⁾.

عندئذٍ طلب "سهراب" من أبيه أن يتوقف عن البكاء والعويل، وأن لا يلحق الأذى بنفسه لأن ما حصل هو تقدير إلهي، وواقع لا محالة منه والبكاء والحزن لن يجديا نفعاً.

أخبر أفراسياب في هذه الأثناء أن رستم قد قتل، فأرسل الأعين لتحري الأمر، فوجدوا أن القتيل "سهراب"، وطلب في آخر لحظات عمره من "رستم" أن يسمح للجيش الطوراني الذي كان يقوده بالانسحاب دون أن يلحق به أذى، وبدأ جيش طوران انسحابه بعد أن أمّن له "زواره" شقيق "رستم" انسحاباً آمناً، أما "رستم" فقد استشاط غضباً على "هجير" لأنه لم يُعرف "سهراب" عليه، وهمّ بقتله لولا تدخل بعض الفرسان الإيرانيين، عندئذٍ حاول "رستم" الانتحار لكن الفارس "جودرز" تدخل في الوقت المناسب وحال دونه ودون الانتحار وهكذا تتسارع أحداث القصة بشكل لافت، وتصل المأساة إلى نهايتها وتضع السامع والقارئ تحت تأثير شديد.

سعى "رستم" إلى إنقاذ حياة ابنه "سهراب" جاهداً فأرسل الفارس "كودرز" إلى سراق الملك "كيكاووس" كي يحضر المادة المضادة للسم "ترياق الموت" التي كانت في حيازة الملك، لكن "كيكاووس" امتنع عن إعطائه إياها وقال بصراحة إن "رستم" وابنه "سهراب" يشكلان تهديداً خطيراً على حياة الملك، وأشار إلى عريبات "رستم" وغلظته، وقال: لقد ذكرني بسوء وشتمني مرات ومرات وأراق ماء وجهي أمام العساكر فإن بقي ابنه على قيد الحياة فلن أجنبي إلا العتب والبوار⁽⁶⁷⁾.

كما أشار "كيكاووس" إلى تحدي "سهراب" له، وقال: إن مصلحتنا تقتضي موته، ولا أحد يقبل بأن يرعى عدوّه: إن بقي حياً في هذا العالم فسوف يخشاه الكبار والصغار الذي يرعى عدوّه حتى يترعرع لا يترك في الكون إلا الذكر السيء⁽⁶⁸⁾.

عاد "جودرز" خالي الوفاض، ولم يحضر معه سوى اليأس، فقرّر "رستم" أن يذهب مع "سهراب" إلى "كيكاووس" حيث الترياق الذي يقهر الموت، لكن لم يعد للترياق ضرورة، فقد لفظ "سهراب" أنفاسه الأخيرة أمام عيني والده "رستم"، فقال قولته المشهورة: سبق السيف العذل، ووصلت المأساة إلى أوجها ونهايتها بموت "سهراب" المفجع، وأجهش رستم بالبكاء والعويل، وحثا التراث على رأسه، وعدّد بطولات ولده ومناقبه ثم لف جسده بالديباج، وسجّاه في تابوت

في طريقه إلى زابلستان بعد أن أحرق كل خيام القادة، وأمراء الجيش، لكنه كان يبكي ويذكر فلذة كبده الذي أطفأ شعله حياته بيده: لن ير العالم فارساً مثلك بعد الآن من حيث الرجولة والفروسية في القتال وأسفاه على تلك الرجولة والرأي السديد وأسفاه على ذلك الشموخ والكمال كان يذرف الدمع دماً ويحشو على رأسه التراب وقد مزق بزته الملوكية من شدة الانفعال⁽⁶⁹⁾.

وصل ركب الجنازة إلى سرادق كاووس، فراح يواسي "رستم" كذباً ورياءً بقوله: إن المنية استدرجته مع جيشه حتى يلقي حتفه على يديك ماذا بوسعنا أن نعمل وما العلاج؟ وإلى متى تبكي على هذا الفقيد؟ عمق مصيبتك ملاً قلبي حزناً وألماً، ولا أريد أن أذكر الفقيد بسوء⁽⁷⁰⁾.

انتهى غزو "سهراب" لإيران بمقتله على يد والده، فعاد كيكاووس إلى إيران، وعاد الطورانيون إلى طوران، لكن "رستم" وجيشه توجهوا إلى مسقط رأسه زابلستان، وكان نعش "سهراب" محمولاً على عربة تسير خلف الجيش، وكان "دستان" والد "رستم" وكبار زابلستان في استقبال النعش، وتوشحت زابلستان بالسواد وارتفع العويل والبكاء إلى عنان السماء.

في نهاية المطاف كُفّن "سهراب" بالديباج الأصفر ودفن في قبر على شكل حذوة جواد، وكان حجم المأساة كبيراً لدرجة وصلت معها أخبارها إلى سائر أرجاء المعمورة، وقد حزن كل من سمع بهذه المصيبة، ولا سيما ذوي القلوب والمشاعر الشفافة، ثم وصلت أخبار مقتل "سهراب" إلى مدينة "سمنجان" حيث تقيم والدته "تهمينه" ولدى سماعها الخبر بكت بمرارة، وراحت تقبل عرش "سهراب" وتاجه تارة ورأس جواده تارة أخرى: اصطبغت دموعها بلون الدم الأحمر وهي تعانق تاج سهراب وكانت تبكي بمرارة على تاج سهراب وعرشه كما كانت تنادي شجرة الملك التي بُترت، وقد أمسكت برأس جواده، فتعجب منها كل من رآها، وكانت تقبله على رأسه ووجهه، فسالت دموعها الدامية تحت حوافره⁽⁷¹⁾.

إن من يقرأ هذه القصة المؤلمة والمعبرة لا بد أن يضم صوته إلى صوت الفردوسي إذ يقول: لا أحد يستطيع حل لغز الكون، فهو باب مغلق، وسوف تتلف عمرك لو حاولت فتحه، ولكن كل ما حدث قضاءً وقدرًا، فهو مقدر من ربّ الكون والعباد، فلا تتعلق بهذه الدنيا المستعارة؛ لأن كل ما هو عارية لا يفيد شيئاً⁽⁷²⁾.

وقد صاغ العلامة عبد الوهّاب العزام هذا المعنى شعراً بقوله:

هو الباب لم يفتحه أحد فلا تُضع العمر في ذا الكبد
ولكن حكم القضاء مضى بذلك ربّ القضاء قضى
فلا يعلق القلب دار الزوال فإن التمتع فيها محال

(ترجمة البنداري للشاهنامه، ص 150)

جدلية الجبر والاختيار

إنّ الأدب يربطنا بالحياة من منطلقات عاطفية عندما نقرأه من جهة، كما يربطنا بالحياة أيضاً من منطلقات عقلية عندما نحله وننقده من جهة أخرى⁽⁷³⁾، وبشكل عام، فإنّ هذه التراجيديا شاهد بارز وواضح على عجز الإنسان في مواجهة القدر والمصير، كما تبيّن جهل الإنسان وعدم إدراكه لرموز الوجود وأسراره، فالإنسان في هذا الكون مختار في أمور، ومجبور في أمور أخرى، فشؤون الحياة مثل السعادة والشقاء، والحياة والموت، كلها تدور في دائرة الجبر، وفي قصة "رستم" و"سهراب" التي تبيّن نمطاً من أنماط تفاعل أفراد البشر مع بعضهم بعضاً، تدور الأحداث ضمن هذا الإطار، يعني إطار الجبر والاختيار، إذ إنّ "سهراب" انطلاقاً مما لديه من اختيار، أراد توظيف تفوقه الجسماني الذي حباه الله به لتغيير النظام السياسي السائد الذي كان قائماً آنذاك بقطيعه الكبيرين: إيران وطوران، وإقامة نظام سياسي جديد على أنقاض القديم، وسعى ضمن هذا التوجه إلى مهاجمة إيران وهزيمة الملك "كيكاووس"، وتنصيب والده "رستم" ملكاً على إيران، وخطّ لمهاجمة طوران والقضاء على "أفراسياب" وضم مملكته لمملكة إيران، مما يعني تغيير النظام العالمي الثنائي القطب الذي كان سائداً في ذلك العصر إلى نظام أحادي القطب يحكمه "رستم"، لكن القدر أراد غير ذلك وباءت كل مخططات "سهراب" بالفشل ودفع حياته ثمناً لطموحاته، لأن قدره أن يموت على يد أبيه "رستم" ولولا ذلك الجبر، لاستطاع "سهراب" - بما لديه من أوصاف "رستم" - أن يعرف والده، ولما رفض "كيكاووس" إعطاء ترياق الموت لـ "سهراب"، ولما امتنع "هجير" عن الإفصاح عن هوية "رستم" لـ "سهراب" الذي كان متلهفاً للتعرف على أبيه، لذلك فإن حل هذه الألغاز لن يؤدي إلى حل لغز القصة ما لم نأخذ لغز القدر والمصير بعين الاعتبار.

تضافرت في هذه القصة جهود جميع صانعي الأحداث والوقائع سواء أكانوا إيرانيين أم طورانيين، عن قصد أو عن غير قصد لحبك خيوط هذه المأساة؛ إذ إن امتناع "هجير"، أسير "سهراب"، عن التعريف بـ "رستم" كان بهدف الحفاظ على حياته، أما "هومان" فقد امتنع عن التعريف به عن سوء نية حتى يقتل على يد "سهراب" و"زنده رزم" خال "سهراب" الذي يعرف "رستم" جيداً وكان ينوي تعريف "سهراب" على والده لقي مصرعه على يد "رستم" نفسه، كما أن امتناع "كيكاووس" عن إعطاء ترياق الموت لـ "سهراب" كان بدافع الحقد على رستم وخوفاً من "سهراب"، ويبدو أن الإيرانيين والطورانيين اتفقوا أول مرة، عن غير علم على أمر هو قتل "سهراب"⁽⁷⁴⁾ الذي امتاز - على الرغم من طيشه وتهوره - بطيبة قلبه، وصدق مشاعره، وعفوه عن الآخرين، فلم يعاقب "هجير" مع أنه يعلم حق العلم عدم صدقه، ولم يقتل "رستم" عندما صرعه أرضاً، بل أطلق سراحه ومنحه فرصة أخرى، في حين أجهز "رستم" عليه عندما صرعه

أرضاً أول مرة، فربما اقتضى مصيره المشؤوم أن يكون بهذه البساطة والسداجة، وإن لم يكن كذلك، فكيف يدع خصمه العنيد "رستم" يفلت من قبضته؟

في الجانب الآخر، نرى "رستم" فارساً لا يُشَقُّ له غبار، إذ كان على الدوام معتمداً على قوة سواعده، لكنه في هذه المواجهة يخرج عن جادة الشهامة والرجولة، وأخلاق الفروسية، فقد استطاع من خلال خداعه لـ "سهراب" أن يفلت من موتٍ محقق، ومع أن "سهراب" عفا عنه عندما أطاح به أرضاً، إلا أنه لم يمهل "سهراب" لحظة واحدة وأغمد سيفه في صدره وأرداه قتيلاً.

شهدت الشاهنامه - على اعتبار أنها شعر ملحمي- مقتل محاربين أكثر لا حصر لهم، لكن المصراع المحزن والمؤلم لبعض أولئك المحاربين يهز المشاعر بعنف، ويخلق لدى المخاطب إحساساً عميقاً بالأسى واللوعة، و"سهراب" أحد هؤلاء القتلى والآخر "اسفنديار"؛ لأن شعلة حياة هذين الفارسين المشهورين أطفئت على يد "رستم"، فهما يقتلان في عنفوان شبابهما ويتركان في قلوبنا ألماً وحسرة، لأن العناء الأعمق والأكثر إيلاًماً في حياة البشر هو موت الأحبة والأعزاء والأخير⁽⁷⁵⁾، وتراجيديا "رستم" و"سهراب" التي جرت فصولها في الماضي السحيق ما زالت مدار بحث بين الأدباء والنقاد والمعنيين بالأدب الفارسي ماضياً وحاضراً، فهذا هو "يوكن برتلس" صاحب كتاب "فردوسي وأشعاره" يقول: "إن قصة المواجهة المفجعة بين "رستم" وولده الشاب "سهراب" ذات تأثير محزن، وينبع مصدر الحزن في هذه المواجهة من أن كل واحد منهما كان يبحث عن الآخر لما بينهما من علاقة الأبوة والبنوة، لكن "سهراب" يسقط في فخ الموت في هذه المواجهة، وفي إطار هذا النزاع، فإن ذنب الأب "رستم" الذي توسل بحيلة غير لائقة لقتل ولده "سهراب" ذنب لا يغتفر، كما أن رستم عمد إلى الحيلة والخديعة في القتال مع "اسفنديار"؛ فهو يلجأ إلى مثل هذه الخدع لأنه لا يحتمل الهزيمة ولا يقبل بها، ولا يستطيع أن يرى نفسه مهزوماً وذليلاً"⁽⁷⁶⁾.

الفروسية والخديعة:

إن الخديعة التي لجأ إليها "رستم" واستطاع بواسطتها أن ينجو من قبضة "سهراب" قد طغت في أهميتها على سائر أجزاء القصة الأخرى، وربّ سائل يسأل: لماذا يحرك هذا الجزء من القصة أحاسيسنا ومشاعرنا؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن في أن "رستم" يعدُّ فارس إيران الذي لا يقهر ولا يشقُّ له غبار، وهو رمز الرجولة والقوة، والصبر والتحمل والتضحية في سبيل إيران، وقد كان يحقق النصر في كل حروبه بجدارة ورجولة منقطعة النظير؛ بيد أنه عندما واجه شاباً فارساً في ميدان القتال هُزم أمام عنفوان ذلك الفارس، ونجا من الموت إثر توسله بتلك الحيلة التي ادعى فيها أن قواعد الفروسية لدى الإيرانيين تقضي بأن لا يصارع الخصم خصمه من

المرّة الأولى بل تفرض عليه أن يعطيه فرصة أخرى، وتوسله بهذه الحيلة يثير العواطف والمشاعر ضده، وعندما يلمس القارئ مدى القسوة التي اتبعها "رستم" مع "سهراب" عندما قتله بمجرد أن طرحه أرضاً لأول مرة يزداد حنقاً وغضباً على فعلته التي تناقض ادعائه بشأن قواعد الفروسية، وعلى الرغم أن "رستم" لجأ إلى الحيلة في حروبه الكثيرة، ولكن أياً من تلك الحيل لم تظهر "رستم" عاجزاً وزليلاً إلى تلك الدرجة التي ظهر فيها في قتاله مع "سهراب"، ومن ضمن تلك الحيل التي لجأ إليها "رستم" حيلته مع الشيطان "أكوان"، وذهابه بلباس تاجر إلى بلاد طوران لإنقاذ "بيجن"، وحيلته مقابل "اسفنديار" و"سهراب"، لكن خديعته لـ "سهراب" في واقع الأمر هي خديعة كارثية للذات، لذلك نرى هذا الفارس المغوار (أي رستم) قد قضى نحبه نتيجة حيلة موجود ذليل مثل "شغاد"⁽⁷⁷⁾. وقد تكون نهاية "رستم" هي عقاب رباني له على ما اقترفه بحق الآخرين وعلى رأسهم "اسفنديار" و"سهراب"، ويعتقد المستشرق الألماني "نولدكه" أن لدى "رستم" بعض النزعات الشيطانية لأن جذور نسب والدته يرجع إلى "الضحاك"⁽⁷⁸⁾: لا شك أن "سهراب" يعد شاباً غراً ومتهوراً ولديه طموحات وآمال عريضة لا تتناسب مع سنه من جهة، ومع طبيعة عصره والقوى المحيطة به من جهة أخرى، فحينما سمع من والدته أن أباه "رستم" صاحب البطولات العظيمة، فارس لا نظير له، استشعر الفخر بأبيه، وعقد العزم على أن يجعل منه ملكاً على إيران وطوران دون أن يكون لديه أدنى معرفة بوالده "رستم" الذي كان يفضل الفروسية على الملك، فخطأ "سهراب" الأكبر كان يكمن في تناوله على نظام لا يعرف أسرارهِ جيداً؛ بينما كان "رستم" فارساً مخلصاً لقواعد الفروسية ولحقوقها وأدابها، ولم يكن لديه أدنى استعداد للخروج على تلك القواعد والطقوس التي تنصّب الملوك وتحمي ملوكهم⁽⁷⁹⁾.

وقد عدّ بعض الباحثين والنقاد أن قتل "رستم" لولده "سهراب" له ما يسوّغه، وأن ذوي القلوب الضعيفة والعواطف الرقيقة هم الذين يلومون "رستم"، لأن حكمهم على الأمور لا يقوم على المنطق، بل على مشاعرهم وأحاسيسهم الرقيقة ولو وضعنا أنفسنا في مكانه وفي الظروف والأوضاع نفسها التي كانت سائدة في عصره لالتمسنا له العذر، لأن "سهراب" في لحظات المواجهة تلك كان يعدّ عدواً طورانياً مثل "هومان" و"بارمان" اللذان جاءا معه لغزو إيران، وتدميرها وإسقاط ملكها، وفي ذلك تعدّ على جوهر الملك الذي يمثله "كياكوس" وعلى جوهر الفروسية التي يمثّلها رستم، ولذلك لا يتوقع أحد من "رستم"، بصفته ممثلاً لنظام الفروسية أن يتخلّى عن مسؤوليته في الدفاع عن وطنه، كما أن "رستم" الذي لم يغلب في حياته أمام أي عدو لن يرضى بالهزيمة أمام فتى نزق من فتيان طوران، لأن الجيش الإيراني يعلق عليه الأمل في دحر أي خطر يهدد البلاد، على أي حال إن الروح عزيزة بحكم غريزة حب البقاء، و"رستم" بشر مثل الآخرين ولا يمكن استثناءه من هذه القاعدة، وبناء على هذا فإنه لم يستسلم لخنجر "سهراب" ولجأ إلى الخديعة؛ لأن كل شيء جائز في الحب والحرب من جهة، ولأن في هزيمته أمام ذلك الفتى

الجسور من جهة أخرى هزيمة لنظام الفروسية ولرمز ذلك النظام يعني "رستم"، كما أن هزيمة "رستم" تعني هزيمة آمال وتطلعات السواد الأعظم من الإيرانيين؛ فهو الرمز الذي يتجسد فيه مصير أمة، وحياته أهم من حياة كل أعدائه؛ لأن موته يعني موت آمال عريضة كما يعني هزيمة الأكثرية أمام النخبة القليلة⁽⁸⁰⁾.

إن الصدام بين "رستم" و"سهراب" ليس صداماً بين أب وابن فحسب، وإنما صدام بين نهجين ومسلكين، وصدام بين الماضي والمستقبل، وبين المحافظة على التقاليد المرعية والخروج عليها، لكن رصيد "رستم" في هذا النزاع هو تجاربه وخبراته وحكمته، في حين كان "سهراب" مغروراً بشبابه وقوة سواعده، ولهذا كانت الغلبة في هذه المواجهة لحكمة الشيوخ التي قهرت غرور الشباب وحماسهم.

تراجيديا رستم وسهراب والأدب العالمي:

إن قصة رستم وسهراب التي اعتمد الفردوسي في نظمها على مصادر قصصية قديمة هي في حقيقة الأمر أقوى من أي أسلوب بياني آخر، لا سيما بعد أن ألبسها الفردوسي حلة الشعر⁽⁸¹⁾، كما أن شاهنامه الفردوسي بأسرها تعدّ من روائع الشعر الفارسي والشعر العالمي، ولا نكاد نجد لها نظيراً في أدب العرب على الرغم من عظمة هذا الأدب وتفرعاته⁽⁸²⁾.

هناك قصص شبيهة بقصة رستم وسهراب في بعض الآداب العالمية، إن إن أحداث هذه القصص تلخص مواجهات دامية بين آباء وأبناء تنتهي بمقتل أحدهما على الأغلب، لكن مستوى الإثارة والجازبية التي تتمتع بها قصة رستم وسهراب لا تشاهد في أية قصة من القصص المشابهة في آداب الأمم الأخرى.

هناك قصة من قصص الأديب "سوفوكلس" تحت عنوان "الملك أديبوس" تبين آلام ومعاناة رجل يقتل والده، ويتزوج من والدته دون أن يعرفهما، وكان المنجمون قد تنبأوا له بما حصل، ولم يفلح حذره الشديد وتيقظه في تفادي تلك المأساة⁽⁸³⁾، كما أن قصة "يفتاح" وهي من قصص العهد العتيق، تشبه قصة رستم وسهراب، فقد نذر "يفتاح" في هذه القصة، إذا ما انتصر في الحرب على العمونيين، أن يقدم أول شخص يواجهه قرباناً للآلهة وكانت مشيئة القدر أن تلاقيه ابنته⁽⁸⁴⁾، وقصة "إيفي كنى" ابنة البطل اليوناني "أجاممنون" شبيهة بقصة "يفتاح" العبراني، وكلتا القصتان تبين ضعف الإنسان وعجزه مقابل وطأة القدر والمصير، كما أن منظومة "هيلدبراند"، وهي من الآثار الملحمية الألمانية، وقصة "كوهولين" وهي من الأساطير الإيرلندية تشبهان قصة رستم وسهراب⁽⁸⁵⁾.

كتب الباحث الإنجليزي "بوتر" كتاباً يشتمل على أكثر من ثمانين قصة ترجع إلى شعوب وقبائل مختلفة من جميع أنحاء العالم، حيث يقتتل في كل قصة من هذه القصص الأب مع الابن أو يقتتل في كل منها أشخاص تربطهما ببعضهما بعضاً قرابة دم، وقارن مؤلف هذا الكتاب تلك القصص مع بعضها من حيث اللمسات الفنية، والحبكات القصصية التي دفعت بالقصة إلى نقطة الأوج وقمة الإثارة، فوجد أن قصة رستم وسهراب هي الأكمل والأشمل، وانتخبها عنواناً لكتابه وسماه رستم وسهراب⁽⁸⁶⁾.

ومن الجدير بالذكر أن ضعف الإنسان وعجزه في مواجهة القدر والمصير، يظهر جلياً واضحاً في قصة رستم وسهراب، كما هو الحال في آداب الأمم الأخرى، لكن الإثارة والجازبية التي تتمتع بها قصة الفردوسي لا يمكن مشاهدتها في أية قصة أخرى⁽⁸⁷⁾، فلو قارنا الشاهنامه ومأساة رستم وسهراب مع غيرها من أدب المآسي والتراجيديات في الشعر الملحمي لسائر الأمم لوجدنا أن الشاهنامه بشكل عام ومأساة رستم وسهراب بشكل خاص تشتملان على عناصر وجوانب غير مسبوقة تدلان على عظمة هذا الأثر، كما تصوران القوة المربعة للمصير والقدر بشكل بارز ومعبّر وغير مسبوق، وعلى نحو لا يمكن مشاهدته في أدب ملحمي آخر، مما جعل معظم النقاد يجزمون بأن الشاهنامه تعد من الروائع الأدبية العظيمة، لذلك عدّها الباحث والناقد الألماني المعروف "باوم كارتن" تعادل أدب المآسي والتراجيديات عند اليونان، وقد ترجمها الكثير من شعراء أوروبا وأدبائها إلى اللغات الأوروبية شعراً ونثراً⁽⁸⁸⁾.

وحظيت الشاهنامه بقسط وافر من عناية الباحثين العرب الذين قاموا بدراساتها وترجمتها تارةً والحديث عن قصصها وأبطالها تارةً أخرى؛ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: ترجمة البنداري التي حققها المرحوم عبد الوهاب عزّام وأفرد لها مقدمة قيّمة وقارنها بالأصول الفارسية⁽⁸⁹⁾. كما أن هناك ترجمة حديثة للشاهنامه باللغة العربية تمت على يد سمير مالطي بعنوان: "الشاهنامه ملحمة الفرس الكبرى"⁽⁹⁰⁾. ومن الدارسين العرب الذين التفتوا إلى الشاهنامه في أبحاثهم أمين عبد المجيد بدوي في كتابه: "القصة في الأدب الفارسي"⁽⁹¹⁾ وفي كتابه: "جولة في الشاهنامه"⁽⁹²⁾. وقام الباحث بديع محمد جمعة في كتابه: "من روائع الأدب الفارسي" بالتعريف بقصة رستم وسهراب وترجمة أبياتها إلى اللغة العربية دون تحليل معمّق. ومما لا شك فيه أن مئات الأبحاث والدراسات تناولت هذه القصة المأساة بلغات شتى، لكن قلماً نجد بحثاً أوفاهها حقّها من التتبع الدقيق المصحوب بنذر يسير من التحليل كالذي ذهبت إليه هذه الدراسة.

النتيجة

لقد دأب الفردوسي في هذه القصة المأساة وقصص الشاهنامه ومآسيها الأخرى التأكيد بأن التصدي للقدر وما كتب على الجبين، ضرب من المحال، ولا بد للإنسان من الإذعان والتسليم؛ لأن مساعي الحذر والتدبير والاحتياط لن تفلح في مسح ما جفّ به القلم. فالمكتوب؛ مسألة جبرية ليس للاختيار وإرادة البشر إليها سبيل، وهذا الأمر جلي واضح في قصص التراجيديا الكثيرة التي حفلت بها الآداب العالمية، وضمن هذا الإطار، يمكن لنا أن نعدّ تراجيديا رستم وسهراب، قصة تمثل كل المجتمعات البشرية عبر العصور ومن ضمنها عصرنا الحاضر؛ فالبحث عن السلطة يضع الناس في مواجهة بعضهم بعضاً، ويجعلهم متعطشين للدماء، فالأبناء يفتكون بأبائهم، كما يفتك الآباء بأبنائهم، في سبيل الوصول إلى السلطة، وسيخسر رجال كبار مثل "سهراب" حياتهم ثمناً للتكالب على السلطة في كل زمان ومكان، حاضراً ومستقبلاً. وما دام الأمر كذلك، وقبل أن ينشب القدر أظفاره ويفتك بنا، غير أبه بكل التماثل التي أحطنا أنفسنا بها، فلنسع في هذا الكون إلى مؤازرة الحق والعدل، ولنتحلّ بالشجاعة والشهامة والنبل والسخاء، علنا نتنصر على طلسم الرعب والخوف من المصير الذي يسكن في أعماقنا، ويُفسد علينا جانباً من لحظات عمرنا المحدود.

Sohrab and Rustum Tragedy: An Analytical Study

Aref AlZghoul, Department of Arabic Language and Latreral, Yarmouk University, Irbid, Jordan.

Abstract

This paper studies and analyses the story of Rustam and Sohrab which is the most famous and the strongest tragic story in the Persian poetic epic "Shahnameh" by AlFerdowsi in the late fourth century AH. In the story, the writer sheds light on the hopes and pains of the nation that dominated the globe for thousands of years. The study focuses on this story in that the young knight "Sohrab" was killed by his father, "Rustam", without knowing each other. The writer focuses on the terrifying power of the acts of God- inevitable destiny- that people cannot escape with caution and deliberation. In addition, the study focuses on ALFerdowsi's literary genius side, not to mention the high status this story attained compared with similar ones in the world of literature as critics consider it one of the greatest stories of tragedy and the most exciting and powerful one.

Keywords: Shahnameh , AlFerdaws, Rustam, Sohrab, Tragedy.

قدم البحث للنشر في 2012/3/26 وقبل في 2012/12/24

الهوامش

- (1) من أمراء مدينة "طوس" وأعيانها في القرن الرابع الهجري، وقد كان حاكماً لتلك المدينة لمدة من الزمن ثم أصبح أميراً لخراسان. كان يزعم أنه ينحدر من سلالة ملوك إيران القدماء. أمر بجمع أخبار الإيرانيين القدماء ورواياتهم في كتابٍ منثور صار فيما بعد نواة لـ "شاهنامه" الفردوسي المنظومة شعراً. مات أبو منصور محمد بن عبد الرزاق مقتولاً عام 350هـ. (لمزيد من الاطلاع، انظر: فردوسي، محمد أمين رياحي، ص53- 61. و: سرچ شمه هاي فردوسی شناسی، محمد أمين رياحي صص 171- 181).
- (2) ذبيح الله صفا، حماسه سرايي در ايران، صص 99، 204.
- (3) المصدر نفسه، ص182.
- (4) إبراهيم مدرسي، شاهنامه وشكوه بهلواني، ص241.
- (5) ذبيح الله صفا، حماسه سرايي در ايران، ص6.
- (6) شاعر من شعراء القرن الثامن الهجري، ولد في بلدة "فريومذ" في خراسان ومات فيها عام 769هـ. كان والده شاعراً أيضاً وقد ضاع ديوان ابن يمين عام 743هـ لكن تمكن من جمع بعض أشعار ذلك الديوان ثانية.
- (7) رحيمي عفيفي، مجموعة سخنراني هاي سوميان تا ششمين هفته فردوسي، ص34.
- (8) ابو الحسن نظام الدين يا نجم الدين احمد بن عمر بن علي السمرقندي، المعروف بـ "نظامي العروضي" من شعراء القرن السادس الهجري وكتابه، ومؤلف كتاب "چهار مقاله" يعني كتاب "المقالات الأربع" في الشعر والأدب، والإنشاء، والطب، والفلك الذي ترجمه يحيى الخشتاب وعبد الوهاب عزام إلى العربية. عاش معظم سني عمره في خراسان. ناصر السلطان علاء الغوري في حربه مع السلطان سنجر السلجوقي، وقضى آخر حياته متخفياً في "هرات" خوفاً من السلطان سنجر بعد هزيمة علاء الغوري، وتاريخ وفاته غير معروف. (لمزيد من الاطلاع، انظر: كتاب "چهار مقاله" تحقيق محمد معين؛ و "تاريخ أدبيات" إيران" لـ "ذبيح الله صفا" ج2، ص961).
- (9) عروضي سمرقندي، چهار مقاله، 75- 76، انظر أيضاً: محمدامين رياحي، سرچشمه هاي فردوسی شناسی، ص 290.
- (10) فردوسي، شاهنامه، چاپ موسكو، الطبعة الاولى، نشر هرمس، طهران، 1382هـ. ش، (2003م)، ص745. انظر أيضاً: شاهنامه فردوسي، تصحيح مهدي قريب ومحمد بهبودي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشر توس، طهران، 1375هـ. ش (1996م)، ص252، الأبيات، 864 و865.
- (11) أشهر فرسان "الشاهنامه" في مرحلة الفروسية من مراحل الملحمة الفارسية، وهو ابن زال الذي اشتهر بالفروسية أيضاً، كان رستم يتمتع بقوى غير عادية حينما كان يقود جيوش ملوك إيران القدماء: كيقياد، و"كيكاووس"، و"كيخسرو". بارز الفارس "اسفنديار" وقتله، ثم نازل ابنه

"سهراب" وأجهز عليه دون علمه أنه ولده، لكنه في نهاية المطاف يلقي حتفه غدراً على يد أخيه غير الشقيق "شغاد". خصاله وصفاته تشبه خصال وصفات "أخيل" يا أشيل في الياذة هوميروس. (انظر: پژوهشهایی در شاهنامه "جهانگیر گوروجي، ص 128-130).

(12) اسم حصان "رستم" الذي كان يمتطي صهوته في الحروب، وهو حصان أسطوري واستثنائي تجتمع فيه ألوان عدة. مات ذلك الحصان مع فارسه "رستم" نتيجة حيلة دنيئة حاكها "شغاد" أخو رستم غير الشقيق تمثلت باستدراج رستم ليقع مع جواده "رخش" في حفرة مليئة بالرماح.

(13) الشعب الذي كان يسكن في منطقة ما وراء النهر، ضمن منطقة واسعة تمتد حتى بحيرة الأورال وتخوم الصين. وكان نهر الجيخون يفصل بين إيران التاريخية وبلاد الطورانيين. وتشكل الحروب الدامية التي كانت تدور بين إيران والطورانيين الجزء الأكبر من الملحمة الفارسية "الشاهنامه". وذكرت المصادر الفارسية والمراجع العربية الإسلامية أن بلاد "الطورانيين" هي المناطق الواقعة ما وراء النهر.

(14) مدينة من توابع "بلخ" من أرض الطورانيين، دخلها "رستم" باحثاً عن حصانه، فعشقه "تهمينه" ابنة ملك تلك المدينة، وتزوجها فكان "سهراب" ثمرة لهذا الزواج.

(15) صفة لـ "سام" جد "رستم"

(16) فردوسي، شاهنامه، طبعة بروخيم، ج2، ص440. انظر أيضاً، أنواع أدبي، سيروس شمسيا، ص49؛ وبكاروان حله، عبد الحسين زرين كوب، مقالة "فردوسي، آفريگار رستم"، ص35.

(17) جد "رستم" لأبيه.

(18) صورة أخرى لإسم "نريمان" وصفة "سام" جد رستم.

(19) فردوسي، شاهنامه، ج2، ص441.

(20) لقب "زال" والد رستم.

(21) شاهنامه، ج2، ص442.

(22) بلاد الطورانيين؛ وهي المنطقة الواقعة وراء جيخون وسيخون.

(23) ثاني ملك من ملوك إيران في العهد الامبراطوي القديم. وقعت في عهده حروب طاحنة بين إيران وطوران، ومأساة سهراب تنسب لسنوات ملكه.

(24) شاهنامه، ج2، ص443.

(25) المصدر نفسه، ج2، ص446.

(26) جعفر شعار، وحسن أنوري، غننامه رستم وسهراب، ص54.

(27) أحد فرسان الشاهنامه، وقد وقع في أسر سهراب، ورفض أن يدهل على أبيه رستم.

(28) فارس من فرسان الشاهنامه، وهو الذي أطلع الملك كيكاووس على هجوم سهراب على إيران.

- (29) أحد أبطال الشاهنامه، وهو "جيو" بن "جودرز" صهر "رستم" ووالد "بيجن" وقد أنقذ كيخسرو بن "سياوش" من أسر الطورانيين.
- (30) شاهنامه، ج2، ص460.
- (31) المصدر نفسه، ج2، ص462.
- (32) المصدر نفسه، ج2، ص467.
- (33) منصور فسائي، حماسه رستم وسهراب، ص56.
- (34) خال "سهراب" الذي كان عليه أن يُعرّف ويدل سهراب على والده رستم، لكنه يُقتل قبل أن يؤدي دوره المرسوم له.
- (35) شاهنامه، ج2، ص475.
- (36) المصدر نفسه، ج2، ص480.
- (37) المصدر نفسه، ج2، ص480.
- (38) المصدر نفسه، ج2، ص482.
- (39) جعفر شُعار، وحسن أنوري، غمناحه رستم وسهراب، ص45.
- (40) شاهنامه، ج2، ص482.
- (41) المصدر نفسه، ج2، ص482.
- (42) المصدر نفسه، ج2، ص482.
- (43) المصدر نفسه، ج2، ص484.
- (44) المصدر نفسه، ج2، ص485.
- (45) المصدر نفسه، ج2، ص487.
- (46) المصدر نفسه، ج2، ص488.
- (47) المصدر نفسه، ج2، ص488.
- (48) المصدر نفسه، ج2، ص488.
- (49) المصدر نفسه، ج2، ص489.
- (50) المصدر نفسه، ج2، ص489. يتكتم المحاربون في أدب التراجم عاده، ولا يفصحون عن هوياتهم، انظر: أنواع أدبي، سيروس شميسا، ص83.
- (51) المصدر نفسه، ج2، ص489.
- (52) المصدر نفسه، ج2، ص490.
- (53) المصدر نفسه، ج2، ص495.

- (54) المصدر نفسه، ج2، ص496.
- (55) المصدر نفسه، ج2، ص497.
- (56) المصدر نفسه، ج2، ص498.
- (57) المصدر نفسه، ج2، ص500.
- (58) المصدر نفسه، ج2، ص500.
- (59) المصدر نفسه، ج2، ص501.
- (60) المصدر نفسه، ج2، ص502.
- (61) المصدر نفسه، ج2، ص503.
- (62) المصدر نفسه، ج2، ص503.
- (63) المصدر نفسه، ج2، ص503.
- (64) المصدر نفسه، ج2، ص503.
- (65) المصدر نفسه، ج2، ص504.
- (66) المصدر نفسه، ج2، ص504.
- (67) المصدر نفسه، ج2، ص509.
- (68) المصدر نفسه، ج2، ص509.
- (69) المصدر نفسه، ج2، ص511.
- (70) المصدر نفسه، ج2، ص513.
- (71) المصدر نفسه، ج2، ص519.
- (72) المصدر نفسه، ج2، ص520.
- (73) غمنامة رستم وسهراب، جعفر شعار، وحسن أنوري، ص44.
- (74) المصدر نفسه، ص44.
- (75) مجلة دانشکده ادبیات وعلوم إنسانی دانشگاه فردوسی، شماره چهارم، سال دوازدهم، مقالة "جهان بهلواني، خانم فلاح رستگار. (انظر أيضاً: بديع محمد جمعه، من روائع الأدب الفارسي، ص211-212).
- (76) فردوسي وسرودهايش، يوكن ادوارد برتلس، ترجمه سيروس ايزدي، ص126.

- (77) الأخ غير الشقيق لرستم، وقد دبر حيلة دنيئة لقتل رستم وحصانه "رخش" إذ أوقعهم في حفرة مملوءة بالرماح، لكن رستم عاجله بسهم فتاك وهو يهوي مع جواده في الحفرة وأرداه قتيلاً. (لمزيد من الاطلاع أنظر: بيست ويك كفتار درباره شاهنامه فردوسی، منصور فسانى، ص515-525).
- (78) درآمدى برانديشه فردوسى، سعيد حميديان، ص234.
- (79) المصدر نفسه، ص280. انظر أيضاً: محمد ندوشن، داستان داستانها، ص125.
- (80) المصدر نفسه، ص280.
- (81) شاهنامه فردوسى، ساختار وقالب، ص233. انظر أيضاً: فردوسى وشاهنامه، منوچهر مرتضوى، ص24.
- (82) سرچشمه هاى فردوسى شناسى، محمد امين رياحى، ص290.
- (83) حماسه رستم وسهراب، ص51.
- (84) المصدر نفسه، ص51.
- (85) المصدر نفسه، ص52. للمزيد انظر كتاب: "شناخت اساطير ايران، لجابر عناصرى، ص180-181 حيث يلقي المحارب اليوناني "كريتوس" مصرعه على يد والده "باريس" في المعارك التي دارت حول طرواده؛ لأن قدر "كريتوس" أن يموت على يد والده.
- (86) المصدر نفسه، ص ص 53، 61، (انظر أيضاً كتاب "درباره ادبيات ونقد ادبى"، المجلد الثاني، ص815).
- (87) المصدر نفسه، ص52، 53. (انظر أيضاً: طه ندى، ادبيات تطبيقى، ترجمه زهرا خسروى، ص212).
- (88) حماسه رستم وسهراب، ص52، (انظر أيضاً: خسرو فرشيدورد، درباره ادبيات ونقد ادبى، ج2، ص815).
- (89) طبعت بدار الكتب بالقاهرة لأول مرة في جزئين عام 1931 وعام 1932 ثم أعيد طبعها في طهران بالأفست عام 1970م. وهي أول ترجمة عربية للشاهنامه، كما أنها الأقرب إلى عصر المؤلف وتحضى بأهمية بالغة لدى محققى الشاهنامه فيما يتعلق بالأبيات التي اعترها التصحيف.
- (90) طبعت في دار العلم للملايين في بيروت، 1977م.
- (91) طبع في القاهرة، دار المعارف 1964.
- (92) طبع في القاهرة، 1977م.

المصادر والمراجع:

- طه ندا، ادبيات تطبيقي، ترجمه زهرا خسروی، الطبعة الأولى، نشر فرزانه، طهران، 1380 هـ. ش (2001م).
- سیروس شمیسا، انواع ادبی، (بالفارسیة)، الطبعة الرابعة، نشر ورامین، طهران، 1375 هـ. ش (1996م).
- عبد الحسین زرین کوب، باکاروان حله (بالفارسیة)، الطبعة التاسعة، نشر علمی، طهران، 1374 هـ. ش (1995م).
- منصور فساوی، بیست ویک گفتار شاهنامه، (بالفارسیة)، الطبعة الأولى، نشر نوید، شیراز، 1369 هـ. ش (1990م).
- جهانگیر کوروجی، پژوهشهایی در شاهنامه، ترجمه جلیل دوست خواه، (بالفارسیة)، الطبعة الأولى، نشر زنده رود، طهران 1371 هـ. ش (1992م).
- عروزی سمرقندی، چهار مقاله، (بالفارسیة)، تصحیح أحمد نژاد، الطبعة الثانية عشرة، نشر امیر کبیر، طهران، 1384 هـ. ش (2005).
- منصور فساوی، حماسة رستم و سهراب، (بالفارسیة)، الطبعة الأولى، نشر نیل، طهران، 1373 هـ. ش (1994م).
- ذبیح الله صفا، حماسه سرایی در ایران، (بالفارسیة)، الطبعة الثالثة، نشر امیرکبیر، طهران، 1352 هـ. ش (1973م).
- محمد اسلامی ندوشن، داستان داستانها (بالفارسیة)، نشر آثار ملی، طهران، 1351 هـ. ش (1972م).
- سعید حمیدیان، درآمدی بر اندیشه فردوسی، (بالفارسیة)، الطبعة الأولى، نشر مرکز، طهران، 1372 هـ. ش (1993م).
- خسرو فرشیدورد، درباره ادبیات و نقد ادبی، (بالفارسیة) المجلد الثاني، الطبعة الأولى، نشر امیرکبیر، طهران، 1378 هـ. ش (1999م).
- خجسته کیا، سخنان سزاوار زنان در شاهنامه (بالفارسیة)، نشر فاخته، طهران، 1371 هـ. ش (1992م).

- محمد أمين رياحي، سرچشمه‌های فردوسی‌شناسی، (بالفارسية) نشر مطالعات فرهنگ‌ی، طهران، 1372 هـ. ش (1993 م).
- تصحیح بروخیم، شاهنامه فردوسی، (بالفارسية)، الطبعة الأولى، نشر بروخیم، طهران، بدون تاریخ.
- چاپ موسکو، شاهنامه أبو القاسم فردوسی، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشرهرمس، طهران، 1382 هـ. ش (2003 م).
- شاهنامه فردوسی، تصحیح مهدي قریب، ومحمد بهبودی، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشر توس، طهران، 1375 هـ. ش (1996 م).
- هانزن، کُورت هامیش، شاهنامه فردوسی، ساختار و قالب، ترجمة کیکاووس جهانداری، نشر فرزانه روز، طهران، 1374 هـ. ش (1995 م).
- سخنرانی‌های جشن طوس، شاهنامه فردوسی وشکوه بهلوانی، (بالفارسية)، مهدی مدائنی، الطبعة الأولى، طهران، 1357 هـ. ش (1978 م).
- جابر عناصری، شناخت اساطیر ایران، (بالفارسية)، الطبعة الثانية، نشر سروش، طهران، 1382 هـ. ش (2003 م).
- جعفر شعار، وحسن أنوری، غننامه رستم وسهراب، (بالفارسية)، الطبعة الرابعة، نشر قطره، طهران 1374 هـ. ش (1995 م).
- یوکن ادوارد برتلس، فردوسی وسرودهایش، (بالفارسية)، ترجمة سیروس ایزدی، نشرهیرمند، طهران، 1370 هـ. ش (1991 م).
- منوچهر مرتضوی، فردوسی وشاهنامه، (بالفارسية)، الطبعة الثالثة، نشر مؤسسة مطالعات وتحقیقات، 1385 هـ. ش (2006 م).
- شماره چهارم، سال دوازدهم، مجلة دانشکده ادبیات دانشگاه فردوسی، مقاله خانم فلاح رستگار. "رستم جهان بهلوان"
- بدیع محمد جمعه، من روائع الأدب الفارسي، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بیروت، 1983 م.

جماليات المكان الأردنيّ في ديوان "سماء أخرى" لمحمود الشلبي

تهاني عبد الفتاح شاكر*

ملخص

تناولت في هذا البحث بالدراسة والتحليل جماليات المكان الأردنيّ في ديوان سماء أخرى للشاعر محمود الشلبي.

وقد عمدت إلى دراسة المكان ضمن إطار ثنائيات محددة هي: المكان التاريخي/ الآني، والمكان المرتفع/ المنخفض، والصحراء/ الحديقة، والمكان الحقيقي/ الرمزي، ودراسة الثنائية أو التقابلات مما يعنى به المنهج البنيوي.

وقد بينت في الدراسة أنّ المكان الأردني هو مكان معاصر، إلّا أنّ له ذاكرة تاريخية عريقة، وأنّ الشاعر كان يستحضر تاريخ الأماكن الأردنية حين يزورها في زمنها الراهن، فيصوّر جمالها الآني، ويصف ماضيها العريق.

وفي دراسة المكان المرتفع/ المنخفض تبين أنّ المفارقة بين العلو والانخفاض لا تؤدي إلى تناقض في الدلالة عند الشاعر، بل إنه يصورهما في لوحة منسجمة متكاملة.

أمّا الصحراء، فإنّ الشاعر لم يتوقف عندها طويلاً، وكان لا يلبث أن ينتقل منها إلى ذكر النبع أو الغيم أو الواحة أو الحياة، وذلك نقيض الحديقة والحقل اللذين احتلا مساحة واسعة في نفسه وقصيدته.

وقد أضفى ديوان سماء أخرى على الأماكن الأردنية دلالة رمزية، فجنوب الأردن أصبح رمزاً للعراقة والصمود، وشمالها أصبح رمزاً للعلم والمعرفة، وجبال السلط ترمز للعلو والشموخ، وغور الأردن يرمز للطاء والخصب.

مقدمة:

"سماء أخرى" هو عنوان الديوان التاسع لمحمود الشلبي، المنشور عام 2007م، ويتكوّن الديوان من اثنتين وثلاثين قصيدة، عني الشاعر فيها عناية خاصة بالمكان الأردني، ويظهر ذلك منذ الوهلة الأولى في عناوين القصائد، إذ وردت أسماء أماكن أردنية في عناوين إحدى عشرة قصيدة من الديوان، وهي: "دوحة الصبوات" والمقصود بها غور الأردن، و"سيّدة الدهشة على مشارف ضانا"، و"أقحوانة الشمال"، و"أصداء جنوبية"، و"نقوش أيوبية: هواجس من تجليات

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم العلوم الإنسانية، كلية الهندسة التكنولوجية، جامعة البلقاء التطبيقية، عمان، الأردن.

عجلون وقلعتها"، و"بطاقة اعتذار إلى الكرك"، و"حصن الغراب"، و"قصيدة السلط"، و"هي السلط"، و"مدارات سلطية"، و"قمر البلقاء". مما يدل على أن المكان الأردني هو مكان محبب لدى الشاعر لذلك انجذب إليه خياله، والمكان الذي يجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً محايداً، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز وخاصة أنه يملك جاذبية في أغلب الأحيان وذلك لأنه يكتف الوجود في حدود تتسم بالحماية⁽¹⁾.

والمكان الأردني في ديوان سماء أخرى لم يمنح الشاعر الحماية فقط، بل منحه الحرية أيضاً، إذ جعل الشاعر مفهوم الحب والمحبة سماء أخرى، توازي السماء الأولى التي تمثل مكاناً غير مقيّد بحدود، ليعبر بذلك عن إحساسه بالانطلاق والحرية "وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها دون أن يصطدم بحواجز أو عقبات، أي بقوى ناتجة عن الوسط الخارجي، لا يقدر على قهرها أو تجاوزها"⁽²⁾.

وبذلك تتجلى جدلية الحرية والمكان عند الشاعر، ليصور المكان الأردني بأرضه وسمائه رمزاً للانطلاق والحرية، تلك الحرية التي لا تنتهي حدودها إلا حين ينظر إلى الغرب فيرى الأراضي الفلسطينية المحتلة، فيشعر بالحزن والقيود، كما يشعر بحزن الأماكن الأردنية المجاورة لفلسطين وأهلها لما تعانيه جارتها من قيود، فالمكان عنده "حقيقة معاشة ويؤثر بالبشر بالقدر نفسه الذي يؤثر فيه فلا يوجد مكان فارغ أو سلبي"⁽³⁾، وقصائد الديوان في تصويرها للأماكن "استطاعت أن تتجاوز إطار تقديمها بوصفها صورة واقعية (خارجية) وديكورا مستقلاً منفصلاً"⁽⁴⁾، إذ مزجت بين الإنسان والمكان وأضفت على كل منهما صفات الآخر.

ويلعب المكان دوراً في تنظيم العلاقات بين البشر، فالمكان الأردني هو مكان ألفة ومحبة وتعاطف بين الناس، كما أنه يساهم في تشكيل المفاهيم لديهم "فالإنسان دائماً يحاول أن يقرب لنفسه المجردات من خلال تجسيدها في ملموسات، وأقرب هذه الملموسات هي الإحداثيات المكانية؛ فالتفكير يخضع لعملية ترجمة: المجردات تترجم إلى محسوسات"⁽⁵⁾، ومن المفاهيم المجردة التي خضعت لعملية ترجمة لإحداثيات مكانية، "الأهمية" أو "القيمة" فالشيء القيم يتم التعبير عنه بكلمة "عال" وغير القيم يتم التعبير عنه بكلمة "منخفض"، والعلو والانخفاض هي إحداثيات مكانية.

"ويمكن القول إذن إن نماذج العالم الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية العامة التي ساعدت الإنسان -على مرّ مراحل تاريخه الروحي- على إضفاء معنى على الحياة التي تحيط به، نقول: إن هذه النماذج تنطوي دوماً على سمات مكانية. وقد تأخذ هذه السمات تارة شكل تضاد ثنائي: "السماء- الأرض" أو "الأرض- العالم السفلي" ... وتارة تأخذ شكل تدرج هرمي سياسي-

اجتماعي يؤكد تضاد السمات التي تقع في قمة الهرم (الرفيع) وتلك التي تقع في أسفل الهرم (الوضيع)⁽⁶⁾.

وسيعتمد هذا البحث إلى دراسة جماليات المكان الأردني في ديوان سماء أخرى، ضمن إطار ثنائيات محددة هي: المكان التاريخي/ الآني، والمكان المرتفع/ المنخفض، والصحراء/ الحديقة والمكان الحقيقي/ الرمزي. ودراسة الثنائية أو التقابلات مما تعنى به البنيوية "التي اتخذت منطلقاً لها ثنائية الظواهر فزعمت أنها خاصية من خصائص الفكر الإنساني"⁽⁷⁾.

وجدير بالذكر أن المكان الأردني لم يكن محط عناية محمود الشلبي وحده، فقد عني به العديد من الأدباء "في أعمالهم الشعرية، كعرار، وحسني زيد الكيلاني، ورفعت الصليبي، وعبد المنعم الرفاعي، وحيدر محمود، وخالد محادين، وعائشة الخواجا الرازم، وحبيب الزبيدي... إلخ"⁽⁸⁾. وكل واحد من هؤلاء الشعراء صور المكان بأسلوبه الخاص، وأضاف عليه مضموناً خاصاً، وذلك لأنه وإن "كان المكان بصورته الواقعية واحداً، إلا أنه بصورته الإبداعية مختلف تماماً، إذ يكتسب خصائصه المميزة له من طبيعة تشكيل الشعراء لجزئياته، وموقفهم من أحداثه، وما يثيره في النفس الإنسانية من أفكار"⁽⁹⁾ لذلك لم تكن صورة المكان الأردني في أذهان الشعراء واحدة، مما جعل هذا الموضوع حقلاً خصباً للبحث والدراسة، وأغرى العديد من النقاد والدارسين بالكتابة فيه.

ويمكن تقسيم الدراسات التي تحدثت عن المكان الأردني في الشعر إلى ثلاثة أقسام هي: دراسات تتناول المكان الأردني في الشعر الحديث عامة، ودراسات تتناول المكان الأردني في شعر شاعر محدد، ودراسات تتناول المكان الأردني في ديوان أو قصيدة. ومن الأمثلة على القسم الأول دراسة عماد الضمور "عمان وهج المكان وبوح الذاكرة" الذي قدم فيه دراسة نقدية لصورة عمان في الشعر الأردني المعاصر، وقد استخلص هذه الصورة من دواوين عشرات الشعراء الأردنيين، وتوصل إلى أنه قد "جاء التشكيل الشعري لعمان زاحراً بحضارة المدينة الموهلة في القدم"⁽¹⁰⁾. وفي دراسة أخرى لعماد الضمور بعنوان "شعرية المكان وانبثاق الرؤيا (صدى تفجيرات عمان في الشعر الأردني)"⁽¹¹⁾ تناول صورة عمان عند عدد من الشعراء مثل حيدر محمود وأمجد ناصر وعبد الله رضوان وماجد أبو غوش، بعد تعرضها لعمل إرهابي، فتوصل إلى أن صدى التفجيرات قد زاد من ارتباط الشعراء بعمان وحبهم لها، فجاءت صورهم مليئة بمشاعر الحب والفداء وناطقة بالعز والكبرياء.

وإذا كان عماد الضمور يركز على الصورة المشرقة لعمان في عيون الشعراء، فإن حمودة زلوم في كتابه "المدينة في الشعر الأردني المعاصر"⁽¹²⁾ يقدم الصورة السلبية للمدينة في الباب الأول من كتابه تحت عنوان "المدينة الضد"⁽¹³⁾، ثم يقدم صورة عمان الإيجابية، في الباب الثاني

من كتابه تحت عنوان "عمان المدينة المعشوقة"⁽¹⁴⁾. وممن درس صورة عمان عند عدد من الشعراء عبد الله رضوان في كتابه "المدينة في الشعر العربي الحديث"⁽¹⁵⁾.

ومن الأمثلة على القسم الثاني من الدراسات، التي تتناول صورة المكان عند شاعر محدد، دراسة قاسم المومني "الأرض في شعر عرار"⁽¹⁶⁾، ودراسة تركي المغيض "جماليات المكان في شعر عرار"⁽¹⁷⁾ ودراسة حامد كساب "عمان في شعر حسن بكر العزاوي"⁽¹⁸⁾. وتتشترك هذه الدراسات الثلاث بظهور الفكر العلمي المنظم لأصحابها، ووضوح المنهج فيها، إذ يبين كل من الدارسين أبعاد الصورة الفنية التي يدرسها منذ البداية، فقاسم المومني يبين أن صورة الأرض عند عرار كانت ذات أبعاد ثلاثة هي: الطبيعة، والمرأة، والخمرة، وهي بذلك كانت تمنحه الجمال والحب واللذة.

وتركي المغيض تحدّث عن ثلاثة أبعاد أيضاً، وهي: البعد الانتمائي الذي يرتبط بعشق الوطن والتضحية من أجله، والبعد النفسي الذي يجعل المكان يعكس الحالة النفسية للشاعر، والبعد الجمالي الذي يرتبط بوصف الجمال الطبيعي للمكان الأردني. وكذلك حامد كساب تحدّث عن ثلاثة أبعاد لصورة عمان في شعر حسن بكر العزاوي، وهي: البعد الوجداني، والبعد الوطني السياسي، والبعد الجمالي.

ويوجد دراسات أخرى تتحدث عن صورة المكان الأردني عند شاعر محدد، مثل دراسة عبد الله رضوان للمكان في شعر عرار في كتابه "عرار شاعر الأردن وعاشقه"⁽¹⁹⁾، ودراسة محمد حور لصورة عمان في شعر حيدر محمود في دراسة عنوانها "حيفا الرحم... عمان الحزن"⁽²⁰⁾، وقد قام كل من محمد ضمرة⁽²¹⁾، وعماد الضمور⁽²²⁾، بدراسة صورة المكان الأردني في شعر عبد الله رضوان.

ومن الأمثلة على القسم الثالث من الدراسات، والذي يتناول فيه الكاتب صورة المكان الأردني في ديوان أو قصيدة، دراسة عماد الضمور "صورة عمان في عيون سلمى للشاعر حسن بكر العزاوي"⁽²³⁾، ودراسته "مدينة في قصيدة: دراسة في قصيدة سلالم الدهشة للشاعر محمود الشلبي"⁽²⁴⁾، ودراستي هذه تنتمي إلى هذا القسم من الدراسات فهي تتناول جماليات المكان الأردني في ديوان "سماء أخرى" للشاعر محمود الشلبي.

المكان التاريخي/الآني:

المكان الأردني هو مكان معاصر إلّا إنَّ له ذاكرة تاريخية عريقة، فقد قامت على أرضه حضارات قديمة متنوعة، طواها الزمن لكن شيئاً من آثارها ما زال قائماً على الأرض، وهذه الآثار هي التي تمثل المكان التاريخي، فهو "المكان الذي يستحضر لارتباطه بعهد مضى أو لكونه علاقة

في سياق الزمن⁽²⁵⁾، ويظهر هذا المكان ظهوراً بيناً في أربع قصائد من ديوان سماء أخرى هي: "سيدة الدهشة": على مشارف ضانا، و"أصداء جنوبية"، و"نقوش أيوبية"، و"حصن الغراب". أما الأمكنة الآنية فهي "الأمكنة التي تحيا فيها الشخصيات في راهنها الذي تتحدث فيه"⁽²⁶⁾ القصيدة، فيصورها الشاعر مبيناً تأثيرها عليه وتفاعله معها، وهذه الأمكنة تظهر في معظم قصائد الديوان.

وكان الشاعر يستحضر تاريخ الأماكن الأردنية العريقة حين يزورها في زمنها الراهن، فيتذكر ما شهدته هذه الأماكن من حضارات، وأحداث تاريخية خالدة فيربط حاضرها بماضيها، ومثال ذلك حين زار "ضانا" وهي محمية للأحياء البرية، جنوب الطفيلة، تمتاز بموقعها الاستراتيجي المهم في التاريخ القديم⁽²⁷⁾ وقد كانت جزءاً من دولة الأنباط الذين استولوا على دولة الأدوميين في الجنوب الأردني، واتخذوا من البتراء عاصمة لهم، ثم توسعت دولتهم شمالاً وغرباً حتى اكتملت في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد عرف الأنباط بطرقهم الخاصة في الري، والزراعة، والنحت⁽²⁸⁾، وقد تذكر الشاعر تلك الحضارة الموهلة في القدم حين زار ضانا، يقول⁽²⁹⁾:

هذه الأرض شرفة

لا تنام

وكتاب أوراقه الأيام

قف عليها واستنطق الصخر فيها،

وارو عنها

ما سطرته الأنام

وفي هذه الأبيات شبه الشاعر أرض ضانا بشرفة لا تنام، وفي ذلك دلالة على عمق إرثها التاريخي، فهي ما زالت تحمل إرثاً عظيماً، لذا صورها لا تنام للدلالة على أن تأثيرها ما زال سارياً حتى اليوم. ثم طلب من المتلقي العام وليس الخاص الوقوف عليها، واستنطق الصخر فيها، لمعرفة تاريخها العريق. وإذا كان الشاعر الجاهلي قد اعتاد الوقوف على الديار بعد رحيل أهلها، فإن الشاعر هنا لا يكتفي بالوقوف على أرض ضانا، بل يطلب من المتلقي أن يستنطق الصخر فيها؛ لأن الصخر ما زال ينم على آثار الحضارات السابقة التي ازدهرت على هذه الأرض.

ويقول⁽³⁰⁾:

في ضلوع الجبال فجر ماء

هو للأرض نسغها

والقِوام

مدّ فيها الأنباط قافية الرّيّ

وعند الرويّ حالاً أقاموا

والينابيع حيثما سرت تجري

فعلى البعد تعزف الأنغام

فالشاعر قد رأى في ضانا ينابيع الماء التي أعجبتّه فشبهَ صوتها بالأنغام التي يسمعها الإنسان من بعيد، كما أنّها ذكرته بحضارة الأنباط وما كان لهم من وسائل في الرّي، أفادوا منها منذ أن سكنوا هذه المنطقة قبل أكثر من ألفي عام. وفي هذا المشهد يظهر الجمال الطبيعي، الذي أبدعه الخالق عزّ وجلّ في الجبال والينابيع، ما أغرى الإنسان في الإقامة والاستقرار في منطقة ضانا منذ فجر التاريخ، فاجتمعت فيها مظاهر الجمال الطبيعي، وأثار الحضارة الإنسانية معاً.

وقد وصف الشاعر جمالية ضانا وسحرها بقوله⁽³¹⁾:

سرح الطرف في الأصيل،

وطوّف

فالأويقات دهشة وهيام

واملاً الروح

من تضاريس ضانا

للجمال الوحشيّ فيها احترام.

لقد تتالى فعلاً الأمر "سرح" و"طوّف" وذلك في دعوة المتلقّي للتأمّل والتمتّع بجمال ضانا وقت الأصيل، وتتالى الأمر فيه حتّى للمتلقّي على المسارعة في اغتنام الفرصة قبل انقضاء هذه اللحظة الجمالية. وقد استخدم الشاعر كلمة "الأويقات" مصغرة ليدلّ على سرعة انقضاء وقت الأصيل بما فيه من جمال مدهش، ثمّ عاد إلى استخدام فعل الأمر "املاً" ليحثّ المتلقّي على إدراك جمال الطبيعة بكلّ ما لديه من حواسّ حتى تنفذ إلى روحه، فهذا الجمال البريّ جدير بالتأمّل والاحترام.

وجمال الطبيعة لم يذكره بحضارة الأنباط فقط، بل ذكره أيضاً بأحداث تاريخية شهدها جنوب الأردن في صدر الإسلام، ومنها قصة فروة بن عمرو الجذامي، وهو أمير عربي كان عاملاً للروم على البلقاء وجنوب الأردن، بعث "إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً بإسلامه"⁽³²⁾، وهو بذلك قد تحدى الروم، فحبسه (قيصر)، ثم قتله وصلبه على ماء (عفرا/ الطفيلة)، فكان أول شهيد عربي في الإسلام خارج جزيرة العرب⁽³³⁾، وقد قال الشاعر عن ذلك⁽³⁴⁾:

(فروة بن عمرو الجذامي)

أصغى لنداءٍ كأنه الإلهام

قام كالطود فارساً

يتحدى قيصر الروم،

فاصطفاه الحمام

دمه ماثل على ماء (عفرا)

كيف ينسى في الأرض،

هذا الهمام؟

ها هو اليوم

شاهد... وشهيد

ولدى النصب تستريح جذام

أشرققت شمسه

ولاح صباح

بعد ليلٍ وشعشع الإسلام

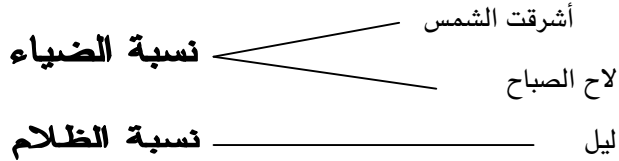
فالشاعر حين زار الطفيلة، شعر أن دماء الشهيد فروة بن عمرو الجذامي الذي تحدى سلطة قيصر الروم وأسلم، ما تزال ماثلة على ماء عفرا، فهذه الدماء الزكية التي سالت قبل أكثر من ألف عام على أرض الطفيلة واختلطت بترابها، لا يمكن أن تنسى لأنها كانت الجذوة التي أنارت شمس الإسلام في جنوب الأردن، فطلت مشرقة منذ ذلك الزمن الموهل في القدم إلى الآن، بل إن هذه الدماء قد أصبحت شاهداً على طهارة الأرض التي تخضب بها وامتزجت بترابها.

وهو قد أخذ حدث إسلام فردة بن عمرو الجذامي واستشهاده، وأعاد كتابته شعراً بأسلوبه الفني، فصورُ فروة وقد أنصت باهتمام فسمع ووعى دعوة الحق، لذا قام كالطود يتحدى قيصر الروم. وشبّه بالطود للدلالة على قوّة صموده وتحمله وصلابة موقفه، وعبرَ بالفعل المضارع "يتحدى" ليستحضر الصورة وكأنّ المتلقّي يشاهد الحدث بأم عينه، وصيغة الفعل المضارع تكسب الحدث سمة التجرد والاستمرارية أيضاً، بمعنى أنّ ما فعله فروة لم ينته بموته فهو ما زال مشعاً حتى الآن؛ لأنه أصبح رمزاً للتضحية في سبيل المبدأ. كما أنّه صورُ فروة فرداً واحداً، لا حول ولا قوّة له، يقف في وجه قيصر الروم، وهو أعلى سلطة في الدولة آنذاك، ما يدلّ على أنّه هبّ من أجل شيء نبيل، جعله يضحي بأعلى ما يملك (روحه). وبذا أصبح رمزاً للإنسان الذي يواجه في سبيل مبدئه، ولو لم يكن مبدؤه سامياً لما ضحى بكل شيء في سبيله.

وقد صورَ الشاعر فروة بأنّه شاهد وشهيد، وكلمة شاهد فيها دلالة على الاستمرارية، فإن كان فروة قد قضى نحبه فإن قصته ما زالت نبراساً لمن يأتي بعده من الأجيال، وكلمة شهيد تدلّ على أنّه نال الشهادة في وقته حين قُتل، وهو بما فعل لم يخلد ذكر نفسه فقط، بل خلد ذكر قبيلته، وجلب لها العز، وأعلى شأنها، لذلك رضيت عمّا فعله واستراحت عند النصب التذكاري الذي أقيم مكان استشهاده.

وفي هذه الأبيات صورة حسية بصرية تفيض ضياءً ونوراً، عن عاقبة فعل فروة، وذلك في تصوير الشمس تشرق، ويلوح الفجر، بعد انقضاء الليل.

لاحظ:



وبما أنّ نسبة الضياء أعلى من نسبة الظلام، لذا نتج عن ذلك زوال ظلام الكفر وتلاشيهِ. وأخيراً تأتي خاتمة المقطع بشعشع الإسلام، لتربط بين أول المقطع وآخره، ففي البداية قال: أصغى لنداء، لكنّه لم يوضّح ماهية هذا النداء، فجاءت الخاتمة لتفصح عن ماهية هذا النداء الذي أصغى إليه باهتمام، وهو الإسلام.

ومن الشهداء الذين تخضّب جنوب الأردنّ بدمائهم الحارث بن عمير الأزدي، رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الغساسنة يدعوهم إلى الإسلام، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني أحد أمراء الغساسنة وقلته، إذ لم تعجبه دعوته،

وخاف على إمارته أن تزول⁽³⁵⁾، فكان مقتل الحارث سبباً في خروج المسلمين لغزوة مؤتة، وقد ذكره الشاعر بقوله⁽³⁶⁾:

ومضى (الحارث) الولي،

يلبي دعوة الحقّ

والحقوق ذمام

إنه حاضر البديهة،

يروى قصة الموت،

والبلاد قتام

وهو قد عبّر بالفعل المضارع (يلبي) و(يروى) ليستحضر صورة الحدث، وذكر أن الحقوق ذمام، ليستنكر إقدام شرحبيل بن عمرو على قتل الحارث بن عمير؛ لأنّ الرسل عادة لا يقتلون، وقد كان أثر مقتله أن أصبحت البلاد مظلمة؛ لأنّ قتل الرسل عمل بشع ومستقبح.

وذكر غزوة مؤتة والشهيد جعفر بن أبي طالب بقوله⁽³⁷⁾:

من هنا مرّ (جعفر)

وعليه من ندى الفجر حُلّة

ولثام

نال في "مؤتة" الثواب

وأغفى فوق أرض

فطاب فيها المقام

هو في مشهد الشهادة طير

ذو جناحين

فيهما الإنعام

وفي وصف الشاعر لجعفر بن أبي طالب بالطير، تناص⁽³⁸⁾ مع ما ورد من روايات تاريخية تذكر استشاده وتقول: إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال إنه يطير في الجنة بجناحين من ياقوت، ومن هذه الروايات: "قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفرأ أخذ

اللواء بيمينه فَقَطِعَتْ، فأخذه بشماله فَقَطِعَتْ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتِلَ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، ويُقال إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه بنصفين⁽³⁹⁾، ومنها أيضاً "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما قُتِلَ زيد، أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجاءه الشيطان فحبَّب إليه الحياة، وكره إليه الموت، ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحکم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنيني الدنيا؟! ثم مضى قدماً حتى استشهد. فصلَّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: استغفروا لأخيكم، فإنه شهيد، دخل الجنة، فهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت، حيث يشاء من الجنة"⁽⁴⁰⁾.

وفي حديث الشاعر عن غزوة مؤتة اهتمام واضح بالمكان الذي وقعت فيه الغزوة، وهو منطقة مؤتة جنوب الأردن، واهتمام أيضاً بالأماكن المحيطة بها التي مرَّ منها جيش المسلمين لذلك قال: "من هنا مرَّ جعفر"⁽⁴¹⁾ وقال: "نال في مؤتة الثواب وأغفى فوق أرض فطاب فيها المقام"⁽⁴²⁾، فالشاعر قد أحبَّ الإقامة في منطقة ضانا والطفيلة وجنوب الأردن عامة لما أحسَّ فيها من جلال وهيبة أمام تاريخها العريق، وما شهدته من بطولات إسلامية خالدة، هذا إلى جانب جمال الطبيعة، وبهاء الحاضر في هذه الأماكن، حيث يقول⁽⁴³⁾:

أيُّها الزائر المجلي تأمل

كيف تزهو بصخرها الأعلام؟

في اتساق الكروم بوح لغات

قصرت عن بلوغها الأفهام

وعلى الرغم من أنَّهُ همَّ الشاعر الأول إظهار التاريخ العريق للمكان، إلا أنه لم يغفل عن إبراز جماليات المكان أيضاً، وكأنه يريد أن يربط بين الجالين معاً، جلال المكان وجماله، لذا جاء النداء في مفتتح المقطع ليحثَّ الزائر على الوقوف في المكان والتأمل، ليمتّع ناظره بجمال المكان، بعد أن متّع سمعه بالأحداث الكبرى التي شهدتها المكان. وتكمن براعة الشاعر في قدرته على الجمع بين عراقة التاريخ، وجمال الطبيعة في مقطع واحد، فهو ربط بين لقطتين متباعدتين زمنياً، ولقطة من الماضي لخصها بتشخيص الأعلام، وصورها كأنها حياً يفتخر ويتباهى بعراقة تاريخ، ولقطة من الحاضر تمثلت في صورة الكروم المتسقة لإبراز جمال المكان وخصبه، وقد جاء زهو الأعلام مقابلاً لاتساق الكروم، لوحتان رُسمتا بدقة، وتأنق الشاعر في اختيار عناصرهما. وقد يلمس المتلقي حزناً أو ألماً دفيناً خلف هذا التصوير، ولعلَّ هذا يرجع إلى إحساس الشاعر أن الماضي في هذا المكان أبهى من الحاضر، لذا استحضر قول أبي نواس⁽⁴⁴⁾:

يا دار ما فعلت بك الأيام
عـرم الزمان على
الذين عهدتهم

ضامتك والأيام ليس تضام
بك قاطنيـن
وللزمان عـرام

فأبو نواس يرى أنَّ الأيام قد ظلمت الديار، والزمان اشتدَّ أذاه على الساكنين فيها فتغيَّرت وتغيَّروا، وكذلك محمود الشليبي يرى أنَّ حاضر ضانا يختلف عن ماضيها، ولكنها ما زالت تتمتع بجمال وهيبة بيوحان بالماضي العريق، وربما استطاعت ذات يوم استعادة عراقه ماضيها.

وبما أَنَّ ضَانَا جَمَعْتَ بَيْنَ عِرَاقَةِ الْمَاضِي، وَجَمَالِ الطَّبِيعَةِ، لَذَا صَوَّرَ الشَّاعِرُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَزُورُهَا يَشْتِاقُ وَيَحَنُّ لَهَا فِي قَوْلِهِ (45):

يا ممرات ضانا

لك نشقاق

والخطی تلتام

وجاء قول الشاعر (نشأتق) للدلالة على أنَّ هذا الإحساس لا يخصَّ الشاعر وحده، بل يشمل الجماعة أيضاً، والتعبير بالفعل المضارع يدلُّ على تجدد الحدث واستمراريته.

وقد عبّر الشاعر عن شوقه وحنينه لجنوب الأردنّ عامة، ولمنطقة ضانا خاصة في قصيدة أصدقاء جنوبية إذ يقول⁽⁴⁶⁾:

أودعت في ريح الجنوب

خير قلبي عند أطياب الغروب

متماثلاً للصحو في مرآة ذاكرتي،

ولي لغة المكان،

وصمت (ضانا)

وهو في حنينه للمكان قد امتزج به فأخذ من صفاته، ومنحه من صفات الإنسان، لذلك نجد لقلب الشاعر خيراً مستمداً من خير الماء في ينابيع ضانا، ونجد المكان يتحدث ويصمت كحديث الإنسان وصمته، كما نحه يلبس رداء كرداء الإنسان إذ يقول⁽⁴⁷⁾:

لبس الجنوب رداءه المنسوج

من ألق الضحي

وملاءة الماضي

وبثْ شكاته للريح

والجنوب حين يشكو لا يشكو من ألم معاصر وحسب، بل هو مثقل بجراح الماضي أيضاً (رغم عراقته)، وبدماء الشهداء التي سالت على أرضه منذ صدر الإسلام، وما زالت الكروم والينابيع تذكرها وتشهد عليها، يقول⁽⁴⁸⁾:

في تناهيد الكروم، وفي ينابيع الطفيلة،

عند (عفرا)

لم يكن في شهقة التاريخ غير صدى المكان،

وصوت (فروة) رافضاً، متحدياً

ودماء هذا (الحارث الأزدي)

خضبت الصخور بذي الطيوب

وفي هذه الأبيات أضفى الشاعر على الكروم صفة الكائن الحيّ عندما جعلها تتنهد، دلالة على الألم والحزن لما حدث لفروة وللحارث الأزدي اللذين استشهدا في جنوب الأردن. وجاءت صيغ الجمع (تناهيد والكروم والينابيع) لتعبّر عن التأثر الجماعي بهذا الحدث، وفي ذلك دلالة على أنّ الحزن كان عاماً، حتى أنه شمل غير العاقل وتفاعل معه، لأنّ الحدثين عظيمين، فكيف يُقتل من يعلن إسلامه، وكيف يُقتل من جاء يحمل رسالة للدعوة! فماذا فعلاً ليستحقا القتل؟! لذا صوّر صوت فروة يتردّد صده في المكان. أمّا دماء الحارث الأزدي فشبهها بالخضاب الذي زين الصخور، فكما أنّ الحناء تزين اليدين مثلاً، فإنّ دماء الحارث الأزدي زينت المكان وهذا شأن الشهداء دوماً. وقد ربط الشاعر بين حدثين مختلفين، وفي مكانين مختلفين ولكنهما اتفقا في نتيجة واحدة هي الاستشهاد.

وإذا كانت محمية ضانا والطفيلة، قد أثارتا في نفس الشاعر ذكرى معركة مؤتة، وبطولات المسلمين جنوب الأردن في صدر الإسلام، فإنّ قلعة عجلون (قلعة الربرض) التي بناها عزّ الدين أسامة أحد قادة صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس الهجري، قد أثارت في نفسه ذكرى معركة حطين، وبطولات صلاح الدين في الجهاد ضد الفرنج في الأردن وفلسطين التي ذكرها عماد الدين الأصفهاني في قوله عن صلاح الدين الأيوبي: "ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة بعزم الصيال، وعزّ الصيانة، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك

البسيط... والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية، ولووا الألوية ومدوا على مدود الضوامر...⁽⁴⁹⁾.
وتذكرها الشاعر بقوله⁽⁵⁰⁾:

ساءلت (حطين)،

ملتاعاً ومنصداً

عن الطريق التي للقدس، نأتيتها

قد فارقت (طبريا) ثوب بهجتها

مذ غاب تحت جناح الحزن، شاطيها

تلك الفتوحات ما زالت بقلعتنا

أصداء صوت (صلاح الدين) ترويه

ويبدو الهاجس الذي يشغل بال الشاعر في هذه الأبيات هو احتلال القدس، وكيف يمكن للمسلمين أن يحرروها الآن! لذلك عاد بالذاكرة إلى معركة حطين، التي شهدت الإنجاز الأكبر وهو تحرير بيت المقدس على إثرها. واجتماع لفظي (ملتاعاً ومنصداً) في هذا السياق وصفاً خيراً توصيف شدة تأثر الشاعر وألمه وحزنه لما آلت إليه حال القدس الآن، ولكن ألمه هذا لا يمنعه من البحث عن الخلاص والمنقذ، لذا سأل حطين عن طريق التحرير. وعكس الشاعر ما في نفسه على ما يحيط به، لذا صور طبرياً تعيش حالة من الحزن لوقوعها تحت الاحتلال، ورسم لها صورتين الأولى قبل الاحتلال وهي مبتهجة، والثانية بعد الاحتلال وقد خلعت ثوب بهجتها وحزنت.

والشاعر قد سمع صدى صوت صلاح الدين في قلعة عجلون، وكاد يسمع صهيل الخيول التي شاركت في انتصار المسلمين ضد الفرنج إذ يقول⁽⁵¹⁾:

نكاد نسمع تصهال الخيول بها،

ونبصر النور، يهيمي من نواصيها

واستخدام الأفعال المضارعة، وبصيغة الجمع (نسمع ونبصر ويهيمي) فيه استحضار للماضي وتجسيد له، كما فيه دلالة على أن هاجس تحرير القدس، هو هاجس جماعي لا يخص الشاعر وحده.

كما أنه جسّد القلعة وأعطاه بعضاً من صفات الإنسان، لذلك نجد أبراجها تتلو كتاب عصمتها في عهد صلاح الدين، وحجرها يومئ إلى النوافذ، والنوافذ تمدّ طرفها تيتها بماضيها العريق⁽⁵²⁾.

والشاعر لا يكتفي بالحديث عن قلعة عجلون وجبالها وماضيها الخالد، بل إنه يعيش حاضره فيها، ويستمتع بجمالها، ويتفاعل معها، لذلك تغدو عنده جبال عجلون كالمرأة الحسناء التي لها نظرة لا تشبه نظرة أحد إذ يقول⁽⁵³⁾:

تحكي عيونك ما لم تحكه لغة

إلى سواها

إذا باحت خوافيها

وهذه الجبال تحكي ما لم تحكه لغة؛ لأنها تجمع فيما تحكيه بين قصة المجد والإنجازات التي شهدتها، وبين جمال الطبيعة أيضاً.

ويقول⁽⁵⁴⁾:

عجلون أنت الطلى

والطل تنثره رموش عينيك

من أعلى مآقيها.

وفي قصيدة "حصن الغراب" المهداة إلى الكرك وقلعتها الخالدة، يعود الشاعر إلى ثلاث محطات مهمة في تاريخ مدينة الكرك العريق، وذلك في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد الذي شهد حضارة المؤابيين⁽⁵⁵⁾ وانتصاراتهم على بني إسرائيل، وصدر الإسلام الذي وقعت فيه معركة مؤتة، والقرن السادس الهجري الذي شهدت فيه قلعة الكرك انتصارات الأيوبيين على الفرنج.

وقد ذكر الشاعر الملك (ميشع) بقوله⁽⁵⁶⁾:

من عهد (ميشع) والأسوار حاملة

عبء القرايين

والنصر القديم زكي

وفي هذا القول تناص مع قصة (ميشع) كما جاءت في الكتاب المقدس، فقد ورد في الكتاب المقدس أن ملك إسرائيل وملك يهوذا وملك أدوم قد جمعوا جنودهم وساروا لقتال المؤابيين فدخلوا بلادهم وهدموا مدنها، ولم يبق إلا مدينة الكرك، التي ذكرت في الكتاب المقدس باسم "قبر حارسة" فقد حماها الملك (ميشع) حين قدم ابنه على سورها قرباناً لإله مؤاب فخاف الإسرائيليون وانهزموا ورجعوا لبلادهم وعن ذلك يقول الكتاب المقدس: "فقام رجال إسرائيل

وهجموا على المؤابيين وهزموهم، فدخلوا البلاد وهم يطاردونهم ويهدمون مدنهم، وكلما مرّوا بحقلة خصبة رماها كل واحد منهم بحجر حتى طمروها. وردموا كل عين ماء، وقطعوا كل شجرة مثمرة، ولم يبق إلا مدينة قير حارسة، فأحاط بها حاملو المقاليع وضربوها. فلما رأى ملك مؤاب أنّ الحرب اشتدت عليه، أخذ معه سبع مئة حامل سيف ليخترقوا الصفوف إلى ملك أرام فلم يقدروا. فأخذ ابنه البكر. وليّ عهده، وقدمه محرقة على السور لإله مؤاب. فارتاع الإسرائيليون جداً، وانصرفوا عن المدينة، ورجعوا إلى أرضهم⁽⁵⁷⁾.

والشاعر يتغنّى بحصانة الكرك، وأمجادها عبر التاريخ بقوله⁽⁵⁸⁾:

تمشي مؤاب على رمش الفؤاد هوى

بalfاتحين

الألى اشتاروا جنى النُسك

هذي الجهات

إذا ضاقت يفرجها

في سهل مؤتة

نور الفتح في الحُبك

يا قلعة (الناصر المنصور)

فيك روى

تزهو على الشرق

في فتح ومعتك

وفي هذه الأبيات إشارة إلى مناعة دولة المؤابيين التي كانت تقف سداً في وجه بني إسرائيل، وتمنعهم من الوصول إلى القدس، ثم فيها إشارة إلى انتصار المسلمين في معركة مؤتة، وأخيراً فيها إشارة إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي فتح قلعة الكرك، وفتح بيت المقدس أيضاً في معركة حطين، وكل ذلك جعل لمدينة الكرك مكانة خاصة في قلب الشاعر، فجسدها بصورة امرأة تمشي على رمش قلبه، وفي ذلك تشبيه لها بالمرأة المعشوقة، وتشبيه لقلبه بالإنسان الذي له رمش. ويبدو الشاعر في هذه الأبيات متفانلاً بأن هذه المنطقة كما كانت في الماضي ممراً للفتاحين، وشهدت النصر والإنجاز، ستكون كذلك في المستقبل لذلك استخدم الأفعال المضارعة التي تدلّ على استمرارية التفاؤل والأمل وهي (يفرجها وتزهو).

والشاعر يرى أن العلاقة بين الكرك وبيت المقدس علاقة قديمة قدم الحضارة الإنسانية نفسها، وأن مناعة الكرك وقوتها عبر التاريخ كانت تؤدي إلى تحصين بيت المقدس وتحرره، لذلك فإنه يستشرف المستقبل ويرى أن حركة تحرير بيت المقدس من اليهود ستنتقل من الكرك وقلعتها التي عرفت باسم جوهرة الصحراء، فيقول⁽⁵⁹⁾:

أراك (جوهرة الصحراء) ضاربة

خيلاً إلى القدس،

في فجر وفي ذلك

(دار السعادة) عشب الغيم

في الحجر

يا صحو الماء

في تسيحة البرك

والناصرية

في أرجائها اجتمعت

غراً الفوارس

من علامة وذكي.

وهو في هذه الأبيات يتحدث عن أجزاء من قلعة الكرك، "فدار السعادة" هي جزء من القلعة أنشأه الملك الناصر داود وكان يسمى "دار السلطنة"، و"الناصرية" هي القاعة الناصرية التي أقامها في القلعة الملك الناصر داود أيضاً، وجلس فيها الظاهر بيبرس بعد أن تغلب على الأيوبيين، وهذه الأجزاء من القلعة التي شهدت أمجاد الماضي، جديرة بأن تشهد أمجاد المستقبل، التي لن تتحقق إلا باجتماع القوة والحشود الكثيرة، لذلك استعمل كلمة (خيل) والخيل ترمز للقوة، وجعلها نكرة لتفيد الكثرة، كما استعمل صيغة الجمع في كلمة (الفوارس) لتدل على الكثرة أيضاً، ونكر وقت التحرير المرتقب فجعله (في فجر وفي ذلك) ليقول: إنه نكرة غير محددة، ولكنه سيأتي لا محالة.

المكان المرتفع/ المنخفض:

لقد عمد محمود الشلبي في قصائد ديوانه "سماء أخرى" إلى تحديد موقع الأماكن التي يصفها جغرافياً، فهو قد كتب عن إربد والسلط والغور والكرك والطفيلة، "هذا التحديد لا يرمي إلى مجرد الإيهام بالواقع والحقيقة"⁽⁶⁰⁾، بل يحمل دلالات أخرى أنتجت علاقة الشاعر بهذه الأماكن، التي تتنوع تضاريسها بين جبال مرتفعة، وسهول، وأماكن منخفضة، وهذه الدلالات تحمل دائماً بعداً إيجابياً، فالمفارقة الواضحة مثلاً بين ارتفاع جبال السلط، وانخفاض غور الأردن لا تولد مفارقة في دلالة المكانين عند الشاعر؛ لأنه قد عاش في كلا المكانين لحظات حب وسعادة ودفع جعلته يرى في جبال السلط رمزاً للعظمة، والشموخ، وعلو المكانة، ويرى في غور الأردن رمزاً للعطاء، والخصب، واستمرارية الحياة، وهو بين الدالتين يرسم لوحة منسجمة متكاملة وليست متناقضة، لذلك لم يعد من الصعب عنده أن يجمع بين الجبل والساحل في قوله⁽⁶¹⁾:

ولك الأنوثة في إهاب ساحلي،

مُتَمِّمٌ لعذوبة جبلية

وقوله⁽⁶²⁾:

بيني وبين سماء قلب دائم الطيران

عصفور يحن لعشه الجبلي

موج يقتفي أثر الشواطئ

وهو لا يجمع بين المكان المرتفع والمنخفض فقط، بل يجمع بين الأرض والسماء في قوله⁽⁶³⁾:

عشبك حلم السحاب

فالعشب لا يكون إلا في الأرض، والغيم لا يكون إلا في السماء، لكن الشاعر قد جمع بينهما؛ لأنه يرى في عطاء محبوبته التي تقف على الأرض قيمة عالية جداً ترقى إلى السماء.

وفي وصف عظمة جبال السلط وشموخها يقول⁽⁶⁴⁾:

باسم العظيمة في شموخ جبالها

في حبها المتراكم الأبعاد

وعلاقة محمود الشلبي بمدينة السلط وثيقة جداً، فهو يتميز "برسم معالم هذه المدينة شعراً، وتلوينها بمشاعره ووجدانه"⁽⁶⁵⁾، يقول⁽⁶⁶⁾:

أتلو جبلاً لها
أعلو (سلالمها)
أختار شرفتها
من موسم الألق
أرنو (لجادورها) الباقي على أثر
أرتاد (ميدانها)
ماذا تراه بقي؟!
وأقرأ الدرس
درس الصّاعدين إلى نهر المجرة
أجرّوه من العرق
السُّلط في كفّها عشب السنين
وفي طبع الجبال
جمال الخلق والخلق

وهو في هذه الأبيات ذكر أسماء أماكن معروفة في السُّلط وهي: السّاللم، وجادور، والميدان، وجسد السُّلط في صورة إنسان كريم حين جعل في كفّها عشب السنين، فالعشب يدلّ على الخصب والعطاء كما وصف هذا الإنسان أيضاً بجمال الشكل والأخلاق حين قال: "وفي طبع الجبال جمال الخلق والخلق"⁽⁶⁷⁾، وجمع بين الأرض والسّماء في قوله: "نهر المجرة"، فالنهر يكون في الأرض والمجرة في الفضاء، ليعبر بذلك عن شموخ جبال السُّلط وهمة أهلها العالية عبر التاريخ، فقد صعدوا جبالها وعمروها، فسأل عرقهم فيها كالنهر، ولكنه ليس كأَيّ نهر فهو نهر المجرة؛ لأنّه اكتسب علوّ مكانته من علوّ مكان جبال السُّلط، ومن سموّ قيمة عرق الإنسان الذي يكدح لإعمار أرضه.

وفي قصيدة "مدارات سلطية"⁽⁶⁸⁾، وقصيدة "قمر البلقاء" المهداة إلى السُّلط في مداراتها العلية⁽⁶⁹⁾، يظهر ربط الشاعر بين جبال السُّلط، وبين السّماء منذ العنوان، فهو قد جعل للسُّلط مدارات، ومن المألوف أن تكون المدارات للكواكب التي تتحرك في الفضاء الفسيح وليس للمدن،

كما أنه وصف السلط بقمر البقاء ليجعل مكانها عالياً في السماء كالقمر. وهو قد وصف السلط بتاج الأرض في قوله⁽⁷⁰⁾:

دارت بنا الأرض لم تتعب من السفر
فكانت (السلط)

تاج الأرض في نظري
وشبهه (الطف) وهي منطقة في السلط بجناح النسر إذ يقول⁽⁷¹⁾:
(الطف) مثل جناح النسر منتفضاً
ساق السحاب إلى مرآة منتظر

أما غور الأردن، فإنه يمثل عند الشاعر دوحة الصبوات، التي انطلق فيها بلا قيود، وتماهى معها حتى أصبحت روحه أشبه بقبرة الحقول، التي تحلق فوق المزارع دون قيود وتستمتع بما تمنحه من خصب وخضرة إذ يقول⁽⁷²⁾:

روحي الفقيرة للندى،
فرت كقبرة الحقول،
ولم يحاصرها مدى
طوّفت فوق مزارع الغور البعيد،
بلا جناح كالصدى
وأجواء الغور الأليفة تثبّ في نفس الشاعر الرغبة في الحب والصباة إذ يقول⁽⁷³⁾:
أصغيت والغور الأليف يحثني،
لقراءة.. أولى بدفترها المسطر،
من خطوط صبابتي
فهو يربط بين مشاعر الحب التي يعيشها الإنسان، والخصب الذي تعطيه مزارع الغور، بل إن الأرض عنده تهتز وتربو ويزيد عطاؤها عند التقاء الأحبة إذ يقول⁽⁷⁴⁾:

فتهتز أرضي وتربو،
وتنبت من كل زوج مثيلاً

وعشق الشاعر للغور يذكّرنا بعرار الذي "يشيد أيضاً بالغور ونباتاته الطبيعية التي تجعل للمكان جاذبية عند الفلاح الأردني" (75).

وبين ارتفاع جبال السلط، وانخفاض غور الأردن، تأتي سهول إربد التي تمثل للشاعر المأوى والسكن والاستقرار بعد أن يطوف في مختلف الأماكن، وتحمل له ذكريات الصبا والشباب، لذلك رأى أن العالم كله ما هو إلا بوابة يمرّ بها ليعود في النهاية إلى إربد، وذلك في قصيدته "لك الأفق باباً" التي يقول فيها⁽⁷⁶⁾:

سنعرف في شهر أيار

كيف نعود إليك... كما نشتهي أن نعودا

ونعرف كيف يكون الوفاء

وكيف نصون العهودا

وإربد مدينة ذات بهاء شماليّ خاصّ منحها إياه العلم والأدب، المنبعث من جامعاتها المتميّزة، ومن كثرة المتعلمين والمثقفين فيها إذ يقول⁽⁷⁷⁾:

سنذكر حبراً همى ذات يوم... سخيا

على وجه دفتنا الجامعي

وأثبت في السطر فكراً سديدا

وهو قد شبّه الحبر الذي يكتب به الطلاب في جامعات إربد بالمطر الذي ينهمر غزيراً، ويترك خلفه خصباً ينفع الناس. وإذا كان المطر يمنح الخصب للأرض، فإنّ الحبر يمنح الخصب للعقول، ويحثّها على إنتاج أفكار جديدة تنفع الإنسانية.

ويقول⁽⁷⁸⁾:

لك الآن وحدك

هذا البهاء الشماليّ

منسكباً في عيون الفصول

لك التوأمان: لك العلم والأدب المستفيض،

كأنّ الزّمان انحنى،

بين عينيك في زي ترنيمة من زهول

وتتوالى في هذا المقطع الجمل الاسمية التي تدلّ على الثبات والديمومة، التي يتقدّم فيها الخبر على المبتدأ ليكون محط الاهتمام، فالشاعر أراد أن يلفت انتباه المتلقي إلى المخاطبة في هذه الأبيات وهي مدينة إربد، فقدّم الخبر (لك) على المبتدأ (هذا) وجعل الجملة اسمية، ليقول: إنّ بهاء إربد ثابت لا يتغيّر، ثمّ أتبع هذه الجملة بجملة اسمية أخرى (لك التوأمان...) ليبين أن إربد تجمع بين جمال الطبيعة وعظمة العلم، ثمّ جسد الزمان بصورة إنسان ينحني في زهول، أمام هذه المدينة المتألّقة بما تقدّمه من جمال وعلم وأدب.

ورغم طبيعة إربد الجغرافية السهلة، فإنّ الشاعر يرى فيها وفي جامعاتها مكانة عالية جداً، إن يقول⁽⁷⁹⁾:

وأعلى من الصّرح أنت،

وأقوى من الصّخر،

ويقول عن جامعة العلوم والتكنولوجيا⁽⁸⁰⁾:

وهذي على قمة المجد جامعتي،

تزدهي بالبيارق ممهورة بالندى والصدى

تقطف الآن برق الرعود.

شمالية تلتقي في حماها الجهات

وتأخذ سلّمها الأردني الأثير،

وترقى سريعاً سريعاً

كأنّ الدّنا كلّها في صعود

فهو يرى أنّ هذه الجامعة تقف على قمة المجد لما فيها من أعلام متميّزة في عالم العلم والمعرفة، ولما تقدّمه من علماء يلتقون من كل جهات الأردنّ في الشّمال، حيث جامعة العلوم والتكنولوجيا ليسيروا معاً نحو الأعلى والأرقى في العلم والمعرفة، ويساهموا في رقي الأردنّ وتقدّمه. ولأنّ ما تقدّمه إربد وجامعاتها فيه خير للأردنّ وأبنائه، فإنّ الشاعر أراد أن يكتب سيرة عطائها وعلاقته الحميمة بها في سهل حوران، لتبقى هذه السيرة خالدة خلود الكتب المقدسة، فهو يقول⁽⁸¹⁾:

ويمتدّ فيك صباح وبيت

وذاكرة طرّزت خضرة في الرمال

فنكتب في سهل حوران

سفر السنابل

نقرأه كلما اختلف الوقت

واحلو لك الصمت

وفي هذه الأبيات يظهر امتزاج الشاعر بسهولة إربد وتوحده معها، فذاكرته قد انتقلت منه إلى الرمال، فأصبحت مكتوبة على سهل حوران بخضرة النباتات فكأن المكان أصبح يمثلّه وهو يمثل المكان، ولأنّ ما يكتبه مقدسّ عنده فقد سمّاه "سفر السنابل" وكلمة "سفر" تذكرنا "بأسفار" الكتاب المقدس، وبكل كتاب له أهمية خاصة لشعر بأهمية ما يختزنه الشاعر من ذكريات عطاء وخصب في سهل حوران.

الصحراء / الحديقة:

"الصحراء هي التجسيد الأبرز والأشهر لفكرة المكان المقفر، الفقير بالتنوع والموجودات والتفاصيل"⁽⁸²⁾، وقد اتخذها الشاعر رمزاً للجذب الروحي والعاطفي، ولأنه كان يميل في ديوانه إلى الانطلاق والتحرر، والتمتع بالمشاعر الإنسانية الدافئة فإنه لم يتوقف عندها طويلاً، وإذا ذكرها فإنه كان لا يلبث أن ينتقل منها إلى ذكر النبع، أو الواحة، أو الغيم، أو الحياة، وكلها أشياء تتناقض مع قسوة الصحراء وطبيعتها الجافة، فهو يقول لمحبوبته مثلاً:⁽⁸³⁾

تأتين كالنبع الوحيد بواحة الصحراء

فيذكر الصحراء ولكنها مقترنة بالواحة والنبع، مما يبعد عنها صفة القسوة، والجفاف. ويقول⁽⁸⁴⁾:

لروان تدفق قلب الماء،

هي غيم مختلف النشوة،

في الفلوات.

والفلاة هي القفر، أو المفازة لا ماء فيها، أو الصحراء الواسعة⁽⁸⁵⁾، والتي لا ينزل فيها المطر إلّا قليلاً، لكن الشاعر جاء بمفارقة غير متوقعة حين صورَ الغيم يُمطر في الفلوات، وهو بذلك جمع بين الصحراء التي توحى بالجفاف، والقفر، وبين المطر الذي يرمز للحياة، والخصب وفي ذلك مفارقة.

وتأتي الصحراء أحياناً مستوحاة من الشعر العربي القديم، ومن ظلاله التي تأثر بها الشاعر وورثها، فدخلت إلى جو قصيدته الحديثة، فهو يقول⁽⁸⁶⁾:

فخلتها ديواننا العربي،

أشرق في الوجوه وفي الوجود،

وضمّ سفر ودادها

.....

أقرأ الماضي على ضوء التواريخ البهية،

مستزيداً من تفاولي الطعين،

كأنني ولد التشرّد

ضلّ في صحراء غربته

وعاد إلى الحياة يعبّ من أضدادها

فالشاعر قد رجع بذاكرته للقصائد العربية القديمة، وشعر أنها تشرق في ذهنه، فيشعر ببهائها وجمالها، لكنّه في هذه العودة قد اغترب عن العصر الحاضر، وتشرّد في صحرائه المستوحاة من القصيدة العربية القديمة، لأنها كانت من المفردات المهمة فيها، فقد كان الشاعر الجاهلي يذكرها ويحاول أن يملأ فراغها بذكر الناقة وما يصحبها من وصف وتفصيل، فقد كان التجسيد الفني الأبرز لزحم الصحراء "بالتفاصيل والموجودات والحركة والحياة في الشعر العربي في العصر الجاهلي وإكثاره اللافت لاستجلاب أدقّ الجزئيات والتفاصيل، وابتكارها وتوليدها من الناقة التي كان الشاعر يرتحل عليها، ويرافقها، باعتبارها الكتلة الأكبر للحياة المستمرة في ذلك الخلاء الميّت، كذلك كان يتم استيلاء الجزئيات والتفاصيل من حصى الدرب، وحيوانات الصحراء النادرة وذكريات الشاعر وعواطفه وأشجانه المستثارة بفعل اغترابه وتوحده المطلق في تلك الأمداء المقفرة إلا من الوحشة وتعاضم الشعور بالخواء والموات"⁽⁸⁷⁾.

والشاعر هنا لم يكن عنده ناقة، ولا حصى طريق، ليملاً بهما فراغ الصحراء، ويخفف من حدة اغترابه، لذلك لم يلبث أن يعود إلى الحياة المعاصرة، بما فيها من أضداد ومفارقات، لينسى الإحساس بالاغتراب ويعود للواقع.

أما الحديقة فهي رمز الخصب والعطاء، وهي الأقرب إلى نفس الشاعر، والأكثر ظهوراً في شعره، وكثيراً ما يقتزن وصفها بوصف المحبوبة وذكرها، أو يمتزج معه، فهو يقول⁽⁸⁸⁾:

لولا الحياء لهاجني شوق
إلى بيت الحبيبة دون غيري
.....

فالأرض حاملة الثرى
من وردها أو دمعها
وأنا أطوّف مثل عصفور
سيذهب وحده لحديقة الأسرار
ممتلئاً بحبري

ومطلع القصيدة يعيد إلى الذاكرة قصيدة جرير في رثاء زوجته⁽⁸⁹⁾:

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

لكن جرير كان متشوقاً لأن يزور قبراً والشاعر في التناص الذي أجراه معه أصبح متشوقاً
لأن يزور بيت المحبوبة، أو حديقته المفعمة بالحياة والحركة والغموض في الوقت ذاته، وليس
الموت. وهو قد مزج بين المحبوبة، والحديقة حين جعل "الأرض حاملة"، ونسب الورد
للمحبوبة، والأسرار للحديقة، فهو بذلك وصف كل منهما بسمات الأخرى. وتشبيه المحبوبة
بالحقل يرد كثيراً عنده، فهو يقول⁽⁹⁰⁾:

ويداك صاريتان في حلم الحقول
ويقول⁽⁹¹⁾:

وملء قميصها زهر الحقول
ويقول⁽⁹²⁾:

في وجهها ألق تبدى مورقاً
والورد يكفها فككره شاعر
كحديقة يمشي الصباح بها وحيداً
ويقول⁽⁹³⁾:

هي جدول ينساب في الأعشاب

وتشبيه المرأة بالحقل، والزهر، والجدول المنساب فيه دلالة على مقدرتها على منحه الخصب، والجمال، والراحة النفسية، فهي تشبه الحقل حين تمنح الرجل الأبناء، وفي ذلك خصب وعطاء، وتشبه الزهر حين تضيء على حياته لمسة جمالية، وتشبه الجدول المنساب حين تمنحه الطمأنينة والاستقرار، لأنّ الماء الجاري يمنح الإنسان الهدوء والسكينة، والإنسان بطبعه يميل إلى الاستقرار قرب الماء.

ومحبوبة الشاعر أردنية، وحديقته أردنية أيضاً فهو يقول⁽⁹⁴⁾:

تأتين من باب المدينة

نجمة سلطية القسمات

.....

فبأي صوت أصطفيك

لكي أفوز بجنة من تحتها الأنهار تجري

عند فاتحة البلاد

وهو في هذا المقطع قد رفع مكانة المحبوبة لتصل إلى السماء، فقد شبهها بالنجمة، وجعل الفوز بوصفها موازياً للفوز بالجنة التي تجري من تحتها الأنهار، وفي ذلك دلالة على سمو مكانتها عنده.

وحديقة المحبوبة التي يقابلها فيها تكون أحياناً في غور الأردن إذ يقول⁽⁹⁵⁾:

من خصّ بالغور اللقاء؟

وخصّه بالأخضر المرتاح فوق الصدر

والنمط الجميل من الرهافة

والاستفهام في هذه الأبيات، يخرج عن معناه الأصلي وهو طلب المعرفة إلى معنى آخر وهو التعجب، فالشاعر لا يسأل ولكن يتعجب من لقائه بمحبوبته في منطقة الغور، ويتعجب من خصوبة هذه المنطقة، وجمالية اللون الأخضر فيها. ولعلّ ما أثار التعجب في نفسه هو إحساسه بالتشابه بين محبوبته والطبيعة في الغور بالعطاء والخصب.

والمحبوبة في جمالها، وعطائها تشبه الحديقة في جمالها، وعطائها، فهو يقول⁽⁹⁶⁾:

كأنّها بستانها الغوري

مدّ إليّ ما أ هوى

وحديقة المحبوبة لا تمنح الشاعر الجمال والخضرة ونباتات الزينة وحسب، بل هي ترتبط بحياته وسرّ وجوده، لذلك فإنها تصير أحياناً حقل قمح وليست حديقة ورود وحسب، إذ يقول⁽⁹⁷⁾:

يا حقل قمح

به تبدو سنابله... مياسة

بابتهالات الندى الباكي

ومعروف ما للقمح من ارتباط أساسي بوجود الإنسان، فهو يرتبط برغيف الخبز الذي لا يمكن أن يعيش الإنسان دونه، وخضرة السنابل وتألقها دلالة على كثرة الخير والعطاء وسنابل المحبوبة جاءت مياسة ومتوجة بالندى، مما يدل على عطائها وكرمها في التعامل مع الشاعر، وما تمنحه إياه من عاطفة، فهي لشدة عطائها قادرة على بثّ الخضرة في الجبال الصخرية، إذ يقول⁽⁹⁸⁾:

وحللت في البلقاء وردة صخرها الجبليّ

وهذه المحبوبة التي تنبت الورد في جبال البلقاء الصخرية، هي واحة الشاعر التي يرتوي منها حين تتحوّل الدنيا كلها إلى صحراء مقفرة، تبعث على الظمأ والجوع، فهو يقول⁽⁹⁹⁾:

أظمتني الدنيا

فجئتك صاديا

أشتار نبعك بلسماً

ويكون لي من حقل قمحك

في اليدين رغيفي

ومن الملاحظ أنّ الشاعر قد أتى إلى المحبوبة ظمآن بحثاً عن الماء، وعاد بالماء والرغيف، أي أنها منحته أكثر مما طلب.

وتبدو دلالة الصحراء والحقل والجوع والعطش دلالة رمزية، فهو يريد أن يقول: إنه حين تصنيه أعباء الدنيا وتتعبه يأتي إلى المحبوبة لتتلاشى في حضرتها جميع همومه، لكنه شبّه الدنيا

بالصحراء، وشبه أعباءها بالجوع والعطش، كما شبه عطاء المحبوبة بالماء والخبز؛ لأهميتهما لوجود الإنسان وحياته.

المكان الحقيقي/ الرمزي:

المكان الأردني هو مكان حقيقي، عاش فيه الكاتب وتفاعل معه، لكنه حين صورَه في شعره أضفى عليه شيئاً من الخيال، فتقاطع الواقعي بالخيالي وذلك قد تمَّ "في وعي الكاتب وطرائق استثمار أدواته الفنية، وتقنياته، أثناء صياغة المكان على الورق"⁽¹⁰⁰⁾، وهو في كتابته للمكان قد أضفى عليه بعداً رمزياً فجنوب الأردن أصبح رمزاً للأصالة والعراقة والقوة والصمود، وشمالها رمز العلم والمعرفة وشعلة التطور والتكنولوجيا، وجبال السلط ترمز للعلو والشموخ، وغور الأردن يرمز للعطاء والخصب، وهذه كلها أماكن مفتوحة عامة، أما المكان المغلق فهو البيت بما فيه من سلم وشباك وشرفة، فقد كان يرد أحياناً بمعناه الحقيقي، وأحياناً كان يحمل دلالة رمزية؛ فالمنزل جاء بمعناه الحقيقي في قول الشاعر⁽¹⁰¹⁾:

وأقول: مرآتي طريق خطاي

نحو منازل الفئة القليلة

فهو يجد نفسه في منازل الفئة القليلة من الناس المحببة لديه

والشباك جاء بمعناه الحقيقي في قوله⁽¹⁰²⁾:

فأسمع ما تأتي الرياح به

إن تطرق القلب

أو تغفو بشباكي

فهو يتحدث عن نافذة حجرته التي تأتي عبرها الرياح، فتحمل ما تحمل له من ذكريات من يحب فتؤثر في نفسه وتسكن معه نافذة الحجرة.

أما في التعبير الرمزي عن المكان فإن السلم يغدو رمزاً للسمو وعلو المكانة إن يقول⁽¹⁰³⁾:

أنا فقير الحال

كيف أقود أمنيّتي

وأصعد سلّمي؟!

فالسلم الذي يريد أن يصعده ليس سلماً حقيقياً، فهو يريد الوصول إلى مكانة رفيعة، لكن ضيق ذات اليد يمنعه من ذلك.

والشرفة ترمز للأمل والمستقبل، لذلك فإنها ترتبط بمنزل لا يشبهه أي منزل وهو القلب، الذي أسكن فيه الشاعر من يحب، ودنا منها وأطل على مستقبله معها من الشرفة إذ يقول⁽¹⁰⁴⁾:

تدانيت باسمك

من شرفة القلب همساً

ونفساً

وقد ترمز أيضاً للمكانة العالية الرفيعة، فهو يقول في رثاء محمد القيسي⁽¹⁰⁵⁾:

وها أنت ذا تعتلي شرفة

يقصف البين وردتها للأبد.

فالشرفة هنا تدلّ على علو مكانة محمد القيسي الأدبية، كما يراها الشاعر، وهو قد استعمل الأفعال المضارعة (تعتلي، ويقصف) ليعبر عن إحساسه بحضور القيسي، وكأنه لا يصدق أنه سيغيب عنه إلى الأبد، وقد انتقى كلمة "يقصف" أي يكسر⁽¹⁰⁶⁾، ليعبر عن إحساسه بموت القيسي المفاجيء الذي لم يكن متوقعاً لديه.

والمكان الذي لم يرد في ديوان "سماء أخرى" بمعناه الحقيقي أبداً هو "الصحراء"، فهي في كل موضع وردت فيه كانت ترمز إلى الافتقار إلى المشاعر الإنسانية الدافئة، ولم تشر إلى مكان حقيقي، ومثال ذلك قوله⁽¹⁰⁷⁾:

كأنني ولد التشرد

ضلّ في صحراء غربته

وعاد إلى الحياة يعبّ من أضدادها

فالصحراء كانت نابعة من أفكار الشاعر وأحاسيسه، ولم تكن مكاناً حقيقياً يعيش فيه، وهو كان يتخلص من الإحساس بهذا الجذب العاطفي، الذي جسده بصورة الصحراء، عن طريق العشق، الذي رمز له بصورة المطر والخصب، يقول⁽¹⁰⁸⁾:

ولي سحب في فضاءات عشقي

وقد تخذت من عروقي مسيلاً

وإنك برق المسافات

يزجي متون الغمام

فتَهْتَزُ أرضي، وتربو،

وتنتبت من كل زوج مثيلاً.

وفي قوله: "تَهْتَزُ أرضي، وتربو" تناصَّ مع قوله تعالى: [وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج⁽¹⁰⁹⁾]. وقد جاء الإخبار في الآية الكريمة عن اهتزاز التربة بنزول المطر، ومن ثمَّ خروج النبات من الأرض، للاستدلال على قدرة الله عزَّ وجلَّ على إحياء الناس بعد موتهم بإحياء الأرض الميتة، فبداية الآية تقول: [يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث⁽¹¹⁰⁾]، ثم جاء الإثبات على قدرة الله عزَّ وجلَّ على البعث، بصورة الأرض الميتة التي تَهْتَزُ وتربو بعد نزول المطر، وقد اتكأ محمود الشلبي في قصيدته على هذه الصورة القرآنية، ليستعير منها فكرة الحياة بعد الموت، فهو حين يفتقر إلى الحبَّ يشعر أنه ميّت، لأنَّ حياته أشبه بالصحراء المقفرة، وحين يجد الحبَّ يعود إلى الحياة ويرى العالم نابضاً بالخصب والبهجة.

الخاتمة:

بينت الدّراسة أنَّ الشّاعر قد عني عناية خاصّة بالمكان الأردني، ويظهر ذلك منذ الوهلة الأولى في عناوين القصائد، إذ وردت أسماء أماكن أردنية في عناوين إحدى عشرة قصيدة من الديوان مما يدلُّ على أنَّ المكان الأردني هو مكان محبب لديه، لذلك انجذب إليه خياله، فهو مكان قد أمّن له الحماية والحرية فاحتلَّ جزءاً من نفسه حتى صار يتماهى معه في بعض الأحيان.

وفي دراسة المكان التاريخي الأنّي في الديوان تبين أنَّ المكان الأردني هو مكان معاصر إلّا إنَّ له ذاكرة تاريخية عريقة، وأنَّ الشّاعر كان يستحضر تاريخ الأماكن الأردنية حين يزورها في زمنها الراهن فيصوّر جمالها الأنّي، ويصف تاريخها العريق، وقد ظهر المكان التاريخي ظهوراً بيّناً في أربع قصائد هي: "سيدة الدهشة: على مشارف ضانا" و"أصداء جنوبية" و"نقوش أيوبية" و"حصن الغراب".

أمّا في دراسة المكان المرتفع/ المنخفض فقد تبين أنَّ الشّاعر يرى في ارتفاع قمم جبال الأردن وانخفاض غورها وسهولها لوحة منسجمة متكاملة لا تناقض فيها، فالجبال ترمز للسمو والشموخ والغور للغور للخصب والعطاء وكلا المعنيين إيجابيين لا تتنافر فيه.

وفي دراسة الصحراء/ الحديقة تبين أنَّ الصحراء هي التجسيد الأبرز والأشهر لفكرة المكان المقفر، لذلك لم يتوقف الشّاعر عندها طويلاً رغم أنَّها موجودة في الأردن بكثافة، فقد كان لا يلبث أن ينتقل منها إلى ذكر النبع، أو الواحة، أو الغيم والحياة، وكلها أشياء تتناقض مع قسوة الصحراء وطبيعتها الجافة.

وفي دراسة المكان الحقيقي/ الرمزي بينت الدراسة أن المكان الأردني هو مكان حقيقي عاش فيه الشاعر وتفاعل معه، لكنه حين صورّه في شعره أضفى عليه شيئاً من الخيال، فتقاطع الواقعي بالخيالي، ما منح بعض الأماكن بعداً رمزياً.

The Beauty of the Place in Jordan in Dewan “Sama’a Ukhra”

Tahani Shaker, *Department of Humanities Sciences, Faculty of Engineering Technology, Al-Balqa Applied University.*

Abstract

In this research I studied and analysed the beauty of the place in Dewan “Sama’a Ukhra” written by the poet Mahmoud Al Shalabi in Jordan.

I studied the place within the framework of specific binaries and these are: the historical place/the place at the present time, the high place/low place, the desert/the garden, and the real place/the symbolic place. Studying the binaries or the correspondence means to use the structural approach.

The study showed that the Jordanian place is contemporary with a long historical memory.

The poet has visited the places in the present time describing its beauty and then he described its valuable past.

Studying the high/low place, we realize that the paradox between them does not lead to a contradiction in significance; on the contrary, the poet put them in an integrated and harmonic picture.

The poet did not mention the desert too much, but he mentioned the clouds and the oasis or life. On the other hand, he mentioned the garden and the field which occupied most of his soul and his poems.

Dewan Sama’a Ukhra gave the places of Jordan a symbolic significance. For example, the south of Jordan has become the symbol of originality and steadfastness, the north symbolizes the science and knowledge, the mountains of Salt symbolize the nobility, and the Jordan valley is a symbol of giving and fertility.

قدم البحث للنشر في 2012/9/11 وقبل في 2012/12/24

الهوامش والحواشي

- (1) انظر، باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، كتاب الأقلام، بغداد، 1980م، ص37.
- (2) قاسم، سيزا، المكان ودلالته، مجلة البلاغة المقارنة ألف العدد السادس، ربيع 1986م، ص82.
- (3) المرجع نفسه، 83.
- (4) إبراهيم، عبد الله وهويدي، صالح، تحليل النصوص الأدبية: قراءات نقدية في السرد والشعر، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، 1998م، ص127.
- (5) قاسم، سيزا، المكان ودلالته، ص85.
- (6) لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ترجمة سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة ألف، العدد السادس، ربيع 1986م، ص89.
- (7) مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، 1986م، ص160.
- (8) كساب، حامد، عمان في شعر حسن بكر العزاوي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (3)، العدد (4)، تشرين الأول 2007م، ص53.
- (9) الضمور، عماد، عمان: وهج المكان وبوح الذاكرة، ط1، مطبعة الروزنا، الأردن، 2006م، ص29-30.
- (10) المرجع السابق، ص213.
- (11) انظر: الضمور، عماد، آفاق نقدية: دراسة لحركية الخطاب الشعري في الأردن، ط1، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2008م، ص247-254.
- (12) انظر، زلوم، حمودة، المدينة في الشعر الأردني المعاصر، ط1، عمان، 2001م.
- (13) انظر، المرجع السابق، ص6-70.
- (14) انظر، المرجع السابق، ص74-103.
- (15) انظر، رضوان، عبد الله، المدينة في الشعر العربي الحديث، ط1، كتاب الشهر، سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة الأردنية، 2003م، ص115-130.
- (16) انظر، المومني، قاسم، الأرض في شعر عرار، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد السادس، العدد الأول، 1991م، ص173-209.
- (17) انظر، المغيـض، تركي، جماليات المكان في شعر عرار، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع، العدد الثاني، 1989م، ص187-225.
- (18) انظر، كساب، حامد، عمان في شعر حسن بكر العزاوي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (3)، العدد (4) تشرين الأول، 2007م، ص51-91.

- (19) انظر، رضوان، عبد الله، عرار شاعر الأردن وعاشقه، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م.
- (20) انظر، حور، محمد، "حيفا الرحم.. عمان الحزن"، المجلة الثقافية، العددان الرابع والستون والخامس والستون، أيلول، 2005م، ص128-132.
- (21) انظر، ضمرة، محمد، مكانة المكان، ط1، دار البيروني للنشر والتوزيع، الأردن، 2007م.
- (22) انظر، الضمور، عماد، عمان في شعر عبد الله رضوان، ط1، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، 2010م.
- (23) انظر، الضمور، عماد، فضاءات نصية: دراسة في الشعر الأردني المعاصر والرواية العربية، ط1، دار الكتاب الثقافي، إربد، د.ت، ص77-85.
- (24) انظر، المرجع السابق، ص94-100.
- (25) سعيد، خالدة، حركية الإبداع: دراسات في الأدب العربي الحديث، ط2، دار العودة، بيروت، 1982م، ص30.
- (26) جنداري، إبراهيم، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001م، ص259.
- (27) انظر: القوابع، سليمان، فضاءات عربية: ضانا ساعة الضحى، ط1، جعية عمال المطابع الأردنية، عمان، 2002م، ص41-45.
- (28) انظر، بكج، أرسلان، رمضان، عمان تاريخ وصور، ط1، عمان عاصمة للثقافة العربية، 2002م، ص15.
- (29) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ط1، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2007م، ص141.
- (30) المصدر نفسه، ص144.
- (31) المرجع نفسه، ص145.
- (32) ابن كثير القرشي، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، ط1، هجر للطباعة والتوزيع، مصر، 1418هـ / 1997م، مجلد 7، ص348.
- (33) انظر، القوابع، سليمان، فضاءات عربية: ضانا ساعة الضحى، ص104-105.
- (34) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص146-148.
- (35) انظر، القوابع، سليمان، فضاءات عربية: ضانا ساعة الضحى، ص102-103.
- (36) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص148.
- (37) المرجع نفسه، ص149.

- (38) التناص "inter textuality" هو مصطلح صاغته جوليا كرستيفا للإشارة إلى العلاقات المتبادلة بين نصّ معيّن ونصوص أخرى، تجسيدا لأفكار أستاذها باختين. (فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص87.
- (39) ابن كثير القرشي، البداية والنهاية، ج6، ص421.
- (40) المرجع نفسه، ص428.
- (41) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص149.
- (42) المرجع نفسه، ص149.
- (43) المرجع نفسه، ص145-146.
- (44) أبو نواس، ديوان أبي نواس، شرح محمود واصف، ص63.
- (45) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص151.
- (46) المرجع نفسه، ص167.
- (47) المرجع نفسه، ص169.
- (48) المرجع نفسه، ص171.
- (49) الأصفهاني، عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد، الفتح القسي في الفتح القدسي، ط1، دار المنار، 2004م، ص47-48.
- (50) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص178-179.
- (51) المرجع نفسه، ص176.
- (52) المرجع نفسه، ص177.
- (53) المرجع نفسه، ص180.
- (54) المرجع نفسه، ص181.
- (55) والمؤايبيون هم "شعب سامي، يرجّح أن أصولهم تنحدر من قبائل كنعانية... وأسسوا مملكتهم في سهل مرتفع شرقي البحر الميت، جاء امتدادها من وادي الحسا جنوباً، ومن الشمال وادي شعيب، ومن الغرب البحر الميت ونهر الأردن، ومن الشرق الصحراء، بحيث كان يتأخم مملكتهم العمونيون شمالاً والأدوميون جنوباً". والمعلومات المتوفرة عن المؤايبيين مستمدة في أغلبها من الكتاب المقدس (العهد القديم) ومن مسلة (ميشع)، وهي مسلة تاريخية كتبها الملك المؤابي (ميشع) فخلد فيها ذكر انتصاراته على بني إسرائيل، وهي محفوظة في متحف اللوفر في باريس، ويوجد نسخة طبق الأصل منها في متحف الآثار الأردني في عمان، ونسخة أخرى في متحف قلعة الكرك. (مهيار، ياسر، مسلة ميشع، تروي قصة طرد غزاة بني إسرائيل وبناء مملكة قوية، العرب اليوم، 19/ 10/ 2010م).

- (56) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص190.
- (57) الكتاب المقدس، العهد القديم، الإصدار الثاني، ط1، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، 1955م، الملوك الثاني، ص504.
- (58) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص191-192.
- (59) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص192-193.
- (60) صالح، صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، ص51.
- (61) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص11.
- (62) المرجع نفسه، ص10.
- (63) المرجع نفسه، ص77.
- (64) المرجع نفسه، ص205-206.
- (65) الضمور، عماد، فضاءات نصية: دراسة في الشعر الأردني المعاصر والرواية العربية، ص95.
- (66) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص234-235.
- (67) المرجع نفسه، ص235.
- (68) المرجع نفسه، ص221-226.
- (69) المرجع نفسه، ص227-236.
- (70) المرجع نفسه، ص221.
- (71) المرجع نفسه، ص222.
- (72) المرجع نفسه، ص49.
- (73) المرجع نفسه، ص51.
- (74) المرجع نفسه، ص67.
- (75) المغييض، تركي، جماليات المكان في شعر عرار، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع، العدد الثاني، 1989، ص207.
- (76) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص105.
- (77) المرجع نفسه، ص105.
- (78) المرجع نفسه، ص106.
- (79) المرجع نفسه، ص109.
- (80) المرجع نفسه، ص112.

- (81) المرجع نفسه، ص110.
- (82) صالح، صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، ص78.
- (83) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص9.
- (84) المرجع نفسه، ص88.
- (85) انظر، الفيروزأبادي، القاموس المحيط، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م، مادة قلو.
- (86) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص204-205.
- (87) صالح، صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، ص78.
- (88) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص13.
- (89) جرير، ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، ط3، دار المعارف، مصر، 1986م، تذييل ديوان جرير، ص862.
- (90) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص28.
- (91) المصدر نفسه، ص29.
- (92) المرجع نفسه، ص33.
- (93) المرجع نفسه، ص40.
- (94) المرجع نفسه، ص46-47.
- (95) المرجع نفسه، ص51-52.
- (96) المصدر نفسه، ص53.
- (97) المرجع نفسه، ص71.
- (98) المرجع نفسه، ص85.
- (99) المرجع نفسه، ص86.
- (100) صالح، صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، ص87.
- (101) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص14.
- (102) المرجع نفسه، ص72.
- (103) المرجع نفسه، ص22.
- (104) المرجع نفسه، ص75.
- (105) المرجع نفسه، ص238.
- (106) انظر، القاموس المحيط، مادة قصف.

(107) الشلبي، محمود، سماء أخرى، ص205.

(108) المرجع السابق، ص66-67.

(109) القرآن الكريم، الجزء السابع عشر، سورة الحج، آية 5.

(110) القرآن الكريم، سورة الحج، آية 5.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس.

إبراهيم، عبد الله وهويدي، صالح، تحليل النصوص الأدبية: قراءات نقدية في السرد والشعر، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، 1998م.

الأصفهاني، عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد، الفتح القسي في الفتح القدسي، ط1، دار المنار، 2004م.

باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، كتاب الأقلام، بغداد، 1980م.

بكج، أرسلان، رمضان، عمان تاريخ وصور، ط1، عمان عاصمة للثقافة العربية، 2002م.

جرير، ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، ط3، دار المعارف، مصر، 1986م.

جنداري، إبراهيم، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001م.

حور، محمد، حيفا الرحم. عمان الحزن، المجلة الثقافية (تصدر عن الجامعة الأردنية)، العددان الرابع والستون والخامس والستون، أيلول، 2005م.

رضوان، عبد الله، عرار شاعر الأردن وعاشقه، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999م.

- رضوان، عبد الله، **المدينة في الشعر العربي الحديث**، ط1، كتاب الشهر، سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة الأردنية، 2003م.
- زلوم، حمودة، **المدينة في الشعر الأردني المعاصر**، ط1، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، عمان، 2001م.
- سعيد، خالدة، **حركية الإبداع: دراسات في الأدب العربي الحديث**، ط2، دار العودة، بيروت، 1982م.
- الشلبي، محمود، **سماء أخرى**، ط1، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2007م.
- صالح، صلاح، **قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر**، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.
- ضمرة، محمد، **مكانة المكان**، ط1، دار البيروني للنشر والتوزيع، الأردن، 2007م.
- الضمور، عماد، **آفاق نقدية: دراسة لحركية الخطاب الشعري في الأردن**، ط1، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2008م.
- الضمور، عماد، **فضاءات نصية: دراسات في الشعر الأردني المعاصر والرواية العربية**، ط1، دار الكتاب الثقافي، إربد، د.ت.
- الضمور، عماد، **عمان في شعر عبد الله رضوان**، ط1، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، 2010م.
- الضمور، عماد، **عمان وهج المكان وبوح الذاكرة**، ط1، مطبعة الروزنا، نشر بدعم من أمانة عمان، الأردن، 2006م.
- فتحي، إبراهيم، **معجم المصطلحات الأدبية**، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.
- الفيروزأبادي، **القاموس المحيط**، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م، باب الواو فصل الفاء.
- قاسم، سيزا، **المكان ودلالته، مجلة البلاغة المقارنة**، ألف العدد السادس، ربيع 1986م.

القوابع، سليمان، فضاءات عربية: ضانا ساعة الضحى، ط1، جمعية عمال المطابع الأردنية، عمان، 2002م.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، الجزء السابع، ط1، هجر للطباعة والتوزيع، مصر، 1418هـ/ 1997م.

كساب، حامد، عمان في شعر حسن بكر العزازي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (3)، العدد (4)، تشرين الأول، 2007م.

لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ترجمة سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة ألف، مصر، العدد السادس، ربيع 1986م.

المغيض، تركي، جماليات المكان في شعر عرار، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع، العدد الثاني.

مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، 1986م.

المومني، قاسم، الأرض في شعر عرار، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد السادس، العدد الأول، 1991م، ص173-209.

مهيار، ياسر، "مسلة ميشع، تروي قصة طرد غزاة بني إسرائيل وبناء مملكة قوية"، العرب اليوم، العدد 4855، (19 تشرين أول 2010م).

أبو نواس، ديوان أبي نواس، شرح محمود واصف، ط1، طبع على نفقة إسكندر أضاف، مصر، 1898م.

لغة اليهود في شمال الجزيرة العربية

محمد القرعة ومحمود العمرات وموسى الزعبي*

ملخص

تعاين هذه الدراسة طبيعة اللغة التي تحدثها اليهود إبان تواجدهم في الجزيرة العربية. وللوقوف عند أبعاد هذه الإشكالية، فلا بد من عرض بعض آراء المؤرخين المسلمين والدارسين من المستشرقين. ولذلك تناولت هذه الدراسة الآراء المتباينة حول المرحلة الأولى من وصول اليهود إلى الجزيرة العربية، وكذلك اللغات التي من الممكن أنهم تحدثوها، بجانب العربية التي كانوا يتقنونها آنذاك، وذلك وفقاً لآراء المؤرخين المسلمين وعلماء السنة النبوية وذلك من خلال استعراض بعض الأمثلة. ثم قدمت الدراسة عرضاً للسريانية والآرامية والعبرية، وذلك في محاولة لربط الفترات التاريخية لازدهار وشيوع كل منها مع فترة وصول اليهود للجزيرة، ومن ثم ربطها بأصول الأمثلة التي تم تحليلها في الدراسة، وذلك كله من أجل تقريب احتمالية تحديد اللغة التي تحدثها اليهود آنذاك. وتوصل الباحثون إلى أن تلك اللغة قد تكون الآرامية العبرية.

مقدمة:

إن قضية اليهود وأثرهم في الجزيرة العربية قد نوقشت من كثير من المؤرخين المسلمين والمستشرقين الغربيين، فقد تناول السيوطي (ت 911هـ) هذا الموضوع في عدة دراسات، من بينها: كتاب "الإتقان في علوم القرآن"⁽¹⁾، وادعى Geiger في كتاب "ماذا أخذ محمد من اليهودية؟"، كما ادعى كثيرون⁽²⁾ وجود نماذج من التوراة دخلت القرآن الكريم، كما أكد Jeffery⁽³⁾، من خلال الأمثلة التي سردها في دراسته، لتأثير لغات مختلفة على اللغة العربية وعلى القرآن الكريم، فضلاً عن ذلك فقد تناول Luxenberg⁽⁴⁾ تأثير السريانية على القرآن. غير أن فهمي خشيم⁽⁵⁾ يرفض وجود الأعجمي في القرآن الكريم كما رد جميع المفردات الغريبة الواردة في القرآن إلى أصول عربية. وقد ناقش سامي عامري في كتابه الموسوم بـ "هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟"⁽⁶⁾ الشبهات التي ذكرها اليهود والنصارى والمستشرقون حول القرآن الكريم، وكانت مناقشة العامري لهذه المسألة مناقشة دقيقة، حيث أثبت بطلان هذه الشبهات بالأدلة العلمية، والبراهين العقلية المنطقية، والحقائق التاريخية.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم اللغات السامية والشرقية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

لم تكن الجزيرة العربية في يوم من الأيام محتلة رغم المخاطر التي كانت تحديق بها، فمن الشرق الدولة الساسانية، ومن الغرب الأحباش، ومن الشمال الروم، وقد يعود السبب في ذلك إلى الطبيعة الجغرافية للجزيرة العربية التي تتسم بارتفاع درجة الحرارة، وقلة الماء، وهما عاملان هامان لبقاء الجزيرة العربية خالية من أي قوة عظمى سوى قوة سكانها الأصليين، ولذلك كانت الجزيرة العربية مكانا مفضلا وملجأ آمنا للأقوام الأخرى وبخاصة اليهود، الذين عانوا من الاضطهاد من قبل البابليين والرومان. ولعل من الأمثلة الدالة على توجه اليهود إلى الجزيرة العربية عند خراب بيت المقدس ما تروييه القصة التلمودية في (ي تعنيت 4 5) بأنه بعد خراب بيت المقدس على يد نبوخذ نصر، وأثناء هروب اليهود إلى الجزيرة العربية، طلب اليهود من العرب ماء يروي عطشهم، لكن البدو أحضروا لهم طعاما مالحا وقرب ماء منتفخة بالهواء، وطلبوا من اليهود أن يأكلوا أولا ومن ثم أن يشربوا، وعند فتح اليهود لهذه القرب تدفق الهواء إلى أفواههم فاختنقوا وماتوا. وقارن Gil⁽⁷⁾ في دراسته "أصل يهود يثرب" هذه القصة مع القصة نفسها عند الحموي في قاموسه الجغرافي التي يروي فيها بأنه عند مطاردة الروم لليهود المتوجهين إلى الجزيرة، وفي موضع بين الشام والمدينة يدعى الثمد، مات الروم من شدة العطش قبل تمكنهم من إدراك اليهود، ونتيجة لذلك سمي مكان هلاكهم بثمد الروم⁽⁸⁾. ومن الجدير بالذكر أنه لا يوجد وجه مقارنة بين الروايتين التلمودية والعربية؛ لأن الرواية التلمودية تتحدث عن أيام نبوخذ نصر وخراب بيت المقدس سنة 586 ق.م، والرواية العربية تتحدث عن خراب بيت المقدس على يد الرومان سنة 70م.

ويمكن القول بأن الجزيرة العربية كانت تحتوي على أمم وثقافات أخرى غير العرب، فمثلا كان هناك الفرس ومنهم سلمان الفارسي الذي حضر إلى الجزيرة العربية بحثا عن دين جديد⁽¹⁰⁾ وبلال بن رباح الحبشي⁽¹¹⁾ واليهود وغيرهم. ومن المعروف أن أي احتكاك بين لغتين لا بد أن يترك أثارا على كل منهما، فقد تأخذ إحدهما من الأخرى بعض التعبيرات أو الكلمات أو حتى التراكيب اللغوية، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك هو تأثير الآرامية على العبرية. ومن المعلوم أن هذه الأقوام، التي عاشت في كنف العرب في الجزيرة العربية، قد تكلمت لغاتها بحرية⁽¹²⁾. ولذا فلا بد أن تتأثر العربية، ولو بشكل محدود، بلغات هذه الأقوام.

تعد قريش القوة العظمى في مكة، فاليهود وغيرهم من الأقوام الأخرى مثل الفرس والأحباش، جاليات عديمة الخطورة، وقد حاولت قريش، التي كانت تعمل بالتجارة، جعل مكة مدينة تجارية، إذ أن موقعها الاستراتيجي مكنتها من أن تكون محطة تجارية للقوافل التي كانت تقصد إفريقيا، والهند، وبلاد الشام، وسمحت للأقوام الأخرى التحدث بلغاتها وممارسة طقوسها الدينية بحرية تامة، ولم يكن لقريش أي اعتراض أو موقف من الديانة المسيحية، أو اليهودية، أو حتى مع عبادة النار، ما دامت قريش وتجارها آمنين.

هجرات اليهود إلى الجزيرة العربية:

ولمعرفة لغة اليهود في الجزيرة العربية لا بد من دراسة الفترة الزمنية التي وصل اليهود فيها إلى الجزيرة العربية، إذ إن اللغة وتطورها مرتبط إلى حد كبير مع الهجرة، فأى مجموعة تهاجر من مكان إلى آخر تأخذ لغتها معها، وتبدأ هذه اللغة بعد الحلول في المكان الجديد، شيئاً فشيئاً، تتأثر وتتوثر في لغة المكان الجديد. وهذه ظاهرة موجودة على مر تاريخ اليهود، ومن الشواهد على ذلك ما حل بلغتهم خلال تواجدهم في بابل بعد الأسر البابلي، وأبعد من ذلك ما حل بالعبرية في العصر الوسيط إبان تواجد اليهود في كنف المسلمين في الأندلس، وحتى بعد خروجهم من الأندلس وأثناء تواجدهم كذلك في ألمانيا كان للعبرية تأثير واضح في اللغة الألمانية⁽¹³⁾.

وقد اختلفت الآراء حول قضية هجرة اليهود إلى الجزيرة: فهناك من يرى أن وصولهم إليها كان زمن العماليق الذين سكنوا الحجاز، وجاءت هذه الهجرة ردة فعل على هجوم العماليق عليهم في جنوب فلسطين⁽¹⁴⁾. وهناك روايات أخرى ترجع الوجود اليهودي في الحجاز إلى زمن الأسر البابلي على يد نبوخذ نصر سنة 586 ق.م⁽¹⁵⁾، وذلك أن قسماً من اليهود تمكن من الفرار وتوجه إلى الحجاز وسكن يثرب. ويميل بعض الدارسين إلى القول بأن وصول اليهود إلى الجزيرة كان بعد خراب بيت المقدس الثاني⁽¹⁶⁾، إذ قام اليهود في تلك الفترة بثلاث ثورات ضد الرومان، كانت ثانيها سنة 70 م تقريباً، وعلى إثرها انتقم الرومان من اليهود وقاموا بتدمير بيت المقدس، وكان ذلك على يد القائد تيطس. ويذكر Tröger⁽¹⁷⁾ أن هجرة اليهود إلى الجزيرة حدثت في زمن بار كوخبا الذي قاد، مع ربانيين كثر، عصياناً ثالثاً ضد الرومان سنة 135م، الذي باء بالفشل، وقتل فيه كثير من اليهود وأدى إلى هجرتهم إلى أماكن مختلفة منها الجزيرة العربية. وقد أشار الأصفهاني (ت 356هـ) في كتابه الموسوم بـ "كتاب الأغاني" إلى أن بني قريظة وبني النضير وصلوا يثرب بعد خراب بيت المقدس الثاني، كما يذكر أيضاً أسماء القبائل اليهودية التي كانت في يثرب قبل وصول الأوس والخزرج إليها مهاجرين من اليمن⁽¹⁸⁾، وقد تبني الحموي (ت 626هـ) هذا الرأي⁽¹⁹⁾. ويرى أحمد سوسة⁽²⁰⁾ في كتابه "أبحاث في اليهودية والصهيونية"، الذي نشر بعد وفاته، بأنه لا يوجد أي علاقة تربط بين يهود الجزيرة ويهود فلسطين، وأن يهود الجزيرة ما هم إلا عرب تهودوا، وبذلك فإنه يدحض أي نظرية لهجرة اليهود باتجاه الجزيرة.

لغة اليهود في شمال الجزيرة وفقاً للدراسات السابقة:

إن لغة اليهود في الجزيرة العربية كانت محل اهتمام كثير من المؤرخين المسلمين والمستشرقين، ولكنهم لم يستطيعوا في دراساتهم تحديد اللغة التي تحدث بها اليهود آنذاك، فمثلاً لم يستطع Leszynsky⁽²¹⁾ تحديد لغتهم، وإنما وضع لذلك احتمالين: إما أن تكون لهجة خاصة بهم، وإن هذه اللهجة كانت مفهومة للعرب في المدينة، أو أن تكون اللغة العبرية التي

استخدمها اليهود في صلاتهم وطقوسهم الدينية. ومن ناحية أخرى اعتقد علماء⁽²²⁾ آخرون بأن اليهود في الجزيرة قد تحدثوا الآرامية بجانب العربية، لكنهم لم يستندوا، في ادعائهم هذا، إلى دلائل علمية، فكون الآرامية كانت من أكثر اللغات تأثيراً على اليهود لا يعني بالضرورة أن تكون لغتهم الأم، فهناك لغات أخرى أثرت على لغة أهل الجزيرة العربية بشكل عام وعلى اليهود بشكل خاص مثل اليونانية والفارسية⁽²³⁾. ولذا فإن غاية هذه الدراسة هي إلقاء الضوء على لغة اليهود في شمال الجزيرة العربية من خلال جمع بعض الأمثلة من حديثهم وتحليل هذه الأمثلة وردها إلى أصولها اللغوية والحقبة الزمنية التي تعود إليها.

لقد تناول المؤرخون المسلمون، قبل المستشرقين، موضوع لغة اليهود ولكنهم لم يستطيعوا تحديد هذه اللغة، وتشعبت آراؤهم في ذلك، ولعل هذا المثال الذي سنسرده في هذه الدراسة يبين كيف كان المؤرخون المسلمون يختلفون في تحديد هذه اللغة. فعندما أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم الصحابي الجليل زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود، حاول المؤرخون المسلمون تسمية هذه اللغة، فمنهم من قال إنها سريانية⁽²⁴⁾، ومنهم من قال إنها عبرية⁽²⁵⁾، ومنهم من فضل الإبقاء على الاسم الوارد في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام لزيد بن ثابت، وهذا الاسم هو "كتاب يهود"⁽²⁶⁾. والمشكل في الموضوع أن بعض المستشرقين الغربيين تبني آراء المؤرخين المسلمين دون تمحيصها، ودراستها دراسة علمية حثيثة، ولعل أفضل مثال هو Lecker⁽²⁷⁾ في دراسته عن زيد بن ثابت. إلا أن المؤرخين المسلمين قد وقعوا في بعض الأمور التي لا بد لهذه الدراسة من التعرّيج والتعليق عليها، فمثلاً البغوي (ت 516هـ) الذي يذكر: "وقيل: التوراة بالعبرانية تور، وتور معناه الشريعة"⁽²⁸⁾. إن تحليل البغوي لكلمة توراة على أنها مشتقة من الكلمة تور هي مسألة يعتريها اللبس، حيث أن معنى الكلمة العبرية تور תורה هو دور أو طابور وليس شريعة كما ذكر البغوي، وكلمة תורה / توراة هي اسم مشتق من الفعل العبري תרה بمعنى علم. ووفقاً لقواعد الصرف في العبرية فإن الأفعال المعتلة الفاء بالياء تقلب ياءوا واوا عند بنائها على وزن תפעל⁽²⁹⁾، ووضع علماء اللغة اليهود⁽²⁹⁾ لهذه المجموعة من الأفعال صيغة أسموها الأفعال المركبة، كونها معتلة الفاء بالياء תפעל³⁰ ومعتلة اللام بالهاء תפעל³¹، والشواهد على هذه الظاهر كثيرة منها الفعل תרה - תרה بمعنى شكر والذي يتحول إلى اسم عند دخول حرف التاء ת: תרה بمعنى شكرا. وفي نفس الموضوع ذكر البغوي بأن كلمة "إنجيل" دخلت للعربية من السريانية "انقليون"، ومعناها الإكليل، ولكن أصل هذه الكلمة يعود إلى اليونانية εὐαγγέλιον، وتعني البشارة السارة أو الخبر السار⁽²⁹⁾. وفي موضع آخر أكد الفاكهي⁽³⁰⁾ (ت 272هـ) بأن اللغة السريانية منحذرة من العبرية. ومن المعلوم، أن علم تقسيم اللغات، أثبت بأن هذه اللغة انشقت من الآرامية المسيحية. والمثال الأخير هو أن كلمة شيطان هي كلمة انحدرت من السريانية، كما أكد ابن منظور (ت 711هـ) في قاموسه لسان العرب⁽³¹⁾، ومن بعده الزبيدي (ت 1205هـ) في معجمه

تاج العروس⁽³²⁾، لكن تاريخ هذه الكلمة يعود إلى العبرية المقرائية حيث أنها وردت بمعنى ملاك الرب (العدد 22:22، 32) وأخذت هذه الكلمة في الإنجيل معنى إبليس (متي 1:4)، كما أنها وردت أيضا في القرآن الكريم (التكوير 25) بهذا المعنى في الفترة المكية، أي قبل اتصال اليهود بالنبي.

حديث اليهود وفقا للمصادر العربية:

إن المؤرخين المسلمين وعلماء السنة النبوية كانوا دائما يترجمون ما قاله اليهود إلى العربية، مما يعسر على الباحثين الجدر إيجاد الأصل في لغتهم، فمثلا ذكر ابن سعد (ت 230هـ) وغيره⁽³³⁾، كيف كان سلام بن مشكم يحاول إقناع اليهود بعدم إلقاء الصخرة على رسول الله، ولا ندري بأي لغة تكلم معهم سلام بن مشكم. وفي رواية عند البخاري (ت 256هـ) وغيره من علماء السنة⁽³⁴⁾، سأل اليهود الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة عن الروح بعد أن تداولوا الأمر فيما بينهم. وفي رواية أخرى عند أبي داود (ت 275هـ) والنسائي⁽³⁵⁾ (ت 302هـ)، بأن بني النضير كانوا أفضل اجتماعيا من بني قريظة، حيث إذا قتل أحد من بني النضير رجلا من بني قريظة دفعوا لأهله تمرا دية يفتدى بها، وإذا قتل أحد من بني قريظة رجلا من بني النضير قتل مثله من بني قريظة، وبعد وصول النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أرادت قريظة المثل بالمثل، مما أدى إلى رفض بني النضير، وبعد تداول القبيلتين الأمر فيما بينهما استحكما للذهاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام. وأما بالنسبة للقرآن الكريم، فإن أقوال اليهود الواردة فيه جاءت بالعربية، كما في سورة الإسراء آية 85 وسورة المائدة آية 18 وسورة البقرة 113. ولكن هناك كلمة مثيرة للاهتمام وردت في سورتي البقرة 104 والنساء 46 وهي كلمة "راعنا"، حيث وردت مرة واحدة في كل من السورتين السابقتين. وفي اعتقادنا أن هذه الكلمة هي الكلمة الوحيدة التي تحدث بها اليهود التي لم ينقلها القرآن الكريم إلى العربية، وربما عربت فقط. وإذا اطلعنا على تراجم القرآن الكريم المعتمدة من رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، لوجدنا أن هذه الكلمة لم تترجم إلى اللغة الإنجليزية⁽³⁶⁾ أو الألمانية⁽³⁷⁾ وإنما كتبت بالحرف اللاتيني هكذا Ra'ina. ويذكر المؤرخون المسلمون⁽³⁸⁾ واللغويون⁽³⁹⁾ بأن هذه الكلمة هي كلمة عربية كانت تستخدم عند العرب في المدينة قبل الجاهلية، واختلفوا في قراءتها منونة تارة، وبدون تنوين تارة أخرى، ولها معان كثيرة منها: (1) اسمع (2) أرعن من الرعونة (3) راقبنا وتأن بنا حتى نفهمه، وغيرها من المعاني. إن الكلمة العربية "راعنا" وردت بهذا المعنى أيضا في الشعر العربي⁽⁴⁰⁾، وفي مؤلفات نثرية⁽⁴¹⁾ أخرى. أما بالنسبة لسبب نزول هاتين الآيتين، اللتين تحويان كلمة "راعنا"، فيذكر مفسرو القرآن بأن المسلمين كانوا يقولون للنبي عليه الصلاة والسلام راعنا بمعنى التمهّل. لكن هذه الكلمة العربية مقابلة لكلمة تفيد معنى الشتم بلغة اليهود، التي كانوا يتحدثونها، وإن الأنصار كانوا يعلمون معناها في لغة اليهود، ويذكر المفسرون أن شخصا من

اليهود ويدعى رافع بن زيد التابوت جاء إلى النبي وخاطبه بالعربية قائلا: "أرنا سمعك يا محمد حتى نفهمك"، وهذا يعني "تمهل يا محمد حتى نفهمك"، لكنه عني بكلامه الشتم والسب، لأنه كان يبتسم ابتسامة زائفة، لكن الأنصار فهموا هذه الكلمة وما عناه ابن التابوت بها، وأبلغوا الرسول عليه الصلاة والسلام بقصده⁽⁴²⁾.

إن بعض مفسري القرآن المحدثين اتفقوا على أن هذه الكلمة إذا أدت معنى الشتم والإهانة فإنها ليست كلمة عربية، ومنهم من قال بأن أصلها عبري⁽⁴³⁾، ومنهم من قال بأنها إما أن تكون عبرية، أو سريانية⁽⁴⁴⁾، غير أن مفسري القرآن القدماء⁽⁴⁵⁾ أكدوا بأنها كلمة منحدرت من لغة اليهود. وكتب ابن حجر العسقلاني⁽⁴⁶⁾ (ت 852هـ) معلقا على هذه الكلمة بأنها في قراءة ابن مسعود تقرأ "أرعونا" وفي قراءة أبي بن كعب تقرأ "راعونا" لكن العامة كانت تقرأها "راعنا" بغير تنوين. وإذا عدنا إلى أصل هذه الكلمة العبري فسنجد كلمة ʿרעא في التوراة (التكوين 5:6) بمعنى سيء، ومع إضافة ضمير المتكلم المتصل في الآرامية البابلية ʿרענא فإنها تصبح ʿרענא / راعينا، وهذه ظاهرة، إضافة ʿرע إلى كضمير متصل للمتكلمين للكلمة، منتشرة في الآرامية البابلية⁽⁴⁷⁾ وهناك الكثير من الأمثلة مثل: ʿרענא (استير 17:5) ولل فعل مثل ʿרענא (دانيال 24:3)، كما أن كلمة ʿרענא وجدت في كتابات يهودية أخرى بمعنى الطلب أو التمني كما في (ب يماموت 107ب).

أما بالنسبة إلى مثال الصحابي الجليل زيد بن ثابت، الذي فيه عرضنا آراء المؤرخين المسلمين حول اللغة التي كان على زيد بن ثابت تعلمها. إن هذه اللغة يجب أن تكون أيضا غير محددة، وخاصة عندما نجد في أعمال علماء السنة وانتقائهم الصارم للأحاديث النبوية الشريفة، وخاصة أحاديث البخاري التي تعدّ صحيحة. يروي البخاري⁽⁴⁸⁾، بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت بتعلم "كتاب يهود"، أي لغتهم، ولم يكن الحديث عن السريانية أو العبرانية. وقد أخطأ Leszynsky⁽⁴⁹⁾ في ترجمته لجملة "كتاب يهود" بـ "Hebräisch" أي عبرية عند اقتباسه من صحيح البخاري، والصواب هو أن يقول: "jüdische Schrift". أما Lecker⁽⁵⁰⁾ وLuxenberg⁽⁵¹⁾ فقد اقتبسا من ابن سعد بأن زيد بن ثابت قال: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أمره بتعلم كتاب العبرانية، وتجاهلا الأحاديث النبوية عند البخاري، وابن داود التي فيها يقول زيد بن ثابت: أن الرسول أمره بتعلم "كتاب يهود". ومن المهم أن نلاحظ بأن المؤرخين المسلمين القدماء وعلماء السنة⁽⁵²⁾ أطلقوا على اللغة العبرية اسم "عبرانية"، في حين أن المؤرخين، ومفسري القرآن الكريم المحدثين⁽⁵³⁾ أسموها "عبرية"، ومن الواضح أن المؤرخين القدماء، وعلماء السنة مثل البخاري قد علموا بأن هناك لغة في الجزيرة العربية تدعى اللغة العبرانية، لكنهم لم يعلموا بأي لغة تكلم اليهود هناك، لذلك دعوها "لغة يهود"، أو "كتاب يهود"، والدليل على هذا ما يرويه البخاري والنسائي⁽⁵⁴⁾، بأن أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية

ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. وفي رواية أخرى عند البخاري⁽⁵⁵⁾ بأن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العبراني، أي الحرف العبري، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية.

وفي سياق الحديث عن لغة اليهود في الجزيرة العربية، لا بد من أن نستذكر مثالا آخر من حديثهم للنبي، حيث أنهم حاولوا دائما انتهاز الفرص التي تتشابه فيها الكلمات بين العربية، واللغة التي كانوا يتحدثونها حتى يسخروا من النبي عليه الصلاة والسلام، فمثلا يروي علماء السنة⁽⁵⁶⁾ بأن اليهود جاءوا إلى النبي، وكانت عائشة أم المؤمنين بجانبه وقالوا له: "السام عليكم"، وأن عائشة رضي الله عنها فهمت قصدهم وأجابتهم: "السام عليكم واللعة". إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام هدأ من روعها، وقال لها: "مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق بالأمر"، فأجابته: "أو لم تسمع ما قالوا"، فأجابها: "قد قلت وعليكم"، ومن ثم نزلت الآية⁽⁵⁷⁾: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} المجادلة 8. وهذا يعني بأن اليهود أبدلوا جملة "السلام عليكم" بـ "السام عليكم" عن طريق إسقاط حرف اللام والذي عادة ما يسقط في العبرية كما في الفعل $\pi\pi\lambda$ / أخذ عند تصريفه في زمن المضارع فيصبح $\pi\pi\lambda$ / سيأخذ. ويمكن مقارنة جملة التحية في اللغة العبرية وهي $\pi\pi\lambda\pi\lambda$ $\pi\pi\lambda\pi\lambda$ مقارنة بما قالوه $\pi\pi\lambda\pi\lambda$ $\pi\pi\lambda\pi\lambda$ أي سم عليكم وفي هذه الحالة، أبدل اليهود لفظ التحية بلفظ آخر. ويروي الطبري (ت 310هـ)، وغيره⁽⁵⁸⁾ بأن كلمة "سام" العربية تعني الموت، وفي الموضع نفسه يذكر الطبري عن أنس بن مالك بأن اليهود قالوا "سأم عليكم" بمعنى "تسأمون دينكم". وهناك ظاهرة دارجة في العربية وهي إبدال الهمزة بالف مثل: رأس وراس، فأس وفاس ولعل أصل هذه الظاهرة هو سامي فهي ظاهرة شائعة في الآرامية⁽⁵⁹⁾ ونادرة بالعربية مثل: $\pi\pi\lambda\pi\lambda$ (م معسر شيني 1:1) بمعنى بقي لـ $\pi\pi\lambda\pi\lambda$ بمعنى أبقى (م بيتصا 1:2) مقارنة مع العربية بئر وبير. وتأكيدا أن كلمة سام في العربية تعني الموت يذكر البخاري⁽⁶⁰⁾ في مكان آخر عن عائشة رضي الله عنها أن الحبة السوداء تشفي من كل داء عدا السام، فسأل الرسول عليه الصلاة والسلام عن معنى السام فأجاب: "الموت". إن المقابل العبري لكلمة سام العربية هي كلمة $\pi\pi\lambda$ ، إلا أن هذه الكلمة العبرية لها أكثر من معنى وفقا للفترة الزمنية المذكورة فيها، فمثلا وردت في التوراة (الخروج 6:25) بمعنى العطر، وفي المشنا دلت على معنى الدواء كما في (يوما 8:6)، ووردت في التلمود الفلسطيني بمعنى الجوهر كما في (براخوت 9:1)، إلا أن هذه الكلمة أصبحت تعطي معنى السم في التلمود البابلي كما في (تعنيت 17)، والجدير بالذكر أن أصل هذه الكلمة هو آرامي بمعنى الدواء، أو السم⁽⁶¹⁾. وهنا لا يمكن التكهن بالمعنى الذي قصده اليهود باستخدامهم لهذه الكلمة: هل هو المعنى التلمودي السم أم المعنى العربي الموت.

العربية لدى يهود شمال الجزيرة:

على الرغم من الآراء المختلفة حول لغة اليهود في الجزيرة، فإن المؤكد هو أنهم تحدثوا العربية بطلاقة، وقد تكون هي لغتهم الأم، ولعل الأدلة على مدى إتقانهم لهذه اللغة آنذاك هي كثيرة جدا وبشكل خاص في مجال الشعر الذي وصلنا، فمنهم من كان شاعرا عظيما نظم أفضل الشعر، فمثلا سماك اليهودي⁽⁶⁵⁾ الذي ألقى قصيدة يرثي بها كعب ابن الأشرف، وطرد يهود بني النضير إلى خيبر التي يرفض فيها ديانة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ومنهم أيضا الربيع بن الحقيق الذي كان يلتقي النابغة، ويلقي معه الشعر في سوق بني قينقاع حتى وصل إعجاب النابغة بشعر الربيع بن الحقيق الحد الذي جعله يقول له: "أنت يا ربيع أشعر الناس"⁽⁶⁶⁾، كما ناع صيت السموءل بن عادياء، الذي بنى جده حصنا في تيماء دعاه باسم الأبلق، وألقى السموءل شعرا يذكر فيه بناء جده للحصن⁽⁶⁷⁾، ويعد شعره من أفضل الشعر نوعية⁽⁶⁸⁾، وضى السموءل بابنه لإمرئ القيس، ولوفائه يضرب به المثل عند العرب حتى يومنا هذا، فيقال "أوفى من السموءل"⁽⁶⁹⁾. ومن النساء الشاعرة سارة القرظية⁽⁷⁰⁾ التي رثت شعبها عندما هاجم أبو جبيلة الغساني اليهود قبل الإسلام. وقد ذهب أحمد سوسة⁽⁷¹⁾ إلى القول بأن العربية كانت اللغة الوحيدة التي تحدثها اليهود في الجزيرة، معللا رأيه هذا بادعائه أن يهود الجزيرة هم عرب تهودوا عن طريق التبشير، وأنه لا يوجد أي علاقة تربطهم بيهود فلسطين. ولكننا نعتقد بوجود لغة أخرى تحدثها اليهود بجانب العربية.

لغة أخرى تحدثها اليهود بجانب العربية:

ومن المؤكد أنه وبجانب اللغة العربية كان اليهود على دراية بلغة أخرى يتحدثونها، ويستشهد المستشرقون بمثال الصحابي الجليل زيد بن ثابت الذي أمره الرسول بتعلم لغة اليهود. في هذه الدراسة سنقوم بسرد أمثلة أخرى، التي تبين بأن اليهود تحدثوا لغة أخرى بجانب العربية، فمثلا عندما صدر أمر قتل سلام بن الحقيق اليهودي، والذي كان ألد أعداء رسول الله، أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام سرية من صحابته وأمرعليهم عبد الله بن عتيك، وعندما اقتربوا من منزل سلام ابن الحقيق، قدّم صحابة رسول الله عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية، حتى يتكلم مع زوجة سلام بن الحقيق وليطمئن قلبها بأن من يطرق الباب هو يهودي، وبهذه الطريقة تمكن الصحابة من دخول المنزل. وقد نقل المؤرخون المسلمون ما دار بين عبد الله بن عتيك، وزوجة سلام بن الحقيق كالآتي: "فقال: ما شأنك؟ فقال عبد الله بن عتيك ورطن باليهودية: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له، فلما رأت السلاح أرادت تصيح"⁽⁷²⁾. مثال آخر يؤكد بأن اليهود تحدثوا بلغة أخرى غير العربية هو ما يذكره الواقدي⁽⁷³⁾ عن خوات بن جبير الذي أرسله الرسول عليه الصلاة والسلام، أثناء محاصرتهم خيبر، ليستكشف أمرهم لعله يجد خلافا في

حصونهم ويتمكن المسلمون من دخولها، وعند مراقبته للحصون غلب عليه النوم، وعندما استيقظ شعر بأن رجلاً يحتمله على ظهره ويمشي به وكان يتكلم اليهودية.

وفي هذا السياق، نريد أن نشير إلى أن اللغة التي تحدثها اليهود في شمال الجزيرة هي إما أن تكون السريانية، كما ذكر بعض المؤرخين المسلمين، أو الآرامية كما ذكر بعض المستشرقين، أو أن تكون العبرية، أو أن اليهود، وخصوصاً رجال الدين منهم، كانوا عارفين بالعبرية، والآرامية معاً، على اعتبار أن العبرية هي لغة العهد القديم، والآرامية هي لغة النصوص اليهودية المتأخرة. ولكي نتمكن من التكهن بهذه اللغة، لا بد أن نشير، وباختصار، إلى الفترة، والبقعة الجغرافية التي سادت خلالها وفيها كل من هذه اللغات الثلاث:

أولاً: السريانية

فيما يتعلق بالسريانية، فقد سادت عند النصارى في الشرق ابتداء من القرن الثاني الميلادي وحتى القرن السابع الميلادي، وهي لغة طورها المسيحيون عن الآرامية ليطبقوها بها عن غيرهم، ولتكون لغة خاصة بهم وكانت هذه اللغة لهجة خاصة في كنائس الشرق⁽⁷⁴⁾. ومن الجدير بالذكر أن اليهود في فلسطين كانوا يتحدثون السريانية في القرن الثاني الميلادي، وهذا ما يؤكد الرابي يهودا الناسي (ب بابا كاما 138)، عندما اعتذر من اليهود لتدوينه المشنا باللغة المقدسة، وليس بالسريانية السائدة بينهم (לשון קדש اللغة السريانية). إن كلمة 5610 قصد بها هنا السريانية التي تطورت في سوريا، وانتشرت بعد ذلك إلى أنحاء واسعة من شمال إفريقيا وتركيا، وتنحدر كلمة 5610 من الفعل العبري 565 بمعنى حرّف أو زوّر، وهذا يعني أن هذه اللغة هي محرفة من قبل المسيحيين. كما اعتبر راشي، في الموضع نفسه من التلمود، السريانية لغة سخرية "5610 לשון גלגל 877"، لذلك يمكن الادعاء بأنه ليس هناك آثاراً أو دلائل على استخدام اليهود للسريانية، وذلك على الرغم من انتشارها الواسع في الشرق في تلك الفترة، لغة كتابة على الرغم من أنهم تحدثوها إبان تواجدهم في فلسطين بجانب الآرامية، وذلك ليتفاهموا مع المسيحيين أصحاب هذه اللغة. كما يمكن الادعاء بأن اليهود الذين هاجروا إلى الجزيرة العربية في أعقاب الأسر البابلي سنة 586 ق.م، وفي أعقاب الخراب الثاني لبيت المقدس سنة 70م لم يتحدثوا السريانية في تلك الحقبة؛ لأنّ هذه اللغة لم تكن بعد قد دخلت في مرحلة النشوء والتطور والانفصال بعد ذلك عن الآرامية في القرن الثاني بعد الميلاد كما ذكرنا آنفاً. لكن إذا صح ادعاء المستشرقين بأن بعض اليهود قد هاجروا إلى الجزيرة في زمن بار كوخبا وعصيانه ضد الرومان، فإن احتمالية حديثهم السريانية يصبح -هنا- وارداً.

ثانياً: الآرامية⁽⁷⁵⁾

لم يشكل الآراميون إمبراطورية مترامية الأطراف كالإمبراطورية البابلية، أو الفارسية، أو الإغريقية، وإنما أخذوا، ابتداء من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، يشكلون ممالك صغيرة، وبيوتات منتشرة في سوريا والعراق. وقد استوطن الآراميون الأوائل في بلاد الرافدين، وكتبوا لغتهم بالخط المسماري من اليسار إلى اليمين، كما فعل الأكاديون والسومريون من قبلهم، أما الذين اتخذوا من سوريا الداخلية موطناً لهم فأخذوا عن الكنعانيين (الفينيقيين) أبجديتهم بعد أن أدخلوا عليها بعض التعديلات. ومع بداية القرن السادس ق.م بدأوا يطورون أبجدية خاصة بهم قبل أن يتفرع منها، منذ القرن الثالث ق.م، كتابات آرامية محلية في مختلف أنحاء المشرق العربي. وبعد سقوط الإمبراطورية الآشورية في نهاية القرن السابع ق.م، ازدادت أهمية اللغة الآرامية، خصوصاً بعد أن أصدر داريوس الأول سنة 520 ق.م أمراً بتبني هذه اللغة في معظم أقاليم الإمبراطورية الفارسية. وأطلق على آرامية تلك الفترة "الآرامية الإمبراطورية"⁽⁷⁶⁾.

وقد سادت هذه اللغة الشرق مئات السنين⁽⁷⁷⁾ وانتشرت انتشاراً واسعاً في بلاد الشام والعراق⁽⁷⁸⁾ وجزءاً كبيراً من بلاد فارس. ولعل أفضل دليل على ذلك هو نقش زكور الذي يعود إلى القرن الثامن ق.م⁽⁷⁹⁾. وأثرت هذه اللغة تأثيراً بالغاً على العبرية، وهذا التأثير نجده واضحاً في أجزاء من كتاب العهد القديم⁽⁸⁰⁾، وكما أُشير آنفاً، فقد أصبحت الآرامية، في تلك الفترة، لغة رسمية لأمم كثيرة مثل الفرس⁽⁸¹⁾، الذين اضطروا لاعتمادها لغة رسمية؛ لأن أغلب المناطق الجديدة التي احتلوها في الشرق كانت تتحدث هذه اللغة. وهكذا تبوّأت الآرامية مكانة رفيعة وتابعت انتشارها عدة قرون، فنجد الأنباط، الذين عاشوا في البتراء جنوب الأردن، استخدموها لغة للكتابة⁽⁸²⁾. كما أكتسبت هذه اللغة أهمية كبيرة عندما جاء السيد المسيح، إذ كانت تشكل لغة لعامة الشعب ولغة للتخاطب، وبها خاطب السيد المسيح الجموع. وقد كان استخدام العبرية، في هذه الفترة، يقتصر على الترانيم الدينية.

وكان لهذه اللغة أثر بالغ على اليهود فيما بعد، فنجد تأثيراتها الكثيرة في المصادر اليهودية التي وصلتنا والتي كتبت في تلك الفترة. فقد كتبت الجمارا، والبرايتا، والتوسفتا بهذه اللغة، وحتى المشنا التي كتبت بالعبرية، التي انتهى تدوينها من لدن الرابي يهودا الناسي عام 200 م، لم تخل من التأثيرات الآرامية الواضحة. وتعد هذه المؤلفات من أهم المؤلفات الدينية لدى اليهود بعد كتاب العهد القديم.

ثالثا: العبرية

أما اللغة العبرية فقد تم تقسيمها إلى أربع مراحل، وما يهمنا هنا المرحلتان الأوليان، وهما: (1) المرحلة التوراتية التي قسمت إلى مرحلة ما قبل الأسر البابلي، وكانت العبرية خلالها لغة حية في فلسطين، ومرحلة ما بعد الأسر البابلي، إذ اقتصر استخدامها على القراءة والكتابة فقط. والجدير بالذكر هنا أن لغات كثيرة، مثل الأكديّة والفارسية والآرامية، أثرت في العبرية خلال هذه المرحلة، وكانت الآرامية هي الأكثر تأثيراً⁽⁸³⁾. (2) والمرحلة الثانية هي العبرية المشناية التي قسمت أيضاً إلى حقبتين: أولاهما فترة التنايم التي كتبت خلالها المشنا سنة 200م، وكانت العبرية آنذاك لغة حديث للربانيين⁽⁸⁴⁾ مخلوطة ببعض المصطلحات من لغات مختلفة، مثل الآرامية، واليونانية، والفارسية، واللاتينية، والحقبة الثانية هي فترة الأمورائيم التي كتب خلالها التلمودان البابلي، والفلسطيني، وكانت العبرية لغة كتابة مركبة من لغات مختلفة غلب عليها الطابع الآرامي.

لغة اليهود في الجزيرة العربية وفقا للمصادر اليهودية:

أطلق العهد القديم على العرب الذين يسكنون الصحراء اسم *עַרְבִי* (إرميا 25: 24). إلا أن الربانيين استبدلوا هذا الاسم بـ *עַרְבִי*، ليدل على بلاد العرب، لكن لم يرد في المصادر الدينية اليهودية أخباراً عن الأوضاع المعيشية والحياتية لليهود الجزيرة العربية، إلا أن بلاد العرب كانت حاضرة في مصادر الربانيين، إذ ورد في التلمود أن الربابي عقيبا قام بزيارتها (ب روش هالشاننا i26) كما أنه قام أيضاً بزيارة مناطق أخرى مثل إفريقية، ويرى Schäfer⁽⁸⁶⁾ أن زيارات الربابي عقيبا لا يمكن إثباتها علمياً. وقد أقرّ الربانيون صراحة بتأثير العربية في كتاباتهم، وأوردوا أربع عشرة كلمة، قالوا بأنها من بلاد العرب، وهي كالآتي:

אמר רבי לוי בערביא קורין לאימרא יובלא (ي براخوت 18)

قال الربابي ليفي في بلاد العرب يدعون الحمل "يوبلا"

אמר רבי לוי בערביא קורין לבשרא לחמא (مدراش ربا الخروج 32: 4)

قال الربابي ليفي في بلاد العرب يدعون اللحم "لحما" (= لحم)

א"ר לוי בערביא קורין למסריקא מסלסלה (إيخا ربا "بوبر" فقرة 1)

قال الربابي ليفي في بلاد العرب يدعون المشط "مسلسلا"

רבי לוי אמר לשון ערבי הוא, בערביא קורין לנביא סכיא (مدراش ربا اللاوين 1: 3)

قال الربابي ليفي إنها لغة عربية، في بلاد العرب يدعون النبي "سكيا"

אמר רבי לוי בערביא צווחין לביזתא, עדיתא (מדרש רבא איחא רבתי 2: 17)

قال الرابي ليفي في بلاد العرب يدعون الغنيمة "عديتا"

רבי לוי אמר משל לבן מלכים שהיה חותר על אביו לטל ליטרא של זהב, והיה זה חותר מבפנים, וזה חותר מבחוץ, שכן בערביא קורין לחתירתא עתירתא (מדרש רבא התקוין 63: 5)

قال الرابي ليفي مثلا ابن الملك الذي كان مع ابيه يحفر بحثا عن جنيه من ذهب, فكان هذا يحفر من الداخل والآخر من الخارج, حيث أنهم في بلاد العرب يدعون الحفر "عتيرتا"

א"ר לוי בערביא קורין לינוקא פתיא (ילקוט שמעוני האמאל 1130)

قال الرابي ليفي في بلاد العرب يدعون الطفل "فتيا" (=فتى)

אמר רבי לוי בערביא צווחין לינוקא עוילה (מדרש רבא התקוין 36: 1)

قال الرابي ليفي في بلاد العرب يدعون الطفل "عويله"

א"ר יהושע דסכנין בשם רבי לוי בערביא קורין לשערה שיטפא (ילקוט שמעוני איוב 38: 24)

قال الرابي يهوشع الذي من سخنين على لسان الرابي ليفي إنهم في بلاد العرب يدعون الشعر "شيطفا"

א"ר לוי בערביא צווחין לתרגולתא שכויא (מדרש רבא האלוין 25: 5)

قال الرابي ليفي في بلاد العرب يدعون الديك "سكويا"

ור' לוי אמר לשון ערבי הוא אין בעי ליה מימרא ארוח לי הוא אומר מבעד לי (מדרש רבא נשיד האנשיד "פילנא" 4)

وقال الرابي ليفي إنها لغة عربية, عندما يقول شخصا لآخر ابتعد (أو افسح مكان)

לא הוו ידעי רבנן מאי השלך על ה' יהבך אמר רבה בר חנה יומא חד הוה אזלינא בהדי ההוא טייעא הוה דרינא טונא ואמר לי שקול יהביך ושדי אגמלאי (ב רש ה'אלש'אנא 24ב)

لم يعرف الرابانيون معنى: השלך על ה' יהבך הרابي בר חנא قال: كنت ذات يوم مع عربي, وكان يحمل حملا, وقال لي: خذ حملك (יהביך) وارمه على ظهر الجمل

ועוד שמע קליה דערבי דאמר לחבריה מה את מכסה בי והיה רוצה לומר מה את מעשה בי (מדרש רבא התקוין 79: 7)

وسمعوا المزيد بأن عريباً قال لآخر: لماذا أنت (مكسه) في، وكان يريد أن يقول: ما أنت فاعل بي.

א"ר לוי לשון ערבי הוא ערבי כשהוא משיח עם חברו ואומר לו מה אתה גזלני אומר לו מה אתה קובעני (מדרש תנחומא "وارسو" تفسير تروما 4)

قال الرابي ليفي إنها لغة عربية، عندما يريد العربي أن يقول لشخص آخر أتسرقتني (גזלני)، فانه يقول له: أتسرقتني (קובעני)

لقد قام Brüll⁽⁸⁷⁾ بدراسة هذه الكلمات وذلك للتحقق فيما إن كانت هذه الكلمات عربية، كما طرحت هذه الكلمات مرة أخرى في الموسوعة اليهودية حيث لخص كاتب المقال⁽⁸⁸⁾ الذي يحمل عنوان "Arabia" ما توصل إليه Brüll. وقال: إن هذه الكلمات لم تكن كلها عربية، وإنما بعضها مثل פתיא (=فتى)، وبعضها الآخر هو من الآرامية النبطية مثل: לעדיא "عديتا" والقسم الأخير لم يكن من العربية ولا من أي لهجة آرامية أخرى، واقترح أن تكون من لهجة يهود الجزيرة العربية. ومن ثم جاء Cohen⁽⁸⁹⁾ ليقدم مراجعة لدراسة Brüll لاغيا الأثر العربي في جميع هذه الكلمات، باستثناء كلمة واحدة فقط وهي בלא، بمعنى أبعد أو بعد، وأعاد كلمة שכויא إلى العبرية الآرامية، كما أشار إلى أن هناك كلمة واحدة وهي לעתירתא يعود أصلها إلى لهجة يهود الجزيرة العربية، وذلك بإبدال حرف ال כ بحرف ال ל، في حين أنه أكد أن بقية هذه الكلمات وهي: יובל، לחם، סלסל، סכואה، עד، לויל، פתי، שטרף، יהבא، כס، קבלا عبرية الأصل.

لقد استخدمت هذه الكلمات بين يهود الجزيرة العربية رغم اختلاف الباحثين حول تحديد أصلها، حتى وإن صح ادعاء Cohen في إرجاع غالبيتها إلى أصل عبري، إلا أن الصبغة الغالبة عليها تبقى الصبغة الآرامية.

الخاتمة:

إن موضوع لغة اليهود في شمال الجزيرة العربية كان محط اهتمام ودراسة من كثير من الباحثين. وعند تناولنا في هذه الدراسة للآراء المختلفة حول ماهية هذه اللغة، لم نجد بين هؤلاء الباحثين من استطاع أن يحدد اللغة التي بها تحدث اليهود في الجزيرة، ولذلك حاولنا أن نستعرض هذه الدراسات، التي كان جلها تاريخياً أكثر منه لغوياً، وما صعب المسألة علينا هو عدم توفر الأدلة والكتابات التي تمكنا من الجزم بهذا الأمر، لأن المسألة في الجزيرة العربية مختلفة عن بقية الأماكن في الشرق، فلم يصلنا نص مكتوب من قبل اليهود الذين كانوا يعيشون في شمال

الجزيرة العربية، علما أن المنطقة تزخر بالدلائل واللقى الأثرية التي تحدد لغة الشعوب التي سكنت منطقة الشرق. أما هنا، وبالتحديد المناطق الداخلية من الجزيرة العربية، لم تتم دراستها كما ينبغي ولم تجر فيها حفريات أثرية من شأنها أن توصل إلى دلائل نستطيع من خلالها أن نحدد ماهية هذه اللغة. لذلك ما حاولناه عند تناولنا لهذا الموضوع هو استعراض وتحليل لبعض الكلمات الواردة في كتب التفسير، وفي الأحاديث النبوية في بداية تكون نواة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ووجدنا بأنها لم تكن صريحة وواضحة في تحديد لغة اليهود في تلك الفترة، لذلك كل ما نحاول إثباته، أو التكهن به هي مجرد نظريات ربما تكون صحيحة، وربما يتم دحضها مستقبلا إذا ما تم اكتشاف شيء جديد ينهي هذا الجدل، ولكن المهم في المسألة أننا نحاول الاستدلال على لغة اليهود، وليس الخروج بنتيجة حتمية من خلال بعض النظريات، وذلك من خلال تتبع هجرات اليهود إلى الجزيرة العربية.

ولا ننسى في هذا السياق أنه وأثناء فترة شتاتهم، أثبت اليهود ارتباطهم الوثيق باللغة والخط المربع، ففي الأندلس كُتب الشعر العبري متأثرا بالشعر العربي، وفي أوروبا كُتبت أفضل الروايات والقصص، كما كان اليهود يطورون لغة أهل البلد الذي يعيشون فيه وذلك لتلائم احتياجاتهم، ففي إيران مثلا ابتكر اليهود اليهودية الفارسية، وهي لغة فارسية تكتب بالحرف العبري المربع، وفي مصر ابتكروا العربية اليهودية، وهي لغة عربية بحروف عبرية مربعة، وفي شمال إسبانيا طور اليهود لغة لهم، وهي ما تعرف باللادينو، وبعد ذلك طوروا في ألمانيا ما يعرف بالبيدش وغيرها من اللهجات التي ابتكروها وطوروها، وذلك كله ليبقوا على اتصال بلغة أجدادهم.

وما حصلنا عليه من خلال تتبع لغة اليهود في شمال الجزيرة العربية، هو أنها لم تكن آرامية بحتة، أو عبرية بحتة، بل كانت آرامية ممزوجة ببعض الكلمات العبرية. ويقترح الباحثون "الآرامية العبرية" Aramic-Hebrew اسما لهذه اللغة، كونها آرامية ممزوجة بكلمات عبرية، وذلك على غرار العبرية التي بها كُتبت بعض أسفار العهد القديم والمشنا التي أُطلق عليها فيما بعد تسمية "العبرية الآرامية" كونها كانت عبرية تخللها الكثير من التأثيرات الآرامية. وقد كان اليهود يتكلمون الآرامية فيما بينهم، ويتداولون لغة الأقطار التي استقروا فيها، والدليل على ذلك هو أن ما بقي من يهود العراق الذين استوطنوا المناطق الجبلية في شمال العراق يتكلمون باللهجة الآرامية، وليس العبرية⁽⁹⁰⁾، إذ كانوا في بابل وحتى بعد عودتهم إلى القدس يتكلمون باللغة الآرامية، وقد اقتصرَت العبرية على الكتب الدينية، وعلى الكتب المقدسة. وقد يكون سبب طغيان الآرامية على العبرية آنذاك هو، كما رأينا عند استعراضنا لهجرات اليهود إلى الجزيرة، أنه في كل الفترات التي حدثت خلالها هذه الهجرات، ما عدا فترة الهجرة الأولى، كانت الآرامية هي الأكثر شيوعا واستخداما، فسواء بعد الأسر البابلي، أو بعد خراب بيت المقدس الثاني، أو بعد عصيان باركوكبا، فقد ترك اليهود القدس وفلسطين حاملين معهم لغتهم إلى الجزيرة العربية التي كانت تنعش بعد كل هجرة.

Jews' language in the North of Arabian Peninsula

Mohammad Al-Garah, Mahmoud Al-Omrat and Mousa Al-Zo'by,
Department of Semitic and Oriental Languages, Yarmouk University, Irbid, Jordan.

Abstract

This Study investigated the language used by Jews during their presence in the Arabian Peninsula. For that purpose it was necessary to review the opinions of Muslim historians and orientalist about some issues that might help in this issue. The researchers reviewed the different views about the arrival of Jews to the Arabian Peninsula and about the languages that might be used by Jews during that time beside Arabic, which they spoke it fluently. This is based on the views of Muslim historians and scholars of Sunnah and through reviewing of some examples. Then we moved to view the Syriac and Aramaic and Hebrew, in an attempt to link the historical periods of prosperity and the prevalence of each of these languages with the arrival of Jews to the Arabian Peninsula and then connect them with the examples that have been analyzed in the study. This was done in order to determine the language used by Jews at that period. The study concluded that Hebrew-Aramaic might be the Jews' language during their presence in the Arabian Peninsula.

قدم البحث للنشر في 2012/8/28 وقبل في 2012/12/24

الهوامش

- (1) السيوطي، جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت 2008، السيوطي، جلال الدين، المذهب فيما وقع في القرآن من المعرب دار الكتب العلمية، بيروت 1988.
- (2) Geiger, A., Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen, Bonn 1833, Speyer H., Die biblischen Erzählungen im Koran, Hildesheim 1961, Hirschfeld, H., Historical and Legendary Controversies between Mohammed and the Rabbis, JQR Vol. 10, No. 1 (1897), pp. 100-116, Katsh, Abraham I., Judaism and Islam, Journal of Educational Sociology, Vol. 36, No. 8, Learning Through Travel in Israel (1963), pp. 400-406
- (3) Jeffery, A., and others, The Foreign Vocabulary of the Qur'ān, Leiden 2007.
- (4) Luxenberg, C., Die syro-aramäische Lesart des Koran, ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache, Berlin 2007.

- (5) خشيم، ف.، هل في القرآن أعجمي؟ نظرة جديدة إلى موضوع قديم، دار الشرق الأوسط، بيروت 1997.
- (6) عامري، سامي "هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟" سلسلة إصدارات المؤسسة العلمية الدعوية العالمية، 2010.
- (7) Gil, M., "The Origin of the Jews of Yathrib", *JSAI* 4, Jerusalem 1984, p. 207.
- (8) الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2008، ج 2، ص 15.
- (10) أنظر: الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة 2006، ج 1، ص 186-193.
- (11) أنظر: ابن سعد، محمد، كتاب الطبقات الكبرى، دار الفكر، بيروت 1994، ج 2، ص 206-212.
- (12) أنظر: البخاري، محمد، صحيح البخاري، دار الفجر، القاهرة 2004، ج 2، ص 508، ج 4، ص 54، الواقدي، أبو عبد الله، كتاب المغازي، دار الكتب العلمية، بيروت 2004، ج 1، ص 330-332، الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت 2007، ج 4، ص 102.
- (13) أنظر: Al Qar'a, M. and others, "Hebräische Elemente und ihre Wege in die deutsche Sprache", Naharaim (2011), vol. 5, pp. 96-114.
- (14) الطبري، تاريخ الرسل والملوك والخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت 2008، ج 1، ص 317، الحموي، معجم البلدان، ج 7، ص 229.
- (15) الطبري، تاريخ الرسل...، ج 1، ص 317، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ابن عمر، السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت 1971، ج 2، ص 319.
- (16) الطبري، تاريخ الرسل...، ج 1، ص 128، المقدسي، مطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د. ت، ج 3، ص 211، ج 4، ص 129-130، الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، مطبعة التقدم، القاهرة د. ت، ج 19، ص 94.
- (17) Tröger, KW., Bibel und Koran, was sie verbindet und unterscheidet, mit Einführung in Mohammads Wirken und die Entstehung des Islam, Stuttgart 2008, p. 19, Paret, R., Mohammed und der Koran: Geschichte und Verkündigung des arabischen Propheten, Stuttgart 2008, p. 12.
- (18) الأصفهاني، الأغاني، ج 19، ص 95.
- (19) الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 15.
- (20) سوسة، أحمد، أبحاث في اليهودية والصهيونية، دار الأمل، اربد 2003، ص 44-46، 50، 55.
- (21) Leszynsky, R., Die Juden in Arabien zur Zeit Mohammeds, Berlin 1910, p. 21.

(22) Luxenberg, C., Die syro-aramäische..., p. 9, footnote: 1, Aslan, R., Kein Gott außer Gott: der Glaube der Muslime von Muhammad bis zur Gegenwart, München 2006, p. 29.

(23) السيوطي، جلال الدين، الإتقان..... Jeffery, A., and others, The Foreign.

(24) الاصبهاني، البغوي، أبو محمد، معجم الصحابة، دار البيان، الكويت 2002، ج 2، ص 466، ابن الأثير، عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار المعرفة، بيروت 2009، ج 2، 235، الاصبهاني، أبو نعيم، معرفة الصحابة، دار الوطن للنشر، الرياض 1998، ج 3، ص 1152-1153، الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2000، ج 15، ص 16-17.

(25) ابن سعد، الطبقات، ج 2، ص 20 الحاكم، المستدرک...، ج 3، ص 518-520.

(26) أخرج الطحوي حديثاً عن زيد بن ثابت أن الرسول أمره بتعلم كتاب يهود، فما مر نصف شهر حتى تعلمه. ويضيف بان أبا جعفر ومن كان معه كانوا يتأملون ما يرد الرسول من كتب من اليهود بالسريانية، وكان اليهود يقرؤونها للنبي، وهم غير مأمونين على تحريف ما فيه إلى ما يريدون، كما كان النبي يرد على كتبهم بالعربية، فكان اليهود بحاجة لمن يتقن العربية لأنهم لا يتقنونها قراءة، وقد يحرفون ما في كتبه إليهم، لذلك فقد أمر الرسول زيد أن يتعلم له السريانية. انظر: الطحوي، أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، مؤسسة الرسالة، بيروت 1994، ج 16، ص 30-31، 40-41، انظر أيضاً كيف انه لا يرد عند الذهبي ذكر العبرانية أو السريانية وإنما يذكر كتاب يهود، الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت 1998، ج 4، ص 67-68. إلا أن المزي من جهة أخرى يذكر حيناً "كتاب يهود" وحيناً السريانية أو العبرانية، انظر: المزي، جمال الدين أبي الحجاج، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، دار الكتب العلمية، بيروت 2004، ج 3، ص 670.

(27) Lecker, M., Zayd B. Thābit, "A Jew with Two Sidelocks": Judaism and Literacy in Pre-Islamic Medina (Yathrib), JNES, Vol. 56, No. 4 (Oct., 1997), pp. 259-273.

(28) الاصبهاني، البغوي، أبو محمد، تفسير البغوي، دار طيبة، الرياض 1988، سورة 3 آية 6.

(29) Blau, J., Jesudot Torat ha-Laschon, Kerech II, Torat ha-Schem, Jeruschaleim 1988, p. 135.

(29) Bodesohn, F., Die Darstellung des goldenen Zeitalters in "Die Christenheit oder Europa", Novalis' rhetorischer Weg, Studienarbeit, Norderstedt 2005, p. 4, Murdock, D. M., The Gospel According to Acharya S, Seattle 2009, p. 3-4

(30) الفاكهي، أبو عبد الله محمد، أخبار مكة، في قديم الدهر والحديث، دار خضر، بيروت 1994، ج 5، ص 130.

(31) ابن منظور، محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت 2005، مادة: ليط.

- (32) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، التراث العربي، الكويت 1965، مادة: ليط - لوط.
- (33) ابن سعد، الطبقات، ج 1، ص 385-386، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 309، الطبري، تاريخ الرسل...، ج 2، ص 84، ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، دار المعرفة، بيروت 2007، ج 2، ص 155.
- (34) انظر: البخاري، صحيح، ج 2، ص 508، ج 4، ص 424، 467، 468، ابن الحجاج القشيري، مسلم، صحيح مسلم، دار ابن رجب، القاهرة 2006، ج 3، ص 1457، الترمذي، محمد، سنن الترمذي، مكتبة المعارف، الرياض 2008، ص 704-705، النسائي، احمد بن علي، كتاب السنن الكبرى، مؤسسة الرسالة، بيروت 2001، ج 10، ص 156.
- (35) أبو داود، سنن أبي داود، دار ابن الهيثم، القاهرة 2007، ج 2، ص 394، النسائي، السنن الكبرى، ج 9، ص 329.
- (36) القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الانكليزية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ترجمة محمد تقي الدين الهلالي ومحمد محسن خان، المدينة المنورة 1417هـ، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46.
- (37) القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الألمانية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ترجمة عبد الله الصامت "فرانك بوبنهايم" ونديم الياس، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، المدينة المنورة 1422هـ، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46.
- (38) السجستاني، محمد، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة 1963، ص 97، الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت 2005، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46، درويش، محي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة للنشر، دمشق - بيروت 1992، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46، الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة، دار الفكر، دمشق 2007، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46.
- (39) ابن منظور، لسان العرب، مادة: رعن ورعى.
- (40) الدينوري المالكي، أبو بكر أحمد، كتاب المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم، بيروت 1998، ج 3، ص 141، الموردي، أبو الحسن علي بن محمد، أعلام النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت 1986، ص 175.
- (41) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 11، ص 122، الطبري، تاريخ الرسل...، ج 2، 167، ج 3، ص 76، ج 4، ص 426، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 237.
- (42) ابن المنذر، كتاب تفسير القرآن، دار المآثر، المدينة 2002، سورة 4 آية 46، القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن، المكتبة التوفيقية، القاهرة د. ت، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46، ابن

- كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار السلام، الرياض 1998، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46، الطبراني، أبو القاسم، التفسير الكبير، دار الكتاب الحديث، إربد 2008،، سورة 2 آية 104.
- (43) درويش، محي الدين، إعراب القرآن...، سورة 2 آية 104، الزحيلي، التفسير المنير...، سورة 2 آية 104.
- (44) درويش، محي الدين، إعراب القرآن...، سورة 4 آية 46، رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، القاهرة 1947، سورة 3 آية 78 وسورة 4 آية 46.
- (45) البغوي، تفسير البغوي، سورة 10 آية 94، الطبراني، التفسير الكبير، سورة 2 آية 104، الطبري، جامع البيان...، سورة 2 آية 104 وسورة 4 آية 46.
- (46) ابن حجر، فتح الباري...، ج 9، ص 639-640.
- (47) Dalman, G., Grammatik des jüdisch-palästinischen Aramäisch. Nach den Idiomen des palästinischen Talmud, des Onkelostargum und Prophetentargum und der jerusalemischen Targume, Darmstadt 1960, p. 45.
- (48) البخاري، صحيح، ج 4، ص 398-399.
- (49) Leszynsky, R., Die Juden in Arabien..., p. 21.
- (50) Lecker, M., Zayd B. Thābit..., p. 267
- (51) Luxenberg, C., Die syro-aramäische..., p. 9, Fußnote: 1.
- (52) البخاري، صحيح، ج 1، ص 6، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 13، ص 83.
- (53) الزحيلي، التفسير المنير...، سورة 2 آية 89، الزركلي، الأعلام...، ج 1، ص 77.
- (54) البخاري، صحيح، ج 3، ص 222، ج 4، ص 440-439، 491، النسائي، السنن الكبرى، ج 10، ص 156
- (55) البخاري، صحيح، ج 1، ص 6.
- (56) البخاري، صحيح، ج 4، ص 107-108، 109، 198، مسلم، صحيح، ج 3، ص 1153-1154، أبو داوود، سنن أبي داوود، ج 2، ص 522، الترمذي، سنن الترمذي، ص 378، 746، النسائي، السنن الكبرى، ج 9، ص 148-149.
- (57) انظر: الطبري، جامع البيان...، سورة 58 آية 8، صافي، محمود، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، دار الرشيد - مؤسسة الإيمان، دمشق - بيروت 1995، سورة 58 آية 8.
- (58) الطبري، جامع البيان...، سورة 58 آية 8، صافي، محمود، الجدول...، سورة 58 آية 8، ابن منظور، لسان العرب، مادة: سوم، الزحيلي، التفسير المنير...، سورة 3 آية 78.

- (59) Breuer, Y., "Intervocalic Alef/Yodh Interchanges in Mishnaic Hebrew", *REJ* 159, 1-2 (2000), p. 65.
- (60) البخاري، صحيح، ج 4، ص 36.
- (61) Kaufman, Stephen A., "The Akkadian Influences on Aramaic", Chicago, 1974, p. 100.
- (65) ابن هشام، عبد المالك، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وغيره، المكتبة العلمية، بيروت د.ت، ج 2، ص 198-200.
- (66) الأصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 61-62.
- (67) الأصفهاني، الأغاني، ج 19، ص 98-100، الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 70-71.
- (68) الزركلي، الأعلام...، ج 3، ص 140.
- (69) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 70-71، الأصفهاني، الأغاني، ج 6، ص 82، الزركلي، الأعلام...، ج 3، ص 140، العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، مكتبة مصر، القاهرة د.ت، ج 2، ص 58، ابن منظور، لسان العرب، مادة: عبد.
- (70) الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 136، ج 4، ص 230.
- (71) سوسة، احمد، أبحاث في اليهودية...، ص 59-60.
- (72) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 330-332، ابن سعد، ابن سعد، الطبقات، ج 1، ص 409-410، ابن حجر، فتح الباري...، ج 9، ص 105-106، المقرئ، تقي الدين احمد، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة 1941، ج 1، ص 186-187، الزركلي، الأعلام...، ج 4، ص 102.
- (73) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 394.
- (74) Brock, S. P., An Introduction to Syriac Studies, New Jersey 2006, p. 20, Bodesohn, F., Die Darstellung des goldenen Zeitalters, p. 4, Muraoka, T., Classical Syriac, a Basic Grammar with a Chrestomathy, Wiesbaden 2005, p. 1-2.
- (75) لقد قسم Fitzmyer اللغة الآرامية من ناحية تاريخية الى خمس فترات، انظر: Fitzmyer, J.A., "The Phases of the Aramaic Language" in A Wandering Aramean. Collected Aramaic Essays. (Missoula: Scholars, 1979), pp. 57-84.
- (76) رزق الله، جورج حنا، المدخل الى اللغة الآرامية في لهجة معلولا المحلية، جامعة دمشق، دمشق 2007، ص 5-7.
- (77) Klinksieck, A., Die Reise zum Anbeginn, Kosmogonie der Ursprache, Kalletal 2003, p. 76.

(78) لقد أخذ اليهود الآرامية بعد انتشارها في الشرق فصاروا يتكلمونها فيما بينهم، وفي غضون ذلك تكونت لدى كهنتهم اللهجة الآرامية الخاصة بهم، وبعد السبي البابلي كتب الكهنة في الأسر توراتهم بهذه اللهجة المقتبسة من اللغة الآرامية لذلك صارت تعرف بأرامية التوراة. لمزيد من التفاصيل انظر: العاملي، حسن كاظم، يهود الجزيرة العربية، مسار العلاقات الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، قراءة متأنية بالفكر السياسي الإسلامي، دار الهادي، بيروت 2005، ص 39.

(79) Wagner, T., Gottes Herrschaft, eine Analyse der Denkschrift (Jes 6, 1-9, 6), Leiden 2006, p. 128.

(80) Glessmer, U., Einleitung in die Targume zum Pentateuch, Texte und Studien zum Antiken Judentum 48, Tübingen 1995, p. 14

(81) Hallermayer, M., Text und Überlieferung des Buches Tobit, Berlin 2008, p. 168-169.

(82) Tornow, S., Abendland und Morgenland im Spiegel ihrer Sprachen, ein kulturhistorischer Vergleich, Wiesbaden 2009, p. 59

(83) Hoffman, J. M., In the Beginning: a Short History of the Hebrew language, NY 2004, p. 165, Sáenz-Badillos, Á., A History of the Hebrew Language, Translated by John Elwode, Cambridge 2002, p. 112.

(84) Rabin, C., "The Revival of the Hebrew Language", Ariel 25 (Jerusalem 1969), pp. 25-26, Tur-Sinai, H., "The Revival of the Hebrew Language", Jerusalem 1960, pp. 7-8.

(86) Schäfer, P., Studien zur Geschichte und Theologie des rabbinischen Judentums, Leiden 1978, pp. 80-121.

(87) Brüll, A., Fremdsprachliche Redensarten und ausdrücklich als fremdsprachlich bezeichnete Wörter in den Talmuden und Midraschim, eine philologische Studie, Leipzig 1869, pp. 40-74

(88) Jastrow, M., "Arabia" in The Jewish Encyclopedia: a Descriptive Record of the History, Religion, Literature, and Customs of the Jewish people from the Earliest Times to the Present day - Adler, Cyrus, 1863-1940, Vol. II, pp. 40-41.

(89) Cohen, A., Arabisms in Rabbinic Literature, Fremdsprachliche Redensarten by Adolf Brüll, JQR, NS, Vol. 3, No. 2 (Oct., 1912), pp. 221-233

(90) العاملي، حسن كاظم، يهود الجزيرة العربية...، ص 39-40.

المصادر والمراجع العربية

القران الكريم وترجمة معانيه الى اللغة الألمانية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ترجمة عبد الله الصامت "فرانك بوبنهايم" ونديم الياس، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، المدينة المنورة 1422هـ.

القران الكريم وترجمة معانيه الى اللغة الانكليزية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ترجمة محمد تقى الدين الهلالي ومحمد محسن خان، المدينة المنورة 1417هـ.

ابن الأثير، عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار المعرفة، بيروت 2009.

ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، دار المعرفة، بيروت 2007.

ابن الحجاج القشيري، مسلم، صحيح مسلم، دار ابن رجب، القاهرة 2006.

ابن المنذر، كتاب تفسير القرآن، دار المآثر، المدينة 2002.

ابن سعد، محمد، كتاب الطبقات الكبرى، دار الفكر، بيروت 1994.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ابن عمر، السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت 1971.

ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار السلام، الرياض 1998.

ابن منظور، محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت 2005.

ابن هشام، عبد المالك، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وغيره، المكتبة العلمية، بيروت د.ت.

أبو داود، سنن أبي داود، دار ابن الهيثم، القاهرة 2007.

الاصبھاني، أبو نعيم، معرفة الصحابة، دار الوطن للنشر، الرياض 1998.

الاصبھاني، البغوي، أبو محمد، معجم الصحابة، دار البيان، الكويت 2002.

الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، مطبعة التقدم، القاهرة د.ت.

البخاري، محمد، صحيح البخاري، دار الفجر، القاهرة 2004.

- البغوي، أبو محمد، تفسير البغوي، دار طيبة، الرياض 1988.
- الترمذي، محمد، سنن الترمذي، مكتبة المعارف، الرياض 2008.
- الحاكم، أبو عبد الله، المستدرک على الصحيحين، دار ابن حزم، بيروت 2007.
- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2008.
- خشيم، ف.، هل في القرآن أعجمي؟ نظرة جديدة إلى موضوع قديم، دار الشرق الأوسط، بيروت 1997.
- درويش، محي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة للنشر، دمشق - بيروت 1992.
- الدينوري المالكي، أبو بكر أحمد، كتاب المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم، بيروت 1998.
- الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت 1998.
- الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة 2006.
- رزق الله، جورج حنا، المدخل الى اللغة الآرامية في لهجة معلولا المحلية، جامعة دمشق، دمشق 2007.
- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، القاهرة 1947.
- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، التراث العربي، الكويت 1965.
- الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة، دار الفكر، دمشق 2007.
- السجستاني، محمد، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة 1963.
- سوسة، احمد، أبحاث في اليهودية والصهيونية، دار الأمل، اربد 2003.
- السيوطي، جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت 2008.
- السيوطي، جلال الدين، المذهب فيما وقع في القرآن من المعرب، دار الكتب العلمية، بيروت 1988.

صافي، محمود، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، دار الرشيد - مؤسسة الإيمان، دمشق - بيروت 1995.

الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2000.

الطبراني، أبو القاسم، التفسير الكبير، دار الكتاب الحديث، أربد 2008.

الطبري، ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك والخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت 2008.

الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت 2005.

الطحوي، أبو جعفر احمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، مؤسسة الرسالة، بيروت 1994.

عامري، سامي "هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟" سلسلة إصدارات المؤسسة العلمية الدعوية العالمية، 2010.

العالمي، حسن كاظم، يهود الجزيرة العربية، مسار العلاقات الاسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، قراءة متأنية بالفكر السياسي الاسلامي، دار الهادي، بيروت 2005.

العسقلاني، ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، مكتبة مصر، القاهرة د.ت.

الفاكهي، ابو عبد الله محمد، اخبار مكة، في قديم الدهر والحديث، دار خضر، بيروت 1994.

القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن، المكتبة التوفيقية، القاهرة د. ت.

المزي، جمال الدين أبي الحجاج، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، دار الكتب العلمية، بيروت 2004.

المقدسي، مطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت.

المقريزي، تقي الدين احمد، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة 1941.

الموردي، أبو الحسن علي بن محمد، أعلام النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت 1986.

النسائي، احمد بن علي، كتاب السنن الكبرى، مؤسسة الرسالة، بيروت 2001.

الواقدي، أبو عبد الله، كتاب المغازي، دار الكتب العلمية، بيروت 2004.

المصادر الاجنبية:

- Al Qar'a, M. and others, "Hebräische Elemente und ihre Wege in die deutsche Sprache", *Naharaim* (2011), vol. 5, pp. 96–114.
- Aslan, R., *Kein Gott außer Gott: der Glaube der Muslime von Muhammad bis zur Gegenwart*, München 2006.
- Blau, J., Jesudot Torat ha-Laschon, Kerech II, *Torat ha-Schem*, Jeruschaleim 1988.
- Bodesohn, F., *Die Darstellung des goldenen Zeitalters in "Die Christenheit oder Europa"*, Novalis' rhetorischer Weg, Studienarbeit, Norderstedt 2005.
- Breuer, Y., "Intervocalic Alef/Yodh Interchanges in Mishnaic Hebrew", *REJ* 159, 1-2 (2000), pp. 63-78.
- Brock, S. P., *An Introduction to Syriac Studies*, New Jersey 2006.
- Brüll, A., *Fremdsprachliche Redensarten und ausdrücklich als fremdsprachlich bezeichnete Wörter in den Talmuden und Midraschim*, eine philologische Studie, Leipzig 1869.
- Cohen, A., Arabisms in Rabbinic Literature, *Fremdsprachliche Redensarten* by Adolf Brüll, *JQR, NS*, Vol. 3, No. 2 (Oct., 1912), pp. 221-233.
- Dalman, G., *Grammatik des jüdisch-palästinischen Aramäisch. Nach den Idiomen des palästinischen Talmud, des Onkelostargum und Prophetentargum und der Jerusalemischen Targume*, Darmstadt 1960.
- Fitzmyer, J.A., "The Phases of the Aramaic Language" in *A Wandering Aramean. Collected Aramaic Essays*. (Missoula: Scholars, 1979).
- Geiger, A., *Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen*, Bonn 1833.
- Gil, M., "The Origin of the Jews of Yathrib", *JSAI* 4, Jerusalem 1984, pp. 203-224.
- Glessmer, U., *Einleitung in die Targume zum Pentateuch, Texte und Studien zum Antiken Judentum* 48, Tübingen 1995.
- Hallermayer, M., *Text und Überlieferung des Buches Tobit*, Berlin 2008.
- Hirschfeld, H., Historical and Legendary Controversies between Mohammed and the Rabbis, *JQR* Vol. 10, No. 1 (1897), pp. 100-116.
- Hoffman, J. M., *In the Beginning: a Short History of the Hebrew language*, NY 2004.
- Jastrow, M., "Arabia" in *The Jewish Encyclopedia: a Descriptive Record of the History, Religion, Literature, and Customs of the Jewish People from the*

- Earliest Times to the Present Day - Adler, *Cyrus*, 1863-1940, Vol. II, pp. 40-41.
- Jeffery, A., and others, *The Foreign Vocabulary of the Qur'ān*, Leiden 2007.
- Katsh, Abraham I., Judaism and Islam, *Journal of Educational Sociology*, Vol. 36, No. 8, Learning Through Travel in Israel (1963), pp. 400-406.
- Kaufman, Stephen A., "*The Akkadian Influences on Aramaic*", Chicago, 1974.
- Klinksiek, A., *Die Reise zum Anbeginn*, Kosmogonie der Ursprache, Kalletal 2003.
- Lecker, M., Zayd B. Thābit, "A Jew with Two Sidelocks": Judaism and Literacy in Pre-Islamic Medina (Yathrib), *JNES*, Vol. 56, No. 4 (Oct., 1997), pp. 259-273.
- Leszynsky, R., *Die Juden in Arabien zur Zeit Mohammeds*, Berlin 1910.
- Luxenberg, C., *Die syro-aramäische Lesart des Koran*, ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache, Berlin 2007.
- Muraoka, T., *Classical Syriac, a Basic Grammar with a Chrestomathy*, Wiesbaden 2005.
- Murdock, D. M., *The Gospel According to Acharya S*, Seattle 2009
- Paret, R., Mohammed und der Koran: *Geschichte und Verkündigung des arabischen Propheten*, Stuttgart 2008.
- Rabin, C., "The Revival of the Hebrew Language", *Ariel* 25 (Jerusalem 1969), pp. 25-34.
- Sáenz-Badillos, Á., *A History of the Hebrew Language*, Translated by John Elwode, Cambridge 2002.
- Schäfer, P., *Studien zur Geschichte und Theologie des rabbinischen Judentums*, Leiden 1978.
- Speyer H., *Die biblischen Erzählungen im Koran*, Hildesheim 1961.
- Tornow, S., *Abendland und Morgenland im Spiegel ihrer Sprachen*, ein kulturhistorischer Vergleich, Wiesbaden 2009.
- Tröger, KW., *Bibel und Koran, was sie verbindet und unterscheidet*, mit Einführung in Mohammads Wirken und die Entstehung des Islam, Stuttgart 2008.
- Tur-Sinai, H., "*The Revival of the Hebrew Language*", Jerusalem 1960.
- Wagner, T., Gottes Herrschaft, eine Analyse der Denkschrift (*Jes 6, 1-9, 6*), Leiden 2006.

الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان

في ضوء التغيرات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة

وصفي محمد عقيل *

ملخص

يتناول هذا البحث دراسة استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية تجاه تايوان في ضوء التغيرات الدولية، حيث الافتراض بوجود تحول كبير في طبيعة المواقف الاستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه المسألة التايوانية بعد نهاية الحرب الباردة، في الوقت الذي يستمر فيه الخلاف مع الصين حول مستقبل تايوان، وسيادتها الوطنية.

وقد تناول البحث دراسة القوى الفاعلة في صناعة الاستراتيجية الأمريكية، والمكانة والأهمية الاستراتيجية لتايوان لدى الإدارات الأمريكية المتعاقبة، بالإضافة إلى الأبعاد الاستراتيجية للموقف الأمريكي من المسألة التايوانية.

وتوصل البحث إلى وجود تغيرات في الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان بعد نهاية الحرب الباردة، أبرزتها تطورات العلاقة الاقتصادية مع الصين منذ العام 1993م، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م وتحسن العلاقات الثنائية بين تايوان والصين من جهة، وبين الولايات المتحدة والصين من جهة وعلى حساب العلاقة مع تايوان.

المقدمة

تنطوي إستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية تجاه معظم دول العالم على مجموعة من المبادئ، والقيم، والمصالح المتداخلة، والمتشابكة، والمتفاعلة عبر مراحل زمنية متعاقبة، وهو الأمر الذي جعل من سلوكها السياسي يتحدد بشكل متداخل مع عناصر التراث، والمجتمع، والثقافة الأمريكية، وفي هذا الشأن فإن الحديث عن الاستراتيجية الأمريكية بأنها ثابتة عبر الزمان والمكان سيكون غير منصف إلى حد كبير.

ففي الفترة التي شهدتها النظام الدولي من استقطاب خلال فترة الحرب الباردة بدت الولايات المتحدة الأمريكية المنافس القوي والوحيد للاتحاد السوفييتي، وأطروحته الاشتراكية، في الوقت

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم العلوم السياسية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

الذي تراجع فيه نفوذ الدول الاستعمارية الكبرى في القارة العجوز وخارجها، وخلال الفترة ما بعد نهاية الحرب الباردة وانتهاء الاتحاد السوفييتي، وجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها مرة أخرى قوة عظمى الوحيدة دون منافس، حيث بدا من الممكن لها أن تقود النظام الدولي كقوة منفردة ووحيدة.

لكن بعد سنوات قليلة من ذلك الادعاء، أشار كثير من محلي العلاقات الدولية بأن هناك أنماطاً جديدة من العلاقات القائمة بين الدول العظمى، اتضح بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، حيث احتاجت الولايات المتحدة لمساندة بقية القوى الدولية في حربها على الإرهاب، وتكرس ذلك في غزوها لأفغانستان (2002م) والعراق (2003م)، حيث احتاجت إلى تحالف دولي معها، مما جعلهم يؤكدون وجود فاعلين جدد في النظام الدولي، سواء كانت دول أو منظمات دولية، أو شركات أو غيرها، ولعل بروز قوى اقتصادية عظمى جديدة منخرطة بشكل كبير جداً في تفاعلات اقتصاد السوق أو ما يسمى بالعولمة الاقتصادية قد دفع بالولايات المتحدة الأمريكية التي قادت الصراع الأيديولوجي خلال فترة الحرب الباردة، إلى إعادة النظر بنمط تفاعلاتها مع بعض الدول الليبرالية المتحالفة معها، ومع غيرها من القوى الصاعدة الجديدة.

لقد تغيرت طبيعة العلاقات الدولية داخل النظام الدولي بعد نهاية الحرب الباردة نتيجة لتغير هيكله، ومصادر القوى فيه ونمط قيمه، بشكل دفع الولايات المتحدة الأمريكية التي برزت كقوة منتصرة فيه، لأن تعيد النظر بإستراتيجيتها الدولية تجاه الأقاليم المتواجدة فيها عسكرياً منذ الحرب العالمية الثانية، ولعل إقليم شرق آسيا يعدّ أحد أبرز الأقاليم التي أشعل فيه تواجد الولايات المتحدة الأمريكية العديد من الصراعات المسلحة، لاسيما بعد تبني الصين للاشتراكية بعد نجاح ثورة الفلاحين وإعلان الحزب الشيوعي عن تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام 1949م، وهو الأمر الذي أدى إلى طرد الحزب الوطني (الكومنتاج) ذي التوجهات الليبرالية إلى جزيرة تايوان (فرموزة)، الذي أعلن فيها عن تأسيس جمهورية الصين الوطنية¹.

وخلال فترة الحرب الباردة التي استمرت خمسة عقود تقريباً، كان هناك صراع بين الحزبين على شرعية حكم البر الصيني على الصعيد المحلي، والدولي، إذ احتلت حكومة تايوان مقعد الصين الدائم في الأمم المتحدة حتى عام 1971م، وهو العام الذي شهد اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بحكومة الصين الشيوعية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الصيني في الأمم المتحدة، وتم طرد مندوب حكومة تايوان.

أهمية البحث

يحاول البحث تحليل الترابط العضوي والبنوي للعلاقات الإستراتيجية الأمريكية مع تايوان، التي تمثل في حقيقتها تطور لمواقف الدولة الأمريكية، ومؤسساتها تجاه المسألة التايوانية، وتقدم

تفسيرا للتغيرات في العقائد السياسية لصناع القرار في زاوية أخرى، كما يساهم في معرفة آليات حل المشكلات طويلة الأمد التي تعترض السياسة الخارجية الأمريكية في تعاملها مع المسألة التايوانية، لاسيما في ظل التغيرات في البيئة الدولية بعد نهاية الحرب الباردة.

وفي ناحية أخرى تبرز أهمية البحث من تفسيرها لصيرورة الاستراتيجية الأمريكية في ظل تغيرات الإدارة الأمريكية أثناء تعاقب الحزبين الرئيسيين عليها، وفي بيان تغير قيم المؤسسات السياسية والاقتصادية ما بعد الحرب الباردة بعد اختفاء العدو الشيوعي، وبيان مدى اعتبار مسألة تايوان من المسائل التي تعكس الالتزامات الكبرى للنظام السياسي الأمريكي، وتصورات قاداته، في ضوء اعتبار الصين قوة سياسية صاعدة غير قانعة وشريك اقتصادي هام، يعدّ تايوان إقليم صيني منشق عن شرعية البر الصيني ولا بد من إخضاعه بالقوة المسلحة.

أهداف البحث

وفي ضوء سعيه لتوضيح المكانة والأهمية الاستراتيجية التي تحتلها تايوان لدى صانع القرار الأمريكي بعد نهاية الحرب الباردة، يسعى هذه البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- التعرف إلى بنية النظام الدولي وطبيعة علاقاته بعد نهاية الحرب الباردة.
- بيان القوى الفاعلة والمؤثرة في عملية صنع الاستراتيجية الأمريكية.
- الوقوف على مواقف الإدارات الأمريكية المتعاقبة تجاه المسألة التايوانية منذ نهاية الحرب الباردة.
- توضيح الإبعاد السياسية والاقتصادية والعسكرية للإستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان.

مشكلة الدراسة

تحولت دراسات الاستراتيجية الأمريكية بعد نهاية الحرب الباردة من مصادر بحث نظري إلى مصادر بحث عملية في السياسة الخارجية الأمريكية، وقد جاء هذا التحول نتيجة الفشل في التنبؤ بموعد انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية، والذي مثل صدمة للأفكار النظرية التي بحثت في العلاقات الدولية، فقد تحدثت كل نظريات العلاقات الدولية عن التنبؤ بانحيار الاتحاد السوفيتي ولكنها لم تقل متى سيكون ذلك، وهو ما عزز نظرة ايجابية نحو التشكيك بطبيعة الدراسات الاستراتيجية التي جعلت من تايوان حليفا استراتيجيا حتميا للولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي أدى إلى احتدام المنافسة بين وجهات النظر المتباينة داخل، وبين بنى صناعة القرار الاستراتيجي الأمريكي.

ومن هنا برزت ضرورة دراسة التحولات في الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان، مدفوعة بإطار نظري وعملي يدعو إلى إعادة النظر بالمفاهيم والقيم التقليدية في الاستراتيجية الأمريكية، معززا بأحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، التي دفعت إلى تغير كثيرا من المفاهيم في العلاقات الدولية كالنظام الدولي والمجتمع الدولي والقانون الدولي والأمن الدولي.

ووفق هذه المعطيات تبرز المشكلة البحثية التي تعبر عن ماهية الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان بعد نهاية الحرب الباردة في مجموعة من التساؤلات المركزية حول: ما القوى الفاعلة في مؤسسات صنع القرار الأمريكي ومواقفها الاستراتيجية تجاه تايوان بعد نهاية الحرب الباردة؟، وما المكانة الاستراتيجية التي تحتلها تايوان لدى صانع القرار الأمريكي؟، وعلى ماذا تنطوي أبعاد الاستراتيجية الأمريكية تلك؟.

فرضية الدراسة

تتعلق الفرضية بالاحتمالات التي يمكن ترجيحها على أخرى بموضوع مسألة تايوان في الاستراتيجية الأمريكية بعد نهاية الحرب الباردة، والجوانب الارتباطية، أو المقترنة المتمخضة عن علاقة القوى المؤثرة في صنع القرار بالاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان، باعتبارها مسألة ارتبطت بشكل ما بانعكاسات التغيرات في البيئة الدولية، والأنشطة الفاعلة فيه، وقد صيغت الفرضية على النحو الآتي:

" تحتل تايوان مكانة استراتيجية أقل لدى صناع القرار الأمريكي بعد نهاية الحرب الباردة "

كما يرتبط مع الفرضية المركزية مجموعة من الفرضيات الفرعية، منها:

- البنى والمؤسسات الأكثر فاعلية في صناعة القرار الاستراتيجي الأمريكي قد تبدلت توجهاتها تجاه تايوان.
- العلاقة المتصاعدة مع الصين تؤثر في توجهات صناعة القرار الاستراتيجي الأمريكي تجاه تايوان.

منهجية البحث

تقوم منهجية البحث على استخدام منهج صنع القرار، الذي يعد أن العملية السياسية ما هي إلا عملية صنع القرارات وتحويلها واتخاذ القرار فيها من مجموعة من البدائل، التي يختار منها صانع القرار الاستراتيجي ما يساهم في الدفع لاختيار القرار الرشيد، الذي يحقق أفضل النتائج، وبأقل التكاليف المادية والمعنوية.

ويتضح استخدام منهج صنع القرار في هذا البحث من تناوله لعملية صنع القرار داخل بنية النظام السياسي الأمريكي، فالكونجرس كسلطة تشريعية والرئيس في البيت الأبيض كسلطة تنفيذية، ووزارة الدفاع والخارجية، ووكالة الاستخبارات الأمريكية، ومجلس الأمن القومي تمثل مجموعة من المؤسسات الرسمية التي تتفاعل وتتصارع فيما بينها، في حين أن الحزب الجمهوري، والحزب الديمقراطي، واللوبي التايواني، ووسائل الإعلام، والشركات المتعددة الجنسية تمثل مجموعة من المؤسسات غير رسمية التي تعكس مصالح وضغوطات القوى الأخرى، وهي جميعا تقوم ببلورة وصياغة أهداف أمريكا وتوجهاتها الاستراتيجية تجاه تايوان بما يتوافق مع وزنها وتأثيرها ومصالحها.

هذا مع عدم إغفال أن العقائد السياسية لصناع القرار في المؤسسات الأمريكية تقوم على مبدأ تبني مبدأ الديمقراطية الليبرالية الغربية التي تستند إلى التعددية، والحرية الفردية، واقتصاد السوق المفتوح، وهو ما تتشابه به مع تايوان وتختلف به مع الصين.

الدراسات السابقة

هناك بعض الأدبيات التي تناولت دراسة مسألة تايوان في الاستراتيجية الأمريكية، ومعظم هذه الدراسات حديثة ومعاصرة، ومن أبرزها:

- دراسة عودة شديفات عام 2004م بعنوان مستقبل تايوان في ضوء العلاقات الأمريكية الصينية 1978-2003م، حيث قدم الباحث تصورا عن ميكانزمات القوة والضعف لتطور تايوان السياسي والاقتصادي، كما بين أن طبيعة المشكلة التايوانية في السياسة الصينية يكمن بتدخل الولايات المتحدة الأمريكية فيها، لكن هذه الدراسة لم تعطي المجال للتركيز على المتغيرات في الاستراتيجية الأمريكية تجاه مسألة تايوان في ظل تنامي الاعتماد المتبادل مع الولايات المتحدة على حساب تايوان وهذا ما ستوضحه الدراسة.

- دراسة Stephensn Carolyn عام 2006م، بعنوان American Foreign Policy: Alternative Strategies for Human Security، وفيها أشار الباحث إلى أن معايير الأمن القومي الأمريكي قد تغيرت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م إلى مستويات عالية، وتوصل الباحث في موضوع القضية التايوانية بأن على الولايات المتحدة أن لا تتنازل عن مواقفها السياسية الداعمة لتايوان في ظل التهديدات الصينية المتعاقبة للجزيرة باعتبارها قضية امن قومي، ونقطة ثقافة مشابهة للثقافة الليبرالية الغربية، وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسة إلا أنها لم تبرز سوى دور مؤسسات صنع القرار السياسي الأمريكي في الجانب الأمني، ولم توضح مدى تأثيرها بالبعد الاقتصادي للسياسة الخارجية الأمريكية الجديدة.

- دراسة Jerome S. Bruner عام 2008م، بعنوان America's foreign policy, وفيها أشار الباحث إلى أن السياسة الخارجية الأمريكية تتأثر بالنسق الاجتماعي للثقافة الليبرالية الأمريكية، وهو ما يجعلها تتناغم مع الدول الليبرالية المشابهة لها، وفي شرق آسيا تحديدا تنسجم السياسة الخارجية الأمريكية مع السياسة الخارجية اليابانية والتايبانية والكورية، وهو ما يخلق نمطا من تفاهم المصالح، لكن هذه الدراسة جعلت من البعد الاجتماعي محركا أساسيا وجوهريا في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه آسيا، مغفلة تنامي العلاقات الاستراتيجية للولايات المتحدة مع الصين الشيوعية على حساب تلك الدول.

- دراسة حمدان السرحان عام 2010م، بعنوان الاستراتيجية الأمريكية تجاه تنامي قوة الصين الاقتصادية والعسكرية، وقد بينت الدراسة بان الاستراتيجية الأمريكية تجاه الصين وشرق آسيا تمر في وقت عصيب من الاختلالات الأمنية والاقتصادية، فكوريا الشمالية تسعى لامتلاك التكنولوجيا الصاروخية والنووية، كما أن هناك حالات من العدائية بين الصين من جهة واليابان وتايوان من جهة أخرى، في وقت تتنامى فيه قوة الصين الاقتصادية، في ظل زيادة الأعباء الاقتصادية على الولايات المتحدة بشكل مستمر، وما يؤخذ على هذه الدراسة تركيزها على التبدلات في الاستراتيجية الأمريكية تجاه العديد من القضايا الدولية في المسائل العسكرية وإغفالها للبعد الاقتصادي.

- دراسة Thomas Donnelly عام 2010م، بعنوان The military we need toward china, وفيه أشار الباحث إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تركز في سياستها الخارجية على البعد الاقتصادي تجاه علاقتها مع الصين لادماجها في النظام الدولي بهدف ضبط سلوكها السياسي تجاه تايوان، وتوصل الباحث إلى أنه على الولايات المتحدة الدفع بتنمية علاقاتها الاقتصادية مع تايوان، وعدم تراجعها لحساب زيادتها مع الصين؛ لأن ذلك يضعف من الموقف الأمريكي التفاوضي مع الصين، وهذا ما ستساهم هذه الدراسة وستوضحه بشكل اكبر.

- دراسة Daniel Blumenthal بعنوان US Foreign Policy Towards Taiwan Rethinking عام 2011م، وبينت الدراسة وجود حديث في دوائر صنع القرار الأمريكي حول التخلي عن منح تايوان صفة الدولة الأكثر رعاية في ظل تنامي قوتها الاقتصادية، وتقاربها المتزايد مع الصين، حيث توصلت الدراسة إلى أنه يجب على الولايات المتحدة أن تتخلى عن دعم تايوان، وأن لا تدخل بمواجهة مع الصين في ظل عزم الأخيرة على إعادة توحيدها، أو ابتلاعها اقتصاديا، لكن الدراسة أغفلت الموقف التايواني وخيارات القيادة التايوانية في حال تخلت الولايات المتحدة عن دعمها، وهو ما ستوضحه الدراسة.

الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان في ضوء التغيرات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة

أشارت بعض الدراسات الاستراتيجية بأن مسألة تايوان خلال فترة الحرب الباردة ارتبطت بتطور العلاقات الأمريكية الصينية، في حين رأى آخرون أنها مثلت أحيانا ورقة مساومة متبادلة بين الطرفين، وفي هذا البحث سيتم دراسة المسألة التايوانية في ضوء المواقف الاستراتيجية للإدارات الأمريكية المتعاقبة ما بعد نهاية الحرب الباردة، حيث سيتم تناول دور القوى الفاعلة في صناعة الاستراتيجية الأمريكية الرسمية وغير الرسمية، كما سيتم تناول المواقف المختلفة للإدارات الأمريكية المتتابة منذ نهاية الحرب الباردة حتى نهاية الدراسة، كذلك سيتم دراسة الأبعاد السياسية والاقتصادية والعسكرية للإستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان.

I- بنية النظام الدولي بعد نهاية الحرب الباردة

هناك اختلاف في وجهات النظر بين الباحثين في توصيف معالم النظام العالمي الجديد الذي أعلن عنه الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب عام 1991م، فبعض الباحثين يشير إلى أنه نظام أحادي القطبية تقوده الولايات المتحدة الأمريكية بقوتها العسكرية التي تملكها (Ney, 1992, p83-85)، في حين يرى آخرون بأن هذا النظام الدولي الجديد هو نظام متعدد الأقطاب (العبدالله، 1994، ص60-61)، لكن الواقع يشير إلى أننا الآن بصدد مرحلة انتقالية لم تتحدد ملامحها بعد.

ومهما كانت الآراء فإن هناك ثلاثة ملامح مشتركة فيها:

1. إن التفسير النظري لمفهوم النظام لا زال يؤكد وجود الدول كلاعب رئيس في النظام الدولي.
2. إن بنية النظام الدولي لم تتغير بالشكل الذي يفرض إلى وجود قوى عظمى جديدة مغيرة كلياً للمرحلة السابقة.
3. إن علاقات التفاعل داخل النظام تتحدد باتجاه تنوع وتمكين القدرات للفاعلين الدوليين، وهو ما يفسر قياس القوة وتوزيعها بالإمكانات العسكرية، والاقتصادية، والسكانية، والجغرافية، والتكنولوجية وغيرها.

لذلك فإن اعتقاد البعض إن النظام الدولي القائم حالياً يوصف بأنه نظام أحادي القطبية تتزعمه الولايات المتحدة التي تمتلك قوة عسكرية كبيرة، حيث إن معيار العلاقات الدولية في القرن العشرين لا زال عسكرياً مادياً (فهيمى، 2005، ص66-67)، هو اعتقاد خاطئ، لأنه لا يمكن القول بأن النظام الدولي اليوم تتوضح معالمه استناداً إلى البعد المادي للقوة المسلحة، فروسيا الاتحادية مثلاً، لازالت تمتلك ترسانة كبيرة من الإمكانيات العسكرية المادية لكنها لا تشكل مركزاً لقيادة النظام الدولي.

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن اعتبار الاقتصاد أحد معايير العلاقات الدولية الجديدة، فالصين مثلاً، تمثل القوة الاقتصادية الجديدة الصاعدة في النظام الدولي، وهو ما جعلها تحقق ثروة مكنتها من زيادة مساهمتها المالية وتعميق تأثيرها في المنظمات الدولية، ودفع للاعتراف بتأثيرها في السياسة الدولية على نحو جعلها تتبنى نمط من العلاقات القائمة على التعاون الدولي والاعتماد المتبادل، وهذا يخالف كلياً تلك الرؤية، التي تجد بأن السياسة الدولية ما هي إلا صراع نحو الامبريالية والهيمنة من أجل القوة التي تضمن السيطرة على عقول الآخرين وتصرفاتهم وأفعالهم (رسلان، 1996، ص53-54).

وبشكل واضح وجلي فقد بينت السنوات العشرين التي تلت نهاية الحرب الیاردة وانهيار الاتحاد السوفييتي، أن هناك مجموعة من الملامح، والسمات العامة التي تتسم بها بيئة النظام الدولي، ولعل من أهمها غياب فكرة الصراع القومي، والأيديولوجي بين القوى الفاعلة الكبرى في النظام الدولي، وبروز سمات للصراع الحضاري داخل مجتمع الدولة الواحدة (هلال، 1995، ص13)، والتي توصف بسمة بالتشظي والتقاتل بشكل عنيف ودموي، اتخذ في بعض الأحيان صفة عرقية أو دينية أو مذهبية، ولذلك فإننا نرى أنه بات في حكم المؤكد، أن هناك جملة من الملامح، والسمات التي أصبحت تميز فواعل النظام الدولي ما بعد نهاية الحرب الباردة:

أولاً: على صعيد تنوع الدول الفاعلة:

- أ. وجود دول صناعية ديمقراطية
- ب. وجود دول صناعية غير ديمقراطية
- ج. وجود دول غير صناعية ديمقراطية
- د. وجود دول غير صناعية غير ديمقراطية

ثانياً: على صعيد تنوع الفاعلين الجدد، حيث يلحظ:

- أ. بروز فاعلية وتأثير للفاعلين الجدد في العلاقات الدولية، كالمنظمات العالمية الدولية، والإقليمية، سواء أكانت حكومية أم غير حكومية، هذا بالإضافة إلى الشركات متعددة الجنسية.
- ب. حدوث تراجع في قدرة الدولة في تأكيد سيادتها على أرضها وشعبها، لاسيما بعد أن أصبحت حدودها مسامية وزادت عبرها الاختراقات الثقافية والإعلامية، وتنازلها عن جزء من سيادتها لصالح بنى فوق قومية، أو دون قومية.

ثالثاً: على صعيد وسائل التفاعل:

إن التطور الهائل في وسائل المواصلات والاتصالات خلق ثورة كبرى في عملية التواصل بين البشر عبر القارات، الأمر الذي ساهم في زيادة سرعة التأثير والتأثير بين المجتمعات، وأفرز ظاهرة الاعتماد

الدولي المتبادل، والتأثير الدولي المتبادل، الذي يسميه البعض بعولمة المشكلات والقضايا التي تتعدى الدول وإطارها الجغرافي (Delors, 1998, p14)، كذلك ساهم التطور في وسائل التفاعل في عولمة الاقتصاد وفق أسس الليبرالية الاقتصادية، وحرية حركة عناصر الإنتاج (البشرية والمادية والموارد الطبيعية والإدارة)، الذي يراه البعض بأنه تصاعد بعد زيادة فاعلية الشركات الرأسمالية العالمية (ويلتس، 2004م، ص 607-609).

رابعاً: على صعيد حركة التفاعل:

إن النظام الدولي يوصف بعدم التجانس في صفات الفاعلين، حيث تتضح مظاهر عدم تجانسه في حالة التباين الشديد بين وحداته من حيث الحجم، والنوع رغم تمتعها بالمساواة أمام القانون الدولي، وهو ما انعكس في طبيعة حركة تفاعلهم، وأدى إلى خلق تباين شديد بينهم من حيث الكيف، والكم، فبعض الدول لديها حركة تفاعل أقوى من غيرها، لكونها تمتلك قدرات استخراجية وتنظيمية وتوزيعية ورمزية واستجابية، تمكنها من لعب دورا كبيرا في السياسة الدولية، وبعض الدول لا تمتلك ذلك.

II- الاستراتيجية الأمريكية تجاه شرق آسيا

يعتبر مفهوم الاستراتيجية ذا معنى عسكري في المقام الأول، حيث يقصد به فن تسيير العمليات الحربية واتخاذ كافة التدابير لإضعاف إمكانيات العدو وشل موارده الاجتماعية، والاقتصادية، والطبيعية، والعسكرية (ربيع، 1994م، ص 647)، وقد اتخذت حديثاً بعداً دبلوماسياً واقتصادياً بالإضافة إلى البعد الأمني، وهذا ما ينطوي تحت الاستراتيجية الشاملة للدولة والتي تُعرف على أنها الاستخدام الأمثل للعوامل الاقتصادية، والعسكرية، والاجتماعية، وكل ما لدى الدولة من مقومات قوة للوصول إلى أهداف سياسية تخدم المصلحة الوطنية للدولة وهذا ما عبر عنه "لدل باسل هارت" المفكر والمؤرخ الاستراتيجي البريطاني في كتابه الاستراتيجية (Strategy).

وتاريخياً تبنت الولايات المتحدة الأمريكية إستراتيجية العزلة وتجنب الأحلاف عرفت باسم "مبدأ مونرو"، لكنها خرجت من عزلتها عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى وقبلت بعد نهايتها بأن تكون عضواً في عصبة الأمم، لكن هناك من يؤرخ لخروجها من عزلتها بخوضها للحرب العالمية الثانية، ودخولها الأمم المتحدة، وإتباعها لسياسة الأحلاف، والتكتلات في مواجهة الاتحاد السوفييتي (أبو عامود، 1997م، ص 127-128).

ومع نهاية الحرب الباردة، وزوال الخطر الشيوعي في أوروبا الشرقية، وتفكك الاتحاد السوفييتي، برز عدد من التحليلات السياسية التي تتحدث عن طبيعة الاستراتيجية الجديدة

للولايات المتحدة الأمريكية، حيث أشار البعض إلى أنها تميل إلى عسكرة العلاقات الدولية وهو ما اتضح بحشدها لأعضاء مجلس الأمن خلف سياساتها في حربها على الإرهاب عام 2002م واحتلالها للعراق عام 2003م، في الوقت الذي روج فيه البعض لسيادة قيم الليبرالية الغربية بعد انحسار القيم الشيوعية، وبموازاة ذلك روج البعض لاحتمالية صدام الحضارة الغربية مع الحضارتين الإسلامية والكونفوشوسية، لكن هذه العسكرة وهذه الصدامية لم يتم مقابلتها إلا بنمو اقتصادي كبير للصين الشيوعية، وجعلها صاحبة أعلى معدل نمو اقتصادي عالمي.

الأمر الذي أثار كثيراً من التساؤلات لدى منظري العلاقات الدولية من الواقعيين، والليبراليين الجدد، عن إمكانية أن تكون الاتجاهات الاقتصادية الجديدة للصين عاملاً هاماً في تحقيق التوازن الدولي بعد غياب الاتحاد السوفيتي (السرحان، 2010، ص43-45)، لكن يمكن أن نرى عكس ذلك، حيث يجب ألا يكون هناك إفراط في التفاؤل، نظراً لاستمرار انقسام الصين إلى شطرين، وتهديدها المستمرة لإعادة ضم تايوان بالقوة المسلحة، وهو ما يره البعض أمراً محدداً لأي عملية إعادة ترتيب إقليمي محتمل في آسيا (طلعت، 2010م، ص88-89)، الأمر الذي يستوجب على الولايات المتحدة أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار عند وضعها لاستراتيجيتها في شرق آسيا.

إن المتتبع للاستراتيجية الأمريكية تجاه شرق آسيا في شقيها الرئيسيين الأمني، والدبلوماسي يجد حدوث تحول كبير في نمط تعاطي الولايات المتحدة مع الأحداث الكبرى في الإقليم، فبينما كانت استراتيجيتها تقوم خلال فترة الحرب الباردة على مواجهة التوجهات الأيديولوجية للسياسة السوفيتية والصينية في شرق آسيا ومحاول احتوائها، اتجهت ما بعد الحرب الباردة إلى التعاطي مع الموضوعات الجديدة في البيئة الإقليمية لدول إقليم شرق آسيا كافة بشماله وجنوبه، لاسيما بعد تنامي ظاهرة الإرهاب الدولي في جنوب شرق آسيا واستمرار نوازع الانفصال لدى الأقليات في غرب الصين، وتنامي الصراع العرقي في منطقة الهند الصينية، واستمرار كوريا الشمالية ببناء برنامجها النووي، هذا بالإضافة إلى تنامي التسلح الصيني مع تنامي ناتجها المحلي الإجمالي، وتطور علاقاتها الاقتصادية مع تايوان.

إن تنامي القوة الصينية اقتصادياً، وعسكرياً سيكون بمثابة عملية إحلال لملء الفراغ حال انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية عسكرياً من المنطقة، في ضوء التوجهات الصينية القائمة على استراتيجية تتفق مع مصالح القوى الأخرى في الإقليم، بحيث تستند تلك الاستراتيجية إلى تحقيق قدر من الاستقرار الاقتصادي، وتدعيم الأمن الجماعي الإقليميين، حيث يدل اجتماع الآسيان+3 الذي ضم كل من اليابان وكوريا الجنوبية، بالإضافة للصين عام 2007م، وتبينة لإعلان "سيبو" لأمن الطاقة في إقليم شرق آسيا، على تعزيز فكرة الأمن الجماعي وحرص الصين

على بناء قاعدة من الاعتماد المتبادل ومنع سباق التسلح النووي في المنطقة، وهذا ما يجب ان تأخذه الاستراتيجية الأمريكية بعين الاعتبار.

لكن في حقيقة الأمر فإن الولايات المتحدة تعزز دائما من وجودها العسكري الثابت والمتحرك في مختلف أقاليم العالم، حيث تنتشر قواعدها العسكرية في أوروبا الغربية (نحو 16 قاعدة في ألمانيا، و 8 في بريطانيا، و 8 في إيطاليا)، وفي شرق آسيا توجد (9 قواعد في اليابان)، وفي جنوب آسيا توجد (7 في أفغانستان) وفي غرب آسيا توجد (14 قاعدة في الخليج العربي)، مما يدل بأنها لا زالت تتجه للسعي للحفاظ على مكانتها الاستراتيجية وتواجدها العسكري الدائم في العالم، وفي ناحية أخرى تشكل وبشكل دائم بقدرة دول شرق آسيا على ضمان الاستقرار الإقليمي في المنطقة.

III- دور القوى الفاعلة والمؤثرة في صناعة الاستراتيجية الأمريكية

من خلال ما ينظر له منهج صنع القرار بأن السياسة ما هي الا عملية صنع قرارات تتم عمليا داخل مؤسسات، فإنه من الضروري أن يتم توضيح عملية صنع القرار داخل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية التي تساهم في صناعة الاستراتيجية الأمريكية، وتوضيح أدوارها، وبيان عملية التفاعل التي تتم فيما بينها، مع الاعتقاد بأن البيئات التي تعمل بها تلك المؤسسات تدخل ضمن إطار واحد هو بيئة النظام ذاته.

أولا- المؤسسات الرسمية

جاء تطور المؤسسات الرسمية لصنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة عملية تراكمية مر بها النظام السياسي ذاته، وأكثر ما يغلب عليه هو عدم احتكار عملية صنع القرار الاستراتيجي بيد فرد واحد، أو مؤسسة واحدة، وهو ما يشير إلى وجود مؤسسات عدة تعمل على صنع القرار واتخاذ.

1. دور السلطة التشريعية (الكونجرس)

من المعلوم بأن مبدأ فصل السلطات يتضح داخل مؤسسات السلطة الأمريكية، حيث تنتخب الهيئة التشريعية (الكونجرس بمجلسيه النواب والشيوخ) بشكل منفصل عن انتخاب الرئيس الذي يهيمن بشكل قوى على مسائل السياسة الخارجية، لكن الكونجرس المنتخب من قبل الشعب يتولى مسؤولية هامة في تمويل السياسة الخارجية التي يراها الرئيس، وفي تعيينات كبار السفراء، والمسؤولين لشؤون السياسة الخارجية (عبد الشافي، 2003م، ص94-95)، الأمر الذي يصعب على الرئيس الانفراد باتخاذ القرار في الاستراتيجية الأمريكية.

ونظرا لصعوبة تتبع الكونجرس الأمريكي للشؤون الخارجية، فإن الرئيس الأمريكي، ومن خلال وزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات الأمريكية تكون له اليد العليا في رسمها، وغالبا ما يخضع الكونجرس الأمريكي لرغبات الرئيس، لاسيما فيما يتعلق الأمر بمسائل الأمن القومي التي تزوده بها السفارات والعملاء في الخارج.

وفي داخل الكونجرس ذاته تنشط الاتجاهات السياسية والفكرية والاقتصادية المختلفة، مما يفسح المجال لبروز تأثير اللوبيات وجماعات المصالح فيه، ويشار أن اللوبي التايواني يعد أقوى لوبي يؤثر في توجهات الكونجرس الأمريكي في علاقته مع تايوان والصين (Jerome. S, 2008. p34)، ولذلك فإن مشاريع القوانين التي يتداولها الكونجرس تتأثر هي الأخرى بمصالح مراكز القوى المتنافسة المؤيدة والمعارضة لتنامي العلاقة مع الصين أو تايوان، ولعل الشركات المتعددة الجنسية المتمركزة في الولايات المتحدة الأمريكية والمستثمرة في الصين، تمثل مركزا قويا وداعما لسياسة بعض أعضاء الكونجرس للانفتاح على الصين.

2. دور السلطة التنفيذية (الرئيس)

يلعب الرئيس الأمريكي دورا هاما وفاعلا في شؤون السياسة الخارجية الأمريكية، فهو صاحب الصلاحيات الفعلية للحكومة الأمريكية كما نص عليها الدستور الأمريكي²، فهو قائد القوات المسلحة، والمخول بتوقيع الاتفاقيات الدولية، وتعيين السفراء، والمحكمة العليا، وهو المعني بإدارة السياسة الخارجية، وإليه يتم كتابة التقارير الإدارية، والفنية، والمالية، والاستخبارية، وله حق حجبها عن الآخرين إذا اقتضى الأمن القومي لذلك، لذلك فهو الذي يرسم فحوى الاستراتيجية الأمريكية.

وقد ساهم دخول الولايات المتحدة لمعترك الصراع الدولي خلال فترة الحرب الباردة في تقوية صلاحيات الرئيس، كذلك زادت صلاحياته بعد تعرضها للإرهاب في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م (عبد الشافي، 2003، ص96)، كما أن ذلك التعزيز وتلك القوة يستتب أيضا بطبيعة شخصية الرئيس ذاته.

ووفق هذا المنظور فإن الرئيس الأمريكي هو المعبر الفعلي والحقيقي عن توجهات السياسة الأمريكية تجاه تايوان، وتحمل عقائده السياسية، وتصوراته فكرا موجها لسياساته الخارجية، لكنها عمليا هي الاستراتيجية التي تتأثر فعليا وعمليا بمراكز القوى الداخلية في السلطة التشريعية (الكونجرس)، ومجلس الأمن القومي، ووزارة الدفاع (البنتاجون)، وجماعات المصالح، والضغط، وأعضاء إدارته نفسها.

3. دور وزارة الخارجية

إن وزارة الخارجية الأمريكية تقوم بدور محدود على أرض الواقع في صنع الاستراتيجية الأمريكية، لأنها تخضع لإرادة الرئيس عمليا، كما يضعف دورها عند تناول القضايا الأمنية، وهو ما يراه البعض ضعف ناجم عن بروز دور وزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي (العزاوي، 2007، ص12). في حين يمكن القول بأن قوة وزارة الخارجية مرهون بتوجهات الرئيس ذاته، فالرئيس الأمريكي قد يجعل من أمور السياسة الخارجية من أولى أولوياته، في حين قد يجعل من أمور إدارة الاقتصاد ومشاريع التنمية في آخر سلم أولوياته أو العكس، وهو ما يدفع بتقوية وزارة الخارجية أو إضعافها.

وبشكل فعلي يعتبر وزير الخارجية الرجل الثاني في إدارة أمور السياسة الخارجية في حين قد يتوجه نائب الرئيس للشؤون الداخلية، وقد تتصارع وزارة الخارجية مع وزارة الدفاع أو مجلس الأمن القومي في جذب اهتمام الرئيس، كما قد يؤدي اختلاف وزير الخارجية مع الرئيس في الرأي إلى تقديم استقالته، كما حدث مع كولن باول خلال فترة حكم الرئيس بوش الابن، كما قد تؤثر شخصيته في جذب اهتمام الرئيس والتأثير عليه كما حدث خلال ترؤس كسينجر لوزارة الخارجية في عهد الرئيس نيكسون.

ومهما كانت الاتجاهات متباينة حول دور وزارة الخارجية وفعاليتها في صنع الاستراتيجية الأمريكية، إلا أنها تمارس دوراً هاماً ومؤثراً في قنوات الرئيس والكونجرس الأمريكي، وفي موضوع تايوان مثلاً، فهي تمد الإدارة الأمريكية بتقارير هائلة عن نشاط دبلوماسيها، وردود الأفعال الصينية عند تنفيذ توجهات الرئيس تجاه تايوان، كما أنها تمارس دوراً تثقيفياً وتنموياً من خلال تعميمها القيم والثقافة الأمريكية في المجتمع التايواني، الذي غدا معجبا بقيمه الليبرالية، ومن خلال وكالة التنمية الدولية التي تساهم بتنمية المجتمع والاقتصاد.

4. دور مجلس الأمن القومي

يعدّ مجلس الأمن القومي الأمريكي فعليا المؤسسة الرئيسة التي تعنى بالشؤون الاستراتيجية والأمنية للولايات المتحدة الأمريكية، كما يوكل له مهمة وضع سياسات الأمن القومي على الصعيد الداخلي والخارجي، ويتكون أعضائه بشكل دائم من الرئيس الأمريكي، ونائبه، ووزير الخارجية، ووزير الدفاع، ومدير وكالة المخابرات المركزية، ورئيس هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة، وبعض كبار موظفي البيت الأبيض، والبنطاجون، بالإضافة إلى بعض الشخصيات الاستشارية التي تدعى لحضور الاجتماعات وحسب القطاعات المتنوعة في الدولة (CIA, 2012).

وغالبا ما يكون لانعقاد هذا المجلس أهمية كبرى تحاط بالسرية التامة، فهو عمليا يقوم بوضع الاستراتيجية الأمريكية في الشؤون الدولية والإقليمية، كما أن لقراراته تأثير كبير في

توجهات الإدارة الأمريكية في تعاطيها مع الأزمات، والمسائل الدولية التي تؤثر على الأمن القومي الأمريكي ومنها مسألة تايوان.

5. دور المؤسسة العسكرية: وزارة الدفاع (البنتاجون) ووكالة المخابرات المركزية

تقوم وزارة الدفاع الأمريكية بدور هام في عملية صناعة الاستراتيجية الأمريكية، فهي تمثل الذراع العسكري للإدارة الأمريكية عند تنفيذها لسياستها الخارجية، كما أنه اعتبر الجهة المخولة بالدفاع عن أمن الولايات المتحدة، والإشراف المباشر على القواعد العسكرية المنتشرة في العالم، كذلك تتضح أهميتها من حجم الإنفاق العسكري الذي تنفقه الولايات المتحدة في موازنتها، الذي بلغ عام 2011م أكثر من 600 مليار دولار (SIPRI, 2011).

لذلك تلعب وزارة الدفاع الأمريكية دورا هاما في بلورة السياسة الأمريكية وتوضيحها وتنفيذها، سواء كان ذلك بتدخلها العسكري المباشر أو غير المباشر في مناطق النزاع أو مناطق النفوذ التي تهيمن عليها الولايات المتحدة، كذلك يساهم ذراعها المعلوماتي الاستخباري من خلال وكالة المخابرات المركزية في تأكيد تأثيرها في توجهات قادة الولايات المتحدة، والرأي العام فيها.

ولذلك فإن وزارة الدفاع الأمريكية تساهم بشكل مباشر في صناعة الاستراتيجية الأمريكية وتوجيه سياستها الخارجية، فقد كان لها دورا هاما في موافقة الرئيس بوش الابن على بيع أسلحة دفاعية لتايوان عام 2006م (Aftergood, 2007)، وفرض حظر لبيع السلاح للصين عام 1989م.

ثانياً_ المؤسسات غير الرسمية

تعتبر المؤسسات غير الرسمية الأمريكية عاملا مؤثرا في صناعة الاستراتيجية الأمريكية، لكونها تمارس تأثيرا بعيدا عن تعقيدات البيروقراطية الحكومية التي تتطلب التسلسل الهرمي لعملية صنع القرار، واتخاذها بين مجموعة بدائل، ولعل من أبرز تلك المؤسسات ما يأتي:

1. دور الحزبين الرئيسيين (الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي)

يعد الحزب الجمهوري، والحزب الديمقراطي من أبرز الأحزاب الفاعلة في الحياة السياسية الأمريكية، وهما يعملان ضمن بيئة ليبرالية ديمقراطية تعتمد تداول السلطة ضمن إطار برنامج للانتخابات التشريعية، والرئاسية وسيلة لتولى الحكم، هذا ولا تتأثر قوة الحزبين الرئيسيين بمدى الانضباط الداخلي أو النهج العقائدي لكليهما، مما يجعل البعض يرى بأن ذلك ينعكس بشكل كبير في صعوبة تحديد مواقف السياسة الخارجية (Cakmak, 2005, p76).

وبشكل عام فإن الحزبين الأمريكيين لا يتسمان بوجود فوارق برامجية جوهرية بينهما، لا بل تتحدد برامجهما السياسية، وأهدافهما الاستراتيجية وفق أسلوب براغماتي يعتمد على جذب العديد من الأنصار والناخبين والداعمين، من خلال القدرة على التحشيد الإعلامي، ومن خلال إبراز الخلل في سياسات الطرف الآخر الخارجية والداخلية، ويتناوب الحزبان على إدارة السياسة الأمريكية ورسم الأهداف الاستراتيجية، وفق مصالح القواعد الانتخابية، ومراكز القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية، والتي يبرز تأثيرها عند صياغة مشاريع القوانين، دون أن يكون هناك هدف أساسي لحشد أغلبية حزبية في الكونجرس الأمريكي لدعم سياسات الرئيس أو معارضتها، ولذلك تتأثر توجهات الحزبين تجاه تايوان بمصالح قواعدها الحزبية، وبمصالح الأطراف والداعمة لحملتهما الانتخابية، ومنها جماعات المصالح، وجماعات الضغط، والشركات وغيرها.

2. جماعات المصالح وجماعات الضغط

توجد في الولايات المتحدة الأمريكية العديد من جماعات المصالح التي تساهم في التأثير على السياسة الأمريكية الخارجية والتي يطلق عليها البعض اسم لوبي (Jerome. S, 2008. p33)، وتعتمد قوة تأثيرها على قوة درجة انخراطها في الحياة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية الأمريكية، كما تتنوع أساليبها من توفير الدعم المالي لسياسات حكومية معينة، إلى استخدام إمكانياتها الإعلامية الكبيرة، إلى حشد الأنصار والمؤازرين لحزب معين، وتتوافق أساليبها عموماً بخلق مؤيدي لها داخل الكونجرس الأمريكي أو الإدارة الأمريكية أو كسب ودهم.

أما جماعات الضغط فتتبع إستراتيجية التأثير المباشر في قرارات الكونجرس والرئيس وتحويلها باتجاه رغباتها، وبالتالي فهي لا تهتم بالسياسة الخارجية، أو بالشؤون الاستراتيجية، إلا بمقدار تأثر مصالحها بقرار سيادي معين، وبشكل عام هناك مجموعة من جماعات المصالح المؤثرة بشكل كبير في رسم الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان ومنها، اللوبي التايواني، والشركات المتعددة الجنسية، ويدرك الساسة الأمريكيون أهمية تأثير هذه الجماعات في دعم سياساتهما، نظراً لامتلاكها الوسائل المالية، والإعلامية الكبيرة، فمثلاً يعدّ اللوبي التايواني ثاني أكبر لوبي بعد اللوبي الصهيوني، من حيث تبرعهما بالمال للحملات المحلية والفرديّة للانتخابات التشريعية، والرئاسية الأمريكية (غرايبة، 2006).

3. دور الشركات المتعددة الجنسية

وفي هذا السياق يبرز دور كبير للشركات المتعددة الجنسية التي تساهم هي الأخرى في التأثير على السياسة الأمريكية في القضايا الاستراتيجية، نظراً لقدرتها في التأثير على صانع القرار والرأي العام، حيث إن امتلاكها لرأس المال يجعل من القرار الاستراتيجي متأثراً إلى حد كبير

برغبات هذه الشركات ومصالحها، كما تكمن خطورتها في خضوع النخبة السياسية المسيطرة على الأجهزة السياسية والأمنية لتأثيرها، لاسيما عندما تستخدم إمكانياتها المادية في دعم سياسة حكومية ما، أو دعم قرار اقتصادي ما، أو دعم حملة مرشح ما.

وفي مسألة تايوان لعبت الشركات الأمريكية دورا في توجهات الساسة الأمريكيين نحو تدعيم الشراكة الاقتصادية مع تايوان، باعتبارها نقطة رأسمالية مميزة في الشرق الأقصى إلى جوار اليابان. وقد بدأت الشركات الأمريكية استثماراتها في تايوان في مجال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والليكترونيات، حيث أصبحت الشركات الأمريكية احد أكبر الشركات الأجنبية العاملة في صناعة وسائل الاتصال فيها، ومن أبرز هذه الشركات شركة ابل العاملة بشراكة مع شركة فوكسكون لصناعة الأجهزة الخلوية النقالة، وشركة أيسر لصناعة الحواسيب.

IV- المكانة والأهمية الاستراتيجية لتايوان في السياسة الأمريكية

تساهم الإدارة الأمريكية مع الكونجرس الأمريكي ومؤسسات صنع القرار الأخرى في رسم الاستراتيجية الأمريكية، ويتولى الرئيس فعليا إدارة شؤون السياسة الخارجية تجاه الدول المعنية، وقد تبين بان طبيعة العلاقات مع تايوان ارتبطت مباشرة بشخصية صانع القرار السياسي الأمريكي، ودوافعهم السياسية، وفيما يأتي سيتم تناول الأهمية، والمكانة الاستراتيجية لتايوان لدى صانع القرار الأمريكي وكما يلي:

أولاً: الالتزامات السياسية لإدارة الرئيس كلينتون تجاه تايوان

خلال فترة إدارة الرئيس بل كلينتون الأولى سلكت الولايات المتحدة الأمريكية استراتيجية أمنية واضحة في تعاطيها مع المسألة التايوانية، فقد وافقت الإدارة الأمريكية على قيام وزارة الدفاع الأمريكية بتزويد تايوان بقطع غيار ومعدات عسكرية بلغت ملايين الدولارات الأمريكية، وقد برر "جيم ستاينبيرغ" نائب رئيس مجلس الأمن القومي ذلك انطلاقا من الالتزامات الأمريكية بأمن تايوان وفق ما أصدره الكونجرس الأمريكي من قرارات لتنظيم العلاقة معها عام 1987م، واعتبار أمنها مسألة استراتيجية تتعلق بالأمن القومي الأمريكي، ومنع اللجوء لتهديدها بالقوة (Worrth, 1999, p17).

وفي عام 1994م أيدت إدارة الرئيس كلينتون أطروحات مرشحي الرئاسة التايوانية التي تدعو إلى رفض الحوار المباشر مع الصين حول مستقبل الجزيرة تحت تهديد السلاح، وأوفد الرئيس كلينتون مستشاره الخاص "غريغوري كريغ" للقاء الرئيس التايواني "لي تينج" تعبيرا عن دعم الولايات المتحدة له، مما أثار حفيظة الصين بشكل كبير جدا، حيث اتهمت الصين الولايات المتحدة بأنها تنوي دعم فصل تايوان مخالفة بذلك البيان المشترك الموقع عام 1979م، حيث

تزيد الولايات المتحدة بتلك السياسة من قوة الجزيرة عسكريا وتدعم موقف القادة الانفصاليين دبلوماسيا.

ونتيجة لهذه التراكمية الأمنية في التعاطي مع المسألة التايوانية، أعلنت الصين عن نيتها القيام بمناورات عسكرية ضخمة كاستعراض للقوة في مضيق تايوان عام 1995م، ونصحت القوات البحرية الأمريكية بالابتعاد عن المنطقة، وبدأت فعلا المناورات الصينية بالذخيرة الحية، والصواريخ العابرة التي اخترقت أجواء السواحل التايوانية باتجاه البحر الأصفر، وقد مثلت هذه المناورة رسالة قوية للولايات المتحدة بعزم الصين على عدم التهاون بموضوع تايوان، وأنها على استعداد للدخول بمواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة إذا ما حاول قادة الجزيرة إعلان الاستقلال من جانب واحد.

لكن ردة الفعل الأمريكية المستنفرة لقواتها في بحر الصين، أوضح للحكومة الصينية جدية التزامات إدارة الرئيس كلينتون بأمن تايوان، فقد انطلقت حاملة الطائرات الأمريكية "انتربرايز" والتي تعمل بالطاقة النووية من ميناء "نورفولك" باتجاه تايوان، كما تحركت حاملة الطائرات "جورج واشنطن" من اليابان لتدعم تواجد الأسطول السابع في بحر الصين، كإشارة تحذير للصين بعدم القيام بعمل عدائي أو العزم على اجتياح تايوان.

لكن الأمور لم تصل إلى حد التصادم بين الجانبين، إذ غلبت الدبلوماسية البراغماتية على الإستراتيجية الصينية في هذه الأزمة، حيث تراجع الصين كثيرا عندما وجدت بأن الموقف من الممكن أن يتأزم مع الولايات المتحدة الأمريكية، وبدأت بطمأنة الولايات المتحدة وتذكيرها بالتزاماتها تجاه الصين.

وفي الإدارة الثانية للرئيس بل كلينتون اتجهت الدبلوماسية الأمريكية إلى الاستمرار بدعم القيادة التايوانية في مواجهة الحكومة الصينية، وفي الوقت نفسه اتجهت نحو مهادنة الصين عند الحديث عن مستقبل تايوان، لاسيما بعد تحول نهج الرئيس كلينتون لاتباع إستراتيجية القوة الناعمة تجاهها، وذلك بالاستعاضة عن الحديث عن القوة العسكرية، أو التلويح بها باتجاه تحريك ملف حقوق الإنسان بوجه الصين كلما تأزم الموقف معها.

ففي عام 1998م بدأ هناك نوع من الانفتاح الدبلوماسي بين الجانب الأمريكي والصيني حول المسائل المرتبطة بموضوع أمن مضيق تايوان، لاسيما بعد وصول الأمر بينهما إلى حد التأزم عام 1996م، حيث زار وزير الدفاع الأمريكي "وليم كوهين" ووقع اتفاقا مع وزارة الدفاع الصينية لتعزيز الأمن العسكري البحري في بحر الصين، وفي العام نفسه قام الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بزيارة رسمية للصين بدعوة من الرئيس الصيني جيانغ زيمين، واتفق الطرفان على حل مسألة تايوان بالطرق السلمية وعدم مهاجمتها من الصين وضمن سلامتها وتعزيز الحوار السلمي باتجاه

التوحيد ضمن مبدأ دوله واحده بنظامين، مقابل عدم الاعتراف باستقلال تايوان، وانفصالها من جانب واحدة، بالإضافة إلى تعزيز الحوار الاستراتيجي بينهما في المجال الاقتصادي.

وقد بدا واضحا تحسن العلاقات الدبلوماسية بين الجانبين من تجاوز الأزمة التي نتجت عن ضرب طائرات حلف الناتو السفارة الصينية في يوغسلافيا عام 1999م، واجتماع كل الرئيسين الأمريكي والصيني على هامش قمة منظمة التعاون الاقتصادي لمنطقة آسيا والباسيفيك التي عقدت في نيوزيلندا، وكذلك عندما أعلن الرئيس كلينتون رفضه لموقف الرئيس "لي تنج" من مسألة استقلال تايوان، وتأكيده اللاءات الثلاث الراضة لإعلان الاستقلال من جانب واحد، وتعهده بالالتزام بسياسة صين واحده التي اعلن عنها عام 1998م (Fravel, 2008. P57-58)

وفي هذا الاتجاه وافق الكونجرس الأمريكي على مشروع قرار يتضمن تقديم تعويضات للحكومة الصينية وأسر الضحايا عن الخسائر الناجمة عن ضرب مقر السفارة الصينية، وفي العام نفسه اقر المجلس قانون ينص على التزام الولايات المتحدة بإقامة اتصالات سياسية مباشرة مع تايوان (الدهراوي، 2000م، ص43)، وقد بدأ ذلك واضحا للصين بعزم الولايات المتحدة على توفير الدعم السياسي لقادة تايوان وعدم التهاون في موضوع أمنها بالمساواة مع تعزيز العلاقة مع بكين، ولذلك ساهمت الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان في جعلها تنحى منحى براغماتيا باتجاه النمو والازدهار، دون الالتفات للتهديدات الصينية.

ثانيا: التصورات السياسية لإدارة الرئيس بوش الابن

من المؤكد أن الإدارة الأمريكية تلعب الدور الرئيس في توجيه دفة السياسة الأمريكية، لاسيما تلك المتعلقة بالأمن القومي طويلة الأمد، وقد أثبتت المواقف التاريخية بان عسكرة السياسة الخارجية أو سلميتها ارتبطت مباشرة بشخصية صانع القرار الأمريكي ودوافعهم الحزبية، فقد اتسمت فترة هيمنة الحزب الجمهوري برئاسة بوش الابن بعسكرة الدبلوماسية الخارجية، وتجييش الحلفاء خلف القيادة الأمريكية، سواء كان ذلك في الحرب على أفغانستان، والعراق، أو بمواقفها المتزمته تجاه كوريا الشمالية وإيران، أو في اتباع الرئيس بوش نفسه لسياسة "من ليس معنا فهو ضدنا"، وتقسيمه للدول إلى صديقه أو مارقة، في حين اتسمت فترة سيطرة الحزب الديمقراطي خلال فترة رئاسة كلينتون بدبلوماسية القوة الناعمة المتجهة نحو التنمية الاقتصادية والاهتمام بحقوق الإنسان.

واجهت إدارة الرئيس بوش الابن في بداية عهدها بعض المشكلات الأمنية، تمثلت باصطدام طائر استطلاع أمريكية بطائرة حربية صينية فوق الأجواء الصينية، أدت إلى وفاة الطيار الصيني وهبوط الطائرة الأمريكية في الأراضي الصينية عام 2001م، وهو ما مثل إحراجا بالغاً للإدارة

الأمريكية الجديدة، التي عبرت عن اعتذارها وأسفها الشديد للحكومة الصينية عن الحادث على لسان سفيرها في بكين.

وفي العام نفسه واجهت الولايات المتحدة هجوما "إرهابيا" من قبل تنظيم القاعدة داخل الأراضي الأمريكية أدى إلى وفاة أكثر من 3000 شخص، قادها بعد ذلك للإعلان عن عزمها لمحاربة الإرهاب في العالم، وتدمير القوى الداعمة له.

وفي العام 2002م قامت الولايات المتحدة بغزو أفغانستان واحتلالها، كما قامت عام 2003م بغزو العراق واحتلالها، وقد أدى هذا الغزو إلى أشغال الإدارة الأمريكية بتجيش الحلفاء وحشدهم خلف سياساتها في مجلس الأمن، لكن الأزمة التايوانية اشتعلت مرة أخرى إثر نجاح الرئيس اليميني "تشين شوي" الذي أعلن يوم تنصيبه عن أن تايوان بحاله سيادة دائمة، لكن الإدارة الأمريكية كانت واضحة في ردها الرفض لتوجهات الرئاسة التايوانية، حيث أوفد الرئيس بوش الوزير المفوض "ريتشارد ارميتاج" لطمأننتها إلى الموقف الأمريكي الثابت تجاه المسألة التايوانية، متجاهلا أي تواصل مباشر مع حكومة تايوان.

لقد أدت هذه الحادثة إلى إرسال إشارة صريحة لقادة تايوان بأن إدارة الرئيس بوش تتجه لتوثيق العلاقة مع بكين على حساب تايبيه، لاسيما في ظل ما ظهر من مواقف صينية عقلانية داعمة لإدارة الرئيس بوش في السياسة الدولية عموما، والشرق أسيوية خصوصا، الذي اتضح في دعمها لأمريكا للحرب على الإرهاب، أو في عدم الاعتراض على سياساتها في مجلس الأمن، إلى جانب موقفها الداعم للموقف الأمريكي في الملف النووي لكوريا الشمالية، وقد تبلور ذلك عمليا بإحجام الإدارة الأمريكية عن دعوة الرئيس التايواني "تشين تشوي" الفائز بانتخابات الرئاسة عام 2004م لزيارة واشنطن كالعادة، واكتفت بالإشادة بالديمقراطية التايوانية المترسخة والتي أدت لفوز شين بهامش بسيط بلغ 50.2% من مجموع أصوات التايوانيين مقابل 49.8% لمنافسه "لين شان".

وفي الوقت نفسه مثلت نتائج الانتخابات التايوانية رسالة واضحة للإدارة الأمريكية ببدء تراجع شعبية دعاة الانفصال في تايوان بالمقارنة مع انتخابات عام 2000م، وأن هناك قوى اجتماعية، وسياسية، واقتصادية صاعدة تدعو للتقارب مع البر الصيني بشكل سلمي، وفي الوقت نفسه هناك قوى شد عكسي باتجاه إعلان الانفصال، وهذه القوى تتهمها بكين بأنها تجد الدعم من وزارة الدفاع الأمريكية، والكونجرس الأمريكي، حيث ينشط اللوبي التايواني الراض للتقارب الصيني الأمريكي.

وفي عهد إدارة الرئيس بوش الثانية، أعيد استئناف العلاقة العسكرية والتدريبات المشتركة بين الجيشين الأمريكي والصيني، وبرز نوع من التراجع على صعيد العلاقات العسكرية مع تايوان

حيث أوقف تنفيذ توريد السلاح إليها المتفق عليه عام 2001م، كما شهد الملف الكوري الشمالي مزيداً من السخونة عام 2006م، لاسيما بعد إعلان كوريا الشمالية عن إجراء أول تجربة نووية ناجحة، لكن الموقف الصين الحازم تجاه كوريا الشمالية، وتدخلها لنزع فتيل الأزمة مع الولايات المتحدة، ساهم في تهدئة الجانب الأمريكي، وحلفائها الإقليميين، وأظهر قدرتها على ضبط الأزمة.

فقد نجم عن تدخلها التوصل لاتفاق في إطار محادثات سداسية تضم دول شمال شرق آسيا إضافة الولايات المتحدة، ويقضي الاتفاق بمنح الدولة الشيوعية مساعدات في مجال الطاقة ومكاسب أمنية ودبلوماسية مقابل تخليها عن برنامجها النووي (الجزيرة نت، 2012)، وبذلك كان للحكومة الصينية موقفاً إيجابياً داعماً لوجهة النظر الأمريكية الداعية للحفاظ على الأمن الإقليمي شمال شرق آسيا، لاسيما وأن للإقليم تاريخ عريق بانعدام الأمن وعدم الاستقرار، وينظر البعض إلى أن الصين تعتمد لاستخدام ورقة كوريا الشمالية كوسيلة ضغط على الولايات المتحدة الأمريكية مقابل موضوع تايوان أحياناً (Ikenberry, 2008, p32-34).

وفي نهاية العام 2006م قام الرئيس الصيني "هو جين تاو" بأول زيارة له إلى الولايات المتحدة الأمريكية أكد فيها على التزام بلاده بحل مسألة تايوان بالطرق السلمية، وفي العام 2007م قام الرئيس بوش برحلة طويلة إلى الصين، أعلن فيها عن رفعه لاسم كوريا الشمالية من لائحة الدول التي ترعى الإرهاب، وبالمقابل أغلقت كوريا الشمالية مفاعلاتها النووية، وأعلنت عن تعطيل العمل بها، وقد أدى هذا التقارب الدبلوماسي بين البلدين إلى تقريب وجهات النظر حول المسألة التايوانية التي باتت أقرب إلى التسوية.

وفي زاوية أخرى تبين للقادة التايوانيين بان موضوع الاستفتاء الذي طرح للنقاش عام 2007م على الشعب التايواني لبيان رأيه حول مسألة الاستقلال، وإعلان الانفصال، لن يلاقي الدعم الأمريكي المطلوب، فقد ساند الموقف الأمريكي الحازم الموقف الصيني الراض للخطوات التايوانية، إذ عارض "توماس كريستينسين" نائب مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون شرق آسيا باسم الحكومة الأمريكية الخطة التايوانية نحو الاستفتاء، أو سعي تايوان الحصول على عضوية الأمم المتحدة (وكالة شينخوا، 2012).

ونتيجة لهذه الاستراتيجية الأمريكية التي اتبعتها إدارة الرئيس بوش الابن تجاه التعامل مع الأزمة التايوانية بالدرجة التي توافق السياسة الصينية تجاهها، تنامت علاقات التقارب الأمريكي الصيني على حساب العلاقة مع تايوان، وولد ذلك مزيداً من الضغوط على قادة تايوان المحافظين، الأمر الذي أدى إلى خسارتهم الانتخابات الرئاسية عام 2008م، حيث فازت المعارضة بانتخابات الرئاسة وفشل الحزب الحاكم بالمحافظة على ذلك المنصب الذي احتفظ به منذ تأسيس الدولة،

حيث فاز مرشح المعارضة "ما ينغ جيو" برئاسة تايوان، وهو من اليساريين المؤيدين للتقارب مع حكومة بكين، وتسوية الخلافات معها.

لكن الخلافات حول إدارة الأزمة مع الإدارة الأمريكية لم تؤدي إلى التخلي عن دعم تايوان أمنيا، حيث رضخ الرئيس بوش لضغوطات الكونجرس وصادق في أواخر عهده على صفقة بيع سلاح لتايوان بقيمة 6.5 مليار دولار أمريكي (صحيفة الشعب الصينية، 2012).

ثالثا: إدارة الرئيس اوباما 2008-2012م

في بداية عهده زار الرئيس الأمريكي باراك اوباما الصين عام 2009م، وأعلن بأن الولايات المتحدة لن تعترف الا بصين واحدة، وإنها ترفض إعلان استقلال تايوان أو القيام بأية محاولات لإعلان الاستفتاء على مستقبل الجزيرة، وقد مثل هذا التعهد تأكيد واضح من الإدارات الأمريكية المتتابة لرفضها للقبول بتايوان دولة مستقلة عن البر الصيني، أو القبول بأي تغيير للإستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان.

لكن خلال إدارة الرئيس اوباما الأولى برزت هناك اتجاهين للتعامل مع المسألة التايوانية، يرى كل منهما ضرورة إعادة النظر بالعلاقة مع تايوان سياسيا واقتصاديا، ولكنهما يختلفان في تحديد الأسلوب والهدف، فهناك اتجاه يمثله بعض الزعماء في الحزب الجمهوري داخل الكونجرس الأمريكي، ووزارة الدفاع الأمريكية الذي يتبنى توجه تعزيز العلاقة الأمنية مع تايوان والاحتفاظ بعلاقة عسكرية معها، نظرا لما يمثله موقعها الاستراتيجي من صمام أمان للقوات العسكرية الأمريكية في المنطقة، سواء في بحر الصين الشمالي والجزر اليابانية والكورية الجنوبية، أو في بحر الصين الجنوبي في الفلبين او مضيق ملقا.

ففي إطار المساومات المتبادلة بين البيت الأبيض والكونجرس اتضح بأن السيناتور "جون كورنيان" وهو أحد الزعماء الجمهوريين داخل الكونجرس كان يرفض تعيين أحد كبار المسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية احتجاجا على توقيف إدارة الرئيس اوباما تنفيذ صفقة بيع طائرات اف 16 المقاتلة إلى تايوان، في ضوء تنامي القدرات الجوية والصاروخية الصينية مقابل ضعف القدرات القتالية الجوية لتايوان، وفي حقيقة الأمر تأتي ضغوطات الجمهوريين داخل الكونجرس الأمريكي استجابة لضغوطات اليمين الأمريكي واللوبي التايواني الداعي للمحافظة على العلاقة الاستراتيجية الأمنية مع تايوان، والحفاظ عليها دولة مستقلة، واستجابة لضغوطات شركات السلاح الأمريكية الموردة لتايوان والداعمة للحملات الانتخابية للجمهوريين.

ولعل تلك الضغوطات قد دفعت بإدارة الرئيس اوباما إلى الموافقة على بيع الأسلحة إلى تايوان عام 2010م، التي أدت لقطع العلاقات العسكرية بين الجيش الأمريكي، والجيش الصيني

والمستمر منذ عام 2004م، وتراجع مستوى العلاقة المباشرة مع القادة الصينيين، لا بل وفقدت العلاقة الدبلوماسية بين البلدين بعد اتضاح توجهات الرئيس اوباما منذ توليه الرئاسة بتعزيز الثقل العسكري الأمريكي في شرق آسيا، ووسطها، وهو ما ترفضه الصين.

وترى الصين في الاستراتيجية الأمريكية لإعادة الانتشار العسكري في آسيا خلال فترة إدارة الرئيس "اوباما" بأنها قد تلحق الضرر بالعلاقة الأمريكية الصينية، وهي العلاقة التي أدت الى نمو واستثمار وازدهار اقتصادي للجانبين، ولا ترى إلى فيها إلا إعادة إنتاج لسياسة التطويق التي اتبعها سلفه خلال سنوات الحرب الباردة (صحيفة الشعب الصينية، 2008م).

وبمقابل ذلك فإن هناك اتجاه يدعو إلى إعادة بناء العلاقة مع تايوان وفق أسس إستراتيجية جديدة، حيث يبدو واضحا بأن هناك تنامي كبير في حجم التقارب الاقتصادي والسياسي بين تايوان والصين مؤخرا، وأن هذا التقارب سيكون على حساب العلاقة مع الولايات المتحدة، وهي العلاقة التي مكنت تايوان من الحصول على الدولة الأكثر رعاية، مما جعل نموها يعتمد بدرجة كبيرة على الاقتصاد الأمريكي الذي أصيب بعجز لصالحها سنوات طويلة، لذلك فإن إطار العلاقة التقليدي يجب إعادة النظر فيه من جديد؛ لأنه بدأ مضرا بالاقتصاد الأمريكي.

ومن ناحية أخرى، فقد تناما حجم الاعتماد المتبادل بين الاقتصاد الأمريكي والاقتصاد الصيني بشكل فاق كثيرا حجم التبادل مع تايوان، كما بدت الشركات الأمريكية من أكثر الشركات الأجنبية استثمارا ووجودا في الصين، ان ارتفع عدد الشركات الأمريكية العاملة في الصين من 198 شركة عام 2002م إلى 300 شركة عام 2010م (Chinese Academy of International Trade and Economics, 2010)، لذلك فإن تايوان قد بدت اقل أهمية اقتصاديا بالنسبة للولايات المتحدة بالمقارنة مع اهتمامها بالصين، كذلك تدلل المؤشرات الاقتصادية للعلاقة الاقتصادية الصينية-التايوانية بأن الاقتصاد الصيني المتنامي سيبتلع الاقتصاد التايواني لا محالة.

أما سياسيا فقد مثل نجاح المعارضة الاشتراكية المؤيدة للصين في انتخابات الرئاسة عام 2008م، مؤشرا كبيرا على تنامي التقارب السياسي مع الجانب الصيني، وتراجع مع الجانب الأمريكي، والذي اتضح مباشرة بكسر حالة الجمود الدبلوماسية، وزيادة التبادل في الزيارات الرسمية وغير الرسمية مع الجانب الصيني، وفتح الحكومة التايوانية أول مكتب رسمي لها في بكين، هذا بالإضافة إلى طلبها إلغاء صفقة شراء غواصات متطورة من الولايات المتحدة، وقيام دائرة الادعاء العام باعتقال رئيس الدولة السابق والمناوئ للصين السيد "تشين شوي" بتهمة الفساد والرشوة، وهو ما قد يجعل الأمر يبدو كرسالة طمأنينة للحكومة الشيوعية في بكين، بان تايوان الجديدة هي اقرب ما تكون للصين، لذلك فإن العلاقة الاستراتيجية الأمريكية-التايوانية في ظل حكومة السيد "ما ينغ جيو" ذات التوجهات الاشتراكية كان محدود الفعالية.

V- أبعاد الاستراتيجية الأمريكية تجاه تايوان

أدى انهيار الاتحاد السوفيتي إلى إعلان نهاية الحرب الباردة، وبدأ النظام الدولي العمل بطريقة تخلو من الاستقطاب الدولي، بشكل أفضى إلى ضرورة إعادة النظر ببعض الاستراتيجيات الخارجية للدول المتصارعة، ولعل البعد الاقتصادي كان من أهمها، لاسيما وان الاقتصاد كان عاملا رئيسيا في تلك النهاية.

برز بعد نهاية الحرب الباردة حالة من التعاون الدولي والاعتماد المتبادل بين القوى الرئيسية الفاعلة في النظام الدولي، في ظل تنامي تأثير المنظمات والمؤسسات الدولية، فقد دلت المؤشرات الاقتصادية إلى تنامي العلاقات الأمريكية الصينية في كافة المجالات بشكل كثيف جدا، الأمر الذي قد يؤدي إلى إعادة النظر من اعتبارها عدوا محتملا إلى شريكا هاما، مما قد يدفع الولايات المتحدة لإعادة النظر في استراتيجيتها تجاه تايوان من جديد، وهذا ما سيجري بحثه تاليا:

أولا: البعد السياسي

في ضوء الدعم السياسي الذي قدمته الولايات المتحدة الأمريكية لتايوان خلال فترة الحرب الباردة، اتبعت الصين سياسة قامت على التهديد المباشر، والمقاطعة الدبلوماسية، وترهيب جزيرة تايوان، أما ما بعد نهاية الحرب الباردة فقد انتهجت الصين سياسة تقوم على احتواء تايوان سياسيا، ومنعها من إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الأخرى، كما أنها بدأت باستقبال قادة المعارضة التايوانية، وقبلت الدخول بمفاوضات مباشرة معهم حول مستقبل الجزيرة.

وعلى صعيد آخر ترى الصين بأن الأمريكيين غير معنيين بالاستجابة لرغبات التايوانيين بإعلان الاستقلال، أو الاعتراف بهم كدولة مستقلة، بقدر ما يجدونها وسيلة ضغط نافعة يستخدمونها ضدهم كلما شاءوا، حيث ان الولايات المتحدة لا ترغب بحل المسألة نهائيا، في حين أن الأمريكيين يبررون مواقفهم بالالتزامات المبدئية لحماية ديمقراطية تايوان، وعدم ضمها من قبل الصين بالقوة المسلحة، ويعلنون دائما بأنهم يدعمون الحل السلمي لإعادة التوحيد على غرار مكاو وهونغ كونغ، وفق الرؤية الصينية دولة واحدة ولكن بنظمين.

ووفق هذه التباينات تعارض الولايات المتحدة استخدام القوة المسلحة تجاه تايوان وتدفع بتعزيز التفاوض والحوار مع الصين، مع معرفتهم بان الصين تسعى لابتلاع تايوان اقتصاديا وتوحيدها دبلوماسيا، ولذلك يمكن ملاحظة أن الأمريكيين يدركون بأن حل مسألة تايوان لن يطول إلى ما لانهاية، لكنها توفر حاليا وعلى المدى المنظور وسيلة للتفاوض وتحقيق أكبر قدر من المكاسب في التعامل مع الصين، وفي زاوية أخرى فإن حالة العداء الصيني التايواني الحالية

وخشية الولايات المتحدة من اشتعال وتيرة الحرب بينهما، توفر الداعي لتبرير التواجد العسكري الأمريكي في المنطقة.

وهذا ما تجد فيه الولايات المتحدة مبررا قويا لتواجدها العسكري في ظل ادعائها بتصاعد التسلح الصيني المترافق مع نموها الاقتصادي، واحتمالية عجزها لأن تكون قوة إقليمية سلمية تحافظ على الاستقرار الإقليمي (Ikenberry, 2008, p23-24)، لاسيما في ظل تنامي حالة العداء مع اليابان واستمرار البرنامج النووي الكوري الشمالي، وسلوك الصين العدائي في جزر سبراتلي، لكن الصينيين لا يجدون في ادعاءات الولايات المتحدة الأمريكية مبررا مقنعا، لأن حل مسألة تايوان وإغلاق الملف النووي لكوريا الشمالية سيكون في غير صالحها، حيث سيحرمها ذلك من النفوذ الاستراتيجي، والتواجد الدائم في إقليم شرق آسيا.

لذلك يُعتقد بان الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد حل مسألة تايوان وإنما إدارتها فقط، ويمكن الإشارة في ذلك إلى السياسات الأمريكية المتضاربة، فالكونجرس الأمريكي يدعم قادة الانفصال التايوانيين الداعين لإعلان استقلال تايوان ودعمها عسكريا، فقد تبني الكونجرس الأمريكي قرارا ينص على منح الصفة الدبلوماسية لمكاتب الحكومة التايوانية على أراضي الولايات المتحدة الأمريكية، والإعلان عن الالتزام بتزويدها بالأسلحة الدفاعية عام 1998م (Montaperto Roland and Ming Zhang. 1999, p8-9). وفي عام 2000م وافق الكونجرس أيضا على مشروع قرار يتضمن تأكيد التزام الولايات المتحدة بأمن تايوان من خلال إقامة اتصالات دبلوماسية وعسكرية مباشرة معها (الدهراوي، 2000م، ص 43-44)، وفي الوقت نفسه يعلن قادة البيت الأبيض التزامهم بسياسة الصين الواحدة التي جرى الاتفاق عليها منذ العام 1979م.

وفي حقيقة الأمر فإن هذه الاستراتيجية الأمريكية قد ساهمت بدفع تايوان لأن تبرز على الصعيد الدولي كدولة فاعلة ومستقلة خارج إطار الأمم المتحدة، وهو ما عزز من إقامتها للعديد من العلاقات التجارية مع معظم دول العالم، الأمر الذي انعكس في تعزيز ازدهارها الاقتصادي، وفي انتهاجها لسياسة براغماتية مستقلة تجاه الولايات المتحدة ذاتها وتجاه الصين أيضا، وهذا ما يتضح بإعلان الحكومة التايوانية لما يعرف بدليل الاتحاد عام 2001م، وقانون العلاقات عبر جانبي المضيق عام 2011م، الذي يرفض الطرح الصيني دولة واحدة بنظامين ويؤكد استمرار تايوان بإقامة علاقات اتصالية مع البر الصيني وفق أسس شعب لشعب، وحكومة لحكومة (شبكة تايوان، 2011م).

ويعتقد بأن الالتزامات الأمريكية بأمن تايوان والمحافظة على ازدهارها، رسخت بشكل فاعل أهمية تعزيز العلاقات السياسية مع الأمريكيين على حساب الصينيين، حيث ساهم اللوبي التايواني في الولايات المتحدة بتعطيل التقارب الأمريكي الصيني، وتعزيز التقارب الأمريكي التايواني وقتا

طويلا، فضلا عن ترسيخ استمرار سياسة الدولة الأكثر رعاية التي منحهم إياها الكونجرس، وهو ما عزز المزيد من المخاوف الصينية.

لكن الولايات المتحدة لا تجد مبررا للمخاوف الصينية، حيث تجد بأن التزامها السياسي بأمن تايوان هو جزء من التزاماتها المبدئية في تنمية الديمقراطية، والأمن الإقليمي، بعيدا عن أية تهديدات عسكرية صينية (قراءات إستراتيجية، 2009)، لاسيما في ظل السياسة التايوانية البراغمية الواضحة باتجاه تعزيز العلاقات الاقتصادية مع الصين على حساب الولايات المتحدة.

ثانيا: البعد العسكري والأمني

بعد أحداث مضيق تايوان عام 1995م وجدت الولايات المتحدة نفسها بأنها على استعداد للدخول في مواجهة عسكرية محتملة مع الصين إذا استلزم الأمر لحماية أمن تايوان، وهو الأمر نفسه الذي أوحى بإطالة أمد المسألة التايوانية، وجعلها مستعصية على الحل حتى الآن، وقد أعادت هذه الحادثة إلى الأذهان مرة أخرى حرب كوريا وحرب فيتنام، على الرغم من سياسة الانفراج التي قادها الرئيس الأمريكي آنذاك نيكسون ووزيرة خارجيته هنري كسينجر لتحسين العلاقة، وتلطيفها مع الصين، ولم تتحسن أجواء الحوار بينهما بشكل ملموس إلا بعد عام 1979م، عندما وقع الطرفان وثيقة الالتزام بحسن النوايا، حيث أطمأنت الصين لاعتراف الولايات المتحدة بشرعية سيادتها على الجزيرة، كذلك أطمأنت الولايات المتحدة الأمريكية بأن الصين لن تقوم بغزو الجزيرة.

ومنذ تسعينيات القرن العشرين ودخول الصين ضمن إطار النظام الرأسمالي العالمي الذي أمّن لها تفوقا ونموا اقتصاديا ملحوظا، تقاربت الصين مع الولايات المتحدة إلى الدرجة التي مكنتها من الحصول على تعهد أمريكي بتخفيض مبيعات السلاح إلى تايوان، واعتبرت ذلك بمثابة إعلان مبادئ للسلام، وبالفعل جرى عملية تخفيض مبيعات السلاح الأمريكي لتايوان من 2.2 مليار دولار خلال الفترة بين عامي 1994 - 1996م إلى أقل من 1.2 مليار دولار عامي 2004-2006م (Carolyn, 2006, p64-66).

وعلى الرغم من حالة التوتر التي خلفتها المناورات العسكرية الصينية عبر مضيق تايوان، إلا أن الولايات المتحدة حافظت على المعدل المطلوب في مبيعاتها تلك، لكن الاتهامات الصينية استمرت للولايات المتحدة الأمريكية مدعية بأنها تقدم لتايوان تقنيات رادارات متطورة، وطائرات هيلوكبتر قتالية، هذا فضلا عن توجهات الكونجرس الأمريكي الداعمة دوما للقادة التايوانيين، لاسيما في انتخابات عام 2000م وعام 2004م.

وفي الجانب الآخر لا ترى الولايات المتحدة أن سياساتها الداعمة للحكومة التايوانية ومبيعات السلاح تلك، إلا شيئا رمزيا لا يقارن بمستويات التسلح الصينية، حيث تشير التقارير الأمريكية إلى أن النفقات العسكرية الصينية في تزايد مستمر، فقد أشار تقرير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إلى أن حجم النفقات العسكرية الصينية يقارب ما نسبته 4.3% من الناتج المحلي الإجمالي سنويا (CIA, 2011)³، كذلك أشارت التقارير الدولية إلى أن الصين تسلح نفسها بشكل مستمر، وهي تأتي في المرتبة الثالثة عالميا، وهو ما أكدته معهد استكهولم لأبحاث السلام عام 2011م (SIPRI, 2011).

ونظرا لشعورها بالقلق الشديد تجاه تنامي التسلح الصيني، اتجهت تايوان نحو شراء السلاح من روسيا وفرنسا بعيدا عن التقييد الأمريكي لوارداتها من السلاح الأمريكي، كما اتجهت نحو زيادة إنفاقها العسكري من الناتج المحلي الإجمالي من 2% عام 2000م إلى 3% عام 2010م (CIA, 2011)، كذلك ارتفعت وارداتها من السلاح الروسي من 240 مليون دولار عام 1992 إلى أكثر من 900 مليون عام 2008م (شبكة الصين، 2010م)، وهو الأمر الذي أشبه ما يكون بأجواء سباق للتسلح مع الصين.

ووفق هذه المعطيات تتبلور لدينا الاستراتيجيات الأمنية المتوازية في المنطقة سواء للولايات المتحدة أو الصين أو تايوان، فالولايات المتحدة الأمريكية توجد لديها قواعد عسكرية كبيرة في اليابان وكوريا الجنوبية والبحر الأصفر تقدر تقريبا بـ 120 ألف جندي، كما أنها ترتبط مع اليابان، وكوريا الجنوبية، باتفاقية دفاع مشترك، كما تمثل لها تايوان قاعدة إمداد وخدمات لوجستية عبر مضيق تايوان الرابط بين بحر الصين الشمالي المؤدي إلى شمال شرق آسيا، وبحر الصين الجنوبي المؤدي إلى جنوب شرق آسيا، قد تظهر حاجته كما يراها البعض في حال نشوب معارك حربية مع الصين، أو كوريا الشمالية (Worrth, 1999, p17-19)، الأمر الذي يجعل من الصعب أن تفرط الولايات المتحدة بهذا الحليف ذي الموقع الاستراتيجي الهام.

أما تايوان فهي لا ترغب برؤية الصين دولة مهيمنة استراتيجيا على منطقة شرق آسيا، فالصين تمتلك أكبر قوة عسكرية في المنطقة، كما أنها الأكبر مساحة والأعظم سكانا والأقوى اقتصادا، وبنفس الوقت لا ترغب تايوان في الدخول بصدام مباشر معها، وتحرص على أن لا تستفزه عسكريا، وأن تقيم معها بنفس الوقت تعاونا اقتصاديا قد يدفع بانحراف الصين عن تبني أيديولوجيتها الشيوعية، مما يفقد الحزب الشيوعي الحاكم شرعيته، ولذلك ترى في بقاء القوات الأمريكية حاليا حاجة ملحة للحفاظ على أمنها السياسي وازدهارها الاقتصادي.

ومن ناحية أخرى فإن الصين لا تغفل نظرها عن تواجد القوات العسكرية الأمريكية الثابتة والمتحركة في المنطقة، حيث ترسل باستمرار طائرات تجسس لجمع بيانات عن الأساطيل

الأمريكية، كما أنها تنصب صواريخها الحربية على طول الشواطئ المواجه لتايوان، والقواعد الأمريكية في بحر الصين (CNBC, 2011)، وبغض النظر عن حالة الاستنفار والتأهب الصينية تجاه موضوع تايوان، فإن الصين تسعى دائما لإثبات وجودها العسكري في إقليم شرق آسيا، وهي لا ترى في تايوان الا خاصرتها وخط دفاع أولي عن حدودها البحرية الجنوبية، وما يؤيد ذلك دخولها المستمر في سباق على السيادة حول جزر سبراتلي الجنوبية مع فيتنام والفلبين.

ثالثا: البعد الاقتصادي

منذ العام 1993م منح الكونجرس الأمريكي تايوان صفة الدولة الأكثر رعاية، الأمر الذي مكنها من دخول السوق الأمريكي دون أية قيود تذكر، وبالمقابل سهل ذلك على الشركات الأمريكية إقامة مشاريعها واستثماراتها في تايوان، وهو ما ساهم في ازدهارها وجذب المزيد من الاستثمارات الأجنبية إليها، وليس ذلك فحسب بل ربطت الولايات المتحدة الدولار التايواني بالدولار الأمريكي وحافظت على سعر صرف ثابت له مكنها من تعزيز صادراتها إلى العالم.

ولا يجد كثير من الباحثين تايوان إلا حالة مشابهة للحالة اليابانية، فبرغم الفائدة التي تعود على الاقتصاد التايواني، فقد كانت تايوان تلعب دورا هاما في استيعاب الصناعات الأمريكية غير الرائجة، أو الأكثر تكلفه في الولايات المتحدة (Donnelly, 2010. p17-18).

وبرغم هذا وذاك فقد غدا الاقتصاد التايواني احد ابرز الاقتصاديات النامية في العالم، لا بل ساهم ارتباطها بالأسواق الغربية لأن تمثل احد نمور قارة آسيا الاقتصادية، وأصبحت البضائع التايوانية من البضائع الأكثر تفضيلا في الأسواق العالمية بالمقارنة مع البضائع الصينية رخيصة الثمن والأقل جودة.

ومن الجدول رقم (1) نجد أن حجم التجارة البينية بين الولايات المتحدة وتايوان قد ارتفع من 41 مليار دولار عام 1993م إلى 67 مليار دولار عام 2011م، حيث توجه الفائض التجاري لصالح تايوان خلال تلك الفترة، وتدلل المؤشرات الاقتصادية إلى أن الولايات المتحدة شريك تجاري هام لتايوان، كما أنها لا تمنع أو تبدي امتعاض من العجز التجاري المتنامي مع تايوان، الذي ارتفع من 8.9 مليار دولار عام 1993م إلى 15 مليار دولار عام 2011م، وهو ما أعطى المجال لربط نمو الاقتصاد التايواني بالاقتصاد الأمريكي.

وارتفع حجم تبادلها التجاري مع الولايات المتحدة من 40 مليار دولار عام 1993م إلى أكثر من 500 مليار دولار عام 2011م، كما أن العجز التجاري الأمريكي ارتفع معها من 22 مليار دولار عام 1993م إلى 295 مليار دولار عام 2011م، وكما يوضح الجدول رقم (2)، كما تعدّ الصين برأي الخبراء من أكثر المناطق جذبا للاستثمارات الأمريكية في شرق آسيا والأكثر تفضيلا (Nathan and other, 1997, p220).

وعلى كلا الاتجاهين فإن الاقتصاد الصيني والتايواني يعتبران من أكثر الاقتصاديات المرتبطة بالاقتصاد الأمريكي، وبشكل جعل من الاقتصاد الأمريكي يصاب بحالة عجز مستمرة معهما، ولكنه عجزا يشير الى عمق اعتماد الاقتصاد الصيني والتايواني في نموها على الاقتصاد الأمريكي، مما قد يشكل رابطا قويا لضبط السلوك السياسي لجميع الأطراف حفاظا على مقدرات النمو والازدهار تلك، حيث يشكل التبادل التجاري بين الولايات المتحدة مع الصين ما نسبته 37% من الناتج المحلي الإجمالي للصين، كما يشكل 13% من الناتج المحلي الإجمالي لتايوان.

كذلك تشير التقارير الاقتصادية لوزارة الخزانة الأمريكية بأن الصين باتت الشريك المالي الأول للولايات المتحدة، فالصين تساهم بشكل كبير في شراء اذونات الخزينة الأمريكية، وهي بذلك توفر السيولة النقدية للاقتصاد الأمريكي، الامر الذي فاقم حجم الدين الأمريكي لصالح الصين والذي بلغ عام 2010م ما يقارب 400 مليار دولار، وهي نسبة تمثل 20% من الدين العام (2010, [Census]). كذلك يشار إلى أن اغلب الشركات المتعددة الجنسية العاملة في الصين هي شركات أمريكية، والتي ينظر لها الحزب الشيوعي الصيني بأنها مصدر مهم لتوفير الأموال اللازمة للنهضة الصينية في جانب، ولإعادة تأهيل شرعيته من خلال قيامه بالمشاريع الاستثمارية الضخمة. الأمر الذي يؤكد في ناحية ثانية صدق جانب في فرضية الدراسة الذي يشير الى تنامي العلاقات الاقتصادية الأمريكية الصينية على حساب تايوان.

جدول رقم (1): التبادل التجاري بين الولايات المتحدة الأمريكية وتايوان، حيث القيم بالمليار دولار أمريكي

السنات	حجم التجارة البينية	الصادرات الأمريكية الى تايوان	الواردات الأمريكية من تايوان	الميزان التجاري الأمريكي مع تايوان
1993	41.268	16.167	25.101	8.933 -
1995	48.260	19.289	28.971	9.682 -
1997	52.993	20.365	32.628	12.262 -
1999	54.335	19.131	35.204	16.073 -
2001	51.495	18.121	33.374	15.252 -
2003	49.046	17.447	31.599	14.151 -
2005	56.439	21.614	34.825	13.211 -
2007	64.105	25.828	38.277	12.448 -
2009	46.847	18.485	28.362	9.876 -
2011	67.225	25.898	41.327	15.429 -

المصدر: US Census Bureau, Foreign Trade US and Taiwan

[النسخة الإلكترونية]. <http://www.census.gov/foreign-trade/balance/c5830.html>

جدول رقم (2): التبادل التجاري بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين حيث، القيم بالمليار دولار أمريكي

السنوات	حجم التجارة البينية	الصادرات الأمريكية إلى الصين	الواردات الأمريكية من الصين	الميزان التجاري الأمريكي مع الصين
1993	40.301	8.762	31.539	22.777 -
1995	57.296	11.753	45.543	33.789 -
1997	75.419	12.862	62.557	49.695 -
1999	94.899	13.111	81.788	68.677 -
2001	121.460	19.182	102.278	83.096 -
2003	180.803	28.367	152.436	124.068 -
2005	284.662	41.192	243.470	202.278 -
2007	384.378	62.936	321.442	258.506 -
2009	365.869	69.496	296.373	226.877 -
2011	503.213	103.878	399.335	295.456 -

المصدر: US Census Bureau, Foreign Trade US and Taiwan

[النسخة الإلكترونية]، <http://www.census.gov/foreign-trade/balance/c5830.html>

VI- جدلية العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وتايوان

تعدّ الولايات المتحدة مسألة تايوان من المسائل الاستراتيجية الأكثر تعقيدا في سياستها الخارجية في منطقة شرق آسيا، وهي مسألة لا تقل أهمية عن مسألة مستقبل قواعدها العسكرية في اليابان وكوريا الجنوبية، في الوقت الذي تجد فيه الصين بأن التأييد الأمريكي لتايوان هو قلب المشكلة، وهو ما يجعل البعض يعتقد بأن تايوان تمثل وسيلة الضغط المهمة التي تستخدمها الولايات المتحدة مع الصين كلما تطلبت الاستراتيجية الأمريكية ذلك (شديفات، 2004، ص52).

ومع تنامي حالات الاعتماد المتبادل بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين وتايوان، إعادة الولايات المتحدة الأمريكية تكييف استراتيجيتها تجاه تايوان، في ضوء تنامي علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الصين، والتي شهدت تذبذبا دبلوماسيا متباينا باختلاف الإدارة الأمريكية منذ عام 1993 وحتى عام 2012م، ما بين السخونة والفتور.

وفي ظل هذه العلاقات ازدادت مسألة تايوان تعقيدا نحو فتح المجال واسعا لنفي السيناريوهات المحتملة لإعادة ضم تايوان إلى البر الصيني قريبا، على نحو يوحي بعدم وجود حل وبقاء الوضع القائم كما هو حاليا، أي بمعنى لا إمكانية لإعادة التوحيد مع البر الصين وفق

رؤية صينية على المدى القريب، ولا إمكانية لإعلان الانفصال والاستقلال من جانب واحدة وفق رؤية تايوانية على المدى البعيد، لاسيما في ظل الموافقة الأمريكية على سياسة صين واحدة.

لقد استقرت الاستراتيجية الأمريكية والتي أسستها البنى والمؤسسات ذات الفعالية في صناعة القرار الاستراتيجي الأمريكي على قناعة تامة بتعقيد مسألة تايوان، بالرغم من تلاقي مصالحها أحيانا أو تضاربها أحيانا أخرى، لا بل وبصعوبة إقناع التايوانيين بقبول مبدأ دولة واحدة بنظامين وفق الرؤية الصينية، وهو ما يتضح دائما من موقف القادة الأمريكيين في الإدارة الأمريكية، أو الكونجرس بكبح جماح الطموح التايواني للانفصال بتدخلهم دبلوماسيا، وبشكل مباشر، لطمأنة الصينيين على عدم موافقتهم على ذلك بشكل أحادي، كلما أعلن القادة التايوانيين بأن تايوان هي في حالة سيادة دائمة.

أما في الجانب الاقتصادي، فقد جعلت الولايات المتحدة الأمريكية من تايوان الدولة الأكثر رعاية، وفتحت لها الأسواق الأمريكية وشجعت الاستثمارات فيها، مما كان له الأثر الإيجابي في ارتفاع حجم ناتجها المحلي الإجمالي وارتفاع مستويات دخول الأفراد فيها، واستمر ذلك بعد نهاية الحرب الباردة مما ساهم في ازدهارها وتطورها الاقتصادي، لكن زيادة التبادلات الاقتصادية مع الصين فاق كثيرا معدلات التبادلات مع تايوان، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في تغيير توجهات صناع القرار في المؤسسات الأمريكية تجاه تايوان.

وتطمح الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن تكون هناك انعكاسات لهذا التطور على صعيد السياسة الداخلية، أي أن يجرى تبني للقيم السياسية الليبرالية داخل الصين، بحيث يصبح النموذج السياسي في البر الصيني نسخة شبيهة بتايوان، وهو ما قد يمنع احتمالية نشوب نزاع بينهما، استنادا إلى فكرة أن الدول الديمقراطية لا تتحارب فيما بينها كما يشير فوكوياما (فوكوياما، 1993، ص245).

الأمر الذي يدفعنا للقول بأنه ليس من السهولة أن تضحي الولايات المتحدة الأمريكية بالورقة التايوانية سواء كان ذلك سياسيا أم اقتصاديا ما دامت الصيني تتبنى النهج الشيوعي داخل النظام السياسي، أي أن هناك خلافات عميقة في وجهات النظر تتعلق بالالتزامات المبدئية للولايات المتحدة بحماية حلفائها في شرق آسيا وترسيخ الديمقراطية، مع عدم إغفال ما يمثلته الموقع الاستراتيجي لتايوان من أهمية جيو-استراتيجية كبوابة بين شمال شرق آسيا وجنوبها.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى أن الصفة العامة لطبيعة الاستراتيجية الأمريكية تجاه مسألة تايوان بعد نهاية الحرب الباردة، اتجهت نحو توثيق العلاقات السياسية والاقتصادية الأمريكية مع الصين على

حساب تايوان، مع عدم إغفال أهمية البعد الاستراتيجي للعلاقة مع تايوان، في ضوء وجود اعتراف أمريكي بالمصالح الاستراتيجية، والحيوية للدولة الصينية في جزيرة تايوان، الذي اتضح من موافقتها على الخطة الصينية لإعادة توحيد الجزيرة وفق رؤية دولة واحدة بنظامين.

ولذلك فإن المسألة التايوانية في ظل تنامي العلاقات الأمريكية الصينية بعد نهاية الحرب الباردة، قد تغيرت مضامينها كثيرا عما كانت عليه في السابق في استراتيجية مؤسسات صنع القرار الأمريكي من استراتيجية التصلب في الموقف إلى استراتيجية التحفيز الذاتي.

فالولايات المتحدة الأمريكية باتت تدرك أهمية تأكيد الدور الإقليمي والدولي للدولة الصينية، وضرورة احتسابها في المعادلات الاستراتيجية، وفي الوقت نفسه مقتنعون بأن القادة التايوانيين يطمحون دائما للحصول على اعتراف دولي ويتعاملون مع الولايات المتحدة الأمريكية على أساس حليف استراتيجي يقف دوما في مواجهة الصين الشيوعية، وبرغم ذلك فإن الولايات المتحدة تشكل كابحا هاما في تخفيض حدة التوتر بين تايوان والصين بتدخلها الدبلوماسي كلما يستلزم الأمر، وهم يعون بأن تايوان تشكل نموذجا ليبراليا متميزا، وموقعا استراتيجيا هاما في منطقة شرق آسيا، وهو ما يعطي التايوانيين دافع نحو الرغبة بالاستقلال ورفض حكم الصين الشمولي.

كذلك فإن الاستراتيجية الأمريكية تهتم كثير بتوطيد العلاقات السياسية مع الصين، ويتضح ذلك من تنامي دبلوماسية القمة بين الزعماء الأمريكيين والصينيين، كما يسعى القادة الأمريكيين بطمأنة الصين إلى أن الولايات المتحدة لا تعترف إلا بصين واحدة وتدفع لحل مسألة تايوان عن طريق التفاوض المباشر بين الصينيين والتايوانيين، وفق رؤية الصين دولة واحدة ولكن بنظامين، دون أن تمارس ضغوطها عليهم، لإدراكها بأن إعادة توحيد تايوان في الوقت الراهن قد لا يصب في مصلحة الأمن القومي الأمريكي.

وفي الجانب العسكري وبالرغم من سياسة صناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية بالإعلان عن الالتزام بأمن تايوان والدفاع عنها، وقيامها ببيع أسلحة لتايوان في عهدي إدارة الرئيسين جورج بوش الابن، وباراك اوباما، إلا أن أنها لا ترى في ذلك إلا مصلحة حيوية في المحافظة على أمن تايوان وتدعيم ازدهارها الاقتصادي، وإبعاد شبح الحرب عن اقليم شرق آسيا، لاسيما في ظل عدم التيقن من طبيعة السلوك الصيني الذي يظهر عدائيه أحيانا في بحر الصين الجنوبي.

وفي ناحية أخرى فإن هناك خلافات تتفاقم بين الولايات المتحدة والصين مع نمو الاقتصاد الصيني وباستمرار، كذلك فإن تايوان نفسها قد بدأت بتسليح نفسها، وبشكل يوحي إلى استحالة إعادة التوحيد مع البر الصيني قريبا، وفي ظل الظروف الدولية الراهنة، ومن ثم فإن الأمريكيين يدركون بأن موضوع إعادة توحيد تايوان مع الصين سيكون مرهونا بمدى التقدم في العلاقات بينهما.

U.S. Strategy toward Taiwan in the Light of International Changes after the End of the Cold War

Wasfi M. Aqeel, *Department of Political Science, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This study seeks to examine the American Strategy towards Taiwan after the Cold War in the light of the increasing American relations with China as the trend of these relations during the last two decades shows that there has been an improvement in the China America relations despite the disagreement between the two countries over the future of Taiwan.

The study focused on the military, economic, and political components (determinants) of the American strategy toward Taiwan and reached the conclusion that there has been an overall increase in the bilateral relations since 1993 despite their differences on Taiwan. This shows how the United States favored its relations with China over its relations with Taiwan.

قدم البحث للنشر في 2012/9/6 وقبل في 2012/12/24

الهوامش

- 1 لمزيد من المعلومات عن تاريخ تايوان انظر: فاروق لقمان، حكاية تايوان جمهورية الصين الوطنية، تايبيه- تايوان 1997م.
- 2 لمزيد من المعلومات عن صلاحيات الرئيس في الدستور الأمريكي، يمكن الرجوع للمادة 2 الفقرة 2 مهام وواجبات الرئيس الأمريكي: دستور الولايات المتحدة الأمريكية: مكتب الاعلام بوزارة الخارجية: 2005/3/16م النسخة الالكترونية (www.usinfo.gov)
- 3 بلغ الناتج المحلي الاجمالي للصين عام 2011م حسب تقارير صندوق النقد الدولي 6988 مليار دولار تقريبا.

قائمة المراجع

الكتب العربية:

- ربيع، محمد، وآخرون، (1994). موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت، الكويت.
- رسلان، احمد. (1996). نظرية الصراع الدولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- السرхан، حمدان، (2010). الإستراتيجية الأمريكية تجاه تنامي قوة الصين الاقتصادية والعسكرية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، سوريا.
- شديفات، عودة، (2004). مستقبل تايوان في ضوء العلاقات الأمريكية الصينية (1978-2003م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، الاردن.
- طلعت، عبد المنعم، (2010). الترتيبات الآسيوية للقرن الحادي والعشرين، مكتبة الافندي، القاهرة-مصر.
- العبد الله، رضوان. (1994). الأبعاد السياسية للتطور في النظام الدولي، ندوة العرب في الاستراتيجيات العالمية، الجامعة الاردنية، عمان.
- العزاوي، مهند. (2007). المخابرات الأمريكية: نشأتها وتطوراتها واجهزتها واساليبها التجسسية، مركز صقر للدراسات العسكرية، بيروت.
- فهمي، عبد القادر. (2005م). النظام الدولي: دراسة في الأصول النظرية، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- ويلتس، بيتر. (2004م). الأطراف المتخفية للحدود الوطنية والمنظمات الدولية. في. (محرر: جون بيليس وستيف سميث). سميث السياسة العالمية. في. عولمة السياسة العالمية. (ترجمة مركز الخليج)، دبي، مركز الخليج للأبحاث.

الدوريات:

- ابو عامود، محمد سعد، "السياسة الأمريكية في آسيا"، السياسة الدولية، مطابع الاهرام، القاهرة، العدد 127، يناير 1997م، ص127-128.
- الدهراوي، خضر، الازمة الصينية التايوانية، مجلة الدفاع العربي، السنة الرابعة والعشرون، العدد التاسع، حزيران 2000م، ص43.
- الششتاوي، مسعد، القدرات العسكرية الصينية، السياسة الدولية، مطابع الاهرام، القاهرة، العدد 173، يوليو 2008م.
- عبد الشافي، عصام، مؤسسات صنع القرار الأمريكية وإدارة الأزمات، السياسة الدولية، العدد 152، ابريل 2003م، ص94-96.
- عبيد، هناء، العلاقات الأمريكية الصينية بين موازين التجارة وحقوق الإنسان، السياسة الدولية، العدد 117، يوليو 1994م، ص251.
- قراءات استراتيجية. التعاون والصراع والاستراتيجي في شرق آسيا، قراءات استراتيجية، (محرر)، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالاهرام، مصر، 2009م، ص4-5.
- هلال، علي الدين، النظام الدولي الجديد: الواقع الراهن واحتمالات المستقبل، مجلة عالم الفكر العربي، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، 1995)، عدد 4/3، مجلد 23، ص13-14.

المراجع باللغة الانجليزية

- Cakmak, Cenap, (2005). *The role of the political party in the united states: Is the party becoming obsolete?* 30August 2005, University of Newjersey.
- Carolyn, Stephensn, (2006). *American foreign policy: alternative strategies for human security*, san diego, californa USA, mar22.
- Chinese Academy of International Trade and Economic. (2011): *Report on The Foreign Trade Situation of China*, Ministry of Foreign Trade and Economic, Beijing- China , 2011.p22.
- Delors, Jaque. (1998). *Europe Ambition, Foreign Affairs*, No (80), 1998, p14.

- Donnelly, Thomas, (2010). *The military we need toward china, the defense requirements of obama doctrine*, the American enterprise institute, Washington, D.C.
- Fravel. M.Taylor. (2008). Power Shifts and Escalation Explaining Chinas USA of Force in Territorial Disputes, *International Security, Winter 2007/2008, International Affairs*. Vol32, No3, p44-58.
- Jerome S. Bruner, (2008). *America's foreign policy*, American sociological review, published by: American sociological.
- Jian. Chen. (2009). *Maos China and the Cold War*, Chapel Hill: University of North Carolina Press.
- Ikenberry, G. joh, The Rise of China and The Future of The West: Can the Liberal System Survive,? *Foreign Affairs*, USA, Vol.87, Num1, Jan-feb2008, p23-34.
- Li. Gong, (2001). "Tension Across the Strait in the 1950s: Chinese Strategy and Tactics", in Robert S.Ross and Jiang Changbin, eds, Re-examining the Cold War: U.S-China Diplomacy-1954-1973, Cambridge, Mass: Asia Center, Harvard University.
- Montaperto Roland, and Ming Zhang, The Taiwan Issue, Atest of Sino, US Relations, *The Jornal of Contemporary China*, No9, Summer1995, p9.
- Nathan, Andrew.J, and Robert S. Ross, (1997). *The Great Wall and The Empty Fortress: China Search For Security*, W.W.Norton and Company, New York.
- Ney, Joseph. S. (1992). what New World order? *Foreign affairs*, Vol 71, No (2), spring 1992, pp83-85.
- Roberts, Jone, Chinese army's business empire. *New World business*, Issue15. 11/16/2001,p-13-27.
- Suisheng, Zhao. (1999). "Changing Leadership Perceptions: The Adoption of Acoercive Strategy", Across the Taiwan Strait: Mainland China, Taiwan and the 1995-1996 Crisis, New York, Routledge.
- Worrth, Gary Klint. (1999). *Taiwan in J Mohan Malike*, ed, Asian Defence Policies: Regional Conficts and Securritu Iussues, Victoria: Dekin University press.

المواقع الالكترونية

- 1- [www,http://taiwanmov.org.tn](http://taiwanmov.org.tn) - الموقع الرسمي لوزارة الاعلام التايوانية (2008)
2. وزارة الاعلام الصينية، شبكة الصين، الصين الحقائق والارقام على شبكة الانترنت 2009م
- 3- وزارة الاعلام الصينية، شبكة الصين على الانترنت، الاقتصاد الوطني الصيني، مجمل الناتج الوطني والمحلي، تاريخ 2009/6/16م
http://arabic.china.org.cn/china/archive/sss07/node_7039355.htm_16
4. وزارة الاعلام الصينية، شبكة الصين على الانترنت، الاقتصاد الوطني الصيني، الاستثمارات التايوانية في البر الصيني، تاريخ 2009/7/26م
http://arabic.china.org.cn/china/archive/sss07/node_7039355.htm_16
5. وزارة الاعلام الصينية، شبكة الصين على الانترنت، مركز المعلومات الوطني، الإحصائيات السنوية لتايوان
- 5- <http://arabic.china.org.cn/china/archive/sss07>
- 6- US Census Bureau, Foreign Trade US and Taiwan
<http://www.census.gov/foreign-trade/balance/c5830.html>
- 7- CNBC. (2011). الموقع الاخباري. على شبكة الانترنت:
<http://www.cnbcarabia.com/>
- 8- Central Intelligence Agency(2011)
<https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/index----/geos/ch.html>
- 9-International Monetary Fund. [IMF]. (2012).
<http://www.IMF.org/external/pubs/ft/weo/2011/02/weodata/weoselco.aspx?g=110&sg=All+countries>
- 10- SIPRI is an independent international institute dedicated to research into conflict, armaments, arms control and disarmament. (2011). Sweden. Stockholm.
<http://www.sipri.org/yearbook>

- 11- Steven Aftergood, , US Intelligence and Security Agencies, 28-3-2007, Web Site: www.fac.org
- 12- National Bureau of Statistics of china, 2012,
<http://www.stats.gov.cn/english/statisticaldata/yearlydata/>
US Census Bureau, Foreign Trade US and Taiwan
<http://www.census.gov/foreign-trade/balance/c5830.html>
- 13- غرايبة، ابراهيم: صناعة القرار الأمريكي، مجلة العصر الإلكتروني، 2006م، النسخة الإلكترونية www.alaser.com
- 14- www.aljazeera.net, <http://www.aljazeera.net/news/pages/e08fce32-ab5c-4f86-8b2c-81f77ad38537>
- 15- وكالة الانباء الصينية شينخوا، 2012م:
http://www.arabic.xinhuanet.com/arabic/2007-09/13/content_488316.htm
- 16- صحيفة الشعب الصينية اون لايين، صفقة الاسلحة الأمريكية مع تايوان: براغماتية ام هيمنية
<http://arabic.people.com.cn/31663/6864717.html>, 2010/1/11
- 17- صحيفة الشعب الصينية اون لايين، 2008م تحليل عسكري: الى اين يقود اوباما القوات الأمريكية؟
<http://arabic.people.com.cn/31663/6532345.htm>

دراسة وتحليل وترجمة قصة (ثلاث قطرات من الدم)

للكاتب الإيراني (صادق هدايت)

نور القضاة وبدر عليوه *

ملخص

يعد صادق هدايت أشهر الأدباء الإيرانيين المعاصرين على الإطلاق؛ فقد اتسم كثير من كتاباته بالطابع العالمي، واصطبغ بعض هذه الكتابات بصبغة سريالية- نفسية، ووصل بعضها الآخر إلى درجة الهلوسة والجنون، وشاب قسماً منها نوع من الفكاهة الساخرة التي تنطوي على نقد لاذع، وهي مجتمعة تنم عن تلك التيارات الفكرية المختلفة التي كانت تتجاذب نفس الكاتب الناضجة الحائرة، هذه الدراسة تتناول إحدى قصص صادق هدايت السريالية - النفسية الغامضة التي كتبها، وهو يمرّ بمحنة نفسية مؤلمة، محنة كانت تسمى (الحياة)، إن (ثلاث قطرات من الدم) ما هي إلا قصة ذلك العالم الذي كان يعيش فيه صادق كما يراه هو لا كما هو العالم حقاً، فهي قصة عالم مجنون مليء بالمجانين والقتلة والمجرمين، الذين لا يتورعون عن ارتكاب أية خيانة أو جريمة حتى في حق الأصدقاء، عالم لم يبدأ الكاتب بخط سطره وكلماته مختاراً لكنه استطاع إنهاءه كما يشاء، لقد جسدت هذه القصة ذلك التشاؤم والاكتئاب الكامنين في روحه.

الكلمات المفتاحية: صادق هدايت، ثلاث قطرات من الدم، التشاؤم، السريالية_ النفسية، رموز.

بداية الطريق الذي انتهى سريعاً

الحديث عن كاتب كصادق هدايت حديث يحفّه ما يحفّه من الغموض والإبهام والصعوبة، ولم يترك المعاصرون باباً من أبواب حياته إلا وولجوه، وإن بقي هناك أي إبهام، فهو يدور حول ماهية فكره وفلسفته لا حول حياته، فلا نكاد نجد مقالاً أو كتاباً يتحدث عن هذا الكاتب الإيراني الشهير، إلا ووجدنا فيه نوعاً من التردد والشك والحيرة، فقد ترك هذا الكاتب المفلق النقاد يتخبّطون في قيعان أعماقهم، وبقي هذا السرّ الكبير الذي يعرفه الجميع ولا يعرفونه ميداناً للكرّ والفرّ، ولم لا وهو الذي يعتبر قلعة يصعب فتحها في الأدب القصصي الفارسي المعاصر، وقلده جلّ من جاء بعده من الأدباء، واعتبره الكثيرون مدرسة منفردة في النثر الفارسي المعاصر، وكذلك حياته التي كانت مثار الجدل والنقاش، تلك الحياة التي بدأت بالأحداث الصاخبة وانتهت بها. إن

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم اللغات السامية والشرقية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

دراستنا لحياة هدايت ليست نقداً بقدر ما هي استعراض، فنقد حياة كاتب أو نقد كتابه هو أصعب بكثير من تأليفه، وصحيح أن الناقد يحتل المرتبة الأولى في السلم الأدبي، فهو ناقدٌ أديبٌ وناقدٌ شاعرٌ وناقدٌ ثقافيٌ إلى غير ذلك، ولكننا سنترك هذه الدرجة الرفيعة هنا، ونحتفظ بها إلى حين تحليلنا للقصة موضوع الدراسة.

في ذلك اليوم من عام 1902م ولد نابغة من نوابع الأدب الفارسي المعاصر زاع صيته فيما بعد ليس فقط في إيران، وإنما تجاوز حدود القارة الصفراء إلى العالم أجمع، ولد صادق في مدينة (طهران) في عائلة نجبية من أهل الفضل والعلم، فوالده هدايت قليخان هدايت (اعتضاد الملك) ابن جعفر قليخان هدايت (نير الملك) الذي كان لثلاثين عاماً رئيساً لدار الفنون ووزيراً للعلوم (1). وهو من أحفاد (رضا قليخان هدايت) مؤلف كتاب (مجمع الفصحاء) والذي يذكر فيه سلسلة نسبه وبأنه ينحدر من سلالة الشاعر الكبير (كمال خجندي) الذي عاش في القرن الثامن الهجري (2).

تلقي صادق تعليمه الابتدائي في طهران، فدرس في دار الفنون، وفي عام (1925م) أكمل المرحلة الثانوية في مدرسة (سان لويس) التي تعرف فيها على اللغة الفرنسية لأول مرة (3). وبعد عام غادر هو ومجموعة من الطلبة الإيرانيين إلى بلجيكا في بعثة دراسية لدراسة الهندسة المعمارية، ولكنه لم يمكث هناك طويلاً، وبعد عام آخر - نزولاً عند رغبة عائلته - تم إرساله في بعثة دراسية أخرى إلى فرنسا ليكمل دراسته في التخصص ذاته (4). لكن روحه التائهة كانت تبحث عن شيء آخر، وكان ملاله من هذه العلوم أسرع مما كان متوقعاً، وكما يقول (مونتي) فقد قضى هدايت فترة إقامته في باريس - التي استمرت أربع سنوات - في السياحة والتجوال (5)، لكنه اهتم أيضاً خلال تلك السنوات التي أمضاها في باريس بدراسة اللغة والثقافة الإيرانية القديمة، وأهمل دراسته الجامعية (6). وبدا من ذلك أنه قد وجد ضالته أخيراً، لكنه مع ذلك كان يعيش حياة بائسة يائسة تجلت في محاولته الفاشلة بالانتحار في باريس عام (1928) عندما أراد إغراق نفسه في نهر (مارن) (7). لم يكمل صادق دراسته بعد هذه الفاجعة، فعاد إلى طهران في عام (1930)، وعلى الرغم من إخفاقه في دراسته وسنوات العذاب تلك، إلا أنها كانت البداية الحقيقية لسنوات من الازدهار شهدتها ساحة القصة الإيرانية؛ ففي هذه الأعوام قام صادق بكتابة العديد من القصص مثل: قصة (الموت) (1926) ومجموعته القصصية بعنوان (الموودة) (1930)، التي تجلت فيها روعة أسلوبه القصصي لأول مرة، ومادلين (1930)، والحاج مراد (1930)، والأسير الفرنسي (1929)، بالإضافة إلى كتب أخرى مثل: السحر في إيران (1926)، وفوائد أكل النباتات (1927)، ومسرحية بروين بنت ساسان (1930).

مكث صادق في طهران حتى عام (1936) مشغولاً بوظائف حكومية مختلفة، وشهدت هذه الفترة نشاطاً أدبياً كبيراً لهدايت، فقام بتأسيس جماعة أدبية عُرفت بجماعة (الأربعة)، لأنها كانت تضم أربعة من الأدباء هم: (مجتبى مينوي) و(بزرگ علوي) و(مسعود فرزاد) وصادق هدايت، وهم من الأدباء الجدد المجددين في ذلك الوقت(8). على خلاف جماعة (السبعة) التي كانت تضم سبعة من الأدباء المحافظين هم: رشيد ياسمي، نصر الله فلسفي، علي أصغر حكمت، حسن تقوي-زاده، عباس إقبال، محمد قزويني وبيديع الزمان فروزانفر. كتب صادق في هذه الفترة العديد من القصص منها: ظل المغول (1331) وثلاث قطرات من الدم (1932) والظل المضيء (1933) وإصفهان نصف العالم (1932) وعلى الطريق الرطب (1935) والسيدة علوية (1933)، كما بدأ في عام (1936) بكتابة رائعته الأدبية (اليومة العمياء) التي أكمل كتابتها عندما كان في الهند، وقام صادق بتأليف كتب أخرى مثل: اوسانه (1931)، الذي يحتوي على بعض الأهازيج الشعبية الخاصة بالأطفال، وأهازيج الخيام (1934)، الذي لاقى إعجاباً كبيراً، إذ يتحدث فيه عن رباعيات الخيام بأسلوب نقدي، وكتاب (نيرنكستان) أي: (أرض السحر) (1933) الذي يعرض فيه صادق اعتقادات الإيرانيين الخرافية والطقوس المتبعة عند الإيرانيين في مناسباتهم(9)، وكتاب (وغ وغ ساهاب) بالاشتراك مع مسعود فرزاد (1934)، وهو كتاب هزلي يسخر فيه المؤلفان من الصناعات الأدبية والأدب الكلاسيكي(10).

استقال صادق من عمله في وزارة الخارجية في عام (1935)، وتعرض في العام نفسه لمضايقات كثيرة من قبل الأجهزة الأمنية، وبعض المحافل الأدبية بسبب ما نشره في كتابه الأخير(11)، وفي عام (1936) غادر هدايت إيران متجهاً إلى الهند، ولم يترك خلفه في إيران أهله ووحدته التي عاشرها سنوات طويلة فقط، وإنما ترك خلفه الإحساس بعظمة وجلال تاريخ فارس المفقود وذلك الحنين إلى الماضي وجلاله وهيبته، وهو ما حاول استعادته أو جزءاً منه في الهند من خلال انصبابه على تعلم اللغة الفارسية القديمة، ليريح تلك النفس الحائرة، وفي هذه الرحلة التي لم تستغرق سوى عام واحد تعرف صادق على الثقافة الهندية الغنية، وانكب على تعلم اللغة الفارسية (الفهلوية) القديمة التي على حد قوله لا تجدي نفعاً في الدنيا ولا في الآخرة وبعد إتقانها قام بترجمة العديد من الكتب الفهلوية إلى اللغة الفارسية، ثم بعد ذلك انتهى من كتابة رائعته الأدبية رواية (اليومة العمياء) (1936) التي بدأ كتابتها في طهران(12). وبعد عودته من الهند في عام (1937) عمل مجدداً في الوظائف الحكومية المختلفة، لكن تبين له أن الأوضاع السياسية والاجتماعية في إيران قد ساءت كثيراً؛ فقد أخذ البطش والتنكيل وتشديد الرقابة على الصحافة يتزايد يوماً بعد يوم، وتم حل المنتديات والتجمعات الثقافية، وتبعثر الأدباء والمفكرون في اتجاهات شتى مما أورث هذا الأديب صاحب الروح الشفافة حزناً وأسى عميقين، فأقبل على

شرب الكحول وتعاطي المخدرات علّها تخفف من آلامه، واستمرّ على هذا النحو حتى عام (1941) ولم يكتب خلال هذه الفترة شيئاً (13).

رغم الألم الذي كان يعتصر صادق والإحباط الذي كان يكتنفه، إلا أنه سرعان ما استعاد نشاطه الأدبي، فأصدر في عام (1942) مجموعته القصصية (الكلب الضال)، ثمّ في عام (1945) نشر روايته المشهورة (الحاج)، التي تعطينا انطباعاً وافياً عن مدى النضج الأدبي والقصصي الذي بلغه صادق في عرضه للمضامين الجديدة في القصة الفارسية (14). بعد هذه المرحلة بلغ التعب والإرهاق واليأس والحزن به كلّ مبلغ، ومع ذلك فقد كان يخطّ آخر كلماته في هذه الحياة، فترجم (المسخ) و(جماعة المحكومين) (1948) للأديب الألماني (فرانز كافكا)، مع مقدمة مطولة على القصة الثانية تحت عنوان (رسالة كافكا)، وكتب قصة (كرة الوُلُو) في العام نفسه (15)، ثمّ سافر بعدها إلى باريس ليكمل الفصل الأخير من قصة حياته التي بدأت عام (1902).

الموت يحمل الإنسان من عالم الحسّ الذي هو حجاب الروح إلى عالم الماوراء، والحياة ليست إلا حلم طويل يستيقظ منه الناس (بالموت)، تلك الهالة التي طالما أحاطت بقصص صادق بل وبحياته نفسها، إن حياته المليئة بالسوسا والضياع جرفته عن الطريق القويم وأوقعته في الخطأ، فتلك الحيرة الكامنة في أعماقه حرفته عن المسير في لحظة، لقد أراد صادق الاستيقاظ من ذلك الحلم المزعج الذي عاشه وكابده لسنوات طويلة، الذي كان يُسمى (الحياة)، لكنه اختار الطريق الخطأ، فأقدم على الانتحار خنقاً بالغاز في شقته في باريس عام (1951).

أسلوب صادق هدايت القصصي

تحتاج كلّ نظرة جديدة للظواهر إلى لغةٍ خاصةٍ وجديدة أيضاً (16). وتغيير الأسلوب لا ينحصر في تغيير اللغة فقط وإنما هو مرهونٌ بتغيير شامل يطلّ البنية الأساسية للغة أي النفس، فنجد أنّ نظرة أحدهم القاتمة والمظلمة إلى الدنيا تنعكس في ثنايا كلماته التي يستعملها في كلّ لحظة وحين، وفي أسلوب كتاباته إن كان كاتباً، لذا كان أسلوب صادق القصصي نتيجة حتمية لنظريته للعالم الباطني والعالم الظاهري، ذلك الأسلوب الخاص الذي كان يتطلب لغةً خاصةً وجديدة، وهو الأسلوب الذي نبع عن عصر صادق وزمانه.

إنّ معاملتنا أو معالجتنا لهذا النص أو ذاك تنطلق أساساً وأولاً وآخراً من تحت عباءة ذلك العصر الذي أنشئ فيه، من خلال ما في ذلك العصر من تيارات عقائدية وأدبية وسياسية، والسبب هو أن مبدع النص مرهون بعصره، وما كتبه صادق هدايت كان مرآة صادقة لذلك العصر الذي عاشه، وتتحقق في أسلوبه المقولة التي تقول: (proclaims the man The style)، أي أن الأسلوب يعلن عن صاحبه (17)، فكان نثره مميّزاً بارزاً في جبين الأدب الفارسي المعاصر، وأظهر

أسلوباً مؤثراً أثر في كل من جاء بعده من الكتاب، وتتفق هنا مع (يحيى آرين بور) في أن ما يميز صادق عن غيره هو أن الكتابة كانت بالنسبة له الوسيلة المثلى لبيان أحاسيسه وفهمه للحياة، فكان يخط على الورقة كل ما يجول بخاطره غير مبال باختيار الألفاظ والكلمات ولا بجمالية النص(18)، فجمع بين سهولة اللفظ وعمق المعنى وبُعد.

كان هدايت كسائر مثقفي عصره ينزع إلى نوع من التعصب القومي المفرط الذي أملتته الأوضاع السياسية التي سادت في تلك الحقبة، فقد سلك هو ورفاقه طريق الشطط وألقوا باللائمة على الإسلام والفاشين العرب وحملوهم مسؤولية كل ما تعانیه إيران من متاعب غير ملتفتين إلى العلل والأسباب التاريخية والاقتصادية والسياسية التي أفرزت تلك الأوضاع، وامتاز صادق هدايت عن غيره من الكتاب الذين عاصروه أو الذين جاءوا من بعده في تأصل نزعة العداء للإسلام والعرب في معظم كتاباته(19)، حتى إنه كان يعد المجتمع الإيراني قبل الإسلام هو المجتمع المثالي، وأن الدين الزردشتي هو الدين (المضيء) وأن الشعوب السامية قذرة، وأن الأديان السامية هي الأديان (المظلمة)(20)، فحاول الانخراط في صفوف الحزب الشيوعي (توده) لكنه سرعان ما أدرك مراميهم وأفكارهم السقيمة، فهاجمهم في مقدمته (رسالة كافكا) معبراً عن خيبة أمله فيهم، ومشككاً في قدرتهم على إنقاذ إيران، وواصفاً إياهم بالمرتزقة والكذابين وأتباع الاضطهاد والتعذيب(21).

تميزت آثار صادق بروح قلقة حائرة وفكر مضطرب غامض، نتج بالطبع عن إحساسه باليأس تجاه مجتمع مليء بالتناقضات لا عن تأثره بالخيام وكافكا كما سنرى لاحقاً _ فكانت شخصياته القصصية النموذج الأوضح لما عاناه، فهي شخصيات شكّكة تسيء الظن بالآخرين، ويظهر ذلك جلياً على لسان الشخصية الرئيسية في قصتنا موضوع الدراسة فيقول: "في البدء عندما أحضروني إلى هذا المكان كان ينتابني هاجس أنهم ربّما يسكبون لي السم لا قدر الله، لهذا لم أكن أمدّ يدي إلى أي طعام قبل أن يتدوّقه (محمد علي) ثم كنت أكل بعد ذلك، كنت أستيقظ في الليل مذعوراً ظاناً أنهم قد جاءوا لقتلي، كم هي بعيدة وباهتة هذه الذكريات"(22).

عاش صادق طوال حياته وحيداً جسماً وروحاً، ولم يستطع بأي حال من الأحوال أن ينسجم مع هذا العالم المليء بالنفاق والرياء، فيعبر عن ذلك بقوله: "منذ عام وأنا أعيش بين غربيي الأطوار هؤلاء، ليس بيني وبينهم أي تشابه، فأنا أختلف عنهم كالثرى عن الثريا، ولكن أناتهم ولحظات سكوتهم وشتائمهم ونوبات بكائهم وضحكاتهم ستملاً دائماً أحلامي بالكوايس"(23)، ألا توجد علاقة بين نفسية صادق المظلمة الناتجة عن معاناته وبين تلك الصفات السوداوية التي يطلقها بين الحين والآخر على الإنسان والشجر والحجر مثل: "هذه الدنيا الدنيئة المفترسة"، و"هذه الدنيا الدنيئة المليئة بالفقر والذل"(24)، و"أنا لم أعد أستمتع بشيء"، و"لقد مللت من

كل شيء" (25)، والتي لا تكاد صفحة من صفحات قصص صادق تخلو منها؟ أليس ذلك كفيلاً بأن يعطينا صورة واضحة المعالم عن تلك النفس التائهة الحيرى وتلك الروح المهزومة المجروحة؟

إن روح التشاؤم والاضطراب والوحدة المتغلغلة في كل ما كتبه صادق جعلت البعض يعتقد بأنه وقع من جهة تحت تأثير (كافكا) ومن جهة أخرى تحت تأثير الخيام، فوجدوا أن فكره وأسلوبه القصصي يشبه إلى حد كبير أسلوب كافكا، مستشهدين بترجمة هدايت لبعض قصص كافكا التي سبق وأشرنا إليها، ومن هؤلاء (ريتشارد فلاور) الذي يشير في كتابه (Sadegh Hedayat) إلى أن شخصيات صادق هدايت تشبه شخصيات كافكا فهي وحيدة ومطرودة، وأن عناصر القصة لدى الكاتيين ذات تقنية خاص ومتشابهة (26)، حتى إن فلاور يجد ذلك الشبه في اللغة أيضاً فيقول: "لغة هدايت الفارسية مثل لغة كافكا الألمانية؛ بسيطة وظيفية ودقيقة، وتناسب مع وضع الإنسان في هذا العالم إلى أبعد الحدود" (27).

على الرغم من هذا التشابه القائم بين الأدبيين، وعلى الرغم من إعجاب صادق نفسه بكافكا، إذ يقول في بداية (رسالة كافكا): "إن قلة من الكتاب استطاعوا إبداع أسلوب وفكر وموضوع جديد، خاصة من استطاع منهم خلق موضوع جديد للحياة لم يكن موجوداً من قبل، وإن كافكا أحد هؤلاء الكتاب المبدعين" (28)، إلا أن هذا التشابه وهذا الإعجاب لا يمكننا من الجزم بهذا التأثير، صحيح أن صادق كان الوسيلة التي عرف من خلالها الإيرانيون كافكا وأثاره، وصحيح أن تأثير كافكا كان واضحاً على الأدب الإيراني المعاصر منذ معرفة الإيرانيين به، إلا أنه لا وجود لدليل قاطع على تأثر صادق بهذا الأخير، وما يمكن الجزم به هو أن صادق قد تعرّف على كافكا في بدايات العقد الرابع من القرن العشرين، أي بعد مرور وقت ليس بالقصير على كتابته (أي صادق) لمعظم قصصه ورواياته، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار الزمان والمكان والجو الثقافي والاجتماعي الذي كتب فيه كلاهما، وهنا لا نتفق كثيراً مع (ريتشارد) فيما قاله عن التشابه بين شخصيات صادق وكافكا، ولا نريد الإطالة في تبين عيوب هذا القول، فذلك يتطلب مجالاً آخر، ولكن يكفينا القول أن شخصيات صادق هدايت ولغته لم تكن نتيجة محتومة لظروف الزمان والمكان فقط، بل كانت بلورة لثقافة تتعارض مع عالم صادق تعارضاً تاماً، وعكس ذلك يمكن مشاهدته عند كافكا، وإذا ما أردنا النظر بعين ناقدة إلى شخصيات صادق نجد أنها لا تحاول بأي شكل من الأشكال أن تتحرر وأن تغير ما هي عليه، بل تظهر ضعيفة يائسة تمشي للمصير المحتوم طائفة، وعكس ذلك أيضاً نجده في شخصيات كافكا التي تتجه نحو التحرر والتبديل، وعلى الرغم من أنها لا تظهر كشخصيات قوية ومتحكمة إلا أنها لا تظهر كذلك عاجزة ومستسلمة للقدر (29). نضيف إلى ذلك كله أن كافكا _ كما نرى من خلال كتاباته ورواياته مثل (the castle) (القلعة)

وبعض قصصه التي بدأ بها حياته الأدبية_ كان متأثراً (بالتعبيريين) الألمان، بينما تأثر صادق هدايت بالسرياليين عندما كان في فرنسا، مع أن الفارق بين الاتجاهين ليس بالكبير.

أما العجيب في الأمر فهو الحديث الذي أورده الكثير من النقاد حول تأثر صادق بالخيّام متلمسين هذا التأثير في تلك الحيرة التي تجوب أرجاء قصصه ورواياته، والصحيح هو أن "صادق" قد وجد تلك الصفات المشتركة بينه وبين الخيّام، فانكبّ على دراسة هذا الأخير في فترة مبكرة من عمره_ دراسة متمعنة ناقدة تجلّت في كتابه (أهازيح الخيّام)، أما القول بأن روح اليأس والحيرة التي نجدها عند صادق هي من تأثير الخيّام فهو_ برأينا_ قولٌ يداخله الكثير من الخطأ ويعتريه لبس شديد، فالواضح أن النظرة للموت والحياة لدى الخيّام التي نتجت عنها تلك الحيرة في رباعياته تختلف اختلافاً جذرياً عما هي عليه عند صادق، فنظرة الأول كانت نظرة فلسفية بحثة إلى الوجود والعدم، فلسفة تقوم على هذا البيت من الشعر المنسوب للإمام علي (عليه السلام):

ما فات مضى وما سيأتيك فأين قم فاغنم الفرصة بين العدمين

وجوهر الكلام في رباعيات الخيّام يقوم على أساس الموت بالدرجة الأولى، الذي يرتكز بدوره على فكرة الوجود والعدم، فالوجود لدى الخيّام محسوس على عكس العدم الذي هو في النهاية أمرٌ حتمي:

ما أسرع ما يسيّرُ ركب العمر قم فاغنم لحظة الهنا والبشر

دع همّ غدٍ لمن يهمّون به والليل سينقضي فجيء بالخمر(30)

بينما نجد أن حيرة صادق هي بالدرجة الأولى يأسٌ ناتجٌ عن التعارض بين عالمين: أحدهما عالمه الخاص والآخر عالم الناس، والعدم أو الموت الحتمي وغير المحسوس الذي نشاهده لدى الخيّام نجده هنا حتمياً ومحسوساً، فصديق يراه في كل شيء وفي كل مكان ويصارعه منذ طفولته فيقول: "نحن أطفال الموت، وهو الذي ينقذنا من مكر الدهر. . . في سنوات الطفولة_ تلك التي لم نكن نفهم فيها لغة الناس_ إذا كنا ننتبه من لعبنا ونتوقف للحظة فذلك لكي نسمع صوت الموت..."(31). وهو يرى الموت محسوساً كما يراه الموتى: "أحياناً كنت أظن أن ما أراه لا يراه إلا الذين يصارعون الموت"(32)، فتلك الفرصة التي ينتهزها الخيّام بين العدمين لا وجود لها عند صادق من الأصل، فكل شيء يقوم على العدم.

قبل الانتقال إلى الترجمة تجدر الإشارة إلى أن (ثلاث قطرات من الدم) ترجمت إلى لغات عديدة منها اللغة العربية، وقد قام بترجمتها الدكتور أمين عبد المجيد بدوي من مصر، وترجمها كذلك سليم عبد الأمير حمدان من العراق وصدرت عن وزارة الثقافة السورية ضمن كتاب

"مختارات من قصص صادق هدايت". وقد عملنا على ترجمتها من الفارسية إلى العربية إغناء للبحث، وحتى يطلع القارئ على مجريات القصة وتفصيلها.

(ثلاث قطرات من الدم)

البارحة عزلوا غرفتي، فهل شفيت تماماً وسأغادر في الأسبوع المقبل كما وعد المدير؟ هل كنت مريضاً؟ مرّ عام كامل، وأنا ألتمس منهم أن يحضروا لي ورقة وقلماً فلم يكونوا يستجيبون لطلبي، كنت أظن دائماً أنني سأكتب أشياء كثيرة بمجرد أن يقع في يدي ورقة وقلم. . . ! لكنهم أحضروا لي ورقة وقلماً أمس على الرغم من أنني لم أطلب منهم، الشيء الذي طالما تمنيته وانتظرته. . . ! لكن ما الفائدة، فأنا منذ أمس حتى هذه اللحظة أعتصر، ولكنني لا أجد ما أكتبه، وكأن شخصاً قد أمسك بيدي، أو أن ساعدي تخدّرت، أما الآن _ وأنا أمعن النظر بين السطور المبعثرة التي رسمتها على الورقة _ فالشيء الوحيد الذي يمكن قراءته هو: «ثلاث قطرات من الدم».

السماء زرقاء داكنة، والحديقة خضراء، والورود متفتحة على التلة، والنسيم العليل يهب على المكان حاملاً معه رائحة الزهور، لكن ما الفائدة؟ فأنا لم أعد أستمتع بشيء على الإطلاق، كلها أمور مفيدة للشعراء والأطفال ولأولئك الذين يظلون أطفالاً إلى النهاية، لقد مرّ عليّ في هذا المكان عام كامل، وليال طوال كنت أصلها بالنهار بسبب صوت هذه القطة، وهذه الأنات المخيفة وهذه الحجرة المتشقة هي التي أنفدت صبري، وفي الصباح الباكر وقبل أن أفتح عيني كنت أفاجأ بالحقنة اللعينة. . . !

يا لتلك الأيام الطوال واللحظات المخيفة التي أمضيته هنا، في أيام الصيف نجلس في القبو سوية وكلّ منا يرتدي القميص والبنطال الصفراوين، وفي الشتاء نجلس تحت أشعة الشمس بجانب الحديقة، منذ عام وأنا أعيش بين غريبي الأطوار هؤلاء، ليس بيني وبينهم أي تشابه، فأنا أختلف عنهم كالثرى عن الثريا، ولكن أناتهم ولحظات سكوتهم وشتائمهم ونوبات بكائهم وضحكاتهم ستملاً دائماً أحلامي بالكوابيس.

بقيت ساعة واحدة لتتناول العشاء المكوّن من تلك الأطعمة الرديئة: حساء اللبن والأرز بالحليب والأرز والخبز والجبن بمقدار ما يسدّ الرّمق. تكمن أمنية (حسن) في أن يتناول قدراً مليئاً بالحساء مع أربعة أرغفة من خبز القمح، عندما تحين لحظة خروجه يجب أن يحضروا له قدراً من الحساء عوضاً عن الورقة والقلم، إنه أحد سعاداء هذا المكان أيضاً، بتلك القامة القصيرة والضحكة الحمقاء والعنق الغليظة والرأس الأصلع واليدين الوستيتين قد خلق لعمل البناء، لقد كانت كلّ أجزاء جسمه ونظرته الحمقاء تلك تشهد صارخة بأنه خلق لأعمال البناء الشاقة، لو لم يكن (محمد علي) حاضراً الغداء والعشاء لكان (حسن) قد فتك بنا جميعاً، (محمد علي) نفسه

أيضاً مثل أناس هذه الدنيا، فليقولوا ما شاءوا عن هذا المكان، فهناك عالم آخر خلف عالم الناس العاديين.

لدينا طبيب _ حفظه الله _ لا يفقه شيئاً، لو كنت مكانه لسكنت السم في طعام العشاء للجميع ثم لقدمته لهم ليأكلوه، ولوقفت صبيحة اليوم التالي في الحديقة ضاماً يدي إلى صدري أشاهدهم وهم يحملون الموتى، في البدء عندما أحضروني إلى هذا المكان كان ينتابني هاجس أنهم ربما يسكبون لي السم لا قدر الله، لهذا لم أكن أمد يدي إلى أي طعام قبل أن يتذوقه (محمد علي) ثم كنت أكل بعد ذلك، كنت أستيقظ في الليل مذعوراً ظاناً أنهم قد جاءوا لقتلي، كم هي بعيدة وباهتة هذه الذكريات. . . ! فالأشخاص أنفسهم، والطعام هو نفسه والغرفة الزرقاء المطلية حتى وسطها بلون قاتم هي أيضاً نفسها.

حدث ذلك منذ شهرين عندما ألقوا بأحد المجانين في ذلك السجن القائم في آخر الفناء، كان قد مرق بطنه بقطعة من الفخار وأخرج أحشائه لاعياً بها، كانوا يقولون أنه جزار وقد اعتاد على شق البطون، أما ذلك الآخر الذي فقأ عينه بأظافره فقد قيدوا يديه من الخلف، وكان يصرخ والدم قد جف في عينه، فأنا أعلم أن المدير وراء كل ذلك.

الأشخاص الموجودون في هذا المكان ليسوا جميعاً على هذه الحال، فلو عولج الكثير منهم وخرجوا لأصبحوا تعساء، فالسيدة (صغرى سلطان) مثلاً المتواجدة في قسم النساء كانت تريد الهرب مرّات عديدة، لكنهم كانوا يمسكون بها، وعلى الرغم من أنها عجوز إلا أنها كانت تزيّن وجهها بجبس الحائط، وتجعل من فتيلة الشمع المحروقة حمرة له، ظانة بأنها ابنة الأربعة عشر عاماً، لو عولجت ونظرت إلى المرأة لأصيبت بنوبة قلبية، والأسوأ من الجميع صديقنا (تقي) الذي كان يريد أن يقلب الدنيا رأساً على عقب، فعلى الرغم من اعتقاده بأن المرأة هي سبب شقاء الناس، وأنه لابد من قتل كل النساء لإصلاح الدنيا، إلا أنه أضحى عاشقاً (لصغرى سلطان) هذه.

إنّ مديرنا وراء كل هذه الأمور، لقد تفوّق على جميع المجانين بجنونه، فهو دائماً يمشي أسفل الحديقة تحت شجرة الصنوبر بأنفه الكبير وعينييه الصغيرتين اللتين تشبهان عيون المدمنين، أحياناً ينحني وينظر أسفل الشجرة، يقول كل من يراه: يا لهذا المسكين المسامح الذي وقع في قبضة مجموعة من المجانين! لكنني أعرفه، أعلم أن هناك ثلاث قطرات من الدم أسفل الشجرة على الأرض، وهناك قفص فارغ معلق أمام شبابه، القفص خال لأن القطعة أكلت طائر الكناري الذي كان فيه، ولكنه أبقى عليه هناك حتى تقترب القطط ظانة أن به شيئاً ثم يقوم هو بقتلها.

أمس كان يتعقب قطعة مرقطة، وما أن تسلقت شجرة الصنوبر الموجودة أمام شبابه حتى طلب من حارس الباب أن يطلق عليها الرصاص، نقاط الدم الثلاث هذه تعود للقطعة، ولكن عندما يسألونه يقول: إنها لطائر البوم.

والأغرب من هؤلاء صديقي وجاري (عبّاس)، الذي لم يَمْضِ على إحضاره إلى هنا أسبوعان، لقد أصبح صديقاً حميماً لي. يظنّ (عبّاس) نفسه نبياً وشاعراً، يقول بأنّ كل عمل _ خاصة النبوة _ يعتمدُ على الحظّ وحسن الطالع فمن له نصيبٌ من الحظّ، وإن لم يكن ذا فهمٍ ودراية ستزدهر أعماله، وإن كان علامة الدهر ومن ليس له حظٌ فإنّه سيشقى، وصديقي هذا يعدّ نفسه عازف طنبورٍ ماهر كذلك، لقد نسّق أسلاكاً على لوحٍ من الخشب ظناً منه أنّه قد صنع طنبوراً، وقد نظم شعراً كان يقرّؤه لي في اليوم ثمانين مرّات. كأنّ هذا الشعر هو السبب في إحضاره إلى هنا، لقد نظم شعراً أو زجلاً غريباً:

آه من ليل الدياجي حلّ من غير ونام

ملاً الدنيا سواداً، منح الكون الظلام

أخلد الناس إلى الدهر فأهداهم سلام

حصتي من درهم كانت سهاماً من يباب

ليس في الدنيا سعادة ليس في الدنيا غناء

إنّ في موتي شفاءً لي من هذا العناء

تحت صنوبرة الحديقة قطرات من دماء

ثلّة من قطرات رقدت فوق التراب

أمس كنا نمشي في الحديقة، بينما كان (عبّاس) يقرأ الشعر نفسه، جاءت امرأة ورجل وفتاة لرؤيته، كانت تلك المرة الخامسة التي يأتون فيها، فقد رأيتهم من قبل وكنت أعرفهم، أحضرت الفتاة باقةً من الورود، وكانت تبتسم لي، ومن الواضح أنها تحبني أو لنقل أنها جاءت رغبةً في رؤيتي، إن وجه (عبّاس) المجدور ليس جميلاً، وبينما كانت تلك المرأة تتحدث إلى الطبيب رأيت (عبّاس) عندما انتحى بالفتاة جانباً وقبلها.

حتّى هذه اللحظة لم يأت أحدٌ لزيارتي ولا أحضر لي أحدهم زهوراً، لقد مرّ عامٌ كامل، وكان (سياوش) آخر من جاء لزيارتي، فهو أفضل صديق لي، كنّا جيراناً نذهب كل يومٍ إلى مدرسة الفنون سويةً ونعود منها سويةً، ونقرأ دروسنا سويةً وفي أوقات الفراغ كنت أمرنه على عزف الطنبور، كانت (رُخساره) ابنة عمّ (سياوش) وخطيبتي غالباً ما تحضر مجلسنا، كان (سياوش) يفكرُ في الزواج من أخت (رُخساره)، ولكن لسوء الحظ مرض قبل شهرين من عقد قرانه، وقد ذهب لعيادته بضع مرّات وفي كلّ مرّة كانوا يخبرونني أنّ الطبيب منع زيارته، وعلى الرغم من إصراري لم يكونوا يجيبونني بغير هذا الجواب فتوقفت عن الإلحاح.

مازلتُ أذكر ذلك جيداً، فقد كانت الامتحانات على الأبواب، عندما عدتُ إلى المنزل مع غروب أحد الأيام وألقيت بكتبي وعدداً من الدوسيهات المدرسية على الطاولة، وأردت أن أخلع ملابسي عندها سمعت صوت إطلاق رصاصة، لقد كان الصوت قريباً جداً لدرجة أنه أصابني بالرعب؛ لأنّ منزلنا كان خلف أحد الخنادق، وكنت قد سمعت أن سرقة وقعت بالقرب منّا. أخرجت المسدس من درج الطاولة وخرجت إلى ساحة المنزل ووقفت أنتظر، بعدها صعدت الأدراج إلى السطح ولكنني لم أر شيئاً، وعندما أردت العودة نظرت من الأعلى إلى بيت (سياوش)، فرأيتُه واقفاً وسط الساحة مرتدياً قميصاً وسروالاً، فقلت متعجباً:

. أهذا أنت يا (سياوش)؟!

فعرفني وأجاب:

. تعال إلى الداخل، لا يوجد أحد في منزلنا.

. هل سمعت صوت إطلاق النار؟

فوضع إصبعه على شفثيه وأشار برأسه أن تعال، فنزلتُ مسرعاً وقرعت باب المنزل، ففتح لي وسألني وقد طأطأ برأسه ناظراً إلى الأرض:

. لماذا لم تأتِ لزيارتي؟

. لقد جئت مرات عديدة سائلاً عن أحوالك ولكنهم قالوا إن الطبيب لا يسمح بزيارتك.

. يظنون أنني مريض ولكنهم مخطئون.

سألتُ ثانية:

. أسمعت صوت ذلك العيار الناري؟

فأمسك بيدي دون أن يجيب وأخذني إلى حيث شجرة صنوبر وأشار إلى شيء، فنظرت عن قرب، كانت هناك ثلاث من قطرات الدم الطازجة قد سقطت على الأرض.

بعد ذلك قادني إلى غرفته وأغلق جميع الأبواب، جلستُ على الكرسي، فأشعل هو المصباح وجاء فجلس على الكرسي المقابل لي بجانب الطاولة. كانت غرفته بسيطة، زرقاء اللون ومطلية حتى وسطها بلون قاتم، أُلقي في زاوية الغرفة طنبور وعلى الطاولة تناثرت بعض الكتب والدوسيهات المدرسية، بعدها مدّ (سياوش) يده وأخرج من درج الطاولة مسدساً أراني إيّاه، كان من تلك المسدسات القديمة ذات المقابض الصدفية، فوضعه في جيب بنطاله وقال:

. كنت أمتلك قطعة اسمها (نازي)، ربّما كنت قد رأيته، كانت من تلك القلط المرقطة

المعتادة، وكان لها عينان واسعتان كالعيون الكحلّاء، وكانت تظهر بعض الرسوم المرتبة على ظهرها كورقة نشافٍ قد صبّ فوقها الحبر ثم طُويت من الوسط، عندما كنت أعود من المدرسة

كانت (نازي) تركض أمامي مرسلّة مواءها، وكانت تتمسّح بي وعند جلوسي كانت تصعد على كتفي وتمسح فمها بوجهي وتلعق جبيني بلسانها الخشن، وكانت تصرّ على أن أقبلها، ويبدو أن مكر إناث القطط وحنانهم وإحساسهنّ أشدّ مما هو عند ذكورها.

لقد كانت علاقة (نازي) بالطاهي أقوى من علاقتها مع الآخرين _ باستثنائي _ لأنّ الأطعمة كانت تصدر من عنده، ولكنها كانت تبتعدُ عن عجز المنزل صاحبة السلطة والدين التي كانت تجتنب هي بدورها القطط وشعرها، لا بدّ أنّ (نازي) كانت تظنّ بأنّ بني البشر أذكى من القطط وأنهم احتكروا الأطعمة اللذيذة والأماكن المريحة الدافئة لأنفسهم وأنّ على القطط التملق كثيراً لتشاركهم هذه الحياة.

كانت غرائز (نازي) الطبيعية تستيقظ وتهيج عندما كان يقع بين مخالبها رأس ديكٍ دام فيحولها حيواناً مفترساً، وتصبح عيونها أكثر إتساعاً وبريقاً وتبرز مخالبها، وتهدد كل من يحاول الاقتراب منها بزمجراتها الطويلة، ثمّ كانت تلعب مع نفسها لعبة الخداع، فهي بما تملك من قوى ذهنية تظنّ رأس الديك حيواناً حياً، فكانت تضربه بيدها، تغضب ثمّ تخبّئ، تجلس في الكمين وتهجم من جديد، وكانت تبرز مهارة ورشاقة أبناء جنسها بقفزاتها وكرها وفرها المتتالي، وبعد أن تملّ من هذا الاستعراض كانت تبتلع الرأس الدامي بنهمٍ شديد، وتبحث عن بقاياها لبعض الوقت، وكانت تنسى تمدنها المصطنع لساعةٍ أو ساعتين، فلم تكن تقترب من أحد ولا تلاطف أحداً ولا تتملقه.

مع أنّ (نازي) كانت تُظهر الودّ إلّا أنّها متوحشة وانطوائية، ولم تكن تُطلع أحداً على أسرار حياتها، في حين كانت تعدّ منزلنا ملكاً لها، وإذا ما عبرت إحدى القطط الغربية _ خاصة الإناث منها _ بالقرب من مكانها كان يُسمع لها زمجرة وأناث طويلة.

كان الصوت الذي تصدره (نازي) للإخبار عن وقت الغداء يختلف عن الذي يُسمع عند (دلها)، وعويلها الذي كانت تصدره بسبب الجوع يختلف عن صراخها أثناء العراك وموائها أثناء المعاشرة، لقد كانت هذه النغمات تتبدّل: فالأولى كانت صرخةً من قلبٍ مجروح، والثانية كانت صرخةً كرهٍ وحقدٍ، والثالثة أنة مؤلمة تنبعث بسبب الحاجة الغريزية للوصول إلى قرينها، لكنّ نظرات (نازي) كانت ذات معنى أكثر من أي شيءٍ آخر، كانت تنمّ أحياناً عن بعض الأحاسيس البشرية، مما يجعل الإنسان يسأل نفسه بعفوية: ماذا يموج من أفكارٍ وأحاسيس خلف هذا الرأس الشعور والعيون الخضراء المليئة بالأسرار.

في ربيع العام المنصرم وقعت تلك الحادثة المروعة، كما تعلم في هذا الفصل تشمل كلّ الحيوانات وتجنّ، وكأنّ نسيم الربيع ينفخ فيها حماس الجنون، ولأول مرة أُصيب قطننا (نازي) بشغف العشق، وبعد ارتعاشة هزت كل جسمها كانت تننّ أناث حزينة، وعندما سمعت القطط

الذكور أناتها أحاطت بها من كل جانب مستقبلةً إيّاها، وبعد قتالٍ ونزاعٍ اختارت (نازي) من بينها الأقوى والأعلى صوتاً ليكون قريباً لها، إن رائحة الحيوانات الخاصة بها ذات أهمية كبيرة في معاشراتها، لهذا السبب فإن القطط المدللة الأهلية النظيفة ليس لها جاذبية أمام إنائها، على العكس من ذلك فإن قطط الأزقة والأسطح، والقطط السارقة النحيفة الضالة الجائعة التي تعكسُ جلودها رائحة عرقها الأصيل هي موضع اهتمامٍ وترحيب من قبل الإناث.

كانت (نازي) وحببيها يردّان ألحان عشقهم بصوت مرتفع أثناء النهار وطوال الليل، وجسّد (نازي) الرقيق الناعم يتموج بينما ينحني جسد الآخر كالقوس وهما يرسلان ألحان السعادة، كان هذا الأمر يستمرّ حتى بزوغ الصباح، بعدها كانت (نازي) تدخل الغرفة بشعرها المنفوش مرهقةً متعبةً ولكن سعيدة.

لم يغمض لي جفنٌ منذ ليالٍ طوال بسبب معاشرات (نازي)، وفي نهاية الأمر ثرت غاضباً، وفي أحد الأيام بينما كنت أعمل أمام هذا الشباك، رأيت العاشقين يتبختران في الحديقة، فتقدمت ثلاث خطوات وأطلقت النار من هذا المسدس الذي رأيته، أطلقت الرصاصات وأصابت حبيب (نازي)، بدا وكأن ظهره انكسر، فقفز قفزةً طويلة وهرب من باحة المنزل دون أن يصدر صوتاً أو أنيناً، وسقط أمام سور الحديقة الطيني ومات.

تلطّخت طريق هروبه بقطرات الدم، وعندما بحثت عنه (نازي) مدّةً من الزمن وجدت آثار أقدامه، واشتَمّت رائحة دمائه فاتّجّهت مباشرةً إلى جثّته، ووقفت تراقبُ جسده الميت لليلتين ويومين، كانت أحياناً تلمسه بيدها وكأنها تقول له: استيقظ، فقد جاء الربيع، لم خلدت إلى النوم في وقت الحب؟! لماذا لا تتحرّك؟! انهض انهض. لأن (نازي) لم تكن تدرك حقيقة الموت ولم تكن تدري أنّ حبيبها قد مات.

في اليوم التالي اختفت (نازي) واختفت معها جثة حبيبها، فرحت أبحث عنها في كل مكانٍ وأسأل عنها كل إنسان ولكن دون جدوى، هل غضبت (نازي) مني؟ هل ماتت؟ هل ذهبت باحثةً عن حبٍ جديد؟ وماذا حل بجثة ذلك الآخر إن؟

في إحدى الليالي سمعتُ صوت ذلك القط نفسه، أخذ يئنّ حتى الصباح وتكرّر ذلك في الليلة التالية، لكنّ صوته كان ينقطع مع إطلالة النهار، وفي الليلة الثالثة حملت المسدس وأطلقت رصاصةً باتجاه شجرة الصنوبر هذه الواقعة أمام شباكي، كانت عيناه تلمعان كالبرق في الظلام، أنّ أنةً طويلة وانقطع صوته، وفي الصباح كانت ثلاث قطرات من الدم قد سقطت تحت الشجرة، ومنذ تلك الليلة حتى الآن يأتي كل ليلة ويئنّ بذلك الصوت المعهود، بينما يغط الآخرون في نوم عميقٍ لذا فهم لا يسمعون، مهما أخبرتهم فإنهم يضحكون مني ولكنني أعرف، أعلم بأن هذا الصوت هو

نفسه صوت ذلك القط الذي قتلته، ولم يغمض لي جفنٌ منذ تلك الليلة حتى اللحظة، أينما ذهبت وفي أيّ غرفةٍ نمت، فإنّ هذا القطّ الظالم يئنّ طوال الليل بصوته المخيف منادياً رفيقته.

اليوم عندما لم يكن في البيت أحد، جئت وصوّبت إلى حيث يجلس ذلك القطّ كل ليلة ويصرخ، لأنني كنت أستطيع معرفة مكان جلوسه من لمعان عينيه في الظلام، وعندما أطلقت الرصاصة سمعت صوت أنينه، وسقطت بعدها ثلاث قطرات من الدم على الأرض، لقد رأيت ذلك بعينك، ألسنت تشهدُ معي؟

في هذه الأثناء فتح باب الغرفة ودخلت منه (رُخساره) وأمها، كانت (رُخساره) تحملُ في يدها باقةً من الورود، نهضتُ من مكاني وسلّمت، ولكن (سياوش) قال مبتسماً:

- من المؤكّد أنكم تعرفون السيّد (ميرزا أحمدخان) أفضل مني، هو غنيٌ عن التعريف، إنّه يشهد بأنّه رأى قطرات الدم الثلاث بأنّ عينه أسفل شجرة الصنوبر.

- نعم، لقد رأيته.

لكنّ (سياوش) تقدّم ضاحكاً مني وأدخل يده في جيبه وأخرج مسدسي ووضعه على الطاولة وقال:

- كما تعلمون فإنّ (ميرزا أحمدخان) لا يعزف الطنبور وينشد الشّعْر جيّداً فحسب بل إنّه صيادٌ ماهرٌ أيضاً، إنّه يصيّب الهدف بدقّة.

بعد ذلك أشار إليّ، فنهضت بدوري وقلت:

- نعم، جئت اليوم لكي آخذ من (سياوش) الدوسية المدرسية، فأخذنا نطلق النار نحو شجرة الصنوبر مدّة من الزمن على سبيل الترفيه، لكن قطرات الدم تلك ليست للقطّ إنها لطائر البوم، فكما تعلمون لقد أكل طائر البوم ثلاث حبّات من القمح كانت نصيب أحد الأطفال، لذا فهو يئنّ كلّ ليلة حتى تنزف من حلقه ثلاث قطرات من الدم، أو أنّ قطّةً أمسكت بكناري الجيران فأطلقوا عليها النار ثمّ مرّت من هنا، والآن سأنشد لكم زجلي الذي نظمته مؤخّراً، أمسكت الطنبور وضبطت اللحن مع الوتر وأنشدت هذه الأشعار:

آه من ليل الدياجي حلّ من غير ونام

ملاً الدنيا سواداً، منح الكون الظلام

أخلد الناس إلى الدهر فأهداهم سلام

حصتي من دهرهم كانت سهاماً من يباب

ليس في الدنيا سعادة ليس في الدنيا غناء

إن في موتي شفاء لي من هذا العناء

تحت صنوبرة الحديقة قطرات من دماء

ثلة من قطرات سقطت فوق التراب

وما أن وصلت إلى آخر جملة حتى خرجت والددة (رُخساره) من الغرفة غاضبةً، وقطبت (رُخساره) حاجبيها وقالت: إنه مجنون، بعد ذلك أمسكت بيد (سباوش) وقهقهوا ضاحكين ثم خرجوا من الباب وأغلقوه في وجهي، وعندما وصلوا إلى ساحة المنزل تحت الفانوس، رأيتهم من خلف الزجاج عندما ضم أحدهما الآخر وتبادلا القبلات.

تحليل القصة

قصة ثلاث قطرات من الدم هي إحدى قصص صادق هدايت التي نشرت ضمن مجموعة قصصية تحمل الاسم نفسه في عام (1932)، وتحتوي في مجموعها على إحدى عشرة قصة وهي: (الدوامة)، و(داس آكل)، و(المرأة المكسورة)، و(طلب المغفرة)، و(شقانق النعمان)، و(الأقنعة)، و(المخلب)، و(الرجل الذي قتل نفسه)، و(القلعة الميمونة)، و(المحلل)، بالإضافة إلى (ثلاث قطرات من الدم) التي تعد أهم قصص صادق بعد روايته المشهورة (البومة العمياء)، وهي من الآثار التي كتبها صادق في المرحلة الأولى من ازدهاره الأدبي كما رأينا سابقاً، ويعدّها البعض حقل التجارب الذي كان يتمرن فيه صادق على كتابة رائعته الأدبية (البومة العمياء)، ويرون في الوقت ذاته أن (القط الأسود) قصة (ادجار الآن بو) الشهيرة قد تركت بصماتها على هذه القصة (33)، فوجود صادق في فرنسا بين عامي (1926_1930) أدى إلى تأثره بالمذهب السريالي الذي كان آنذاك في قمة عطائه الأدبي، وأدى هذا التأثير في النهاية إلى ظهور قصص مثل: (البومة العمياء)، و(ثلاث قطرات من الدم)، و(الموودة)، و(الكلب الضال)؛ فقصة (ثلاث قطرات من الدم) من جهة_ قصة سريالية تُسرد فيها الوقائع الكامنة ما وراء (sur) الحقيقة (real) المتعارف عليها، ومنشأ هذه الحقائق المحرقة أو الأوهام هو ضمير اللاوعي، أو بعبارة أخرى (الروح)، فنحن هنا أمام تجليات الروح اللاواعية (The unconscious manifestations of the soul) (34). ومن جهة أخرى تعتبر قصة نفسية (Psychological novel)، وكما نعلم فإن هذا النوع من الأدب يقوم على سرد الأمور الذهنية لا العينية، فهي حتى وإن كتبت بأسلوب (واقعي) إلا أن جزئيات القصة في النهاية في الدرجة الثانية من الأهمية، وما هو مهم هنا في الدرجة الأولى أحاسيس الشخصية الأولى وعواطفها واعتقاداتها وقيمها التي تشكّل المحور الأساسي في القصة.

إن الرواية (النفسية) كما يقول يونغ تفسّر نفسها بنفسها لدرجة الاكتفاء الذاتي (-self-contained)، وما يمكن للمحلل النفسي _و حتى الناقد_ فعله تجاه ما يسمّى بالرواية النفسية (السريالية) هو نقد الرواية لا تحليلها وتفسيرها، أو إضافة بعض التوضيحات البسيطة إلى التفسير الموجود (35). وفي هذا القول شيء من الصحة، لكننا هنا نتعامل مع نصّ يسوده قدر كبير من الغرابة والغموض الذي خالط كثيراً من أحداث وشخوص القصة، وأدى إلى تعقيد أحداثها، وغموض شخوصها، وتصرفاتهم، ومن ثمّ إلى صعوبة في فهمها، لذا كان لابدّ من تفسير وشرح مجرياتها، وتوضيح الروابط التي تربط أجزاءها المبعثرة في الظاهر، وما يساعدنا في ذلك هو بناء القصة البسيط الذي يعرض لنا الكاتب من خلاله عالماً من الحزن الشديد، واليأس العميق القديم أثقل كاهله، يضاف إلى ذلك التصعيد الطبيعي للأحداث التي أقام عليها قصته، وهو تصعيد يتواءم تماماً مع ملامح وأبعاد شخصية الراوي في مراحلها المختلفة برغم الغموض الذي يسود الموقف، وما يشعر به القارئ بعد قراءة هذه القصة للمرة الأولى أقرب إلى إحساس غريب منه إلى فهم المعنى، ولكن بعد قراءة القصة مرات عديدة يستطيع آنذاك ربط تلك الأجزاء المبعثرة، وفهم تلك الرموز المبهمة، والوصول إلى عمق المعنى المقصود، وهذه الصفة في الواقع لا تختص بقصص صادق وحدها، وإنما نراها في ذلك النوع من القصص التي تغيب عنها الحبكة (plot) التقليدية، ونقصد بذلك القصص السريالية التي تتقطع الأواصر بين أحداثها ومجرياتها.

في هذه القصة كما في قصص صادق هدايت المشابهة تشكل ملاحظات الراوي_ الذي يُعدّ في نفس الوقت شخصية القصة الأولى_ الدعامة الأساسية فيها، وكما هو أسلوب صادق المعتاد في مثل هذه القصص نراه يبدأ بسرد ما يحدث في الزمن الحاضر ثمّ يعود للماضي ليخطّ ما يجول في ذهنه من خواطر، ولا يسلم نفسه هنا للأحداث لتنتقله من زمن إلى آخر، وإنما يفعل ذلك عن وعي تام لغاية في نفسه. تبدأ أحداث القصة بسردٍ سلس هادئ يرافقه بعض الغموض الذي يثير في أذهاننا زوبعة من الأسئلة تجبرنا في النهاية على متابعة القصة للحصول على أجوبة، وبعد أن يطمئن الراوي إلى أنه استحوذ على أذهاننا وانتباهنا يسترسل واصفاً الطبيعة بما فيها من جمال، ثمّ يعطينا لمحة سريعة عن وضعه النفسي السيء والمكان الذي يعيش فيه، ولكن الغموض والإبهام ما زالا يحيطان بالأحداث؛ فالحقنة والناس غريبو الأطوار وذلك المكان المجهول أمور تثير في أذهاننا الكثير من الأسئلة، ثمّ تبدأ الرموز بالوضوح ويزول الإبهام، ونبدأ بالتعرف على المكان شيئاً فشيئاً، ولكننا حتى هذه اللحظة لا نعرف اسمه لكن له علامات، فهو مكان لا يتوافر فيه الطعام الكافي وساكنوه يحلمون بملء بطونهم، إنهم مجموعة من المجانين، فأحدهم شقّ بطنه والآخر فقاً عينه، وطبيبهم لا يفقه شيئاً ومديرهم سبقهم بجنونه وتصرفاته المريبة. من هذه الإشارات نستنتج أن الراوي في مستشفى للمجانين، بعد ذلك يعطينا صورة واضحة عن الحالة

النفسية لهؤلاء المرضى الذين ابتلي كل واحد منهم بمرض ليس له علاج، مرض كان السبب في وجودهم في مثل هذا المكان، لكن من هم هؤلاء الأشخاص في حقيقة الأمر؟

ترمز كل من هذه الشخصيات إلى شريحة من شرائح المجتمع الذي يشبهه صادق هنا بمستشفى المجانين، ويعرضها بهذا الشكل عامداً ليصور للقاريء الاختلالات الفكرية والسلوكية لدى كل واحدة من هذه الشرائح، إنه عالم مليء بالمجانين ذوي المذاهب المختلفة، وكثيراً ما يشبه صادق الدنيا في كتاباته بأنها مأوى للنفوس غير السوية، ففي قصته (الموودة) يلعب صادق _كما في هذه القصة_ دور الشخصية الرئيسية أو الراوي، ويقول في معرض حديثه عن الدنيا: ". . . عندها بدأ الشك يساورني في أنني ربما قد جننت، فأخذت أضحك من نفسي وأضحك من الحياة، كنت أعلم أن كل واحد منا يلعب دوره _كما يتخيله_ في هذا المسرح الكبير الذي يسمى (الدنيا) حتى يأتيه الموت، فبدأت دوري باكراً لعلمي أن الحياة لن تبقيني لفترة طويلة(36) . . ."

إن شخصية (حسن) لا بدّ وأنها تمثل أولئك السعداء الذين لا همّ لهم سوى إشباع رغباتهم، فأمنيته تكمن "في أن يتناول قدرًا مليئًا بالحساء مع أربعة أرغفة من خبز القمح" إنه "أحد سعداء هذا المكان"، أما ذلك المجنون الذي شقّ بطنه فهو رمز للجلادين والقتلة الذين اعتادوا القتل والتعذيب، والذي فقأ عينه يشير إلى تلك الثلة التي هزمها الواقع، فهم حاقدون عليه وفي جدال مستمرّ معه، بينما ترمز (صغرى سلطان) العجوز _التي "كانت تزين وجهها بجبس الحائط، وتجعل من فتيلة الشمع المحروقة حمرةً له، ظانةً بأنها ابنة الأربعة عشر عاماً" _ إلى الأشخاص الذين فشلوا في حياتهم الزوجية وأصيبوا بعقدة نفسية (جنسية) جعلتهم يرفضون فكرة تصديق الحقيقة التي يعيشونها، هم كبار في السن لكنهم أصحاب عقول محدودة وطفولية، ويشبهها في هذه العقدة الجنسية (تقي) الذي "كان يريد أن يقلب الدنيا رأساً على عقب، فعلى الرغم من اعتقاده بأن المرأة هي سبب شقاء الناس، وأنه لا بدّ من قتل كل النساء لإصلاح الدنيا، إلا أنه أضحى عاشقاً لصغرى سلطان"، لكن عقده تجلّت في محاربته للجنس الآخر ومن ثمّ إلى إنكاره الواقع، لذلك نرى أنه على الرغم من كرهه للجنس الآخر، إلا أنه يميل إليه باطنياً.

نتجلى لدينا بعد ذلك صورة أخرى لطبيعة العلاقة بين هؤلاء الأشخاص، والتي تكمن في علاقتهم بمسؤولي المستشفى، فمدير المستشفى إنسان عصبي المزاج، له عينان صغيرتان كعيون المدمنين، وكما يقول الراوي فقد "سبق جميع المجانين بجنونه"، إنه إنسان دموي وقاتل لا يرحم، فهو يضع المصائد للقطط ويقتلها، وقطرات الدم الثلاث تلك تشهد على جرائمه البشعة، لكنه يقول بأنها لطائر البوم _الذي يذكره صادق هنا كنوع من المبالغة في إضفاء جو من التشاؤم على النص_ لهذا فهو قاتل وكاذب محتال أيضاً، وإذا كان هؤلاء المجانين هم رموز لشرائح المجتمع فلا بدّ وأن يكون المدير رمز للحاكم والمستشفى بطبيعة الحال هو المجتمع، بينما يلعب

(عباس) _رفيق الراوي وجاره_ دور المفكر المتنور، فهو يعتقد بأنه نبي وشاعر وفي نفس الوقت يؤمن بالخط، وهو مختل السلوك كالآخرين، إناً فهو عالمٌ غريب يضمّ في أكنافه مجموعة من المجانين الذين تقصّ تصرفاتهم وضحكاتهم ونوبات بكائهم مضجع الراوي، الذي يعلم بدوره بأنه لا ينتمي إلى هذا المكان، ولا إلى هؤلاء الناس، فالفارق بينهم كبير، ونلاحظ حتى هذه اللحظة بأن الشخص العاقل الوحيد في هذه المجموعة هو الراوي، فتصرفه يبدو بالنسبة لغيره طبيعياً، لكن سنرى في النهاية أنه ليس إلا واحداً منهم.

من خلال استعراض الحاضر يستحضر الراوي الماضي، فقد قاده تداعي (الصور) إلى العودة إليه، وذكره الحاضر بصورةٍ للماضي لاحت في ذهنه فاسترسل في استعراضها ووصفها حتى شغلت أكثر من ثلثي القصة، فتلك الفتاة التي جاءت مع والدتها إلى المستشفى لزيارة (عباس) كانت تبتسم للراوي على الرغم من أنها جاءت لزيارة صديقه، لقد كان متأكداً من أنها جاءت رغبةً في رؤيته، لكن في النهاية نرى أنها تقبل (عباس)، لقد أعاد هذا الموقف لذهن الراوي ذكرياته مع صديقه (سياوش)، إنّ النهاية المتشابهة لكلا الحادثتين هو السبب في استرجاع الماضي وتداخيه لذهن الراوي، فعلى الرغم من أن (رخساره) هي خطيبة الراوي، إلا أنها أظهرت حبها لسياوش وقامت بتقبيله، أما تلك القصة التي يرويها (سياوش) عن قطته (نازي) فتتطابق تماماً مع هاتين الحادثتين، فنازي التي كانت تتودّد لسياوش وتمسح فمها بوجهه وتعلق جبينه بلسانها وتصرّ على أن يقبلها، عاشرت قطاً مشرداً في نهاية المطاف، نحن إذن أمام ثلاث وقائع متشابهة، اثنتان منهما حدثتا للراوي شخصياً وتتصلان مباشرة بحياته، والثالثة مشهد يعكس عن ذهن (سياوش) الذي هو بدوره صورة أخرى لمجريات حياة الراوي، لكنها تختلف عن سابقتها في أنها تحدث في عالم الحيوان ولا يشهدها الراوي بنفسه، وكأنه يرويها لنا للتأكيد على معنى تلك الأحداث التي تحصل في عالم البشر، ثم نسق هذه الوقائع الثلاث _المتباعدة في الظاهر_ جنباً إلى جنب بمهارة بالغة، بحيث يربطها مضمون (Theme) واحد مشترك كرّره عامداً ليثبت بشكل قاطع ما يجول في ذهنه، وبتحليلنا لهذه الوقائع نصل إلى ذلك المضمون الواحد.

إنّ دنيا الراوي الخارجية التي تتمحور حول علاقته بصديقه (سياوش) تشبه دنياه الداخلية في مستشفى المجانين إلى حدّ التطابق، لأن بيت (سياوش) لا يختلف عن المستشفى، ففي كلا المكانين توجد شجرة صنوبر، والغرف الزرقاء المطلية حتى وسطها بلون قاتم _التي ترمز في نفس الوقت لهذا العالم الذي يعيش فيه الناس_ متشابهة أيضاً، والشبه بين (سياوش) ومدير المستشفى واضح، فكلاهما ارتكب جريمة وقطرات الدم الموجودة تحت شجرة الصنوبر تشهد على ذلك، وسلوك (سياوش) مع الراوي بشكل عام ومع خطيبة الراوي بشكل خاص يشبه سلوك (عباس)، فكلاهما حصل على الفتاة التي أحبها الراوي، إن فهماً عالماً تطابقاً ليشكلاً عالماً واحداً ومرفوضاً في نفس الوقت عند الراوي، إنه عالم بشع وذو ملامح قبيحة أوجد في نفسه ذلك

التشاؤم الذي لا يسعى لكتمانه، بل يصرح به في بداية القصة، فيقول في معرض كلامه عن طبيب المستشفى: "لو كنت مكانه لسكنت السم في طعام العشاء للجميع ثم لقدّمته لهم ليأكلوه"، إن روح التشاؤم هذه ساقته إلى الاعتقاد بعثية الحياة، وقادته إلى إساءة الظن بالآخرين، فهو يظن بأنهم قد سكبوا له السم في الطعام، فلا يمدّ يده إليه قبل الآخرين، ويصحو في الليل مذعوراً ظاناً أنهم جاءوا لقتله، لكن هل هذا التشاؤم نابع من فلسفته الخاصة؟

عند الرجوع إلى زكريات الراوي التي عاشها مع (سياوش) سنرى أن هذا التشاؤم لم يأت من فراغ، بل هو نتيجة حتمية لتجربة عاشها مع الآخرين، تلك التجربة التي يصفها في كتابه (الموودة) بأنها هي التي صنعت وجوده الوهمي فيقول: ". . . هذه الأفكار وهذه الأحاسيس هي ثمرة لحياتي ونتيجة لأسلوبها وللأفكار المتوارثة ولما رأيت وسمعت وقرأت وأحسست، وكلها أمور صنعت وجودي التافه الوهمي" (37)، لذا نرى في النهاية أن الراوي _الذي كان الشخصية السوية الوحيدة في القصة_ يتحوّل كالآخرين، فيصبح كلامه تكراراً لما قاله (سياوش) والمدير، وعزفه على الطنبور وإنشاده للشعر تقليداً لعباس، حتى إنّ هذه الصفات انتقلت إلى وجوده وجعلته يبدو في نظر الآخرين مجنوناً يجب الابتعاد عنه، لكن ما العلاقة بين عالم القط _الذي أخذ يتشكّل مع زكريات (سياوش)_ وبين العالمين الآخرين؟

إن عالم القط الذي يشبه إلى حدّ كبير عالم البشر، ما هو إلا وجه ثالث للعالم الذي عاشه الراوي، ويورده هنا ليثبت أن العلاقات التي تحكم البشر موجودة أيضاً في عالم الحيوان، وهو قانون الطبيعة الذي تتحكم فيه قوى مبهمّة خارقة، لذا جاء وصفه لتصرفات القطه وصفاتها الخلقيّة والخلقيّة مشابهاً إلى حدّ بعيد لتلك الخاصة بالنساء، حتى أن الاسم الذي اختاره للقطه هو اسم نسائي، ومع أنّ وصف الراوي لسلوكيات البشر في القصة لم يكن مفصلاً في النصّ إلا أن سلوك هذه القطه ووصفها بتلك الصفات البشريّة جاء مفصلاً مقارنةً بحجم القصة، ويبدو أنه أراد من ذلك كلّ إبراز تلك العلاقات السطحيّة التي تحكم الروابط البشريّة من خلال تطبيقها على عالم الحيوان، فسلوك الفتاتين تجاه الراوي يدل على عدم الوفاء بالعهد، وعلى الخيانة التي طالما تحدّث عنها صادق في قصصه ورواياته، ويشبه تلك العلاقة القائمة بين (سياوش) و(نازي) من جهة وبين (نازي) والطباخ من جهة أخرى، ويعزو (سياوش) وجود مثل هذه الازدواجية في سلوك (نازي) وعدم وفائها بعهد الصداقة إلى أنّ "مكر إناث القط أشدّ مما هو عند ذكورها"، ونجد هذا المكر في طريقة اختيار الحبيب، فهي تختار من بين القطط الذكور الأقوى والأعلى صوتاً ليكون قريباً لها، "فالقطط المدلّة الأهلية النظيفة ليس لها جاذبية أمام إناثها، على العكس من ذلك فإنّ قطط الأزقة والأسطح والقطط السارقة النحيفة الضالّة الجائعة التي تعكس جلودها رائحة عرقها الأصيل هي موضع اهتمام وترحيب من قبل الإناث"، وطريقة الاختيار هذه تشبه طريقة اختيار الفتاتين لحبيبيهما، فالفتاة التي جاءت لزيارة (عباس) كانت تبدي اهتمامها بالراوي

وتعلقها به، ويعود ذلك برأيه إلى أن وجه (عباس) المجدور ليس جميلاً، لكن في نهاية الأمر نجد أن اختيار الفتاة يقع على (عباس)، وكذلك الأمر بالنسبة لرخسارة خطيبة الراوي التي استطاع (سياوش) أن يستدرجها لتقع في حبه، وأن يثبت ببراعة ودهاء للجميع أن الراوي مجنون، إذن فالتشابه بين هذه العوالم الثلاثة واضحٌ وجلي والفرق الوحيد بين عالمي الراوي وهذا العالم هو أن مجانيين هذا العالم هم من الحيوانات.

الغز الوحيد الذي لم يتم حله إلى الآن هو لغز قطرات الدم الثلاث، فما السرّ الكامن خلف هذه القطرات الثلاث التي تكررت مراراً في أرجاء القصة المختلفة وكانت عنواناً للقصة؟ لا بدّ أن سرّ هذه القطرات يكمن في تلك الجرائم التي تقوم عليها القصة، تلك الجرائم التي يعتقد الراوي بأن فاعليها قد ارتكبوها في حقّه، وهذه القطرات الثلاث، وتلك الأنات والصرخات المرعبة التي تظهر في الليل، وتخفي هي آثار تلك الجرائم التي لا تزول، ومن هنا جاءت فلسفة التكرار تلك، إنّ جميع شخوص القصة قتلة بشكل أو بآخر، فمدير المستشفى الكامن للقطط بالمرصاد والكاذب المحتال هو قاتل، و(سياوش) و(عباس) والفتاتان قتلة أيضاً، فخيانتهم للراوي جريمة لا تغتفر، إذن الجميع مجرمون لأنهم سلبوا الراوي اعتماده وثقته في الدنيا والبشر، وأثار هذه الجنايات خالدة لا تمحى وستنقض مضاجعهم إلى الأبد.

ربّما كان لهذه القطرات الثلاث معنى آخر، فصادق يتحدث في قصّته عن العشق (المثلث) الشكل، ففي مستشفى المجانين يأتي رجل وامرأة وفتاة لزيارة عبّاس، من الواضح أن الفتاة تحب الراوي، لكنها في النهاية تقبل عبّاس. هذا المشهد يتكرر أيضاً في الجزء الثاني من القصة، (رخساره) التي هي ابنة عم (سياوش) وخطيبة الراوي، تغازل (سياوش) في نهاية المطاف. لا بدّ لنا هنا من أن نأخذ بأراء بعض النقاد الآخرين حول هذا الأمر لكي نصل في النهاية إلى التحليل الذي نراه مناسباً. يقول ميرعابديني: "في الحقيقة المدير وعبّاس وسياوش هم بعد آخر لشخصية الراوي المعقّدة والمتناقضة" (38). أو كما يقول جهانجير هدايت بأن هذه الشخصيات الثلاث هي "كما لو وقف أحدهم أمام مرآة بثلاثة أجزاء" (39). أي أنها تعكس صورة الراوي نفسه بطرق مختلفة. فهذه الشخصيات هي انعكاس لطموحات وأمني نفسية لم تتحقق للراوي، فيعكسها في تصرفات شخوص قصّته. فعندما يضع (عبّاس) و(سياوش) أيديهم في أيدي محبوباتهم مبتعدين، يقف الراوي ينظر إلى هذا المنظر متحسراً آملاً في قرارة نفسه أن يكون مكانهما، وأن ينال وصال المعشوق. أما قطرات الدماء الثلاث فهي ربّما ترمز إلى تلك الحاجة القلبية الحارقة للراوي، فهو يحترق في عشقه الأفلاطوني ويتعاش كالشعراء الرومانسيين وأحزانه وآلامه.

Studying and Analysis and Translation of "Three Drops of Blood" By (Sadiq Hidayat)

Nour M. Alqudah and Bader A. Oliwah, Faculty of Arts, Yarmouk University, Irbid, Jordan.

Abstract

Sadiq Hidayat is the most prominent contemporary Iranian writer at all. Most of his works have been universal in nature, and some of which have been psychic-surrealistic. Some of his works are also close to the brink of hallucination and madness, and some have a sense of humor which entails harsh criticism. All of his works indicate their different intellectual streams that reflect the writer's hesitating psyche. Here, we are studying one of Sadiq Hidayat's mysterious surrealistic stories which he wrote while he was suffering from a painful psychological crisis called life. The "three drops of blood" is not but the story of that world Sadiq used to live in as he sees it and not as the real world. It is a crazy world full of insane, killers, and criminals, people who do not hesitate to commit any betray or crimes even against friends; it is a world that the writer has not written about by selecting its courses, but he was able to end it in his way. This story embodies that pessimism and depression hidden in his soul.

Key words: Sadiq Hidayat, three drops of blood, pessimism, psychic-surrealistic, symbols.

قدم البحث للنشر في 2009/1/21 وقبل في 2011/5/15

الهوامش

- 1_ يحيى آرين بور، از نيما تا روزگار ما، تهران، انتشارات زوار، 1382، ص333.
- 2_ محمد جعفر ياحقي، جويبار لحظهها، تهران، جامي، 1385، ص237.
- 3_ ايرج بارسى نژاد، روشنگران ايراني ونقد ادبي، تهران، سخن، 1380، ص275.
- 4_ يحيى آرين بور، مرجع سابق، ص334.
- 5_ ونسان مونتي، درباره صادق هدايت (نوشتهها وانديشهها)، ترجمه حسن قائميان، تهران، جاب دوم، 1331، ص29.
- 6_ محمد جعفر ياحقي، مرجع سابق، ص237.
- 7_ جهانگير هدايت، سه قطره خون، تهران، نشر چشمه، 1381، ص8.

- 8_ يحيى آرين بور، مرجع سابق، ص337.
- 9_ تشكّل دراسات صادق هدايت حول ثقافة العوام جزءاً مهماً من اهتماماته البحثية، فهو يعتبر الفن والأدب الشعبي خلاصة لأهم الآثار المعنوية والفنية البشرية، ويهتم بثلاثة جوانب من هذا الأدب وهي: الأهازيج والقصص والخرافات والأساطير. (لمزيد من الإطلاع أنظر: (نوشته‌هاي فراموش شده، مريم دانايي برومند، تهران، انتشارات نگاه، 1376) و(نوشته‌هاي براكنده، صادق هدايت، با مقدمه حسن قائمیان، تهران، انتشارات امير كبير، 1344).
- 10_ محمد دهقاني، بيشكامان نقد ادبي در ايران، تهران، انتشارات سخن، 1380، ص323.
- 11_ جهان‌گیر هدايت، مرجع سابق، ص8.
- 12_ يحيى آرين بور، مرجع سابق، ص341.
- 13_ عارف أحمد الزغول، دراسة وتحليل قصة (الكلب الضال)، مجلة كلية اللغات والترجمة، العدد الخامس والأربعون، 2009، ص118.
- 14_ محمد جعفر ياحقي، مرجع سابق، ص239، 240.
- 15_ ايرج بارسي نژاد، مرجع سابق، ص277.
- 16_ سيروس شميمسا، كليات سبك‌شناسي، تهران، انتشارات ميترا، 1384، ص18.
- 17_ Geoffrey N. Leech & Michael Short, Style in Fiction (a linguistic Introduction to English Fictional prose), London, Longman, 1981, p. 17.
- 18_ يحيى آرين بور، مرجع سابق، ص416.
- 19_ عارف أحمد الزغول، مرجع سابق، ص121.
- 20_ صادق هدايت، مازيار، تهران، انتشارات جاويدان، 1312، ص122 و129.
- 21_ صادق هدايت، بيايم كافكا (مقدمه‌اي بر كروه محكومين)، ترجمه حسن قائمیان، تهران، جاويدان، 1342، ص12 و13.
- 22_ صادق هدايت، سه قطره خون، تهران، انتشارات جاويدان، 1311، ص11.
- 23_ المرجع نفسه، ص10.
- 24_ صادق هدايت، بوف كور، تهران، انتشارات جاويدان، 1331، ص10.
- 25_ صادق هدايت، سه قطره خون، ص10 و64.
- 26_ Richard Flower, Sadegh-e Hedayat (1903 _ 1951), Eine literarische Analyse, Berlin, 1977, s. 303.
- 27_ Richard Flower, s. 304 .
- 28_ صادق هدايت، بيايم كافكا، ص9.
- 29_ أنظر :

- Press, 1982 .Heller H. Franz Kafka, Princeton, Princeton University:
- & Deleuze G. and Guttari, F. Kafka: Toward a Minor Literature, Minneapolis, University of Minnesota Press, 1986 .
- 30_ عمر الخيام، الرباعيات، ترجمة أحمد الصافي النجفي، دمشق، مطبعة التوفيق، 1931، ص59.
- 31_ صادق هدایت، بوف كور، ص101.
- 32_ المرجع نفسه، ص99.
- 33_ يحيى آرين بور، مرجع سابق، ص410.
- 34_ سيروس شميّسا، داستان يك روح، تهران، انتشارات فردوسي، 1376، ص22.
- 35_ C. G. Jung, The Collected Works, Translated by: R. F. C. Hull, v15, (The Spirit In Man, Art, And Literature), London, Routledge & Kegan Paul, 1966, P 88.
- 36_ صادق هدایت، زنده بگور، تهران، انتشارات جاويدان، 1309، ص4.
- 37_ المرجع نفسه، ص1.
- 38_ حسن ميرعابدینی، صد سال داستان‌نویسی در ایران، تهران، نشر چشمه، 1381، ص103.
- 39_ جهانگیر هدایت، سه قطره خون، ص43.

المصادر والمراجع الفارسیّة

- آرين بور، يحيى، از نيما تا روزگار ما، تهران، انتشارات زوار، 1382.
- بارسي نژاد، ايرج، روشنگران ايراني ونقد ادبي، تهران، سخن، 1380.
- الخيام، عمر، الرباعيات، ترجمة أحمد الصافي النجفي، دمشق، مطبعة التوفيق، 1931.
- دهقاني، محمد، بيشكامان نقد ادبي در ايران، تهران، انتشارات سخن، 1380.
- الزغول، عارف أحمد، دراسة وتحليل قصة (الكلب الضال)، مجلة كلية اللغات والترجمة، العدد الخامس والأربعون، 2009.
- شميّسا، سيروس، كليّات سبك‌شناسي، تهران، انتشارات ميترا، 1384.
- شميّسا، سيروس، داستان يك روح، تهران، انتشارات فردوسي، 1376.
- مونتّي، ونسان، درباره صادق هدایت (نوشته‌ها وانديشه‌ها)، ترجمه حسن قائمیان، تهران، جاب دوم، 1331.

- میرعابدینی، حسن، صد سال داستان نویسی در ایران، تهران، نشر چشمه، 1381.
- هدایت، جهانگیر، سه قطره خون، تهران، نشر چشمه، 1381.
- هدایت، صادق، مازیار، تهران، انتشارات جاویدان، 1312.
- هدایت، صادق، پیام کافکا (مقدمه‌ای بر گروه محکومین)، ترجمه حسن قائمیان، تهران، جاویدان، 1342.
- هدایت، صادق، سه قطره خون، تهران، انتشارات جاویدان، 1311.
- هدایت، صادق، زنده بکور، تهران، انتشارات جاویدان، 1309.
- یاحقی، محمد جعفر، جویبار لحظه‌ها، تهران، جامی، 1385.

المصادر والمراجع الأجنبية

- Geoffrey N. Leech & Michael short, *style in fiction (a linguistic introduction to English fictional prose)*, London, Longman, 1981.
- C. G. Jung, *The Collected Works*, Translated by: R. F. C. Hull, v15, (The Spirit In Man, Art, And Literature), London, Routledge & Kegan Paul, 1966.
- Richard Flower, *Sadegh-e Hedayat* (1903 _ 1951), Eine literarische Analyse, Berlin, 1977.

أيدولوجيا الدور الجندري في المجتمع الأردني

دراسة سوسيولوجية لقياس المسافة الجندرية بين جيلي الآباء والأبناء

محمد عبد الكريم الحوراني*

ملخص

سعت الدراسة الراهنة إلى الكشف عن طبيعة أيدولوجيا الدور الجندري لدى عينة من الطلبة (ذكور وإناث)، ووالديهم (آباء وأمهات). ومن ثم قياس المسافة الجندرية بين أيدولوجيا الآباء والأبناء. بلغ حجم العينة الكلية للدراسة (839) وحدة تم اختيارها بطريقة عشوائية.

وباستخدام تحليل التباين الأحادي، وتحليل التباين الثنائي أظهرت الدراسة أن الآباء والأبناء الذكور يمتلكون أيدولوجيا دور جندري تقليدي، بينما تمتلك الأمهات والبنات أيدولوجيا دور جندري ليبرالية، كما تبين أن المسافة الجندرية (الفروقات في الاتجاهات) بين جيلي الآباء والأبناء متدنية للغاية، إذ بلغت (6%) فقط، كما تبين أنه لا توجد علاقات ذات دلالة إحصائية بين المتغيرات المستقلة، والمتغير التابع (الأداة ككل)، باستثناء المستوى الدراسي للأبناء.

المصطلحات الأساسية: الجندر، أيدولوجيا الدور الجندري، المسافة الجندرية، أيدولوجيا جندرية ليبرالية، أيدولوجيا جندرية تقليدية.

المقدمة:

لا يمثل الجندر Gender (النوع الاجتماعي) أمراً فطرياً. بل هو شيء نقوم بصناعته، ونعيد صياغته في ممارساتنا، فالرجل والمرأة بالمعنى الاجتماعي - الثقافي يؤديان أدوار هويتهما بالاستناد إلى ما يشكل الذكورة والأنوثة من معاني متداولة في الثقافة السائدة. وضمن الثقافة العربية عموماً يطلب من الرجل أن يكون قاسياً، ومبادناً، وأحياناً عنيفاً. وبالمقابل يطلب من المرأة أن تكون جذابة جسدياً، ولطيفة وسلبية.

إن هذا التنميط ليس مقصوداً على الثقافة العربية، إذ يؤكد بست وThomas أن هذا التنميط ليس مقصوداً على الثقافة العربية، إذ يؤكد بست وThomas أنه من الناحية النموذجية يرتبط الدور الجندري الذكوري male Gender role بالاستقلالية، والمبادأة، والسيطرة، بينما يرتبط الدور الجندري الأنثوي Female Gender role

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

بالسمات التعبيرية مثل الحساسية إزاء الآخرين، والتوجه العلائقي، ويؤكد الباحثان أن الناس لا يشتركون فقط في الصور النمطية للأدوار الجندرية، لكنهم يستخدمونها أيضاً في وصف أنفسهم. (Best and Themans:2004). ويذهب رونالد Ronald وزملاؤه إلى أن أبرز معايير الأيدولوجيا الذكورية التقليدية تتمثل في: تجنب الأشياء الخاصة بالنساء والمقدرة على النجاح والإنجاز بشكل مستمر، وعدم إظهار علامات الضعف والبحث عن المغامرة والمخاطرة، والعكس بالنسبة لمعايير الأيدولوجيا الأنثوية التقليدية (Ronald: et al:2007.84)

ويذهب جوزيف ديجراسيس Deogracias وزملاؤه إلى أنه: عبر العالم يسأل الوالدان عند ميلاد طفل جديد (ولد أم بنت؟). إن هذا السؤال يكشف عن أهمية كبيرة تضيفها جميع المجتمعات الإنسانية على الفروقات بين الرجال والنساء. يركز هذا الانقسام على أساس التمييز البيولوجي بين الذكور والإناث، ومع ذلك، فإن جميع المجتمعات تطور هذه الحقيقة البيولوجية إلى أفكار غير بيولوجية حول "الذكورة" و"الأنوثة". إن هذه الفروقات المطورة اجتماعياً لا تشير إلى الجنس، بل تشير إلى "الجندر"، أي الفروقات المتعلمة اجتماعياً بين الرجال، والنساء. بمعنى آخر، ذكر أم أنثى ما نحن عليه بالميلاد، ولكن معاني الذكورة والأنوثة ومتطلباتها تمثل ما نصبح عليه بموجب التنشئة الملائمة. وهكذا، يشير الجندر إلى الخصائص المكتسبة اجتماعياً مثل الفروقات في موضة الشعر، وأنماط اللباس، والأدوار المهنية، والنشاطات... (Deogracias: 2007)

تبدأ عملية تعلم الأدوار الجندرية، والصور النمطية المرتبطة بها منذ الطفولة المبكرة. وهنا يبرز دور الأسرة باعتبارها محطة تنشئية هامة تنطلق منها الإشارة إلى الذكور بأنهم أقوياء، وإلى البنات بأنهن رقيقات وناعمات. إن هذه الإشارات تمثل بداية التنميط الجندري في عملية التنشئة الأسرية. (أنظر: شيتوي:1999) وتبرز أهمية الأسرة في تكريس الدور الجندري - كما يشير بانكس Banks- باعتبارها تمثل وسيلة هامة للفعالية الذاتية أو حقائقية الذات Self-Actualization أي إظهار الذات المتشكلة اجتماعياً باعتبارها حقيقة. (Banks: 2007) وتترافق هذه الحالة مع إدراك الفرد وشعوره كذلك بأنه رجل أو امرأة، وتتعزيز المدركات والمشاعر بالتصرفات الاجتماعية التي يعممها المجتمع على أنها ذكورية أو أنثوية (Mahalik: 2005)، حيث لا تتوقف عملية إكتساب التوقعات الجندرية عند حد الأسرة، بل يعاد إنتاجها عبر محطات التنشئة الاجتماعية، والمؤسسات المجتمعية المختلفة. وهكذا فإن أعضاء أي مجتمع يميلون إلى افتراض بأن أشكال معينة من الذكورة والأنوثة تمثل جزءاً من الطبيعة الإنسانية، وليس باعتبارها أنماطاً يطورها المجتمع.

تعدّ دراسة أيديولوجيا الأدوار الجندرية بالغة الأهمية حيث تعمل هذه الأيديولوجيا بما تتضمنه من اتجاهات وصور نمطية، على فلترة المعلومات، وتنظيمها وتذكرها. ولأنها تجسد بناءات مبسطة ومعقدة لظواهر معقدة، فإنها يمكن أن تؤثر - وغالباً بشكل سلبي - في أداء الأفراد (Sherman and Frast:2000). كما تعتبر أيديولوجيا الدور الجندري تقييدية Constraining، ولذلك فإنها تحد من إمكانيات الأفراد، وتجعل السمات المنحازة للأفراد طبيعية أو اعتيادية، ومن ثمّ تحافظ على الوضع القائم وقد أظهرت العديد من الدراسات أن أيديولوجيا الدور الجندري تحول دون المساواة في فرص الحياة، وتوقف التطور باتجاه المساواة في الحرية، بل وتحدد طموحات الأفراد وتطلعاتهم. (رمزي:2002، Colaner and Giles: 2008)

ووفق ما تؤكد طروحات نظرية ساندرام Bem الموسومة بنظرية المخطط الجندري Gender schema theory، فإن الأفراد المخططين جندرياً Schematic Individuals يميلون إلى استخدام الجندر كأساس لتنظيم المعلومات ومعالجتها حول أنفسهم والآخرين كذلك، حتى عندما تكون هناك أبعاد أخرى متوفرة، وهؤلاء الأفراد المخططين جندرياً غالباً ما يصفون على أنفسهم عدد كبير من الصفات الإيجابية الملائمة لجنسهم، ويختزلون الصفات المقابلة للجنس الآخر. (Bem:1981)

إن ما تقدم من إنعكاسات لأيديولوجيا الدور الجندري تعتبر ركائز مسوغة لأهمية الدراسة الراهنة، خاصة وأنه رغم هذه الانعكاسات الهامة والخطيرة أحياناً لأيديولوجيا الدور الجندري إلا إنه من الملفت للانتباه أن الدراسات التي اعتنت بهذه القضية، أو التي اقتربت منها محدودة للغاية في المجتمع الأردني بالوقت الذي نجد فيه تراثاً ضخماً حول أيديولوجيا الدور الجندري، والقضايا الجندرية عموماً لدى علماء الاجتماع في الدول المتقدمة.

ومن هنا، تأتي الدراسة الراهنة بهدف الكشف عن محتوى أيديولوجيا الدور الجندري لدى الآباء، وكذلك محتوى أيديولوجيا الدور الجندري لدى الأبناء، ومن ثم المسافة الجندرية بين أيديولوجيا الآباء، وأيديولوجيا الأبناء، وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة الراهنة تصنف محتوى هذه الأيديولوجيا سواء بالنسبة للآباء أم الأبناء بناء على معيار (النزعة المساواتية) Egalitarianism، إن كلما كانت اتجاهات الأفراد أقرب إلى المساواة بين الذكور والإناث تكون الأيديولوجيا "ليبرالية"، وكلما كانت اتجاهات الأفراد أقرب إلى اللامساواة بين الذكور والإناث تكون الأيديولوجيا "تقليدية".

ومن أجل الوصول إلى الأهداف السابقة تركز الدراسة الراهنة على ثلاثة مكونات لأيديولوجيا الدور الجندري: المكون الأول: الاتجاهات نحو الصفات الجندرية للذكور والإناث، وعلى الرغم من أن الصفات الجندرية لا تمثل بذاتها أدواراً فعلية، إلا أنها تمثل "بناءً تحتياً" تركز عليه

اتجاهات الأفراد ومعتقداتهم حول الأدوار الجندرية، **المكون الثاني:** الأدوار الأسرية. التي تجسد جملة الحقوق والواجبات بين الذكور والإناث داخل المنزل، وتعكس ديناميات العلاقة، وتفاضلات القوة بين الذكور والإناث. **المكون الثالث:** أدوار العمل العام، التي تجسد جميع الأدوار التي يمكن أن يمارسها الذكور والإناث في المجتمع العام (خارج المنزل)، بما في ذلك الأدوار الإنتاجية، والإدارية، والسياسية. ولأن أيديولوجيا الدور الجندري تبنى من خلال "الخبرة التفاعلية" فسوف يتم التركيز على جملة من المتغيرات التي من المحتمل أن يكون لها دور في بناء الأيديولوجيا أو تعديلها مثل المستوى التعليمي للآباء، وطبيعة العمل، وما إذا كان مكان العمل مختلط أم لا. بالإضافة إلى مكان الإقامة، والدين، والتدين، ومستوى الدخل، وكذلك الأمر بالنسبة للآباء (وهم جميعهم من طلاب الجامعة). حيث سيتم التركيز على السنة الدراسية، والدين، والتدين، ومستوى الدخل. وهي جميعها متغيرات تتقاطع مع متغيرات الآباء باستثناء السنة الدراسية والكلية للآباء والعمل للآباء. ولا بد من الإشارة إلى أن الدراسة تعنى بمدى انعكاس المتغيرات المتعلقة بالآباء على أيديولوجيا الآباء، وليس على الآباء أنفسهم فقط. وذلك إنطلاقاً من أن أيديولوجيا الآباء يتشربها الآباء عن طريق التنشئة الاجتماعية.

وفي ضوء ما تقدم تتلخص مشكلة الدراسة الراهنة بالوقوف على التساؤلات الآتية:

- ما طبيعة أيديولوجيا الدور الجندري التي يحملها الآباء في المجتمع الأردني؟
- ما طبيعة أيديولوجيا الدور الجندري التي يحملها الآباء (الشباب) في المجتمع الأردني؟
- هل هناك مسافة جندرية بين الأيديولوجيا الجندرية لدى الآباء والأيديولوجيا الجندرية لدى الآباء؟
- هل هناك فروقات في أيديولوجيا الدور الجندري بين الآباء أنفسهم (ذكور، إناث)؟
- هل هناك فروقات في أيديولوجيا الدور الجندري بين الآباء أنفسهم (آباء، أمهات)؟
- هل هناك علاقة بين الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية ومحتوى أيديولوجيا الدور الجندري لدى الآباء والآباء؟

مفاهيم الدراسة:

الجندر: جميع الترتيبات والسلوكيات المتوقعة التي تلصقها ثقافة مجتمع معين بجنس الفرد.

الدور الجندري: الحقوق والواجبات التي تعتبر معيارية للرجال والنساء في ثقافة معينة.

أيديولوجيا الدور الجندري: الاتجاهات التي يمتلكها الأفراد نحو الأدوار الجندرية المناطة بالذكور، والإناث، والصفات المتعلقة بهم.

الأيدولوجيا الجندرية الليبرالية: الاتجاهات الجندرية التي ترتكز إلى نزعة مساواتية بين الذكور والإناث في المجالات المختلفة. وعكسها الأيدولوجيا التقليدية التي ترتكز على نزعة لامساواتية بين الذكور والإناث.

الأدوار الجندرية المنزلية: أدوار العمل المنزلي التي تقرها الثقافة باعتبارها ملائمة للذكور والإناث (مثل اقتصار العمل المنزلي على المرأة وخروج الرجل من دائرته في الثقافة العربية).

الأدوار الجندرية في العمل العام: الأدوار التي تقرها الثقافة باعتبارها ملائمة للذكور والإناث خارج حدود المنزل التي تقع ضمن المجال الاقتصادي الإنتاجي والسياسي.

الصفات الجندرية: جملة الصفات التي تلصقها الثقافة بالذكور والإناث وتفترض أنها صفات متأصلة لدى كلا الجنسين (شجاعة الرجل مقابل خوف المرأة، ومبادرته مقابل سليبتها).

المسافة الجندرية: كمية الفروقات في مؤشرات أيدولوجيا الدور الجندري، والصفات الجندرية التي تعكس اختلافاً بين الآباء والأبناء.

الأدوار الجندرية في المجتمع الأردني: هل ثمة إمكانية لتشكيل بينذاتية⁽¹⁾ جندرية؟!

لقد شهد البناء الاجتماعي للمجتمع الأردني انفراجاً نسبياً فيما يتعلق بالتمييزات الجندرية، فهناك مؤشرات واضحة على انخراط النساء في الحياة العامة، وفي العملية الإنتاجية، وفي مؤسسات العمل، والتعليم... وعلى الرغم من كل ذلك يجب التأكيد أن هناك الكثير من الآليات التي تعمل على إعادة إنتاج التمييزات الجندرية، وبشكل خاص التنشئة الاجتماعية، والبنى المؤسسية القائمة، والأطر التشريعية. ومن هنا، فإن المعتقدات السائدة حول الأدوار المناطة بالذكور، وتلك المناطة بالإناث وخصائص كل منهما لم تتغير بعد، فالتغيرات التي طرأت ولو في حدود ضيقة على "وضع المرأة" لم تتوافق مع تغيرات على "الموقف من المرأة"، لكن يبدو أن المسألة لا تقتصر على المجتمع الأردني فقط، إذ أظهرت نتائج الدراسات على المستوى العالمي أنه رغم تحول أدوار المرأة واختلاف مسؤولياتها، إلا أنه لا يوجد تفاوت كبير حول انخراط الرجال في الأعمال المنزلية مثلاً (Scott: 2006).

(1) استخدم مفهوم "البينذاتية" من قبل عالم الاجتماع الظاهراتي الفرد شوتز schutz في كتابه الموسوم بـ "البناء ذو المعنى للعالم الاجتماعي" ليشير إلى أن العالم الاجتماعي ذو طبيعة تشاركية نجد فيه شواهد لبعضنا دائماً حتى في سياقه التاريخي، ويستخدم الباحث البينذاتية الجندرية هنا، ليظهر التواء البينذاتية في المجتمع من منظور جندري، بطغيان الشواهد الذكورية على الأنثوية.

تدعمت الأدوار الجندرية التقليدية بموجب المعايير الاجتماعية والقانونية والتعليمية والسياسية، وبالنتيجة فإن معظم الرجال والنساء اقتنعوا بأن الفروقات الجندرية تمثل حقائق بذاتها، وأنه لا سبيل إلى تغييرها وتم التسليم بها. وقد كرست أنماط الإنتاج التقليدية (الزراعية والرعية) تباينات واضحة في الصورة الجندرية Gender Image ومفهوم الذات الجندرية Self Concept of Gender وتم عزل الأدوار الجندرية وفصلها على نحو واضح، وبذلك فقد اختزلت قدرات النساء وتعاضمت قدرات الرجال وافتتحت الأفاق أمام الرجال للتطور والنمو والمعرفة وانحسرت أمام النساء. ولم تتوقف المسألة عند حد الإقلال من قيمة عمل المرأة في البيت بل تعدى ذلك إلى إجحاف المرأة حقوقها في المجالات كافة (التعليم، والعمل، والمشاركة السياسية، واتخاذ القرار الاجتماعي بما في ذلك اختيار شريك الحياة). بمعنى آخر لقد لعبت البنى التحتية دوراً بالغ الأهمية في جعل التمايزات الجندرية حقائق معرفية قائمة بذاتها ضمن البنى الفوقية للمجتمع، ولذلك فقد انعكست في معتقدات الناس، وممارساتهم باعتبارها ذات شرعية اجتماعية وثقافية.

ولكن التغير الذي طرأ على أنماط الإنتاج، ونمو البيروقراطية، واتساع نطاق المؤسسات العاملة في القطاعات المختلفة، ومن ثم التحول الديمقراطي، والانفتاح بموجب التفاعل مع تدفقات العولمة، والتسارع باتجاه الرأسمالية، كل ذلك ساعد في دخول النساء إلى العوالم والفضاءات التي كانت حكراً على الرجال سواء من حيث التعليم أو من حيث العمل حتى لو كانت بنسب ضئيلة أو لا تفوق نسبة الذكور، ومن قبيل ذلك مثلاً ما أظهره مسح البطالة الذي أجرته دائرة الإحصاءات العامة عام 2007 حيث أن نسبة الذكور المشغلين ممن مستواهم التعليمي أقل من ثانوي بلغ (55%) مقابل (15%) للإناث، بينما ترتفع نسبة الإناث المشغلات ضمن مستواهن التعليمي بكالوريوس، حيث بلغت (48%) مقابل (20%) للذكور ممن يحملون المستوى التعليمي ذاته (دائرة الإحصاءات العامة: 2007)، وقد يفهم من هذه الأرقام أن المسألة أصبحت ترتبط بالإنجاز وليس بالنوعية، أو بالمؤهلات وليس بالجنس. وحسب إحصائيات وزارة التربية والتعليم عام (2002) فقد ارتفعت نسبة الالتحاق في الدراسة الثانوية إلى (67.7%) ذكور و(66.6%) إناث وبلغت نسبة التحاق الإناث في الكليات العلمية والتكنولوجية لمستوى البكالوريوس (39%) من مجموع الطلبة (أنظر المعاينة: 2002).

لقد شكلت المرأة ما نسبة (36.6%) من إجمالي العاملين في قطاع الصحة والعمل الاجتماعي في التسعينات من القرن الماضي، وشكلت (23%) من إجمالي العاملين في قطاع التعليم خلال هذه الفترة وشكلت المرأة ما نسبته (37%) من إجمالي العاملين في القطاع الحكومي، وبلغت نسبة النساء اللواتي يمتلكن عملاً خاصاً (5.5%) وفيما يتعلق بأدوار اتخاذ

القرار بلغت نسبة النساء في الفئة الأولى في سلم تصنيف الخدمة المدنية 5.12% (المرجع السابق).

ومنذ عام 1974 دخلت المرأة الوزارة، ومنذ عام 1994 دخلت القضاء، ومنذ عام 1982 المجالس البلدية، وفي عام 2010 عينت المرأة محافظاً، وتشير الأرقام إلى أن نسبة النساء في مجلس الأعيان بلغت 2.6% عام 1990، وارتفعت إلى 12% في عام 2005، وبلغت نسبة النساء في البرلمان للعام ذاته 5.7%، وفي المجالس البلدية بلغت النسبة 10% للعام 2003 (الساكت: 2005).

وفي عام 2003 بلغت نسبة مشاركة المرأة في الاقتصاد (7.7%) مقابل (39.7%) للرجال النشيطين اقتصادياً؛ أي ما يعادل خمسة أضعاف نسبة النساء، وتركزت معظم الإناث المشتغلات في قطاعي التعليم والصحة، إذ تركز في التعليم 41% من الإناث، وفي الصحة 14%، وتركز حوالي ثلثي المشتغلات في مهن متخصصة وفنية، إذ احتلت المهن الكتابية المرتبة الثالثة بنسبة 12% وشغلت صاحبات الأعمال 6% من مجموع المشتغلات في القطاع الخاص.

ورغم كل ذلك، تشير تقارير البنك الدولي المتعلقة بتقييم النوع الاجتماعي في الأردن إلى أن قوانين العمل، والتقاعد، والضمان الاجتماعي لا تقدم الفوائد نفسها للنساء والرجال، مثلاً الذكور العاملين خاضعين للإعفاءات الضريبية عن العائلة بغض النظر ما إذا كانت زوجاتهم يعملن، أما النساء العاملات فعليهن بيان وفاة الزوج، أو عجزه، أو كبر سنه.

كما أشارت التقارير إلى انخفاض نسبة مشاركة الإناث في سوق العمل، بالإضافة إلى نسبة البطالة، والبطالة المقنعة للإناث (البنك الدولي: 2003) وفي التقرير ذاته، ثمة إشارة إلى أن مستوى المشاركة الفعلي للإناث في سوق العمل الأردني هو فقط نصف المتوقع، مما أدى إلى رفع نسبة الإعالة إلى (2.6%)، وهي الأعلى في الدول النامية. (البنك الدولي: 2003)

وتتأكد هذه الحقيقة بموجب الدراسات الإمبريقية حول الموضوع ذاته، حيث أظهرت دراسة (مشعل والسروجي: 2006) الموسومة بـ "العوائد الاقتصادية لتعليم المرأة في المملكة الأردنية الهاشمية" بأن لتعليم المرأة أثراً إيجابياً على نشاطها الاقتصادي، ونمط ادخارها، ونوع وظيفتها، وكذلك على مستوى دخل زوجها.

وهكذا يبدو أن الإناث قد اقتحمن عوالم الذكور في شتى المجالات، ولكن بحدود ضيقة نسبياً، وبقدر من التحيز والإجحاف، خاصة على مستوى العمل، وكما يشير تقرير اللجنة الوطنية الأردنية لشؤون المرأة 1998-2003 "فإن ما يحكم مشاركة المرأة في العمل، وفي توليها المناصب العامة ليست النصوص المكتوبة في طوايا التشريعات المختلفة بقدر ما هي المفاهيم غير

المكتوبة والتي يتبناها المجتمع وتنتشر وفق أنماط الثقافة السائدة فيه.."(اللجنة الوطنية الأردنية لشؤون المرأة: 2003).

وبكل الأحوال فإن دخول الإناث للمجال العام الذي كان حكرًا على الذكور، وبصرف النظر عن طبيعة العوامل والقوى التي تقف خلفه، يعدّ خطوة بالغة الأهمية في تحطيم الصور النمطية حول الخصائص والأدوار الجندرية، حيث عمل تحول الواقع المادي على تكريس سياق اجتماعي جديد " للخبرة التفاعلية ". إن الخبرة التفاعلية بين الذكور والإناث في حيز مجالي واحد من شأنها أن تختزل حدة الانطباعات الجندرية السلبية أو الصور النمطية الجندرية التي يمتلكها الطرفين عن بعضهما وقد تلغيها جذرياً في بعض الأحيان. إن الصور الجندرية والاتجاهات حول الأدوار الجندرية تعيش في الوقت الراهن في واقع مادي يختلف عن الواقع المادي الذي أنتجها، الأمر الذي يولد معه تناقضات في بنى الأدوار، وبشكل خاص بالنسبة للمرأة، حيث أصبحت المرأة في الآونة الأخيرة تعيش في نظام دور Role-set مثقل بالأعباء Over Burdened وذلك نتيجة التزامها اجتماعياً بحرفيات أدوارها التقليدية مع إضافة الأدوار الجديدة التي سمحت بها التحولات الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى أن عوائد دورها الإنتاجي لم تنعكس إيجابياً على رفاهها، ولا على استقلاليتها، ولا على مقدرتها على اتخاذ القرار، وبهذا الخصوص أظهر مسح السكان والصحة الأسرية في الأردن للعام 2007 أن 59% من النساء اللاتي يعملن ينفقن مردود أعمالهن بالاتفاق مع الزوج و38% منهن يتخذن قرارات متفردة، وهذا مؤشر على غياب الاستقلالية نسبياً (مسح السكان والصحة الأسرية: 2007)

خلاصة القول: إن "البينذاتية الجندرية" Gender Intersubjectivity -بمعناها الظاهراتي- أي إدراك الأفراد ذكوراً وإناثاً أنهم يعيشون في عالم اجتماعي مشترك انبني وبيئي بأفعالهم جميعاً، لم تتحقق بعد، فلا يزال المجال العام، وكذلك المجال الخاص ذا صبغة ذكورية يتفوق فيها الذكور على الإناث من الناحية الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، ولذلك يمكن الحديث في الوقت الراهن عن "بينذاتية ذكورية" في المجتمع الأردني. لكن من ناحية أخرى لا يمكن التقليل من أهمية التطورات التي طرأت على وضع المرأة - حتى لو كانت بمستويات متدنية- من حيث دخولها كافة أشكال المناصب الإدارية والسياسية العليا، وكذلك ولوجها كافة التخصصات العلمية، والدراسات العليا والقضاء... إن هذه المساحة المتواضعة التي أخذت تشغلها النساء في الآونة الأخيرة تتضمن بذور نشأة بينذاتية جندرية قائمة على العدالة، والمساواة، واعتراف النوعين الاجتماعيين ببعضهما إذا ما رافق ذلك تطوراً تشريعياً باتجاه المساواة والعدالة، حيث أن الخبرة التفاعلية التي تركزها هذه المساحة يمكن أن تختزل المسافة بين الذكور والإناث وتحول الانطباعات والصور النمطية حول المرأة إلى صيغ اجتماعية إيجابية، ولكن الأمر يحتاج إلى فترة زمنية ليست بالهينة، حيث أن العناصر الثقافية أو الجوانب المعنوية من الثقافة أكثر ديمومة

واستمراراً من العناصر المادية، وقد تعمل كآليات كبح وعرقلة أمام تقدم المرأة وإبراز طاقاتها وقدراتها في المجالات المختلفة التي دخلتها، لكن إمكانية تشكل عالم اجتماعي بينذاتي بين الذكور والإناث تبقى قائمة.

النظريات السوسيولوجية المفسرة للجندر

النظريات البنائية- الوظيفية

يقدم بارسونز وبيلز Parsons and Bales في كتابهما الموسوم بـ "الأسرة والتنشئة وعملية التفاعل" Family, Socialization, and Interaction Process وجهة نظر تقليدية حول الأدوار الجندرية، يؤكدان فيها أنه على الرجال والنساء تأسيس تمايز بين الأدوار الجندرية يستوجب مهمات محددة لكل منهما. والمفهوم المفسر لتشكيل الأدوار الجندرية عند بارسونز وبيلز هو "التماهي" أو "التطابق" Identification الذي يشير إلى العملية التي يستدمج بموجبها أحد الأفراد قيم، ومعايير، وتوقعات شخص آخر بحيث تظهر في سلوكه وحسه بذاته. وفي مرحلة الطفولة يبدأ كل من الجنسين بالتماهي مع الأم، لكن بعد ذلك تستمر الإناث بالتماهي مع أمهاتهن، بينما يتم تشجيع الذكور على البدء بإيجاد نماذج أدوار ذكورية، ولذلك يتحول الأبناء الذكور إلى التماهي مع الآباء، وهكذا حسب تعبير بارسونز وبيلز: تميل الإناث إلى اللعب بالعرائس، وبيت بيوت Playhouse، والقيام بالأعمال المنزلية. بالمقابل يميل الأطفال إلى اللعب بالقطارات، والسيارات، والطائرات، وتقليد رجل الشرطة، ورجال الإطفاء (Parsons And Bales: 1955: 100).

ويذهب بارسونز وبيلز إلى أن أنماط الدور الجندري الذي يتشكل في الطفولة يمتد إلى المراهقة، فعندما يتقدم العمر بالفتاة تركز على الأدوار المنزلية، ويصبح الزواج بالنسبة لها الاهتمام الأول. وهكذا تؤسس المرأة مكانتها الاجتماعية بأدائها أدوار الزوجة، والأم على وجه تام، وبالمقابل يركز الأبناء الذكور على المهنة والعمل، ويؤسس الرجل مكانته باعتباره المعيل الوحيد للأسرة (Parsons And Bales: 1955: 127-128). يؤكد بارسونز وبيلز أن تمايز الأدوار الجندرية في الأسرة يحقق وظائف إيجابية، ويضمن تكامل الأدوار بين الذكور والإناث، ويجعل الأسرة تعمل بفاعلية وكفاءة أكبر، فالمرأة تبقى في البيت تطبخ، وتنظف، وتربي الأبناء، وتحافظ على الاستقرار العاطفي، والصحي للأسرة، والرجل بالمقابل يعمل على إعالة الأسرة (أنه يمنح الرعاية والسعادة في المقام الأول، ويمنح الحب في المقام الثاني. بينما تمنح المرأة الحب في المقام الأول، والرعاية والسرور في المقام الثاني) (Parsons and Bales: 1955: 151).

نظرية الصراع:

ساعد تطور الحركة السنوية الحديثة في نمو الحس بوجود حصول المرأة على حق الوصول إلى الفرص التعليمية، والمهنية بشكل مساوٍ للرجل، ومن ثم تم سحب التعريف التقليدي لأدوار الرجال والنساء. وتم توجيه الاتهام إلى بارسونز وبيبلز بأنهما يحافظان على الوضع القائم ويبررانه، الأمر الذي يجعل من منظور الصراع بديلاً ضرورياً للبنائية- الوظيفية. حيث ثمة تغيرات هائلة على بنية الأدوار الاجتماعية وبشكل خاص في المجتمع الغربي، الذي أصبحت المرأة فيه شريكاً مساوياً تحظى بنفس الحقوق وتحقق - نسبياً- نفس الدخل، وتعمل في شتى المجالات. (Collins:1974).

يرى منظرو الصراع بأن تمايز الجندر تشكل بموجب الموقع من الملكية، والوصول إلى فرص الحياة وفي ضوء هذه الحقيقة تؤكد كاتي ميليت Kate Millet بأن الرجال قد هيمنوا على النساء في كل النشاطات والمؤسسات، ويرى راندال كولينز Collins بأن اللامساواة الجندرية، مثل أي نوع من اللامساواة تتضمن صراعاً على المصادر النادرة بين الجماعات المهيمنة (الذكور)، والجماعات الخاضعة (الإناث)، إذ من أجل أن يحظى الرجال بمكانة سياسية اقتصادية متميزة، يجب أن تحظى المرأة بمكانة متميزة في جميع المجالات. (Collins: 1974).

ويؤكد منظرو الصراع أنه بموجب هذه الحقيقة، فإن الرجل هو المالك والمرأة هي الملكية، والرجل يكسب العيش، ويقدم الحماية، وليس لديه مسؤوليات منزلية، ويحكم كيفما يشاء ويضرب زوجته إذا اعتقد أن الضرب يقومها، وينخرط في ممارسة الجنس من أجل سعادته، والمرأة في المقابل تتشغل بالواجبات المنزلية، وإذا شعرت بالظلم ليس لديها ما تفعله وليس هناك وسائل بديلة لدعمها (Scanzoni, Letha and John Scanzoni: 1988: 244-266).

وفي السياق ذاته يؤكد بيار بورديو Bourdieu، بأن الاستفسارات حول طبيعة الهيمنة الذكورية يمكن أن تحدد إلى درجة كبيرة، أو قليلة في جميع الحقول الاجتماعية social fields ومع ذلك فإن الهيمنة الذكورية تعتبر الأكثر تأثيراً في المؤسسات الاجتماعية التي يكون فيها الحفاظ على النظام الاجتماعي مشروعاً وطنياً أساسياً، وقد أشار إلى التعليم باعتباره موقعاً أيديولوجياً أساسياً بالنسبة لإعادة إنتاج اللامساواة الجندرية (See, Jo-Anne: 2003: 376-379).

النظرية التفاعلية الرمزية:

يؤكد الرمزيون أنه على الرغم من أننا نولد في بناء اجتماعي مؤسس ذي توقعات راسخة لسلوكنا، إلا أننا نمتلك فرصاً لتشكيل مفهوم الذات لدينا. ويمكن الإشارة في هذا المقام إلى

أطروحتين أساسيتين. مرآة الذات Looking-Glass self لـ شارلز هورتن كولي Charles Horton Cooley، إن تؤكد هذه الأطروحة على أننا نتعلم النظر إلى أنفسنا كما نعتقد أن الآخرين ينظرون إلينا، ووفق ما يرى كولي هناك ثلاث خطوات في تشكيل مرآة الذات:

1. تتخيل كيف نظهر أمام الآخرين.
2. تتخيل كيف يحكم الآخرين على ظهورنا.
3. تطور مشاعر واستجابات حول تلك الأحكام.

ولكن مفهوم الذات لا يمثل انعكاساً ميكانيكياً لأحكام الآخرين، إن يخطر الأفراد في تعريف مفهوم الذات بالاستناد إلى الخبرات السابقة، وبالنتيجة فإن تفسير أحكام الآخرين له نتائج حقيقية. ورغم أن الذكور والإناث يتعلمون أدوارهم الجندرية من أحكام الآخرين ذات الطابع المؤسسي (Brinkerhoff and White: 1988)، إلا أن هذا الجزء الفعال من تعلم الدور الجندري يجعل من الممكن بالنسبة للأجيال الجديدة من الأطفال أن يتعلموا بدقة أدواراً جندرية مختلفة عن الأجيال السابقة (Cahill:1983).

الأطروحة الثانية هي تقمص الدور Role Taking لـ جورج هيربرت ميد George Herbert Mead. تؤكد هذه الأطروحة أننا نتعلم المعايير الاجتماعية من خلال عملية تقمص الدور. ومعنى ذلك أننا نتخيل أنفسنا في دور الآخر من أجل تحديد المعايير التي يستخدمها الآخرين للحكم على سلوكنا، ومن ثم تستخدم هذه المعلومات كحكم على سلوكنا، ولذلك فإن تعلم الدور الجندري يتوقف على ما إذا كان النموذج الذي نتقمص دوره (الأم، الأب،.....) يلعب دور الجندري بطريقة تقليدية، أو غير تقليدية (Brinkerhoff and white: 1988).

تبدأ عملية تقمص الدور في مرحلة الطفولة عندما نتعلم الحقوق والواجبات المرتبطة بوجودنا كأطفال في الأسرة. إننا نتعلم ما هو متوقع منا كأفعال، ونتعلم أدوار والدينا، والنظر إلى أنفسنا من منظورهم، وأن نقيم سلوكنا من وجهة نظرهم كذلك. ومن خلال الألعاب التي يمارسها الأطفال يتعلمون تطوير أفكارهم كأزواج وزوجات. فعندما تحذر الطفلة لعبتها من اللعب في الشارع، أو أن تغسل يدها قبل الطعام، فإنها تختبر معرفتها لتوقعات الدور الأسري (Brinkerhoff and white: 1988).

وفي السنوات الأولى يعدّ تقمص الدور استجابة لتوقعات الآخرين الهاميين Significant Others، أي أولئك الذين يحتلون أدواراً نتعامل معها بألفة، مثل: الآباء، والمدرسين. وعندما يتفاعل الأفراد خلف هذه الشبكة الحميمة، ويكبرون تمتد عملية تقمص الدور إلى شبكة أكبر تشمل الآخر المعمم Generalized Other، بحيث يساعدهم في ذلك ما يتوقع منهم المجتمع الأكبر، والتوقعات المتشكلة من جميع لاعبي الأدوار الأخرى الذين تتفاعل معهم، مثل صاحب

العمل، والأصدقاء ووسائل الحافلة... ومن هنا نتعلم السلوك المناسب للموقف والتوقعات الآخرين. (Ritzer: 1992).

وانطلاقاً من منظور التنشئة الاجتماعية الذي تركز عليه طروحات التفاعلية الرمزية، فإن الانجاز المتدني للمرأة يعود إلى ممارسات التنشئة التي تصنع طموحاتها، وتصوغها بصورة مختلفة عن الرجل. إن هذه الممارسات تعمل بوجه عام على تحديد حس المرأة بتقدير الذات Self-Ssteem واستحقاق الذات Self- Worth، ولذلك فإن كثير من النساء يعتبرن أنفسهن ناجحات في الزواج والأمومة، والرعاية، كما تضطر النساء إلى خفض توقعاتهن، وتعديل طموحاتهن وفق طموحات الدور المنزلي. (Allen:1980).

واستكمالاً لهذه الحقيقة تؤكد نظرية صيغ التوقع Expectations States Theory أن خصائص المكانة توجد توقعات لدى الآخرين حول القدرات المحتملة، وعندما يتصرف الناس على أساس تلك التوقعات، فإن التوقعات ترسخ وتثبت، وقد جاءت هذه النظرية امتداداً لأطروحة الانجاز الذاتي Self-Fulfilling، من أجل إظهار أن الرجال غالباً ما يسيطرون على النساء في التفاعلات اليومية. إن صيغ التوقع تؤثر في التفاعلات اليومية وفي التبادلات مع الأصدقاء، والزملاء، والمشرفين، وتؤكد طروحات هذه النظرية أن المرأة عندما تخرج من المطبخ، والدائرة النمطية المحيطة بها، يصبح من الواجب عليها أن تظهر تفوقاً واضحاً من أجل أن تعامل باعتبارها مساوية للرجل (Berger Etal:1980).

الدراسات السابقة:

هدفت دراسة (الخاروف والبدور:2006). والموسومة بـ "الأدوار الجندرية التي يكتسبها الشباب في الأسرة الأردنية " إلى التعرف على مدى مشاركة الذكور والإناث في القرارات الأسرية، ومدى وجود حوار بين الذكور والإناث ووالديهم فيما يتعلق بالقضايا الخاصة بالشباب، ومدى انعكاس الخصائص الديموغرافية، والاجتماعية، والاقتصادية للأسرة على اكتساب الأدوار الجندرية.

وقد أظهرت الدراسة وجود مساهمة نسبية للذكور في الأعمال المنزلية، وعدم وجود فروقاً جندرية بين كلا الجنسين في مسؤولية القيام بالأعمال المنزلية، ومسؤوليات نفقات الأسرة ورعاية الأطفال، ووجود فروقات جندرية بين كلا الجنسين في مسؤولية اتخاذ القرار النهائي في الأسرة، وأظهرت الدراسة عدم وجود فروق جندرية بين كلا الجنسين في البوح بالأسرار الخاصة، ومنح الوالدين للشباب فرصة المشاركة في أداء الواجبات الدينية، وحل المشاكل مع الأصدقاء، وفي صفات الشجاعة والجرأة، والاعتماد على الذات. إلا أن هناك فروقاً جندرية بين الجنسين في

مناقشة تطورات البلوغ والحصول على المعلومات المتعلقة بتطورات البلوغ، ومنح الوالدين للشباب فرصة المشاركة في الموضوعات الخاصة بهم، وفي زيارة الأصدقاء.

كما سعت دراسة (النابلسي، 2002)، الموسومة بـ "تطور الصور النمطية الجندرية وتوجهات الدور الجندي من حيث سمات الشخصية والاهتمامات الأكاديمية والمهنية لدى الأطفال والمراهقين الأردنيين"، إلى الكشف عن الصور الجندرية التي يمتلكها الأطفال والمراهقين الأردنيين من حيث الصفات الشخصية، والاهتمامات الأكاديمية، والمهنية، بالإضافة إلى تقديرات الأطفال الذاتية للصفات التي يمتلكونها، وكفاءتهم في المجالات الأكاديمية، وطموحاتهم المهنية، وقد أظهرت الدراسة وجود صور جندرية مهنية لدى الذكور والإناث، حيث تمثلت الأعمال الأنثوية بالأعمال المنزلية، والطبخ، والخياطة، بينما تمثلت المهن الذكورية في تصليح السيارات، والزراعة، والتجارة، والطيران، والهندسة، كما أظهرت الدراسة وجود صفات جندرية لدى الذكور والإناث، حيث هناك صفات تنسب للرجل مثل العدوانية، والجراة، والقسوة، بينما تنسب صفات الضعف، والثروة، وسرعة البكاء للمرأة.

وبما يتوافق مع نتيجة هذه الدراسة أظهرت مجموعة من الدراسات العربية اتجاهات سلبية للمبجوثين حول خروج المرأة من البيت بغرض العمل مؤكدين ضرورة بقائها في البيت وممارسة الأعمال التقليدية (عبد الحميد: 1987، عبد الباقي: 1985 الخطري: 1978)، وبالمقابل أظهرت مجموعة من الدراسات اتجاهات ايجابية حول خروج المرأة من العمل، وقدرتها على الانجاز خارج البيت. (عيوش: 1985 الأخرس: 1976)، كذلك أظهرت دراسة أبو شديد وناصر (Abouchededid and Nasser: 2007) حول تأثير التدين على طلاب مسيحيين، ومسلمين في الجامعات اللبنانية، أن المسلمين ذوي التدين المرتفع لديهم ميلاً أقل نحو المساواة بين الرجال والنساء، بينما أظهرت الإناث المسيحيات الأقل تديناً معدلات مرتفعة حول المساواة، وقدرة النساء على القيام بأعمال مساوية للرجال. وقد أظهرت الدراسات العالمية نتائج متباينة وفق أطروحاتها، حيث أظهرت دراسة إنجلترا (England: 1988)، التي أجرتها على جماعتين من طالبات الجامعة، بأن الصورة النمطية التقليدية حول الدور الجندي للمرأة باعتبارها " سلبية" قد استبدلت. بتوقع أن تكون "مبادئه"، كما أن وجهة النظر التقليدية التي ترى بأن المرأة يجب أن تهتم بامتلاكها أطفال والعناية بهم تخطى بالتأييد. وبالمقابل أظهرت دراسة ديوكس ولويس (Deaux and Lewis: 1984)، بأن الصور النمطية حول الدور الجندي يمكن أن تتغير مع الوقت، كلما حصل الأفراد على معلومات أكثر.

وقد بينت دراسات كولك (kulik: 1995, kulik: 2000)، في المجتمع الإسرائيلي أن الهوية الجندرية، وأيدولوجيا الدور الجندي تلعبان دوراً بارزاً في التمييز المهني للذكور والإناث، وبشكل خاص لدى الذكور، بينما أظهرت الإناث اتجاهات أقل تمييزاً للمهن، وأقل تقليداً للأدوار

الجندرية من الذكور، وهذه النتائج تكشف عن رغبة الإناث بالدخول إلى الحقول الذكورية المهيمنة وتوسيع نطاق مهنتهن. وقد أظهرت دراسة كنج وزملاؤه (king,etal:1994)، أن اتجاهات النساء قد تغيرت أكثر من اتجاهات الرجال حيث أظهرت النساء اتجاهات مساوية أكثر من الذكور إزاء الأدوار الجندرية.

وقد أظهرت الدراسات المتعلقة بالهوية الجندرية وتصورات الدور الجندري أنفراد المنمطين جندرياً غالباً ما يظهرون اتجاهات محافظة حول المعايير الجندرية، وقبول السلوك الملائم المعرف ثقافياً للرجال والنساء، وقد برزت هذه الصيغة لدى الذكور أكثر من الإناث (Toller: 2004 Frable:1989,Andersen:1978)

ولقد بينت نتائج دراسات عديدة أن المسلكيات المضادة للصورة النمطية كانت تظهر في صفات الإناث أكثر من الذكور، ورغم ذلك تظهر الإناث صورة نمطية جندرية في مظهرهن بصورة أكبر حيث يرحب المجتمع بذلك، ومع ذلك فإن هذا النمط يرسل رسالة تدميرية للإناث تجعل من الواضح بأن المسلكيات الذكورية النمطية مرغوبة بشكل أكبر لدى جميع أفراد المجتمع، ومثل هذا التقييم غير المتساوي للمسلكيات المتعلقة بالجندرية ترسل رسائل للأولاد الذكور تساهم في تشكيل اتجاهات سلبية نحو الصفات الأنثوية النمطية (Sheldon, 2004, Drees and Phaye: 2001, (Milburn, etal: 2001).

وكشفت دراسة رينجل (Ringle:2007) بأن المجتمع اليهودي التقليدي قد تعرض لتغيرات هامة في الجيل الأخير، إذ إن الكثير من النساء يعملن خارج البيت، والأدوار الجندرية أقل حدية ضمن البيت، وأن ثمة مشاركة في تربية الأبناء والأعمال المنزلية أكثر مما هو في الأجيال السابقة، ومع ذلك فإن الأخلاق الدينية التقليدية لا تزال تنظم دور الزوج والزوجة بالاستناد إلى الطقوس، والصلوات الدينية، والعديد من نواحي السلوك بين الأشخاص.

كما كشف الدراسات عن وجود علاقة قوية بين الدين والتطورات التكنولوجية، والمشاركة في الأعمال المنزلية، إذ كلما كان البلد أكثر تطوراً من الناحية التكنولوجية ازداد تقسيم العمل الليبرالي بين الرجل والمرأة، حيث تعمل التكنولوجيا على انخراط النساء في سوق العمل الرسمي، وتختزل كمية الوقت اللازم للعمل المنزلي. وكلما زاد تدين الافراد كانت اتجاهاتهم أكثر تقليدية إزاء عمل المرأة والأدوار الجندرية، لكن رغم اكتساب الإناث تنشئته تقليدية معززة بالتدين إلا أنهم يبدون اتجاهات إيجابية نحو أدوار عمل المرأة. (Voicu, et al: 2009, Sevim: 2006).

وبينت دراسة كوزكو (Kusku, etal:2007) وجود تحيز جندري ذي طبيعة معقدة عندما تخترق المرأة الأدوار التي يعتقد أنها حكراً على الرجال، أجريت الدراسة على طلاب كلية الهندسة في تركيا، حيث أظهر الذكور تحيزاً جندرياً واضحاً ضد ولوج الإناث تخصص الهندسة، معللين

انخفاض نسبة الإناث في كلية الهندسة إلى عوامل فطرية، بينما أظهرت الإناث اتجاهات إيجابية معجلات انخفاض نسبة الإناث في كلية الهندسة إلى ظروف سياسية وظروف العمل، ولم يشر كل من الذكور والإناث إلى تأثير العائلة في الاختيار، وتؤكد الدراسة أن التمثيل النسبي للإناث في كلية الهندسة ضروري لكنه ليس شرطاً كافياً لاستئصال التحيز الجندري، وكلما زاد عدد الإناث يساعد ذلك في استئصال التحيز الجندري.

وقد بينت دراسة أثنستاد (Athenstaedt: 2008)، أن الجماعة الفرعية للمرء تلعب دوراً هاماً في تشكيل مفهوم الذات الجندرية والتصنيف الذاتي، حيث أظهرت الدراسة بأن النساء العاملات أظهرن أفكاراً تقليدية حول عمل المرأة بصورة أقل من ربات البيوت. وأظهرت النساء المدرسات في الجامعات رفضاً واضحاً للصفات السلبية المتعلقة بالنساء أكثر من الجماعات الفرعية للذكور.

وحول أهمية الفروقات الجندرية في إدارة الانطباع أظهرت دراسة جوادانج وروبرت كالديني (Guadang, Robert Caldini: 2007) أن تكتيكات إدارة الانطباع ذات النمط الذكوري تقود إلى تقييمات أداء أفضل ورواتب أفضل، بينما تكتيكات إدارة الانطباع ذات الخط الأنثوي، لا تقود إلى تلك المنافع، وأظهرت الدراسة أنه عندما تتبنى المرأة تكتيكات إدارة انطباع ذكورية فإنها غالباً ما تعاقب لانتهاكها المعايير أكثر من مكافئتها على ما يمثل للرجال تكتيكات ناجحة، ومن ثم فإن الرجال والنساء يختبرون نتائج تنظيمية مختلفة.

وفي ضوء جميع ما تقدم، يمكن القول: إن الدراسة الراهنة تمثل إضافة نوعية بالنسبة للدراسات السابقة، وبشكل خاص الدراسات التي أجريت في المجتمع الأردني، وذلك من خلال التصور الشمولي لايدولوجيا الدور الجندري بأبعادها الثلاثة: الصفات الجندرية، والأدوار المنزلية، وأدوار العمل العام، وقياس المسافة الجندرية بين ايدولوجيا الآباء وأيدولوجيا الأبناء، حيث يتم الكشف عن مدى تطابق الايدولوجيا بين الآباء والأبناء، ومدى احتفاظ الأبناء بالدور المتقمص من الآباء. ومن ثم ربط محتوى الايدولوجيا بمتغيرات هامة، مثل مستوى التدين، والوضع الطبقي. وتعد محاولة قياس المسافة الجندرية الأولى من نوعها على المستوى المحلي بأقل تقدير.

منهجية الدراسة:

مجتمع الدراسة وعينتها:

يتكون مجتمع الدراسة من الطلبة المسجلين في المواد الإجبارية (12 مادة) في جامعة اليرموك للفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي 2010/2009، والبالغ عددهم (15091)، بالإضافة إلى والديهم (الآباء، والأمهات). حيث يعكس هؤلاء الطلبة كافة التخصصات الأكاديمية

والكليات، والأهم من ذلك معظم مناطق المجتمع الأردني. لقد تم اختيار عينه عشوائية بسيطة من المواد، ومن ثم من الطلبة وأولياء أمورهم، وكان الحجم الصافي للعينة (839) بعد إسقاط الإستبانات غير الملائمة، وقد تضمنت عينة الدراسة (395) طالباً وطالبة و(444) آباء وأمهات حيث تم قبل استقاط الاستبانات غير الملائمة توزيع (450) استبانة على الطلبة، وبعد ذلك طلب من (225) طالباً وطالبة - بعد موافقتهم- تعبئة الإستیبان من قبل الوالدين. علماً بأن البيانات الأولية التي تعكس خصائص الدراسة قد تمت تعبئتها من قبل الأبناء (ذكور وإناث)، بما في ذلك البيانات المتعلقة بالوالدين.

أداة الدراسة:

تم الاعتماد على استبانته مكونة من جزئين: الأول: تضمن الخصائص الديموغرافية، والاجتماعية، والاقتصادية، واحتوى (15) سؤالاً، الجزء الثاني: تضمن ثلاثة محاور: الأول: الصفات الجندرية، وتضمن (20) سؤالاً، المحور الثاني: الأدوار الأسرية: وتضمن (20) سؤالاً. المحور الثالث: مجال العمل العام وتضمن (24) سؤالاً.

صدق الأداة:

لقد تم الاعتماد في صدق الأداة على طريقة "إجماع المحكمين"، حيث عرضت الاستبانة بشكلها الأولي على مجموعة من الأساتذة المتخصصين في علم الاجتماع، والقياس، والتقييم، والبالغ عددهم (خمسة محكمين)، ومن ثم تم الأخذ بملاحظاتهم، فاستبعدت أسئلة، وأضيفت أسئلة أخرى، حتى صممت الاستبانة بشكلها النهائي.

ثبات الأداة:

للتأكد من ثبات الأداة، تم تطبيقها على (25) مبحوثاً من خارج عينة الدراسة، ثم أعيدت التجربة مرة أخرى بعد أسبوعين، وعن طريق الحاسوب تم حساب معامل الثبات بطريقة كرونباخ الفا، فكانت قيمة معامل الثبات للأداة ككل (0.86)، وتعد هذه النتيجة ملائمة لأغراض التطبيق العلمي.

المعالجة الإحصائية:

اعتمدت الدراسة على البرنامج الإحصائي الخاص بالعلوم الاجتماعية (SPSS)، حيث استخدمت لغايات الدراسة عدة نماذج إحصائية، شملت النماذج الوصفية البسيطة كالتوزيعات التكرارية والنسب المئوية، وكذلك نماذج تحليل التباين (T-test) و(ANOVA) من أجل إظهار الفروقات في استجابات المبحوثين (بين الطلاب والطالبات حول مجالات الدراسة المختلفة)، و(بين الطلبة وعينة الآباء والأمهات)، و(بين الآباء والأمهات).

تحليل النتائج ومناقشتها:

سوف يتم بداية تقديم فكرة عامة حول المتغيرات المستقلة التي تجسد خلفيات وخصائص عينة الدراسة، ومن ثم تحليل فئات المتغير التابع (أيديولوجيا الدور الجندري) على التوالي وفق تساؤلات الدراسة، وبعد ذلك إلقاء الضوء على العلاقة بين المتغيرات المستقلة، وفئات المتغير التابع.

1- خصائص عينة الدراسة

يعدّ هذا الجزء مقدمة منطقية للدخول في تحليل أكثر عمقا لفئات المتغير التابع والمتغيرات ذات العلاقة بها، ويتضمن وصفاً بسيطاً للخصائص الاجتماعية، والاقتصادية، والديمقراطية لأفراد عينة الدراسة.

جدول (1): توزيع أفراد عينة أولياء الأمور تبعاً لمتغير الجنس

النسبة المئوية	التكرار	المستوى	
49.5	220	ذكر	عينة أولياء الأمور
50.5	224	أنثى	
100.0	444	المجموع	

جدول (2): توزيع أفراد عينة الطلبة تبعاً للمتغيرات الشخصية

المتغير	المستوى	التكرار	النسبة المئوية	المتغير	المستوى	التكرار	النسبة المئوية
الجنس	ذكر	122	30.9	الحفاظ	في جميع الأوقات	223	56.5
	أنثى	273	69.1	على	بشكل متقطع	141	35.7
	المجموع	395	100.0	الصلاة	لا أصلي	31	7.8
مكان الإقامة	مدينة	166	42.0	المجموع	المجموع	395	100.0
	قرية	211	53.4	الحالة	يعمل	260	65.8
	مخيم	15	3.8	العلمية	لا يعمل	135	34.2
العمر	بادية	3	0.8	للأب	المجموع	395	100.0
	المجموع	395	100.0	الاختلاط	نعم	136	34.4
	أقل من 20 سنة	199	50.4	بالعمل	لا	124	31.4
أكثر من 25 سنة	20-25 سنة	191	48.4	للأب	المجموع	260	65.8
	أكثر من 25 سنة	5	1.3	الحالة	يعمل	66	16.7
	المجموع	395	100.0	العلمية	لا يعمل	329	83.3
				للأم	المجموع	395	100.0

الحوار

المتغير	المستوى	التكرار	النسبة المئوية	المتغير	المستوى	التكرار	النسبة المئوية
الدراسي	سنة أولى	162	41.0	الاختلاط	نعم	30	7.6
	سنة ثانية	147	37.2	بالعمل للأ	لا	36	9.1
	سنة ثالثة	68	17.2	المجموع		66	16.7
	سنة رابعة	17	4.3	المستوى	أمي	13	3.3
	دراسات عليا	1	0.3	التعليمي	أساسي	54	13.7
	المجموع	395	100.0	للأب	ثانوي	151	38.2
الديانة	مسلم	381	96.5		دبلوم	62	15.7
	مسيحي	14	3.5		بكالوريوس	85	21.5
	المجموع	395	100.0		دراسات عليا	30	7.6
مستوى الدخل	منخفض (أقل من 400 دينار)	158	40.0	المجموع		395	100.0
	متوسط (400-1000 دينار)	197	49.9	المستوى التعليمي	أمي	32	8.1
	مرتفع (أكثر من 1000 دينار)	40	10.1	للأم	أساسي	62	15.7
	المجموع	395	100.0		ثانوي	151	38.2
الكلية	الشريعة	17	4.3		دبلوم	89	22.5
	كليات أخرى	378	95.7		بكالوريوس	56	14.2
	المجموع	395	100.0		دراسات عليا	5	1.3
التدين	درجة كبيرة	24	6.1	المجموع		395	100.0
	درجة متوسطة	304	77.0				
	درجة ضعيفة	54	13.7				
	غير متدين	13	3.3				
	المجموع	395	100.0				

يظهر الجدولان أن عدد الأمهات في عينة الوالدين (224) بنسبة (50.5)، وعدد الآباء (220) بنسبة (49.5)، بينما عدد الإناث في عينة الطلبة (273) بنسبة (69.1)، وعدد الذكور (122) بنسبة (30.9%)، ويعود سبب هذا التباين إلى أن عينة الطلبة كانت عشوائية، بينما ارتبطت عينة الآباء والأمهات بالطلبة الذين وقع عليهم الاختيار عشوائياً. ويتضح كذلك أن معظم أفراد العينة من القرى (211) بنسبة (53.4%)، وفي المرتبة الثانية أفراد من المدن (166)

بنسبة (42%)، بينما كانت النسبة الأقل من البادية (0.8%) بواقع ثلاثة أفراد فقط. وقد يعود هذا إلى أن معظم المسجلين في جامعة اليرموك هم من شمال الأردن الذي يتألف من قرى ومراكز حضرية ذات طابع قروي. ويظهر أيضاً أن معظم أفراد العينة يقعون في الفئة العمرية أقل من 20 سنة، إذ كان عددهم (199) بنسبة (50.4) وفي الفئة العمرية 20-25، حيث كان عددهم (191) بنسبة (48.4%)، وكان عدد من تجاوز 25 عاماً (5) أفراد فقط بنسبة (1.3%)، وهذا هو المعدل الطبيعي لأعمار طلبة البكالوريوس، وقد تركز معظمهم في السنة الأولى، والثانية إذ كان عددهم على التوالي (162) بنسبة (41.0%) سنة أولى، و(147) بنسبة (37.2%)، وهذا مؤشر على عدم اكتمال الخبرة التفاعلية في المرحلة الجامعية الأولى لأفراد العينة، إذ كان عدد الطلبة من السنة الرابعة (18) بنسبة (4.6%)، ويعود هذا إلى أن معظم الطلبة يسجلون المواد الإجبارية التي تم سحب العينة منها في السنة الأولى والثانية.

ويتبين من الجدول أن معظم أفراد العينة من المسلمين (381) بنسبة (96.5%)، بينما كان المسيحيين (14) بنسبة (3.5%)، وهذه النسبة تعكس التباين في المجتمع الأردني عموماً فيما يتعلق بأعداد المسلمين والمسيحيين. وأجاب معظم أفراد العينة بأنهم متدينون تديناً متوسطاً (304) بنسبة (77.0%)، وهي نسبة تعكس الوضع العام في المجتمع الأردني، رغم أنه تم تقدير التدين تقديراً ذاتياً، ويلاحظ أن معظم أفراد العينة من كليات الجامعة المختلفة و(17) منهم فقط من كلية الشريعة، ويمثلون ما نسبته (4.3%)، حيث وضعت كلية الشريعة كمؤشر تكميلي للتدين. وقد تم استخدام مؤشر الحفاظ على الصلاة كمؤشر تكميلي آخر للدلالة على التدين، إذ إن معظم أفراد العينة يحافظون على الصلاة في جميع الأوقات، وكان عددهم (223) بنسبة (56.5%)، ومن يصلون بشكل متقطع (141) بنسبة (35.7%)، والأقلية منهم لا تصلي مطلقاً. وتجدر الإشارة إلى أن استخدام مؤشر الصلاة هنا ليس كافياً للبرهان على التدين، لكنه شرط ضروري. ولذلك رغم أن معظم أفراد العينة يصلون، إلا أنهم لم يعبروا عن تدينهم بأنه مرتفع، بل أشاروا إلى مستوى المتوسط من التدين.

ويقع معظم أفراد العينة ضمن الفئة متوسطة الدخل (400-1000) إذ إن عددهم (197) بنسبة (49.9%)، بينما كان عدد الأفراد من الفئة منخفضة الدخل (158) بنسبة (40.0%)، ومن الفئة مرتفعة الدخل (10.1%)، وهذا التوزيع يتناسب إلى درجة ما مع التوزيع النسبي العام للمجتمع الأردني رغم أن هناك مؤشرات على التآكل التدريجي للطبقة الوسطى واتساع الطبقة الدنيا.

وفيما يتعلق بالمتغيرات المتعلقة بالوالدين يظهر أن معظم الآباء يعملون وعددهم (260) بنسبة (65.8%)، بينما معظم الأمهات غير عاملات (329) بنسبة (83.3%)، وهذه النسب تعكس التباين في قوة العمل في المجتمع الأردني، التي تصطبغ بصبغة ذكورية، إذ إن معظم النساء

في المجتمع الأردني ربات بيوت، ويتضح أن ما يقارب نصف الآباء العاملين (136) بنسبة (34.4%) يعملون في مكان عمل مختلط، ومن الأمهات العاملات ما يقارب النصف كذلك (36) بنسبة (9.1%) من الحجم الكلي للعينة يعملن في مكان عمل مختلط، وكان الغرض من هذا المؤشر إظهار الخبرة التفاعلية الجندرية لدى أفراد العينة لبيان مدى انعكاسها على الأيديولوجيا الجندرية لديهم، ويتبين أيضاً أن حملة البكالوريوس من الآباء (85) بنسبة (21.5%)، بينما من الأمهات (56) بنسبة (14.2%)، وعدد الآباء الحاصلين على دراسات عليا (30) بنسبة (7.6%)، بينما من الأمهات (5) بنسبة (1.3%)، ومن الملاحظ أن معظم الآباء والأمهات تركزوا ضمن حملة الشهادة الثانوية، حيث كان عدد كل منهم (151) وبنسبة (38.2%)، وهذا يعكس تدني المستوى التعليمي للآباء، والأمهات الممثلين في عينة الدراسة.

مجمال القول إنّ خصائص عينة الدراسة تتجه في منحى اعتدالي يعكس صفات المجتمع الأردني وخصائصه إلى درجة مقبولة، فلم تكن هناك أية قيم متطرفة، أو شاذة حتى في تقدير الأفراد لتدنيهم ولمستوى مداخلهم.

2- نتائج تحليل التباين (Independent Samples T-Test) لفئات المتغير التابع (ايدولوجيا الدور الجندري) لدى الآباء والأبناء والمسافة الجندرية بينهما (مقاسة بالفروق بين المتوسطات).

جدول (3): نتائج تطبيق اختبار (Independent Samples T-Test) على مجالات الدراسة والأداة ككل تبعاً لمتغير جنس ولي الأمر (ن=444) (ذكور 220، إناث 224)

الرقم	المحور	الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	T	درجات الحرية	الدلالة الإحصائية
1	الصفات الجندرية	ذكر	3.71	0.44	4.98	442	0.00
		أنثى	3.50	0.45			
2	الأدوار الأسرية	ذكر	3.30	0.44	4.24	442	0.00
		أنثى	3.14	0.39			
3	العمل العام	ذكر	3.43	0.40	3.95	442	0.00
		أنثى	3.29	0.39			
4	الأداة ككل	ذكر	3.48	0.36	5.19	442	0.00
		أنثى	3.31	0.34			

يظهر الجدول أن قيم (T) دالة إحصائية (مستوى الدلالة 0.05) لجميع مجالات الدراسة والأداة ككل، وهناك فروق ذات دلالة إحصائية تتجه لصالح الذكور، ومعنى هذا أن الآباء يمتلكون أيديولوجيا دور جندري "تقليدية" تركز على نزعة لا مساواتية بين الذكور والإناث على مستوى الصفات الجندرية، والأدوار الأسرية، والعمل العام، بينما تمتلك الأمهات أيديولوجيا دور جندري أكثر "ليبرالية" تؤكد مؤشرات المساواتية بين الذكور والإناث ومن أمثلة ذلك: في (مجال الصفات الجندرية) أجابت الأمهات أن المرأة قد تكون أكثر شجاعة من الرجل في معظم المواقف، وفي المقابل أجبن بأن المرأة تتصف بالحنان، والعطف، والتسامح، وإظهار الضعف. وفي (مجال الأدوار الأسرية) أكدت الأمهات ضرورة مشاركة الرجل لزوجته في العمل المنزلي، وأن تكون المرأة مسؤولة عن ميزانية البيت، وأن عمل المرأة في البيت يفوق عمل الرجل من حيث الأهمية، وأنه من حق الزوجة مشاركة زوجها في اتخاذ القرار، وأنه على الرجل أن يستشير زوجته في الأمور المتعلقة بالأسرة وفي (مجال العمل العام) أكدت أن المكنات العليا في الحكومة يجب أن توزع بين الذكور، والإناث بشكل متساو، وبأحقية ممارسة المرأة للسياسة مثل الرجل، وأن المرأة يمكن أن تتحمل المسؤولية في المناصب العليا، وأن المرأة يمكن أن تكون قاضية ناجحة.

وبالمقابل أكد الآباء (الذكور) في (مجال الصفات الجندرية) أن الرجل أكثر شجاعة من المرأة، وأكثر اعتماداً على ذاته، وأنه ينبغي على الرجل أن لا يظهر علامات الضعف، وأن هذه من سمات النساء، والمرأة أقل جرأة وذكاءً من الرجل، وأن الرجل أكثر حكمة وعقلانية. وفي (مجال الأدوار الأسرية) أكد الآباء على ضرورة تقبل المرأة رأي زوجها دائماً، وأن الأعمال المنزلية خاصة بالمرأة فقط، وأن المرأة مسؤولة عن تعليم الأبناء، وأن البيت والمطبخ هو المكان المناسب للمرأة، وقيام الرجل بالأعمال المنزلية ينقص من هيئته، وأن لا يتنازل الرجل لزوجته مهما كان الأمر. وفي (مجال العمل العام) أجاب الآباء أن المرأة غير قادرة على ممارسة أعمال الرجال، وأن العمل خارج البيت لا يناسب المرأة، ويفاقم المشكلات الأسرية، وعمل المرأة مفسد للأخلاق ويتعارض مع الدين.

إن هذه النتيجة تتسق تماماً مع الحقيقة الوجودية للبناء الاجتماعي في المجتمع الأردني، حيث لا يزال البناء الاجتماعي (تفاضلياً ولا مساواتياً) من الناحية الجندرية، ولا تزال المؤشرات العامة تؤكد أنه ذكوري وأبوي مع انفراج نسبي بسيط لصالح الإناث، وهذه النتيجة تثبت استمرارية النزعة للامساواتية لدى الذكور الذين يهيمنون على مختلف مجالات الحياة. أما النتيجة المتعلقة بالأمهات فهي تعكس طموحات النساء وآمالهن إذ أنه مع الانفتاح في تعليم الإناث، وخروج المرأة للعمل، ووجود قلة من النساء في المكنات العليا، وتساعد الحديث عن حقوق المرأة بموجب الحضور النسبي للحركة النسوية، ارتفعت توقعات الإناث وتزايدت طموحاتهن

للتحرر من الهيمنة الذكورية، وبطبيعة الحال فإن هذه الطموحات تصطدم مع المكانة الذكورية الراسخة، وآليات إعادة الإنتاج الجندرية القائمة في المجتمع.

إن هذه النتيجة تؤكد فصل المجالات الذكورية عن المجالات الأنثوية على الأقل بالنسبة للايدولوجيا الذكورية السائدة، وتقسيم العمل الواضح بين الذكور والإناث، الأمر الذي يمنح الذكور مكانة أعلى وقوة أكبر (Parsons and Bales: 1955). ومن ثم فإنه حتى يحظى الرجال بمكانة سياسية، واجتماعية، واقتصادية متميزة، يجب أن تحظى المرأة بالمقابل بمكانة متدنية في جميع المجالات، خاصة عندما يهدد الحضور النسوي في البناء الاجتماعي مصادر القوة الذكورية (Collins:1974) وهذه النتيجة تتفق مع الكثيرين من الدراسات منها مثلاً(الناقلي:2002: Kulik:1995:Kulik 2000).

جدول (4): نتائج تطبيق اختبار (Independent Samples T-Test) على محاور الدراسة تبعاً لمتغير جنس الطالب (ن=395) (ذكور = 122، إناث = 273)

الرقم	المحور	الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	T	درجات الحرية	الدلالة الإحصائية
1	الصفات الجندرية	ذكر أنثى	3.81 3.50	0.45 0.41	6.65	393	0.00
2	الأدوار الأسرية	ذكر أنثى	3.42 3.12	0.41 0.41	6.70	393	0.00
3	العمل العام	ذكر أنثى	3.01 2.73	0.39 0.34	7.18	393	0.00
4	الأداة ككل	ذكر أنثى	3.39 3.09	0.34 0.32	8.28	393	0.00

يظهر الجدول أن قيم (T) دالة إحصائياً (مستوى الدلالة 0.05) لجميع مجالات الدراسة والأداة ككل وأن الفروق ذات الدلالة الإحصائية تتجه لصالح الذكور، وتشير هذه النتيجة إلى أن الأبناء الذكور يمتلكون أيديولوجيا دور جندي "تقليدية" تركز على نزعة لامساواتية بين الذكور والإناث على المستوى الصفات الجندرية، والأدوار الأسرية، وأدوار العمل العام، بينما تمتلك البنات أيديولوجيا أقرب إلى "الليبرالية" تؤكد ضرورة المساواة الجندرية. إن هذه النتيجة تتطابق، حتى بمؤشرات التفصيلية، مع النتيجة السابقة لدى عينة الآباء والأمهات، وإن دلت هذه النتيجة على شيء إنما تدل على أن آليات إعادة إنتاج المفاضلة الجندرية لا تزال فعالة، خاصة وأن الايدولوجيا الليبرالية لدى الإناث لا تعني تحرر فعلي بقدر ما تعني رغبة بالتحرر أو بتعبير

أدق رغبة بالمساواة والعدالة، ولكن بكل الأحوال فإن هذا الانفراج في الأيدولوجيا الأنثوية يمثل إرهاباً لانبثاق وعي نسوي، ومقدمة للتغير في أيدولوجيا الأدوار الجندرية عموماً عبر الأجيال اللاحقة، وهذا ما دلت عليه نتائج الدراسات السابقة (Toller: 2004: Frable: 1989: Anderson: 1978: Sheldon: 2004: Drees and phaye: 2001)

جدول (5): المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لمحاور الدراسة تبعاً لمتغير للطلبة وأولياء أمورهم (ن=839) (الطلبة 395، أولياء الأمور = 444)

الرقم	المحور	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المسافة الجندرية
1	الصفات الجندرية	3.59 3.60	0.45 0.46	0.3%
2	الأدوار الأسرية	3.21 3.22	0.44 0.42	0.3%
3	العمل العام	2.81 3.36	0.38 0.40	17%
4	الأداة ككل	3.18 3.39	0.36 0.36	6.4%

لقد تم حساب المسافة الجندرية من خلال استخراج الفروق في المتوسطات الحسابية بين الآباء والأبناء، ومن ثم قسمة الفرق على المتوسط العام، ويظهر من الجدول أن المسافة الجندرية للمجالات وللأداة ككل كانت متدنية، إذ إن أيدولوجيا الآباء تتطابق إلى حد كبير مع أيدولوجيا الأبناء (الذكور)، وأيدولوجيا الأمهات تتطابق نسبياً مع أيدولوجيا البنات، ولكن من ناحية أخرى يجدر الانتباه إلى أن المسافة الجندرية بين الآباء (الذكور) والبنات قد تكون كبيرة، وكذلك الأمر بالنسبة للمسافة بين الأمهات والأبناء الذكور، كما اتضح من الجدولين السابقين.

ورغم أن المسافة الجندرية بين الآباء والأبناء قصيرة للغاية، إلا أن الفروق بين المتوسطات تظهر فروقاً ذات دلالة لصالح الآباء، وهذا يظهر دلالة (متواضعة) على أن الأبناء ذكوراً وإنثاءً أكثر ليبرالية من الآباء. إن قصر المسافة الجندرية بين الآباء والأبناء (6.4) وتبني الذكور (آباء وأبناء) أيدولوجيا جندرية تقليدية يعود إلى سيادة الأيدولوجيا الذكورية في البناء الاجتماعي للمجتمع الأردني، وهيمنتها عليه، ويعاد إنتاج الوضع القائم بامتلاك الذكور للأيدولوجيا الجندرية التقليدية، وتطبيقها عملياً، مما يجعل بناء الفرص ينفرج أمام الذكور، وينحسر أمام الإناث ليس على المستوى العملي فقط، ولكن على المستوى الفكري كذلك، ولذلك فإن معظم المؤشرات تظهر

أن إشكالية المرأة تتمحور حول الشخصية الاغترابية لدى المرأة، واستلاية اتخاذ القرار، والاعتماد الاقتصادي حتى مع العمل. ومن هنا يمكن القول إن التحول في "وضع" المرأة في المجتمع الأردني لم يرافقه حتى الوقت الراهن تحولاً في "الموقف"⁽²⁾ من المرأة، وأن البينداتية ذات طابع ذكوري، وليس ذكورياً - أنثوياً. أن هذه النتيجة تفسر تماماً في ضوء مقولة "التطابق" Identification عند بارسونز وبيلز، وكذلك مقولة "تقمص الدور" Role-Taking عند التفاعليين الرمزيين. حيث جاءت الأيديولوجيا الذكورية متطابقة بين الجيلين، وكذلك الأمر بالنسبة للأيديولوجيا الأنثوية، وهذا يشير من ناحية إلى تقمص الأبناء الذكور لأدوار آبائهم، وتقمص الإناث أدوار أمهاتهم، كما يشير إلى أنه ثمة "صراع" مضمّر بين الأيديولوجيا الذكورية والأيديولوجيا الأنثوية من ناحية أخرى حول المكانة، والقوة، والنفوذ (Collins:1974)، ومما يحول دون بروز هذا الصراع أن الهيمنة الذكورية تعدّ الأكثر تأثيراً في جميع المؤسسات الاجتماعية التي يكون فيها الحفاظ على النظام الاجتماعي مشروعاً وطنياً أساسياً، -كما يقول بورديو - يتم من خلاله إعادة إنتاج اللامساواة الجندرية. (See:Jo-Anne-2005)

3- نتائج اختبار التباين الأحادي ANOVA لأثر المتغيرات المستقلة على فئات المتغير التابع.

بين الجدول (6) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (0.05) تعزى إلى متغير العمر، والدخل الشهري، والتدين، والحفاظ على الصلاة، وكذلك الأمر بالنسبة لمتغير مكان الإقامة، ومجال الأدوار الأسرية، والعمل العام، والأداة ككل، وبرزت الفروق لمتغير مكان الإقامة فقط مع الصفات الجندرية، إذ تبين بعد تطبيق اختبار شيفيه (Scheffe) إن مصدر الفروق يعود إلى الإقامة في المخيم، ومن ثم في المدنية. ولكن تظهر فروق ذات دلالة إحصائية لمتغير المستوى الدراسي مع جميع مجالات الدراسة والأداة ككل باستثناء مجال الصفات الجندرية. وتفسر هذه النتيجة بردها إلى امتزاج أيديولوجيا الدور الجندري بالتقاليد الاجتماعية، والثقافة السائدة. أما عن المستوى الدراسي الذي أظهرت مصادر الفروق فيه لدى طلاب السنة الأولى، ومن ثم الثانية، والثالثة، والرابعة فيعود إلى أن الطالب أثناء سنوات دراسته يمتلك خبرة تفاعلية يكتسبها بصورة تدريجية، لكن طالما أن الأيديولوجيا الجندرية للأبناء قد تطابقت مع أيديولوجيا الآباء، فهذا يعكس توجهاً مجتمعياً عاماً نحو الأدوار الجندرية من ناحية، ويعكس حدوداً متدنية من تأثير المستوى الدراسي من ناحية أخرى (See Mensch, et al: 2005).

(2) يستخدم الباحث المفارقة بين "الوضع" و"الموقف" للإشارة إلى أن التغير الحقيقي لحالة المرأة في المجتمع لا يكون عن طريق التغير في المؤشرات الكمية لوضع المرأة، إنما يكون عن طريق اقتران المؤشرات الكمية بالتغير في البناء الفكري، والأيديولوجي المرتبط باستحقاق المرأة، أي "الموقف" من المرأة.

جدول رقم (6): نتائج تطبيق التباين الأحادي (ANOVA) مجالات الدراسة والأداة ككل تبعاً لمتغيرات (مكان الإقامة، العمر، السنة الدراسي، مستوى الدخل، التدخين، الحافظ على الصلاة)

المتغير				الصفات الجندرية				الأدوار الأسرية				العمل العام				الأداة ككل			
المتغير	المستوى	م	ع	F	الدالة الإحصائية	م	ع	F	الدالة الإحصائية	م	ع	F	الدالة الإحصائية	م	ع	F	الدالة الإحصائية		
مكان الإقامة	مدينة	3.54	0.46			3.17	0.45			2.78	0.39			3.14	0.37				
	قرية	3.62	0.42			3.23	0.41			2.83	0.37			3.20	0.33				
	مخيم	3.87	0.50			3.27	0.58			2.99	0.50			3.35	0.49				
	بادية	3.73	0.60			3.58	0.46			2.83	0.25			3.35	0.41				
العمر	أقل من 20 سنة	3.60	0.46			3.25	0.45			2.83	0.39			3.20	0.36				
	25-20 سنة	3.59	0.44			3.17	0.42			2.80	0.38			3.17	0.35				
	أكثر من 25 سنة	3.74	0.55			3.23	0.30			2.79	0.33			3.23	0.36				
	أولى	3.62	0.44			3.26	0.45			2.86	0.40			3.22	0.37				
السنة الدراسي	ثانية	3.60	0.44			3.22	0.41			2.81	0.36			3.18	0.33				
	ثالثة	3.54	0.47			3.07	0.44			2.73	0.37			3.09	0.37				
	رابعة	3.62	0.48			3.20	0.42			2.81	0.44			3.18	0.38				
	مستوى منخفض	3.60	0.43			3.27	0.42			2.81	0.39			3.20	0.35				

الحواراني

المتغير				المجال				الصفات الجندرية				الأدوار الأسرية				العمل العام				الأداة ككل			
الدلالة الإحصائية	F	ع	م	الدلالة الإحصائية	F	ع	م	الدلالة الإحصائية	F	ع	م	الدلالة الإحصائية	F	ع	م	الدلالة الإحصائية	F	ع	م	الدلالة الإحصائية	F	ع	م
الدخل																							
مرتفع																							
كبيرة																							
متوسطة																							
ضعيفة																							
غير متدين																							
في جميع الحافظة																							
على شكل الصلاة																							
لا أصلي																							

أيدولوجيا الدور الجندي في المجتمع الأردني دراسة سوسولوجية لقياس المسافة الجندرية بين جيلي الآباء والأبناء

جدول (7): نتائج تطبيق اختبار (Independent Samples T-Test) على مجالات الدراسة والأداة ككل تبعاً لمتغير الديانة

المتغير	المحور الصفات الجندرية				الأدوار الأسرية				العمل العام				الأداة ككل	
	المستوى	م	ع	T	الإحصائية الدلالة	م	ع	T	الإحصائية الدلالة	م	ع	T	الإحصائية الدلالة	الإحصائية الدلالة
الديانة	مسلم	3.59	0.44	0.91-	0.36	3.21	0.43	0.73-	0.46	2.81	0.38	0.08	0.94	3.18
	مسيحي	3.70	0.59			3.30	0.53			2.81	0.55			0.49
الكلية	الشريعة	3.73	0.36	1.278	0.202	3.14	0.50	0.687-	0.492	2.73	0.43	0.954-	0.341	3.17
	كليات أخرى	3.59	0.45			3.22	0.43			2.82	0.38			0.35

جدول (8): نتائج تطبيق اختبار (Independent Samples T-Test) على مجالات الدراسة والأداة ككل تبعاً لمتغيرات (الحالة العملية للأب، الاختلاط بالعمل للأب، الحالة العملية للأم، الحالة العملية للأم)

المحور		الصفات الجندرية				الأدوار الأسرية				العمل العام				الأداة ككل				
المتغير	المستوى	م	ن	T	الإحصائية الدلالة	م	ن	T	الإحصائية الدلالة	م	ن	T	الإحصائية الدلالة	م	ن	T	الإحصائية الدلالة	
الحالة العملية للأب	يعمل	3.57	0.46	-1.455	0.146	3.20	0.45	-0.533	0.594	2.80	0.38	-1.310	0.191	3.22	0.33	0.37	-1.306	0.192
	لا يعمل	3.64	0.41			3.23	0.42			2.85	0.38							
الاختلاط بالعمل للأب	نعم	3.56	0.47	-0.499	0.61	3.16	0.46	-1.69	0.09	2.76	0.35	-1.81	0.07	3.20	0.37	0.36	-1.54	0.12
	لا	3.59	0.46			3.25	0.43			2.84	0.41							
الحالة العملية للأم	يعمل	3.58	0.45	-0.404	0.687	3.16	0.38	-1.009	0.314	2.76	0.39	-1.193	0.234	3.19	0.36	0.35	-1.028	0.305
	لا يعمل	3.60	0.45			3.22	0.45			2.82	0.38							
العمل المختلط للأم	نعم	3.59	0.52	0.223	0.825	3.09	0.39	-1.429	0.158	2.64	0.41	-2.421	0.018	3.20	0.29	0.40	-1.408	0.164
	لا	3.57	0.38			3.22	0.36			2.87	0.35							

أيدولوجيا الدور الجندي في المجتمع الأردني دراسة سوسولوجية لقياس المسافة الجندرية بين جيلي الآباء والأبناء

جدول (9): نتائج تطبيق التباين الأحادي (ANOVA) على مجالات الدراسة والأداة ككل تبعاً لمتغيري (المستوى التعليمي للآب، المستوى التعليمي للأم)

المتغير	المجال	الصفات الجندرية			الأدوار الأسرية			العمل العام			الأداة ككل			
		المستوى	م	ن	F	الدلالة الإحصائية	م	ن	F	الدلالة الإحصائية	م	ن	F	الدلالة الإحصائية
المستوى التعليمي للآب	أمي		3.66	0.54		3.36	0.53	2.97			3.31	0.48		
	أساسي		3.65	0.50		3.24	0.45	2.82			3.21	0.39		
	ثانوي		3.60	0.42		3.24	0.43	2.81			3.19	0.33		
	دبلوم		3.60	0.44		3.16	0.44	2.83			3.17	0.34		
	بكالوريوس		3.52	0.46		3.21	0.42	2.79			3.15	0.36		
	دراسات عليا		3.68	0.46		3.06	0.43	2.81			3.16	0.37		
المستوى التعليمي للأم	أمي		3.68	0.45		3.31	0.47	2.88			3.27	0.37		
	أساسي		3.64	0.42		3.30	0.47	2.86			3.24	0.36		
	ثانوي		3.59	0.44		3.18	0.39	2.82			3.17	0.31		
	دبلوم		3.61	0.48		3.21	0.45	2.82			3.19	0.39		
	بكالوريوس		3.47	0.39		3.14	0.44	2.68			3.07	0.34		
	دراسات عليا		3.89	0.80		3.25	0.62	2.96			3.34	0.06		

يتبين من الجدول (7) أنه لم تظهر فروق ذات دلالة إحصائية لمتغيري الديانة والكلية (كلية الشريعة والكليات الأخرى)، ورغم أن هذه النتيجة تختلف مع ما توصلت إليه الدراسات السابقة (Abonchedid and Nsser:2007)، إلا أنها يمكن أن تفسر بالإستناد إلى الركائز الاجتماعية والثقافية التي تستند إليها الأيديولوجيا الجندرية، وتجعلها تتجاوز حدود الانتماء والأطر المرجعية الخاصة بالأفراد، ومنهجياً تفسر بقلة عدد المسيحيين (14) وطلاب كلية الشريعة (17) في عينة الدراسة.

يتبين من الجدول (8) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية لمتغير الحالة العملية للأب، واختلاط الأب في العمل والحالة العملية للأم، واختلاط الأم في العمل، بينما ظهرت فروق ذات دلالة لـ (مجال العمل العام) تبعاً لاختلاط الأم في العمل. ويمكن تفسير هذه النتيجة بالاستناد إلى النتائج السابقة، حيث أن الآباء يمتلكون أيديولوجيا جندرية تقليدية شبه تامة، وهذا من شأنه أن يلغي تأثير المتغيرات المتعلقة بهم إلى حد كبير، أما بالنسبة للأمهات صاحبات الأيديولوجيا الليبرالية فإن اختلاطها مع الرجال ومنافستها وخبرتها مع الهيمنة الذكورية في مجال العمل قد يحرضها إلى مزيد الليبرالية الجندرية.

يتبين من الجدول (9) عدم وجود فروق لمتغيري المستوى التعليمي للأب، والمستوى التعليمي للأم، وهذا يتسق مع النتيجة السابقة، إذ تعبر أيديولوجيا الدور الجندري عن موقف اجتماعي ثقافي أكثر مما تتجسد بخصائص وفئات معينة.

خاتمة واستنتاجات عامة:

سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن طبيعة أيديولوجيا الدور الجندري لدى عينة من الأبناء من طلبة الجامعة (ذكور، وإناث)، ووالديهم (آباء وأمهات)، ومن ثم قياس المسافة الجندرية بين أيديولوجيا الآباء والأبناء، وقد أظهرت نتائج الدراسة أن الآباء والأبناء (الذكور) يمتلكون أيديولوجيا دور جندري تقليدية، وأن الأمهات والبنات يمتلكن أيديولوجيا دور جندري ليبرالية. وكشفت الدراسة بأن المسافة الجندرية بين جيلي الآباء والأبناء قصيرة للغاية، ولم تظهر دلالة إحصائية تعزى إلى المتغيرات المستقلة، باستثناء متغير المستوى الدراسي، وفي ضوء هذه النتائج يمكن استخلاص ما يلي:

أولاً: تأسيساً على أن الذكور (آباء وأبناء) يمتلكون أيديولوجيا جندرية تقليدية وأن الإناث (أمهات وبنات) يمتلكن أيديولوجيا ليبرالية، يمكن القول: إن هذه النتيجة تعكس حقيقة التمايز البنائي الجندري القائم، كما تجسد أيديولوجيا الهيمنة مقابل أيديولوجيا الخضوع، فالبنية الثقافية الأبوية لا تزال مستمرة، ويعاد إنتاجها، والبنائية الجندرية ذات صبغة

ذكورية توثق لعالم اجتماعي يبينه الذكور من خلال افكارهم وممارساتهم، ولذلك فقد عبر الرجال عن أيديولوجيا الهيمنة التي تركز المصالح الراهنة وتحافظ على الوضع القائم، وعبرت الإناث عن أيديولوجيا الخاضعين برغبة المساواة، والعدالة، والاستفادة من بناء الفرص، ورفض التهميش والاستبعاد.

ثانياً: إن التعارض بين الأيديولوجيا الذكورية "التقليدية" والأيديولوجيا النسوية "الليبرالية" يتضمن مسألتين: الأولى، أن الأيديولوجيا الجندرية التقليدية تحظى بالتوريث والاقتراب الرأسي ليس على مستوى الفكر، ولكن على مستوى الممارسة العملية كذلك، ولذلك فإن شواهد العالم الاجتماعي ذكورية، بينما الأيديولوجيا الجندرية الليبرالية لدى الإناث تقتصر على فكر ممتزج برغبة، وليس بممارسة عملية، الثانية: على الرغم من ذلك، فإن ليبرالية الأيديولوجيا الجندرية النسوية تشكل نقيض الأيديولوجيا الذكورية الذي يسير معها جنباً إلى جنب، مما يوحي بحدوث انفراج مستقبلي حقيقي، وتشكل بينذاتية ذكورية - أنثوية، خاصة مع نمو الحركة النسوية، ونداءاتها، والاستجابة السياسية والتشريعية لها بشكل تدريجي.

ثالثاً: لقد تطابقت (نسبياً) أيديولوجيا الأبناء الذكور مع الآباء، كما تطابقت أيديولوجيا البنات مع الأمهات، ولذلك كانت النتيجة أن المسافة الجندرية بين الآباء والأبناء بسيطة جداً (6% للأداة ككل)، إن اكتمال الصيغة الليبرالية لأيديولوجيا الدور الجندري النسوية لا تكون إلا بالتحول والانفراج الحقيقي في الأيديولوجيا الجندرية الذكورية التي تعكس - من منظور القوة - الثقافة الجندرية السائدة. ومن هنا، فإن امتلاك الأبناء أيديولوجيا تقليدية متطابقة مع جيل الآباء يمثل إشارة واضحة على أن التغيرات التي طرأت على وضع المرأة لم يرافقها تغيرات ترتبط بالموقف من المرأة. مما يجسد شكلية التغيرات وسطحياتها.

رابعاً: لم تظهر فروق ذات دلالة إحصائية تعزى للمتغيرات المستقلة المتعلقة بالأبناء، ولا المتغيرات المتعلقة بالآباء، باستثناء المستوى الدراسي للأبناء، إذ تبدو الأيديولوجيا الجندرية أقل تقليدية كلما تدرجنا من السنة الأولى إلى الرابعة. وهذه النتيجة متوقعة في سياق الثقافة السائدة في البناء الاجتماعي للمجتمع الأردني، حيث أن التمايزات الجندرية والتوجيهات القيمية التي تركزها حاضرة في كل المستويات الاجتماعية، وعند جميع المستويات التعليمية، وفي أماكن العمل والبنى والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية، وفي القرية، كما هو الحال بالنسبة للمدينة، وفي الطبقات العليا، والطبقات الدنيا. أي أن أيديولوجيا الدور الجندري كما ظهرت في نتائج الدراسة بالنسبة للذكور والإناث تعكس قضية بنائية عامة.

وفي ضوء ما تقدم توصي الدراسة بمأسسة قيم جندرية مساواتية في الثقافة السائدة عن طريق مايلي:

أولاً: تعزيز مفاهيم المساواة الجندرية في المناهج الدراسية، وفي المراحل الدراسية كافة وبذات الوقت مساندتها إعلامياً.

ثانياً: خلق بيئة تنافسية في المجالات كافة. بحيث تقوم على أساس الجدارة والكفاءة، وتحول دون تغليب المكانات الموروثة جندرياً على حساب المكانات المكتسبة.

ثالثاً: إعادة صياغة التشريعات بحيث تتيح للمرأة منافسة الرجل على أسس موضوعية عادلة.

رابعاً: استثمار الدعاة والواعظين لإبراز مكانة المرأة وحقوقها في الموروث الديني.

Gender Role Ideology in Jordan A sociological study for Measuring the Gender Distance Between the Two Generations of Parents and Their Children

Mohammad A. Alhourani, *Department of Sociology and Social Service,
Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This study aimed at revealing the nature of gender role ideology of a sample of students (male and female) and their parents (fathers and mothers) and at measuring the gender distance between the two generations of parents and their children (sons and daughters). The total sample was (839) chosen randomly.

Independent sample T-Test and one-way ANOVA were applied. The results showed that the males (Fathers and Sons) have (traditional) gender role ideology and the females (Mothers and daughters) have (liberal) gender role ideology. Also, the results revealed that there is a very limited gender distance (the differences of attitudes) between the two generations of parents and their children. Finally, the statistical analysis showed that there is no statistical significant relationship between the independent variables and the dependent variable (The whole instrument) except the educational grade of the students.

Key words: Gender, Gender Role Ideology, Gender Distance, Liberal Gender Ideology, Traditional Gender Ideology.

المراجع باللغة العربية:

- الأخرس، محمد صفوح، 1976، تركيب العائلة العربية ووظائفها: دراسة ميدانية لواقع العائلة في سوريا، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- البنك الدولي، 2003، التقدم الاقتصادي للمرأة في الأردن، تقييم للنوع الاجتماعي، الملخص التنفيذي.
- الخاروف، أمل، وطروب البدور، 2006، الأدوار الجندرية التي يكتسبها الشباب في الأسرة الأردنية: دراسة ميدانية في مدينة الطفيلة، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد، 33، العدد 3.
- دائرة الإحصاءات العامة (1)، 2007، مسح العمالة والبطالة، عمان، الأردن.
- دائرة الإحصاءات العامة (2)، 2007، مسح السكان والصحة السرية، عمان، الأردن.
- رمزي، ناهد، 2002، المرأة العربية والعمل، الواقع والأفاق، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 30، العدد 3.
- زايتلن، ارفنج، 1989، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دراسة نقدية، ترجمة محمود عودة وإبراهيم عثمان، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- الساكت، انس، 2005، المرأة الأردنية والتنمية الاقتصادية، ملتقى تعزيز دور المرأة العربية في التنمية الاقتصادية، البحرين، 2 أكتوبر.
- شتيوي، موسى، 1999، الأدوار الجندرية في الكتب المدرسية للمرحلة الأساسية في الأردن، عمان، المركز الأردني للبحوث الاجتماعية.
- عبد الباقي، سلوى، 1985، التوجيه المستقبلي للمرأة المصرية: الرضا، والتوقعات، والطموحات، المؤتمر الأول لعلم النفس، الجمعية المصرية للدراسات النفسية بالاشتراك مع كلية التربية في جامعة حلوان.
- عبد الحميد، جابر، 1987، الاتجاهات النفسية للشباب نحو مركز المرأة في المجتمع العراقي، موثق في دراسات نفسية في الشخصية العربية، جابر عبد الحميد وسليمان الخصري. القاهرة. عالم الكتب.

عيوش، نيا، 1985، أحوال الزواج والطلاق في الضفة الغربية المحتلة: دراسة إحصائية تحليلية، مجلة جامعة بيت لحم، المجلد الرابع، 71-97.

اللجنة الوطنية الأردنية لشؤون المرأة، 1993، برنامج العمل الوطني للنهوض بالمرأة الأردنية 1998-2003 في إطار المتابعة على تنفيذ خطة العمل وتوصيات المؤتمر الدولي الرابع للمرأة.

مشعل، زكية، وفتحي السروجي، 2006، الفوائد الاقتصادية لتعليم المرأة في المملكة الأردنية الهاشمية، دراسات، العلوم الإدارية، مجلد 23، عدد 1، 31-18.

المعاينة، نهى، 2002، المرأة الأردنية والمشاركة السياسية، ندوة المرأة والسياسة ودورها في التنمية، الدوحة، قطر، 21-23 أبريل.

النابلسي، تالا، 2002، تطور الصور النمطية الجندرية وتوجهات الدور الجندري من حيث السمات الشخصية والاهتمامات الأكاديمية والمهنية لدى الأطفال والمراهقين الأردنيين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

المراجع باللغة الانجليزية:

Abouchedid, kamal and Ramzi Nasser, 2007, *Effects of Gender and Religiosity among Christians and Muslims on "gendered", role attitudes towards ability and equality*, The case of Lebanon, Electronic Journal of sociology, Issn: 11983655.

Allen, Walter, 1980, preludes to attainment, Race, sex, and student achievement orientations, *the sociological Quarterly*, 21, winter 65-79.

Andersen, S. 1978. sex – role typing as related to acceptance of self, acceptance of others and discriminatory attitudes toward women, *Journal of research and personality*, 12, 199-214.

Athenstaedt, Ursula, et al, 2008, *Gender Sub group self – categorization and Gender role self concept*, sex Roles. 58.260-278.

Banks, Celia B., 2007, the sociology of inequality, *Race, Gender and class*, vol. 14. no 3-4.

- Bem, s.L. 1981, Gender schema theory: a comparative account of sex – typing, *psychological review*: 88: 354 – 364.
- Berger, et al. 1980, status organizing process, *Annual Review of sociology*, 6, 479 – 508.
- Best, d. L. and Thomas J.J.,2004, *cultural diversity and cross – cultural perspectives*, In A. H.Eagly, A. E. Beal and R. J. Sternberg (Eds), the psychology of gender, 2 nd Ed. new York, Guilford.
- Brinkerhoff, David. and Lynn white, 1988, *Sociology*, New York. West publishing company.
- Cahill, spencer, E. 1983, *Reexamining the acquisition of sex roles a social interactionist perspective*, sex Roles. 9. January, 1-15.
- Callero. peter L. 1985. Role Identity salience, *social psychology*, Quarterly, 48,3:203 – 215.
- Colaner, colleen, and Steven giles, 2008, *the Baly blanket or the briefcase: the impaet of evangelical gender role ideologies on career and Mothering aspirations of female evangelical College Student*, Sex Roles, 526 – 534.
- Collins, Randal, 1974, *Conflict Sociology, Toward an Explanatory science*, New York, Academic press.
- Deaux, key and Laurie L. Lewis, 1984, Structure of Gender Stereotypes among Component and Gender Label, *Journal of personality and Social psychology*, 46, may, 991 – 1004.
- Deogracias, Joseph J., et al. 2007, The Gender Identity, Gender dysphoria questionnaire For adolescents and adults, *Journal of sex research*, vol. 44, no, 4, 370-379.
- Drees. D. E. and phaye. G. D 2001, Gender representation in children's language arts computer software, *Journal of educational research*, 95. 49 – 55.
- England, Eileen m. 1988, college student stereotypes of female behavior, *material professional women and assertive housewives*. Sex Roles, 19. September: 365-385.
- Frale. D.E, 1989, sex – typing and Gender Ideology, Tow Facets of Individuals Gender psychology that go together, *Journal of personality and psychology*: 56 (1): 95 – 108.
- Guadango, Rosanna and Robert B, Caldini, 2007. *Gender differences in impression management in organizations: A Qualitative Review*, sex Roles, 56. 483 – 424.

- Jo – Anne, Dilla bough, 2003, Gender, Education and Society: The limits and possibilities of feminist Reproduction theory, *society of education*, vol 76, (October), 376 – 379.
- King, L. A, et al, 1994, *validity of sex role egalitarianism scale: tow replication studies*, sex Roles: 31: 339-348.
- Kulik, L, 1995, The impact of ethnic origin and Gender on perceptions of Gender roles, The Israeli experience, *Journal of social behavior and personality*, 10 (6): 199-214.
- Kulik, liat, 2000, Gender Identity, Sex Typing of Occupatious and Gender Role Ideology among Adolescents: Are They Relabeled? *International Journal for Advancement of Counselling*, 22, 43 - 56.
- Kusku, fatma, et al 2007, Against the Tide: Gendered prejudice and disadvantage in Engineering, *Gender, work and organization*, Vol 14. No2 (March).
- Mahalik, J. R. et al, 2005, *Developments of conformity to masculine norms inventory*, sex roles, 52,7/8, 417 – 435.
- Milburn S. S.,et al. 2001, Even in Modern media, *the picture is still the same: A content analysis of clipart images*, sex Roles, 44, 277 – 299.
- Millet, Kate, 1970, *sexual politics*, Garden City, NY, Double day and company.
- Parsons,Talcott, and Robert F. Bales, 1955, *Family, Socialization, and Interaction process*, Glencoe. I L: free press.
- Ringel, shoshana, 2007, Identity and Gender Roles of orthodox Jewish women: Implications for social work practice, *Smith College studies in Social work*, Vol. 77 (2/3).
- Ritzer, George, 1992. *Contemporary Sociological Theory McGraw_Hill*, Inc.
- Ronald f. Levant, et. al, 2007, Initial Validation of male Role norms Inventory – revised (M R N I-R). *the Journal of men's studies*, vol. 15. no. 1, 83-loo.
- Scanzoni, Letha and John Scazoni, 1988, Men, Woman, and change, MacGraw hill, Third^{ed}.
- Scott, Jacqueline, 2006, family and Gender Roles: tow Attitudes are changing, *paper was presented as a plenary paper for the international conference on family Relations*, university of Valencia, Spain.
- Serpe, Richard, 1987, Stability and Change In Self: a structural Symbolic interactionis explanation, *social psychology Quarterly*, 50,1:44-55.

- Sevim, schar A. 2006, Religious Tendency and Gender Roles: Predictors of the attitudes toward women's work roles? *Social behavior and personality*, 34,1,77-86.
- Sheldon, Jane p.2004, *Gender stereotypes in educational software for young children*, sex roles vol. 51. 7/8 October 27.
- Sherman J. w. and frast L. A. 2000, on the encoding of stereotype – relevant information under cognitive load, *personality and psychology Bulletin*, 26, 26 – 34.
- Stryker, shelder, 1981, symbolic interactionism: Themes and variations In, Morris Rosenberg and Ralph H. Turner Ed. *Social psychology, sociological perspective*, New You, Basic looks, 3-29.
- Toller, Paige, et al, 2004, *Gender role identity and attitudes toward Feminism*, Vol 15. no, 1/2, July.
- Verdonk, Petra, et al, 2008, *Medical Student's Gender awareness construction of the Nijmege Gender awareness in medicine scale (N-G A M S)*. sex Roles, 58, 222 -234.
- Voicu, Maline, et al, 2009, Hou se work and Gender Inequality in European Countries, *European sociological Review*, Vol. 25. No3. 365 – 377.

ملحق رقم (1)

أخي الطالب/ أختي الطالبة

تحية طيبة وبعد،

هذه الاستمارة لدراسة بعنوان "إيديولوجيا الدور الجندري لدى الشباب الأردني" أرجو
تكرمكم بالإجابة على الفقرات بما يعبر عن رأيكم. علماً بأن إجاباتكم لأغراض البحث العلمي فقط.

شاكراً حسن تعاونكم

الباحث

الجزء الأول: معلومات عامة

الجنس: ☐ ذكر ☐ أنثى

السن:

مكان الإقامة: ☐ مدينة ☐ قرية ☐ مخيم ☐ بادية

المستوى الدراسي: ☐ سنة أولى ☐ سنة ثانية ☐ سنة ثالثة

☐ سنة رابعة ☐ دراسات عليا

الديانة: ☐ مسلم ☐ مسيحي

عمل الأم: ☐ عمل الأب:

تعليم الأم: ☐ تعليم الأب:

مستوى الدخل:

مستوى تعليم الأب:

مستوى تعليم الأم:

الجزء الثاني: محاور الدراسة

أولاً: الصفات الجندرية	موافق بشدة	موافق	محايد	غير موافق بشدة	غير موافق
1- الرجل أكثر شجاعة من المرأة في كل المواقف					
2- تبدو المرأة أكثر شجاعة من الرجل في بعض المواقف					
3- الرجل أكثر اعتماداً على ذاته من المرأة					
4- يجب أن يظهر الرجل بمظهر الخشونة والفظاظة					
5- من الطبيعي أن تبدو المرأة أكثر نعومة من الرجل في كل المواقف والمجالات					
6- تتصف المرأة بالحنان والعطف					
7- على الرجل أن لا يظهر علامات ضعف					
8- ينبغي أن يكون الرجل قيادياً					
9- المرأة أقل ثقة بذاتها من الرجل					
10- يجب أن يتجنب الرجل الشؤون المتعلقة بالنساء					
11- المرأة مجبولة على الخوف أكثر من الرجل					
12- الرجل أكثر قدرة على ضبط عواطفه من المرأة					
13- المرأة أقل ذكاءً ومقدرة على التعلم من المرأة					
14- المرأة أكثر تسامحاً من الرجل					
15- يجب أن تكون المرأة أكثر انضباطاً لفظياً من الرجل					
16- إظهار الضعف من سمات النساء					
17- المرأة لا تمتلك الجرأة كما هو الحال بالنسبة للرجل					
18- المرأة أقل اعتماداً على ذاتها من الرجل					
19- الرجل أكثر حكمة وعقلانية من المرأة					
20- تكتمل أنوثة المرأة برقتها ونعومتها					

الحواراني

ثانياً: الأدوار الأسرية	موافق بشدة	موافق	محايد	غير موافق	غير موافق بشدة
1- الزوجة تحتاج إلى طلب الإذن من زوجها في كل شيء					
2- على الزوجة أن تطيع زوجها بالقرارات المتعلقة بإنجاب الأولاد					
3- على الزوجة أن تقبل رأي زوجها دائماً					
4- الطبخ والجلي وإطعام الأبناء والغسيل والكوي أمور خاصة بالمرأة فقط					
5- عندما يمرض الطفل يجب على الأم أن تبقى في البيت وترعاه					
6- يجب أن يشارك الرجل زوجته في الأعمال المنزلية المختلفة					
7- المرأة هي المسؤولة عن اختيار أثاث المنزل					
8- يجب على الزوجة أن لا تعترض على أوامر زوجها					
9- الرجل أكثر مقدرة من المرأة على اتخاذ قرارات حكيمة تهم العائلة					
10- يجب أن تكون المرأة مسؤولة عن ميزانية البيت					
11- شراء حاجات المنزل من واجبات الزوجة					
12- المرأة مسؤولة عن تعليم الأبناء ومساعدتهم في واجباتهم المدرسية					
13- من الضروري أن تتخذ المرأة قرارات دون الرجوع إلى زوجها					
14- عمل المرأة في البيت يفوق عمل زوجها خارج البيت من حيث الأهمية					
15- المكان الأنسب للمرأة هو المطبخ والبيت					
16- قيام الرجل بالأعمال المنزلية ينقص منه هيئته					
17- من حق الزوجة مشاركة زوجها في اتخاذ القرارات داخل المنزل					
18- إعداد مائدة الطعام من واجبات النساء فقط					
19- يجب أن يستشير الرجل زوجته في الأمور المتعلقة بالأسرة					

أيديولوجيا الدور الجندري في المجتمع الأردني دراسة سوسيولوجية لقياس المسافة الجندرية بين جيلي الآباء والأبناء

ثالثاً: مجال العمل العام	موافق بشدة	موافق	محايد	غير موافق	غير موافق بشدة
1- يجب أن يكون هناك ادوار خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء في مجالات الأعمال المختلفة					
2- اعتقد أن المرأة غير قادرة على ممارسة الأعمال التي يقوم بها الرجل					
3- لا يمكن للمرأة أن تمارس أي مهنة خارج البيت حتى لو تلقت التدريب المناسب					
4- هناك العديد من النساء حققن نجاحات في مجالات عمل الرجال					
5- اعتقد أن جميع أعمال الرجال تمثل أعمالاً مناسبة للنساء					
6- العمل خارج البيت لا يناسب المرأة مهما كان					
7- المرأة لا تمكنها قدراتها الجسدية من ممارسة أعمال الرجال					
8- أفضل الأعمال للإناث تلك التي لا يوجد فيها اختلاط مع الذكور					
9- خروج المرأة إلى سوق العمل يفاقم المشكلات الأسرية					
10- الفروقات البيولوجية بين الذكور والإناث تقتضي معاملة غير متساوية					
11- يجب أن توزع الأعمال ذات المكانة المرتفعة في الحكومة على الرجال والنساء بشكل متساوٍ					
12- للمرأة الحق في ممارسة السياسة مثل الرجل					
13- من المعيب بالنسبة للرجل أن يعمل تحت إشراف امرأة					
14- الرجل يبذل جهداً أكثر من المرأة في العمل					
15- يجب أن يبقى الرجل دائماً معيلاً للأسرة					
16- اعتقد أن الفرص المتاحة للنساء في مجال عمل الرجال قليلة					
17- عاطفة المرأة تمنعها من مزاوله بعض المهن					
18- المرأة لا تتجج في الأعمال المناطة بالرجال					
19- يجب اختيار من هو مناسب للعمل في المؤسسات المختلفة سواء كان ذكر أم أنثى.					
20- الرجل أكثر كفاءة من المرأة في إدارة مؤسسات العمل المختلفة					
21- يمكن للمرأة أن تتحمل المسؤولية في المناصب العليا مثل الرجل.					
22- عمل المرأة خارج المنزل واختلاطها بالرجال مفسدة للأخلاق					
23- عمل المرأة خارج البيت يتعارض مع الدين					
24- يمكن للمرأة أن تكون قاضية ناجحة مثل الرجل					

Table of Contents

Abstracts in English of Arabic Articles

*	Soil Erosion in the Middle Catchments Area of Wadi Al-Hisa / Tafila Ali Al-Shabatat and Mousa Gougazeh	738
*	Estimations of Collecting Precipitated Water from Surfaces of Houses in Urban Centers of Jordan and their Possible Changes Samer Al Nawaiseh and Al Abdullah Tarazi	777
*	The Quotational Discourse in the Arab-Islamic Civilization -Initial Approximity- Modar Telfah	791
*	Japanese Foreign Policy towards China in the Light of the International Shift of Balance Post Cold War Wasfe Egeal and Khaled Aldabbas	827
*	The Jordanian Senate and the Bahraini Shura Council: A Comparative Study Khalid I. Al Odwan and Ramze Helat	873
*	Language and Presence in Al-Ala'ee Perception: Al-Lzumiat Model Mahmoud Saleem Hayajneh	900
*	Sohrab and Rustum Tragedy: An Analytical Study Aref AlZghoul	926
*	The Beauty of the Place in Jordan in Dewan "Sama'a Ukhra" Tahani Shaker	964
*	Jews' language in the North of Arabian Peninsula Mohammad Al-Garah, MahmoudAl-Omrar and Mousa Al-Zo'by	987
*	U.S. Strategy toward Taiwan in the Light of International Changes after the End of the Cold War Wasfi M. Aqeel	1030
*	Studying and Analysis and Translation of "Three Drops of Blood" By (Sadiq Hidayat) Nour M. Alqudah and Bader A. Oliwah	1057
*	Gender Role Ideology in Jordan A sociological study for Measuring the Gender Distance Between the Two Generations of Parents and Their Children Mohammad A. Alhourani	1092

- Manuscripts should be addressed to:

Secretary General
The Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts
Editor – in –Chief
Association of Arab Universities Journal for Arts
Dean of the Faculty of Arts
Yarmouk University , Irbid , Jordan.
Tel . 00962 2 7211111 Ext: 3555 or 2900
Fax. 00962 2 7211137
E-mail: saufa@yu.edu.jo
E-mail: artsarabuni@gmail.com
Website :http://saufa.yu.edu.jo

Documentation

References in the text are serially numbered between brackets ⁽¹⁾ .

References at the end of the article shall be as follows in case the source or reference work is a book:

The author's full name: source or reference work , part, number, publisher, place of publication , year, page(s).

e.g. Dayf, Shawqi : *The First Abbasid Period* ,Dar al- Maarif , Egypt,1966, p.24.

In case where a periodical or a journal is consulted , referral thereto shall be as follows :

The author's full name, source or reference work, *name of periodical or journal*, volume number, year, page.

e.g. Sa'aydan , Ahmad Saleem : " On Arabicization of Sciences". *Jordanian Arabic Language Academy Journal*, Volume I .No 2 July 1978,p.101.

References should be listed in the bibliography at the end of the manuscript in alphabetical order of authors' surname, beginning with Arabic references, then foreign ones.

Subscription Information

Annual subscription rates in Jordan: individuals (JD 3.00), institutions (JD 5.00); outside Jordan: individuals (US \$ 7.00), institutions (US \$ 10.00) or equivalent.

Association of Arab Universities Journal for Arts

A Biannual Refereed Academic Journal

Association of Arab Universities Journal for Arts (AARUJA) is a biannual refereed academic journal published by the Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts at Universities members of the Association of Arab Universities.

Notes to Contributors

Language

AARUJA's articles are published in Arabic together with their abstracts in English. Manuscripts, however, may be published in any other printable language.

Rules Regulating the Journal

- Manuscripts should be submitted in Arabic together with an English abstract. However, submission in either English, French, or any other printable foreign language, with an Arabic abstract, is subject to approval by the Editorial Board.
- *AARUJA* publishes genuinely original articles characterized by clear academic methodology, comprehensiveness, and thorough investigation; where exact referencing is made to sources and reference works, and the article has not been previously published anywhere else. A specialized criticism or review of an academic work published in the Arab world or abroad as well as reports on specialized Arab or inter-national symposiums and conferences may be published. Manuscripts accepted for publication in *AARUJA* are approved for academic promotion.
- *AARUJA* publishes academic articles in the fields of arts, languages, social and human sciences, social service, journalism and mass communication.
- Manuscripts should be computer-typed and double spaced. Four copies are to be submitted together with a floppy disk congruent with IBM (Ms Word).
- Manuscripts including figures, drawings, tables and appendixes shall not exceed thirty pages.
- Manuscripts submitted for publication in *AARUJA* shall be sent, if initially accepted, to at least two specialist referees, who are chosen with absolute confidentiality by the Editor –in –Chief.
- *AARUJA* reserves its right to ask the author to omit, reformulate, or reword his/her manuscript or any part thereof in a manner that conforms to the publication policy.
- Copyright pertinent to the manuscript accepted for publication shall be transferred to *AARUJA*.
- *AARUJA* does not pay remuneration for the articles published therein.
- One copy of the issue in which the manuscript is published will be sent free of charge to the sole or principal author of the published manuscript.

Editorial Board

Editor-in-Chief

Mahmud Wardat, *Secretary General of The Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts, Dean of the Faculty of Arts, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Members

Abatah Daher, *Dean of the Faculty of Arts, the University of Jordan, Amman, Jordan.*

Mohammad Rabie, *Dean of the Faculty of Arts, Jerash Private University, Jerash, Jordan.*

Mohammad Al Anani, *Dean of the Faculty of Arts, Petra Private University, Amman, Jordan.*

Abdelbaset Al-Zyoud, *Dean of the Faculty of Arts, the Hashemite University, Zarqa, Jordan.*

Abdul-Hamid Ghuneim, *Dean of the Faculty of Arts, Zarqa Private University, Zarqa, Jordan.*

Ghassan Abdel Khaliq, *Dean of the Faculty of Arts, Philadelphia University, Amman, Jordan.*

Muhammad Addurobi, *Dean of the Faculty of Arts, Al Al-bayt University, Mafraq, Jordan.*

Ghaleb Al-Shaweesh, *Dean of the Faculty of Arts, Al - Hussein Bin Talal University, Ma'an, Jordan.*

Advisory Committee

Mimounah Khalifa Al-Sabah, *Kuwait University, Kuwait.*

Rami Al-MohammadAllah, *An-Najah National University , Palestine.*

Abdullah Al-Nabhan, *Albaath University, Syria.*

Yusuf M. Abdullah, *San'a University, Yemen.*

Ali Fahmi, *President of the Arabic Language Academy, Libya.*

Khaleel Jahjah, *Lebanese University, Lebanon.*

Fuad Shehab, *Bahrain.*

Mohammad Al-Hudlouq, *KSA.*

Adel Al-Toueasy, *Jordan.*

Hasaneen Rabe'a, *Qatar.*

Ez AlDean AlAmeen Abdulrahman, *Sudan.*

Abeddelhameed Jakon, *Algeria.*

Sami Abeddelhameed Mahmoud, *Al- Sharjah.*

Mousa Jawad Al-Mousoui, *Baghdad University, Iraq.*

© Copyright 2013 by The Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts
All rights reserved.

No part of this publication may be reproduced without the prior written
permission of the Editor-in-Chief.

Opinions expressed in this journal are solely those of their authors and do not
necessarily reflect the opinions of the Editorial Board or the policy of The Scientific
Society of Arab Universities Faculties of Arts

Typesetting and Layout
Majdi Al-Shannaq



Association of Arab Universities



*The Scientific Society of Arab
Universities Faculties of Arts*

Association of Arab Universities
Journal for Arts
A Biannual Refereed Academic Journal

**Published by The Scientific Society of Arab Universities Faculties
of Arts at Universities Members of AARU**